الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الثالث

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (ابن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٣١٧٢٨

الرياض الندية

على

شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي

تعليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين

خرج أحاديثه وعلق عليه وأعده للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الخويطر

الجزء الثالث

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الطحاوي:

والعَرْشُ والكُرْسِيّ حَقٌّ.

قال الشارح:

كَمَا بَيَّنَ تعالَى فِي كِتَابِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، في غير ما آيةٍ مِنَ القرآن: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر:٧]، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وَفِي دُعَاءِ الْكَرْبِ الْمَرْوِيِّ فِي «الصَّحِيحِ»: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ رَبُّ السَّمَوَات ورَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيْمُ»[1].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ[2] فِي حَدِيثِ الأَوْعَالِ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المسند (١/ ٢٠٦).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قَالَ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ، ومِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ سنة، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ العَرْشِ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، واللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ، لَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ». وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد[١]، وَالتِّرْمِذِيُّ[٢]، وَابْنُ مَاجَه[٣].

وَرَوَى أَبُو دَاوُد[٤] وَغَيْرُه بِسَنَدِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنْ حَدِيثِ الأَطِيطِ، أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمٰوَاتِهِ لَهَكَذَا، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ، مِثْلَ القُبَّةِ» الحَدِيث.

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»[٥] عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الجَنَّةَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَٰنِ». يُرْوَىٰ: «وَفَوْقَهُ» بِالنَّصْبِ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى الاِبْتِدَاءِ، أَيْ: وَسَقْفُهُ.

وَذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى أَنَّ الْعَرْشَ فَلَكٌ مُسْتَدِيرٌ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ مُحِيطٌ بِالْعَالَمِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَرُبَّمَا سَمَّوْهُ: الفَلَكَ الأَطْلَسَ، وَالْفَلَكَ التَّاسِعَ. وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الشَّرْعِ أَنْ لَهُ قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَةُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «فَإِنَّ

---

(١) برقم (٤٧٢٣).

(٢) برقم (٣٣٢٠).

(٣) برقم (١٩٣).

(٤) برقم (٤٧٢٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٥) برقم (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النَّاسَ يُصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[١].

قال الشيخ:

ابتدأ الشارح بذكر الإيمان بالغيب، ومن جملة ما أخبر الله به من الأمور الغيبيّة: العرش والكرسي.

ذكر الله العرش في عدة مواضع من القرآن، وذكره النبيّ ﷺ في هذه الأحاديث التي أوردها الشارح، ففي كتاب الله ذكر الكرسي في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وذكر الله تعالى أنّه استوى على العرش في سبع آيات من القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقد أنكر حقيقة العرش بعض المبتدعة؛ فقال بعضهم: العرش هو الملك، واستوى على العرش: أي استوى على الملك، وهذا باطل؛ بل العرش في اللغة: هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، ولهذا ذكر الله عن ملكة سبأ هذا العرش في قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] إلى قوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل:٣٨]، وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل:٤٢]، فدلّ على أن العرش هو السرير الذي يجلس عليه الملك، أما العرش الذي خصّه الله بالاستواء،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٣).

فهو من الأمور الغيبيّة، ولا يحيط بوصفه إلَّا الله عزّ وجلّ.

ورد في آية الكرسي أنّ الكرسي وسع السموات والأرض: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقد ورد في الحديث: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمْ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تِرْسٍ»[(١)]، والترس: هو المجنّ الذي يلبس على الرأس . ماذا تشغلُ سبعة دراهم إذا جعلت في هذا الترس؟ وماذا تغطي منه؟ وهذا دليل على عظمةِ هذا الكرسي . السموات من يحيط بها؟ والأرضون السبع من يحيط بها إلا الله عزّ وجلّ؟ هذه عظمتها .

وورد أيضًا في بعض الأحاديث أنّ الكرسي صغيرٌ بالنسبة إلى العرش كما في قوله ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الحَلْقَةِ»[(٢)]، فما تشغل تلك الحلقة من تلك الأرض؟ هذا هو الكرسي الذي وسع السموات والأرض هو بالنسبة إلى العرش هكذا! إذا كانت هذه عظمة العرش، فكيف بعظمة الخالق الذي هو ربُّ العرش وربُّ كلِّ شيء !!

وقد رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: «مَا السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضُون السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[(٣)]، والخردل نبات

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

معروف حبّه صغير غاية في الصغر، فكلّ هذا دليلٌ على عظمة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ هذه المخلوقات حقيرة بالنسبةِ إلى عظمته وجلاله وكبريائه، والعبد إذا استحضر عظمة الله، فإنّه يمتنع أن يُقدم على معصيته، ويمتنع أن يغفل عن ذكره، ويحمله هذا الاستحضار على أن يُعظّم ربَّه غاية التعظيم، وأن يخافه غاية الخوف، وأن يجلّه ويبجّله، وأن يصغر كل مخلوق عنده؛ وكل مخلوق مهما كانت مقدرته يكون حقيرًا وصغيرًا بالنسبة إلى عظمة الخالق وجلاله وكبريائه.

هذا هو السبب في كون الله تعالى وصف نفسه بالعظمة، ووصف العرش الذي خصّه بالاستواء بهذا، ووصفه في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وفي قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٦]، وذكر الله العرش في عدّة آيات مما يدلُّ على أنّه عرشٌ حقيقيٌّ تطوف به الملائكة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر:٧]، وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥]؛ أي: ربُّ العرش، أي: مالكه وخالقه .

فهذه الأدلّة تدلّ على أنّه ليس هو كما تقول المعتزلة: إنّ العرش هو المُلك، بل العرش مخلوق، قد خلقه الله كما خلق سائر المخلوقات، ولكنّه عظيمٌ لا يحيط بهِ إلاَّ الله عزّ وجلّ، ولا يعلمُ قدره إلاَّ الله عزّ وجلّ، والمخلوقات كلُّها حقيرة وصغيرة بالنسبةِ إليه، والله تعالى أعلم بحقيقته، وإنَّما على المؤمنين أن يؤمنوا بما أخبر الله به، وأن يفوِّضوا علم الغيب إلى الله.

قال الشارح:

وَالْعَرْشُ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ السَّرِيرِ الَّذِي لِلْمَلِكِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ بلْقِيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وَلَيْسَ هُوَ فَلَكًا، وَلَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْعَرَبُ ذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، فَهُوَ سَرِيرٌ ذُو قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُوَ كَالْقُبَّةِ عَلَى الْعَالَمِ، وَهُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَمِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ[1]:

مَجِّدُوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرا

بِالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي بَهَرَ النَّا ... سَ وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرا

شَرْجَعًا لا يَنَالُهُ بَصَرُ الْعَيْـ ... ـنِ تُرَى حَوْلَهُ الْمَلَائِكُ صُوَرا

الصُّور هُنَا: جَمْعُ أَصْوَر: وَهُوَ الْمَائِلُ الْعُنُقِ لِنَظَرِهِ إِلَى الْعُلُوِّ. وَالشَّرْجَعُ: هُوَ الْعَالِي الْمَنِيفُ، وَالسَّرِيرُ: هُوَ الْعَرْشُ فِي اللُّغَةِ.

وَمِنْ شِعْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ، الَّذِي عَرَّضَ بِهِ عَنِ الْقِرَاءَةِ لِامْرَأَتِهِ حِينَ اتَّهَمَتْهُ بِجَارِيَتِهِ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا

وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

ذكره ابنُ عبد البرّ وغيره من الأئمّة[2].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧).

(٢) انظر: الاستيعاب (٣/ ٩٠١)، وتاريخ دمشق (٢٨/ ١١٢).

وَرَوَى أَبُو دَاوُد[(١)] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ: إِنَّ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ»، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[(٢)]، وَلَفْظُهُ: «تَخْفِقُ الطَّيْرِ سَبْعَ مِئَةِ عَامٍ».

وَأَمَّا مَنْ حَرَّفَ كَلَامَ اللَّهِ، وَجَعَلَ الْعَرْشَ عِبَارَةً عَنِ الْمُلْكِ، كَيْفَ يَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧]، أَيَقُولُ: وَيَحْمِلُ مُلْكَهُ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ؟! وَكَانَ مُلْكُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَكُونَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - آخِذًا بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْمُلْكِ؟! هَلْ يَقُولُ هَذَا عَاقِلٌ يَدْرِي مَا يَقُولُ؟!

قال الشيخ:

هذا الكلام على العرش، وقد أخبر الله تعالى بأنه خلق العرش، وأنه ربُّ العرش في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، وفي قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، والعرش في اللّغة: هو السَّرير، وقد أخبر الله عن بلقيس بأنّ لها عرشًا عظيمًا، وهي امرأةٌ كانت ملكةً في بلادِ سبأ، وكذلك أخبر تعالى عن عرشه العظيم

---

(١) برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) في التفسير (١٠/ ٣٣٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بأخبار واضحة تدلُّ على أنَّه مخلوق، وأنَّه محمول، وأنّ حوله الملائكة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [غافر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الزمر:٧٥]؛ والحفوف: بمعنى الاستدارة حول العرش، وذلك دليلٌ على أنّه مخلوقٌ وأنّه محمول، وأخبر أنّه رفيع الدرجات ذو العرش: أي صاحب العرش، وأخبر بأنَّه في يوم القيامة يُحمَل في قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، وأخبر أيضًا أنّه استوى على العرش في سبعة مواضع من القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس:٣]، وأخبر في سورة هود بأنّ العرش على الماء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود:٧]، يعني: عندما خلق السموات أو قبل أن يخلق السموات كان عرشه على الماء، وسُئل ابن عباس: على أيِّ شيء الماء؟ فقال: «على متن الريح»[1]، فالله قادر على أن يجعل الماء على الريح، تحمل الماء أو تجعله في هواءٍ، فهو قادر على كلّ شيء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ولما ذكر الله تعالى أنّه استوى على العرش ـ كما في آيات كثيرة ـ صعُب تصديق ذلك على النُّفاة، الذين ينفون عُلُوَّ الله تعالى واستواءه على عرشه، فقالوا: العرش الملك، وقالوا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، أي: على المُلك استوى!! وهذا خطأ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٧٨).

بعيد، كيف يكونُ المُلك بهذه الأوصاف؟ الله ذكر أنّ العرش تحمله الملائكة، فهل الملك تحمله؟ والله ذكر أنّ العرش كان على الماء، فكيف يكون الملك على الماء؟ هذا قولٌ تنكره الطباع، والعرب تعرف العرش، وتعرف مسمّاه؛ وأنّ العرش في اللغة: هو السرير الذي للملك، ذكر ذلك العرب في شعرهم، كما في الأبيات التي نُقلت عن شعر أميّة بن الصلت، وكان من شعراء العرب، فهو يقول:

مَجِّدُوا اللهَ فَهُوَ للمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا في السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرا

بالبناءِ العَالِي الَّذي بَهَر النَّا ... سَ وسَوَّى فَوْقَ السَّماءِ سَرِيْرا

شَرْجَعًا لا يَنالُهُ بَصَرُ العَيْـ ... ـنِ تُرَى حَوْلَهُ المَلائِكُ صُوَرا

وصفه بأنّه سرير بالبناءِ الأعلى الذي سبق الناس، وسوّى فوق السماء سريرًا، فأطلق عليه اسم سرير؛ لأنّ هذه هي لغة العرب، وجعله في البناء الأعلى الذي هو السموات العلى، أخبر بأنّه فوق السموات .

هذا الشعر قاله هذا الشاعر الذي هو عارفٌ وعالمٌ ببعض الأحكام، وقد أنشده عَمْرو بن الشَّرِيدِ ﷺ للنبي ﷺ، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم[1]، قال: رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فقال: «هل مَعَكَ من شِعْرِ أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْتِ شيئًا؟»، قلت: نعم، قال: «هِيهْ»، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فقال: «هِيهْ»، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فقال: «هِيهْ»، حتى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ، فقال: «إِنْ كَادَ لَيُسْلِمُ». وفي أوصافه ما صدقّها النبيّ ﷺ، ومن ذلك: وصف الله تعالى بأنّه الأعلى، وبأنّه فوق الماءِ، وبأنّه فوق

---

(١) برقم (٢٢٥٥).

العرش، وبأنّ العرش سريرٌ كما في هذه الأبيات.

وكذا الأبيات الثانية التي نظمها عبد الله بن رواحة ﷺ، أحد شعراء الصحابة من الأنصار، لما أنّه وطيء أمةً له بملك اليمين، فرأته زوجته فأنكرت عليه، فاستنكر وقال: ما فعلت، وقد عرفت أنّ الذي عليه جنابة لا يقرأ القرآن، فقالت: إن كنت صادقًا فاقرأ القرآن، فأنشد هذه الأبيات، واعتقدت أنّها من القرآن، يقول فيها:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالَمِينَا
وتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلائِكَةُ الإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

فأخبر النبيّ ﷺ وأقرّه على ذلك، والشاهد منه ذِكر العرش في قوله: وأنّ العرش فوق الماء طافٍ، الطافي: هو السابح فوقه الراكب فوق الماء، وفوق العرش ربُّ العالمين، أخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، والمُرادُ أنّه فوق الماء، وفوق المخلوقات.

وبكلّ حال فالعرش هو: هذا السرير الذي لا يعلم قدره إلا الله.

وقد ذكر العلماء أنّ الكرسي غير العرش، الكرسي الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

الكرسي: قيل إنّه كالمرقاة بين يدي العرش، ومع ذلك هذا الكرسي وسع السموات والأرض، واتّسع للسموات السبع وللأرضين السبع، وقد ذكرنا فيما مضى الحديث الذي فيه «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ

أُلْقِيَتْ فِي تِرْسٍ»[1].

الترس: هو المجن الذي يلبس على الرأس، والدراهم: هي قطع من الفضة صغيرة، ماذا تشغل سبع دراهم من هذا الترس، والترس قد يتسع لمئات من الدراهم، ثم هذا الكرسي صغير بالنسبة للعرش.

وورد أيضًا في بعض الآثار: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ»[2]، الحلقة هي القطعة من الحديد متلاقية الطرفين، إذا ألقيت بأرض فلاة ماذا تشغل منها، هل تشغل ربعها؟ أو عشرها، أو عشر عشرها؟ أو ربع عشر من أعشارها؟ لا تشغل منها إلا جزءًا يسيرًا، فكذا نسبة الكرسي إلى العرش، وإذا كانت هذه عظمةُ العرش، فكيف بعظمة رب العرش؟ الذي خلقه وخلق جميع الخلق، وإذا عرف العباد هذه العظمة، وعظمة هذه المخلوقات، فكذلك بعظمة رب العرش خالق الملائكة الذين يحملون العرش، وقد ذكر الله عددهم في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، ولكن ماذا تقول في أولئك الملائكة؟ لا يعلم قدر وصفهم إلا الله، وفي هذا الحديث الذي أورده الشارح أخبر بأنَّ منهم ملكًا؛ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة عام، وفي رواية: سبع مئة للطائر.

متى تُقدر هذه المسافة القليلة؟ فكيف ببقيّة جسده؟ هذا من حملة العرش،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

ومع ذلك لا يحملون العرش بقوتهم، إنّما يحملونه بذكر الله، يقولون: كيف نحمل العرش وأنت رب العرش؟ - وهذه عظمة العرش - فقال: احملوه بالتسبيح، أو كما قيل. فلولا أنّ الله أعانهم بالتسبيح لما حملوه، مع أنّ هذه عظمتهم، وهذه صورهم وعظم خلقهم.

وعلى هذا فالعرش قد تقدّم أنّه سقف المخلوقات، وسقف الجنّة، سقف الفردوس، في الحديث المتقدّم يقول ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الجَنَّةَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الجَنَّةِ، وَأَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَٰنِ»[1]، فهذا دليلٌ على أنّه سقف المخلوقات، وأنّه محيط بالمخلوقات، ولا يعلم قدره إلاّ الله، ومع ذلك فإنَّ الربَّ تعالى مستغنٍ عن العرش، وما دونه، والله تعالى محيط بخلقه، وقريب منهم، وعالم بأعمالهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وهو سبحانه مطّلع على الأعمال، وقادرٌ على أن يُثيب هذا ويعاقب هذا، وقادرٌ على أن يتّسع لخلقه رحمةً وعلمًا وحكمةً وعزّةً وتصرُّفًا. فإذا كانت هذه عظمة المخلوقات، فكيف بعظمة ربِّ المخلوقات؟!!

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤).

قال الشارح:

وَأَمَّا الْكُرْسِيُّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَقَدْ قِيلَ: هُوَ الْعَرْشُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ غَيْرُهُ. نُقِلَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ، رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي كِتَابِ «صِفَةِ الْعَرْشِ»[1]، وَالْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»[2]، وَقَالَ: «إِنَّهُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»؛ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ أَنَّهُ قَالَ: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدُرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى». وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ[3].

وَقَالَ السُّدِّي: «السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي جَوْفِ الْكُرْسِيِّ، وَالْكُرْسِيُّ بَيْنَ يَدَي الْعَرْشِ»[4].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»[5].

---

(١) (ص٧٩).

(٢) (٢/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١٠/ ٣١١)، وقال: «والموقوف أولى». وبمثله قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٢)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٦٥).

(٤) أخرجه الطبري (٣/ ٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١).

(٥) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

وَقِيلَ: «كُرْسِيُّهُ عِلْمُهُ»، ويُنْسَبُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَالمَحْفُوظُ عَنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُ دَلِيلٌ إِلَّا مُجَرَّدُ الظَّنِّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ جِرَابِ الْكَلَامِ المَذْمُومِ، كَمَا قِيلَ فِي الْعَرْشِ. وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «بَيْنَ يَدَي الْعَرْشِ كَالْمِرْقَاةِ إِلَيْهِ».

قال الشيخ:

هذا الكلام على الكرسي الذي وسع السموات والأرض، وأنّه كالمرقاة بين يدي العرش، أو أنّ الكرسي موضع القدمين، فهو مخلوق، وهو مع ذلك ذكر الله سَعته، وأنه وسع السموات والأرض. فإذا كان الكرسي قد وسع السموات والأرض، فكيف بالعرش؟ هذا هو القول الصحيح: أنّ الكرسي مخلوق، ذكر الله أنّه وسع السموات والأرض، وأنّه غير العرش.

هناك قول آخر: أنّ الكرسي هو العرش، والصحيح أنّه غيره، هذا هو المشهور، وأنه مقدمة العرش، أو مرقاة بين يديه، وهناك قولٌ ثالث ولكنّه ضعيف، وهو أنّ الكرسي هو العلم، وسع كرسيُّه أي: علمه، وهذا القول، وإن روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فإنّه لا يثبت عنه، والصحيح القول الأول عنه، ولعلّ هذا من أقوال بعض المبتدعة الذين يريدون أن يؤوِّلوا الأشياء بغير ظواهرها، فلما أوّلوا العرش بأنَّه المُلك، أوّلوا الكرسي بأنّه العلم، حتَّى يبطلوا الصفات التي وردت في النّصوص، والتي تتعلّق بالعرش والكرسي والتي الإيمان بها من الإيمان بالغيب.

قال الطحاوي:

وهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَمَا دُوْنَه، مُحِيْطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ.

قال الشارح:

أَمَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ)؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وَإِنَّمَا قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هَذَا الْكَلَامَ هُنَا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ غِنَاهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْعَرْشِ، وَمَا دُونَ الْعَرْشِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ خَلْقَهُ لِلْعَرْشِ وَاسْتِوَاءَهُ عَلَيْهِ لَيْسَ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، بَلْ لَهُ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ اقْتَضَتْهُ، وَكَوْنِ الْعَالِي فَوْقَ السَّافِلِ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ السَّافِلُ حَاوِيًا لِلْعَالِي، مُحِيطًا بِهِ، حَامِلًا لَهُ، وَلَا أَنْ يَكُونَ الْأَعْلَى مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ. فَانْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ، كَيْفَ هِيَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَتْ هِيَ مُفْتَقِرَةً إِلَيْهَا! فَالرَّبُّ تَعَالَى أَعْظَمُ شَأْنًا، وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَلْزَمَ مِنْ عُلُوِّهِ ذَلِكَ، بَلْ لَوَازِمُ عُلُوِّهِ مِنْ خَصَائِصِهِ، وَهِيَ حَمْلُهُ بِقُدْرَتِهِ لِلسَّافِلِ، وَفَقْرُ السَّافِلِ، وَغِنَاهُ هُوَ سُبْحَانَهُ عَنِ السَّافِلِ، وَإِحَاطَتُهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ، فَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعَ حَمْلِهِ بِقُدْرَتِهِ لِلْعَرْشِ وَحَمَلَتِهِ، وَغِنَاهِ عَنِ الْعَرْشِ، وَفَقْرِ الْعَرْشِ إِلَيْهِ، وَإِحَاطَتِهِ بِالْعَرْشِ، وَعَدَمِ إِحَاطَةِ الْعَرْشِ بِهِ، وَحَصْرِهِ لِلْعَرْشِ، وَعَدَمِ حَصْرِ الْعَرْشِ لَهُ، وَهَذِهِ اللَّوَازِمُ مُنْتَفِيَةٌ عَنِ الْمَخْلُوقِ.

وَنُفَاةُ الْعُلُوِّ أَهْلُ التَّعْطِيلِ لَوْ فَصَّلُوا هَذَا التَّفْصِيلَ، لَهُدُوا إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ،

وَعَلِمُوا مُطَابَقَةَ الْعَقْلِ لِلتَّنْزِيلِ، وَلَسَلَكُوا خَلْفَ الدَّلِيلِ، وَلَكِنْ فَارَقُوا الدَّلِيلَ، فَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لَمَّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]: كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَقَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»(١). وَيُرْوَى هَذَا الْجَوَابُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ مَوْقُوفًا، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ(٢).

قال الشيخ:

قوله: إنّ الله مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن ما دون العرش، يفيد بأنّ العرش هو سقف المخلوقات، وأنّه أعظمها فيما أخبرنا الله به، وأنّ عظمة هذه المخلوقات كلّها حقيرةٌ بالنسبة إلى هذا العرش، ومع ذلك فإنّ الربَّ الذي خلقه وخلق غيره مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن غيره، ولا يحتاج إليه ليحمله، ولا إلى الملائكة لتحمله، بل هو بقدرته الذي يُمسك المخلوقات، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، وأخبر بأنّه خلق السموات بغير عَمَدٍ، خلق سبع سمواتٍ طباقًا، سبعًا شدادًا بناها فوق الأرض، ومع ذلك ثبّتها، فهي مستغنيةٌ عن عمدٍ تعتمد عليها، وأما المخلوق إذا رفع سقفًا فلا بدَّ أن يثبته بعمدٍ،

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٧)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ١٦٢).

يعتمد عليها ذلك السقف، وقد ذكر الله تعالى أنّ السماء سقف في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:٣٢]، ومع ذلك فليس لها عمد، يقول تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان:١٠]، أي: ليس لها عمد تشاهدونها، فهي مستغنية عن ذلك؛ لكون الله تعالى هو الذي أمسكها بقوّته، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر:٤١]، مع كونه هو الذي فوق العالم وفوق الخلق، وعالٍ على عباده؛ فإنَّه هو الذي جميع المخلوقات بحاجةٍ إليه، وهو مستغنٍ عنها، ومستغنٍ عن السموات، مستغنٍ عن الأرض ومن فيها، ومستغنٍ عن العباد وطاعاتهم، ومستغنٍ عن الملائكة وعبادتهم، وكذلك مستغنٍ عن العرش وعن الكرسي، فهو الغنيُّ عن ذلك، وكلّ شيء فقيرٌ إليه، بل هو الذي يمسكها، وهو الذي يحملها، وهو الذي يثبّتها كما يشاء.

فالنفاة الذين توهّموا أنّ في هذه المخلوقات حاجة، قالوا: إذا كان الله فوقها فهو محتاجٌ إليها يلزم أن تكون هناك حاجة وضرورة إليها.

وهذا خطأٌ، بل أخبر بأنّه عالٍ على هذه المخلوقات، ومع ذلك فإنّه الغنيُّ عمّا سواه، وكلّ ما سواه فقير إليه، فلا يحتاج إلى خلقه في شيءٍ من خصائصهم، بل هو سبحانه الغنيّ وهم الفقراء، فلا يُغترُّ بما يقوله الذين يردّون بعض النصوص، ويعتقدون أنّ في إثباتها لزوم حاجةٍ، أو أنّ هذا يلزم منه حلول الحوادث في ذات الله تعالى، ونحو ذلك من الكلمات التي هي من توليدات المتكلّمين.

قال الشارح:

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَوْقَهُ)، بِغَيْرِ وَاوٍ مِنْ قَوْلِهِ: (فَوْقَهُ)، وَالنُّسْخَةُ الْأُولَى هِيَ الصَّحِيحَةُ، وَمَعْنَاهَا: أَنَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ. وَمَعْنَى الثَّانِيَةِ: أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَوْقَ الْعَرْشِ. وَهَذَا ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَسْقَطَهَا بَعْضُ النُّسَّاخِ سَهْوًا، ثُمَّ اسْتَنْسَخَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ تِلْكَ النُّسْخَةِ، أَوْ أَنَّ بَعْضَ الْمُحَرِّفِينَ الضَّالِّينَ أَسْقَطَهَا قَصْدًا لِلْفَسَادِ، وَإِنْكَارًا لِصِفَةِ الْفَوْقِيَّةِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَا يَبْقَى لِقَوْلِهِ: مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَوْقَ الْعَرْشِ ـ وَالْحَالَةُ هَذِهِ ـ مَعْنًى؛ إِذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَا يُحَاطُ بِهِ؛ فَتَعَيَّنَ ثُبُوتُ الْوَاوِ. وَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا كَوْنُهُ مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ إِحَاطَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنَّهُ كَالْفَلَكِ، وَأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلُ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ: إِحَاطَةُ عَظَمَةٍ وَسَعَةٍ وَعِلْمٍ وَقُدْرَةٍ، وَأَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظَمَتِهِ كَالْخَرْدَلَةِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّهُ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ،

وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم»[(١)].

قال الشيخ:

كل ما سبق من كلام الشارح هذا يؤخذ منه عظمة الربِّ سبحانه وتعالى، وأنّه محيطٌ بكلّ شيء، والإحاطة هي العلم بها والاستيلاءُ عليها والتصرف فيها، فكونه قد أحاط علمًا بها في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ مُّحِيطًا﴾؛ أحاط بها بمعنى أنّه أحصاها وعلمها، وتولّى عليها واستولى على جميع المخلوقات. وإذا علم المخلوق أنّ اللهّ بكلِّ شيءٍ محيط، كان من جملة ذلك أن الله محيطٌ بالعباد، ومحيط بعلومهم التي يعلمونها؛ فإنّه هو الذي فتحها عليهم، ومحيطٌ بأعمالهم التي يعملونها، لا يخفى عليه من أعمالهم شيء، كما في قوله: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وكذلك محيط بالمخلوقات كلّها؛ سواءً الجماد أو المتحرك، سواءً الحيوان والنّبات وغير ذلك؛ كله قد أحاط به واستولى عليه وتصرّف فيه، فهو المستولي على خلقه.

والفائدةُ من معرفة ذلك: التعظيم؛ فإنّ العبد إذا تصوَّر أنّ الله تعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ عظّمه حقَّ التعظيم، وعبدَه حقَّ العبادة، وابتعد عمّا يسخطه وعمّا نهى عنه. واستفاد من ذلك أيضًا تعظيم شرعه، والتّصديق بخبره، وطلب الثواب

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

الذي رتّبه ووعد به على العبادة، فكلّ ذلك من فوائد معرفة إحاطته بكلّ شيء من المخلوقات .

هذه عقيدةُ المسلمين؛ لذلك أصبح أهلُ العقيدة السليمةِ هم الذين يعظّمون حرمات الله تعالى وشعائره، وأمّا الذين أنكروا علم الله أو أنكروا عظمته أو نحو ذلك، فهم الذين وقعوا فيها وقعوا فيه من المخالفات والمعاصي والعقائد المنحرفة.

فيجب على المسلم أن يدين بعظمةِ ربّه، وأن يستحضر جلاله وكبرياءه، وأن يكون ذلك حاملًا له على تعظيمه، وعلى خوفه وإجلاله، وعلى الرغبة في ثوابه، والرهبة من عقابه، ويكون ذلك بمعرفة الأدلّة على ذلك، فالأدلّة على عظمة الله سبحانه تعظيم الله لنفسه، وورد في الحديث: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»[1]. وورد أيضًا وصف الله تعالى بالكبرياء والعظمة، واختصاصه بذلك بقوله في الحديث القدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[2]، يعني: أنّ ذلك من خصائصه التي لا يجوز أن ينازعه فيه أحد، فإذا كان ذلك من خصائصه سبحانه؛ فمنازعته ومشاقّته في شيءٍ مما هو خاصٌّ به يُعدُّ اعتراضًا على الله .

ومعلوم أنّ الإنسان إذا وجب عليه أمرٌ تحيّل لأن يعرف الدليل عليه، والله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه أبوداود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، وابن حبان (٢/ ٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تعالى قد أقام الأدلّة على عظمته وعلى جلاله، وعلى استحقاقه للتبجيل والإعظام. فقد وصف الله نفسه بذلك كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤]. فيجب أن نعتقد أنَّ أنواع العظمة لله، فهو المستحقّ للتعظيم وأنواع الكبرياء، وأنواع العلوّ لله وحده، وبعد ذلك تقول: ما فائدتي إذا دِنْتُ بذلك؟ ما الفائدة التي أعرفها وأجتنيها وأحصل عليها إذا وصلتُ إلى هذه العقيدة؟ والجواب أن نقول: لا شكّ أنّك متى قمت بهذا واعتقدته عقيدةً صحيحةً عظُم قدرُ ربِّك في قلبك، فصعُب عليك أن تعصيه، وعظُم عليك أن تدين لغيره بالعظمة، وكذلك كبُر عليك أن تترك طاعته، وعرفت أنّ له عليك حقوقًا كثيرة لا بدّ أن تدين بها، ولا بدّ أن تحرص على أدائها... هذه فوائد هذه المعرفة.

وقد مرَّ بنا من صفات الله تعالى الغنى، وقول الطحاوي: « وهو مستغنٍ عن العرش » يعني: غني عن العرش وما دونه، وأنّه خلق الخلق وليس بحاجةٍ إلى عبادةِ الخلق، وليس بحاجة إلى شيء من المخلوقات، بل هو الغنيّ عنهم: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]، ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [التغابن:٦].

فإذا دان العبدُ لله تعالى بالغنى؛ عرف أنّ هذا الغنى عام، وأنّ الله مستغنٍ عن جميع ما في الكون، فهو مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن السموات، ومستغنٍ عن الأرض، بل هو الخالق وحده، وهي المخلوقة، ولكن قد وصف نفسه بأنّه

استوى على العرش، وبأنّه عالٍ على خلقه، ولا يدلُّ ذلك على حاجةٍ له لأيّ مخلوق.

كذلك من صفاته التي تقدّمت: الإحاطة، يقول الماتن: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، أي: هو محيطٌ بالأشياء والإحاطةُ بها هي: الاستيلاء عليها، بمعنى أنّه محيطٌ بالأشياء وكلّها تحت سيطرته، وتصرّفه، وليس أحدٌ ولا شيءٌ إلا بإرادته، ولا يتصرّف إلا بعلمه، وهو المتصرّف فيها وحده.

فإذا كان كذلك دلّ على كماله وعظمته، فالذي يعتقدُ ذلك لا شكّ أنّه يعظّم قدر ربّه في قلبه، وبعد ذلك يصعب عليه أن يتخلّف عن طاعة، أو يرتكب معصية، أو يفعل إثمًا، أو يبارز ربّه بالعصيان، يستحضر الربّ الذي هذه عظمته، وهذا جلاله وكبرياءه، وهذا غناه عن خلقه، ثم يستحضر ضعف المخلوقين، وضعف الخلق كلّهم وفقرهم وفاقتهم وحاجتهم الشديدة إلى ربّهم، فبعد ذلك يقول: ما أنا وما قدري حتى أظهر الغنى عن الله، وحتى أبارزه بالذنوب، وحتّى أعصي أمره وأرتكب نهيه؟! وهل أتحمّل شيئًا من سخطه، وهل أصبر على عذابه؟! فيكون ذلك زاجرًا له عن اقتراف المآثم.

الإحاطة بكلّ شيء تقدّم دليلها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢]، وقوله -عز وجل-: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج:٢٠]، وقوله -جل وعلا-: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النساء:١١٦]، ونفى بذلك عن المخلوقين بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ

عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالإحاطة: السيطرة والاستيلاء التام، والولاية الكاملة التي لا ينقصها شيء هي لله وحده، وهو المحيطُ بالأشياء كلِّها علويِّها وسفليِّها، وعالمٌ بها ومتصرفٌ فيها، ولا يخفى عليه شيء من أمرها، وذلك لأنَّها هي مخلوقة، وهو الخالق وحده.

قال الشارح:

وَمِنَ المَعْلُومِ - وَلِلَّهِ المَثَلُ الأَعْلَى - أَنَّ الوَاحِدَ مِنَّا إِذَا كَانَ عِنْدَهُ خَرْدَلَةٌ، إِنْ شَاءَ قَبَضَهَا وَأَحَاطَتْ قَبْضَتُهُ بِهَا، وَإِنْ شَاءَ جَعَلَهَا تَحْتَهُ، وَهُوَ فِي الحَالَيْنِ مُبَايِنٌ لَهَا، عَالٍ عَلَيْهَا فَوْقَهَا مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، فَكَيْفَ بِالعَظِيمِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِعَظَمَتِهِ وَصْفُ وَاصِفٍ لَهَا، فَلَوْ شَاءَ لَقَبَضَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ اليَوْمَ، وَفَعَلَ بِهَا كَمَا يَفْعَلُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَجَدَّدُ لَهُ إِذْ ذَاكَ قُدْرَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا الآنَ، فَكَيْفَ يَسْتَبْعِدُ العَقْلُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ يَدْنُو سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ العَالَمِ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ؟ أَوْ يُدْنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ؟ فَمَنْ نَفَى ذَلِكَ، لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي رَزِينٍ المَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى: فَقَالَ لَهُ أَبُو رَزِينٍ: كَيْفَ يَسَعُنَا - يَا رُسُولَ اللَّهِ - وَهُوَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ جَمِيعٌ؟ فَقَالَ: «سَأُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللَّهِ: هَذَا القَمَرُ، آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُخْلِيًا بِهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ»[1]، وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. فَهَذَا يُزِيلُ كُلَّ إِشْكَالٍ، وَيُبْطِلُ كُلَّ خَيَالٍ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ فَوْقَ المَخْلُوقَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]. وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الأَوْعَالِ المُتَقَدِّمِ: «وَالعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ»[2]. وَقَدْ أَنْشَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وأحمد (٤/ ١١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣).

رَوَاحَةَ ﷺ شِعْرَهُ المَذْكُور بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَقَرَّهُ عَلَى مَا قَالَ، وَضَحِكَ مِنْهُ.

وَكَذَا أَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَوْلَهُ:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلُ

وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَاهُمَا ... لَهُ عَمَلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّلُ

وَأَنَّ الَّذِي عَادَى اليَهُودُ ابْنَ مَرْيَمٍ ... رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُرْسَلُ

وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ قَامَ فِيهِمُ ... يُجَاهِدُ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَيَعْدِلُ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَنَا أَشْهَد»[(١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «تَغْلِبُ غَضَبِي»، رَوَاهُ البُخَارِيُّ[(٢)] وَغَيْرُهُ[(٣)].

وَرَوَى ابْنُ مَاجَه عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُسَهُمْ، فَإِذَا الجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُه قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، سَلَامٌ عَلَيْكُم، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨]. فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٤٠٧)، وانظر: ديوان حسان بن ثابت ﷺ (ص٢١٨).

(٢) برقم (٣١٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥١).

دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»[١].

وَرَوَى مُسْلِمٌ[٢] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، بِقَوْلِهِ: «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ».

قال الشيخ:

لا يزال الكلام متعلقًا بإحاطة الله ـ عزّ وجلّ ـ بالمخلوقات، وصغر المخلوقات بالنسبةِ إلى الخالق. وقد تقدّم الاستدلال على عظمة العرش والكرسي وصغر المخلوقات بالنسبة إليهما، وأنّ السموات السبع والأرضينَ السبع في الكرسي كدراهمَ سبعة أُلقيت في ترس.

كذلك ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ أحاديث عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، وبيّن أنّ هذه السموات والأرضين صغيرة إلى قبضة الربِّ عزَّ وجلَّ، وهي مطويّات بيمينه، والأحاديث التي فسّرت ذلك قد يأتينا بعضها مستقبلًا إن شاء الله، وفيها الدلالة على أنّ الله تعالى يقبض المخلوقات كما يشاء، وورد في

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٥).

(٢) برقم (٢٧١٣).

الأحاديث أنّه يقبض السموات والأرض، وأنّه يهزُّهنَّ ويقول: أنا الملك، أنا الملك؟[١].

وقد نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما - وهو من أجل علماء الصحابة - أنّه قال: «مَا السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعِ فِي يَدِ اللَّهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[٢]. وماذا تشغل حبّة الخردل؟ ومعلومٌ أنّها صغيرة وحقيرة في القبضة، قد يقبض الإنسان ألفًا أو أكثر من ألف في كفّه ولا يمتلىء الكفّ من ذلك، فكيف حبّة واحدة؟ فهذه المخلوقات التي تشاهد عظمتها ولا يعلم سعتها إلا الله تعالى، وقد أخبرنا بعظمتها أنّها سبعٌ شداد، وأنّها سبعٌ طباق، وأنّ المسافات التي بينها، بين كل سماءين مسيرة خمسمئة سنة، متى تقطع هذه المسافة؟ كل ذلك صغير بالنسبة إلى عظمة الربّ سبحانه وتعالى. فهذا دليلٌ على عظمته، ودليلٌ على إحاطته بكلِّ شيء، هذا معنى قوله: «محيطٌ بكلّ شيء».

أمّا قوله: (وفوقه)، فالمراد أنّنا نعتقد أنّ الله فوق كلّ شيء، وقد ذكر الشارح في بعض النسخ «محيطٌ بكلِّ شيء فوقه» من دون واو، وأنّ هذه لا معنى لها؛ لأنّ اللهّ إحاطته ليست فوق العرش، بل بكلّ شيءٍ بالعرش وبما فوقه وبما تحته، ومعلومٌ أنّ العرش هو سقف المخلوقات وهو أعلاها، وفوقه الربُّ سبحانه، وهو قريب من عباده.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٩٤).

الأدلّة على الفوقيّة كثيرة؛ مرَّ في الشرح كثير منها؛ منها ما هو صريح لا يحتمل التأويل؛ فالآية التي في سورة النحل لا تحتمل التأويل وهي قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]، قُيّدت بـ (من) حتّى لا يتأوّلها المتأوّل. وأمّا الآية الثانية التي في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١] في موضعين، فقد يُقال: المراد بالفوقيّة في هذه الآية، فوقيّة الغلبة، وفوقيّة القهر، كما قال فرعون: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، يعني: فوقيّة قهر، ولكن يؤخذ منها فوقيّة الذات، وفوقيّة الغلبة، فهي دالّةٌ على المعنيين، فإذًا تكون من الآيات الدالّة على وصف الله تعالى بالفوقيّة التي هي العلوّ الذي يقتضي العظمة.

أمّا الأحاديث فمرَّ بنا منها جملة؛ من ذلك قوله ﷺ في حديث الأوعال: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»(١). فالفوقيّة هنا صريحة، ومن ذلك قوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»(٢)، فهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ الربّ تعالى فوق العباد وفوق العرش، كذلك الحديث الذي في تفسير الآية الكريمة من سورة الحديد: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣]، في الدّعاء المأثور أنّ النبيّ ﷺ قال:

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

«أنت الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا من الْفَقْرِ...»[١]، ففسَّر الظاهر بأنّه العالي الذي ليس فوقه شيء، فهو فوق المخلوقات، ومع ذلك فهو قريبٌ منها، ولذلك فسّر الباطن بالقريب الذي ليس دونه شيءٌ، فعلُوُّه سبحانه وتعالى وفوقيّته لا تنافي قربه ومعيّته، يستحضر المؤمنون الوصفين معًا، القرب والعلّو.

كذلك تقدّم لنا شعر أميّة بن أبي الصلت وشعر عبد الله بن رواحة ﷺ، وذكر هنا أيضًا شعرًا لحسّان ﷺ، وكلّها مذكور فيها العلوّ والفوقيّة، أما الفوقيّة ففي قول ابن رواحة ﷺ[٢]:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا

فصرّح بالفوقيّة، وأقرّه النبيّ ﷺ.

وهكذا أيضًا في هذا البيت لحسّان[٣]، وهو قوله:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلُ

رسول الذي فوق السموات، يعني: فوق السموات وفوق العرش، ثم

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٣٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٩).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٨).

وصفها أنّها من علٍ؛ فهذا دليلٌ على أنّ الصحابة كلَّهم يدينون بهذه الفوقيّة، وبأنّهم قد تلقّوها وتلقّنوها من نبيّهم ﷺ، وهذه الفوقيّة دليلٌ من الأدلّة على صفةِ العلوّ، والأدلّة عليه كثيرةٌ، أوصلها بعضهم إلى واحد وعشرين نوعًا، ذكر ذلك ابن القيّم في «نونيّته»، ابتدأها بالآيات التي في الاستواء وكل نوع تحته مفردات، فالفوقيّة نوع من أنواع الأدلّة التي تدلّ على صفة العلوّ.

ولَـمَّا كانت مسألة العلوّ من المسائل الاعتقاديّة بالغ أئمّة السلف في إثباتها، وكتبوا فيها الأدلّة التي توضّح قول السلف وقول من سار على طريقهم، فنجد المتقدِّمين من السلف والأئمّة الذين كتبوا في السنّة، نجدهم أوفوها حقّها، فكتاب «التوحيد» لابن خزيمة الذي هو شجىً في حلوق الأشاعرة والمعتزلة، ونحوهم، حتى إن بعضهم يسمّيه كتاب «الشرك»، مع أنّه اعتمد آيات وأحاديث صحيحة رواها بالأسانيد، ولكن لَـمَّا خالف معتقدهم أساؤوا به، وصاروا يحذّرون منه.

كذلك أيضًا كتب السنّة التي كتبها سلفهم مثل كتاب «الإبانة» و«كتاب التوحيد» و«كتاب الإيمان» و«كتاب السنّة» لأئمّة علماء، ومنهم من ردّ على الجهميّة في كتاب «الردّ على الجهميّة»، وسمّى كلّ من خالف ذلك جهميًّا، ولم يزل السلف يكتبون في ذلك فممّن كتب في ذلك أيضًا: ابن منده وهو عالم من العلماء، وعثمان بن سعيد الدارمي، وابن أبي عاصم، وكذلك القاضي أبويعلى، حتّى غير الحنابلة كتبوا في ذلك، فكتب في ذلك الإمام الذهبي، وله كتابه المعروف باسم «العلوُّ للعليِّ الغفار»، وصفه بهذا الوصف، وكأنّه لما رأى كثرة الذين دانوا

بغيره مِمّن سمّوا أنفسهم أشاعرة، رأى بأن يفصح بما يعتقده ولو خالف مشايخه وأقرانه والمنتمين إلى قوله أو إلى مذهبه فلم يبالِ بذلك ما دام أنّه يعتمد الدليل ويقول الحقّ.

فلذلك نقول: إنّ مسألة العلوّ لم يقل بها من جماعة المتأخّرين إلا أفراد قلّة؛ الطوائف الذين تسمّوا بأنّهم أشاعرة أنكروها، والطوائف الذين قالوا إنّهم معتزلة أنكروها، وطوائف الشيعة كلّهم معتزلة يدينون بذلك، وطوائف الخوارج، وطوائف الجبريّة، زيادةً على الجهميّة ونحوهم، كلّهم ينكرون هذه الصفة، ولا عبرة بإنكار من أنكرها ما دامت الأدلّة واضحة صريحة في إثباتها، فلا يعتبر بمن أنكر الحقّ مع وضوحه.

أما أهل السنَّةِ فيثبتونها على ما يليق بالله تعالى، ويذكرون الأدلّة ويعتمدونها، ثم يجمعون بينها وبين آيات القرب وأدلّة المعيّة ونحو ذلك، ولا يفهمون منها تجسيمًا، ولا تشبيهًا ولا جهةً، ولا حصرًا ولا تحيّزًا، ولا غير ذلك، أمّا أولئك المنكرون، فإنّهم يستعملون هذه الكلمات؛ أنّها تحصر الخالق، وأنّه تحيّز، ولا عبرة بتلك الأقوال التي يموّهون بها. فعلى المسلم أن يعتقد الحقّ ولو خالفه من خالفه .

قال الشارح:

وَالمُرَادَ بِالظُّهُورِ هُنَا: الْعُلُوُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف:٩٧]، أَيْ: يَعْلُوهُ.

فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْأَرْبَعَةُ مُتَقَابِلَةٌ: اسْمَانِ مِنْهَا لِأَزَلِيَّةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَبَدِيَّتِهِ، وَاسْمَانِ لِعُلُوِّهِ وَقُرْبِهِ.

وَرَوَى أَبُو دَاودَ[1] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدَتِ الأَنْفُسُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، أَوْ هَلَكَتْ، فَاسْتَسْقِ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟! وَسَبَّحَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّه؟ إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ - وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ القُبَّةِ - وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الجَدِيدِ بِالرَّاكِبِ».

وَفِي قِصَّةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ يَومَ بَنِي قُرَيْظَةَ، لَـمَّا حَكَمَ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتَلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ المَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ». وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ الْأُمَوِيُّ فِي «مَغَازِيهِ»،

---

(١) برقم (٤٧٢٦).

وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[(١)].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ زَيْنَبَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقُولُ: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»[(٢)].

وَعَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّه مَرَّ بِعَجُوزٍ، فَاسْتَوْقَفَتْهُ، فَوَقَفَ مَعَهَا يُحَدِّثُهَا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَبَسْتَ النَّاسَ بِسَبَبِ هَذِهِ الْعَجُوزُ؟ فَقَالَ: وَيْلَكَ! أَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ؟ هَذِهِ امْرَأَةٌ سَمِعَ اللَّهُ شَكْوَاهَا مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، هَذِهِ خَوْلَةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ[(٣)].

وَرَوَى عِكْرِمَةُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، قَالَ: «وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ: مِنْ فَوْقِهِمْ؛ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مِنْ فَوْقِهِم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، من دون قوله: «من فوق سبع سموات» . وقد أخرج هذه الزيادة: الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤٢٦)، والبيهقي (٩/ ٦٣)، وأوردها ابن أبي حاتم في العلل (١/ ٣٢٥)، وفي إسنادها محمد بن صالح التمار، قال فيه أبو حاتم الرازي في الجرح والتعديل (٧/ ٢٨٧): «شيخ ليس بالقوي لا يعجبني حديثه».

(٢) برقم (٧٤٢٠).

(٣) في الرد على الجهمية (ص٥٤). وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٢)، وقال الذهبي في كتابه العلو (ص٧٨): «هذا إسناد صالح فيه انقطاع» .

وَمَنْ سمِعَ أَحَادِيثَ الرَّسُولِ ﷺ وَكَلَامَ السَّلَفِ، وَجَدَ مِنْهُ فِي إِثْبَاتِ الْفَوْقِيَّةِ مَا لَا يَنْحَصِرُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَـمَّا خَلَقَ الخَلْقَ، لَمْ يَخْلُقْهُمْ فِي ذَاتِهِ المُقَدَّسَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، فَتَعَيَّنَ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ خَارِجًا عَنْ ذَاتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ سُبْحَانَهُ بِفَوْقِيَّةِ الذَّاتِ، مَعَ أَنَّهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، غَيْرُ مُخَالِطٌ لِلْعَالَمِ، لَكَانَ مُتَّصِفًا بِضِدِّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ القَابِلَ لِلشَّيْءِ لَا يَخْلُو مِنْهُ، أَوْ مِنْ ضِدِّهِ، وَضِدُّ الْفَوْقِيَّةِ: السُّفُولُ، وَهُوَ مَذْمُومٌ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقَرُّ إِبْلِيسُ وَأَتْبَاعُهُ وَجُنُودُهُ.

قال الشيخ:

هذه الأدلّة التي ساقها الشارح تقوّي دلالة الفوقيّة؛ فدلالة حديث الأعرابيّ أنه أنكر عليه لما قال: نستشفع بالله عليك؛ ولا شكّ أنّ هذا تنقّص لله، كأنّه يقول: نجعل اللهّ شافعًا عندك، الله يشفع عند الخلائق، وهذا فيه شيء من التنقّص.

أمّا قوله: (نَسْتَشْفِعُ بِكَ إِلى اللَّهِ)، فلم يستنكره، كأنّه يقول: اشفع لنا إلى ربّك، أو اشفع لنا إليه، إنما أنكر عليه الثاني: (وَنَسْتَشْفِعُ باللَّهِ عَلَيْكَ)؛ لأن شأن الله تعالى أعظم، وذاته أجلّ، ووصفه وجلاله وكبرياؤه أعظم من أن يكون شفيعًا عند أحد من خلقه، بل هو الذي يُستشفع إليه، ولا يشفع إلى أحد، بل لا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه، كما ذُكر ذلك في القرآن: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولَـمّا أنكر عليه ذلك

بيّن له عظمة الربّ تعالى، فقوله: « أَتَدْرِي مَا اللَّه؟»، يعني: أنّك ما عرفت قدر ربّك، وما استحضرت عظمته، ولو استحضرت ذلك لما قلت هذه المقالة، فشأن الله تعالى أعظم.

ثم ذكر أنّ الله تعالى فوق العرش، وأنّ العرش يئطُّ به أطيط الرّحل، وهذا من باب التعظيم، أو من باب البيان، يعني: أنّه تعالى فوق العرش، ومع عظمةِ العرشِ ومع كبرِ العرشِ وإحاطته بهذه المخلوقات فهو يُسمع له هذا الأطيط، يقال: إنّ هذا من ثِقل الربِّ تعالى، وقد ذكر الله تعالى أنّ العرش محمول، وأنّ حملة العرش ما حملوه بقوّتهم وإنّما حملوه بقوّة ربّهم، ومع ذلك فإنّ الربَّ تعالى غنيٌّ عن العرش، وغنيٌّ عن حملة العرش، ولكن كل ذلك من باب إظهار العظمة والكبرياء ونحو ذلك.

كذلك ما ذكر من الأدلّة عن الصحابة، ومن ذلك قول النبيِّ ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ المَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمٰوَاتٍ»، يعني: وافقت حكم الله، واللهُ فوق سمٰواته.

وكذلك قول زينب ـ رضي الله عنها ـ : «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»، يعني: تريد قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أي: أنّ الله تعالى هو الذي زوّجها، فصرّحت بالفوقيّة، وأنّ الله تعالى فوق سمٰواته.

وبالجملة: هذه أمثلةٌ من الأدلّة، والأدلّة التي تثبتُ صفة الفوقيّة كثيرة، ثم

إذا قُلنا: هذه أدلّة نقليّة؛ والمخالفون لا يقبلون الأدلّة النقليّة التي في زعمهم أنّها تُخالف العقل، وأنّها تُنافي العقول، ويزعمون أنّهم ما عرفوا صدق الرُّسل إلا بالعقول، فإذا جاء الرُّسل بما ينافي العقول لم يقبلوه، هكذا علّلوا !!

والجواب: أنّ تلك العقول التي ردَّت هذه النقول عقول فاسدة مضطربة، لا تصلح أن تكون ميزانًا لقبول شيء دون شيء، فعقولكم التي رددتم بها هذه النّصوص، ورددتم بها هذه الصفات، وزعمتم أنَّ هذا مستنكر ومستبشع، وثقيل على النفوس، ولا تقبله العقول.

نقول: هذه العقول كثيرًا ما يكون فيها الاضطراب، وكثيرًا ما تأتي بشبهاتٍ لا تثبت عند الحقّ، وكثيرًا ما يُبطل بعضهم شبهة البعض التي يدلي بها، وكثيرًا ما يُبطل أحدهم دليله بنفسه، فيذكر دليلًا ثم يأتي بما يناقضه، وكذلك يأتي الآخر بدليل يناقض دليل شيخه، ونحو ذلك. فكيف مع ذلك يعتمدون هذه، ويقولون: إنّها أدلّة عقليّة؟!

وقد جاءهم الشارح - رحمه الله - بدليل عقلي، فيقول: هب أنّه ليس هناك دليلٌ نقليٌّ، أو أنّكم تأوّلتم هذه النقول، وقلتم مثلًا: الفوقيّة هنا فوقيّة العظمة، أو فوقيّة الغَلَبة، أو فوقيّة القهر، أو أنّها لا تدلّ على أنَّ الله فوق المخلوقات، بل إنّه ليس فوق العرش، وليس فوق السموات، وأنّ جميع الأماكن بالنسبة إليه سواء، وأنّه ليس له مكان - تعالى الله عمّا يقولون - نقول لكم: العقول السليمة تشهد بإقرار صفة الفوقيّة، وذلك لأنّ من لم يثبت الفوقيّة لزمه إثبات ضدها، ضدّان متباينان، لابدّ أن يوصف بأحدهما، من لم يوصف بالفوقيّة وصف بالسفليّة

وبالتحتيّة، وهذه صفة نقص لله تعالى، والله سبحانه أحقّ بأن يوصف بالفوقيّة، وقد ذُكر أنّ السفل والتّحت أماكن الشياطين، وأنّ إبليس وقومه وجنوده هم الّذين يوصفون بالسفل لا بالفوقية.

وقد دان أهل السنّة والمسلمون عمومًا بوصف الله تعالى بالفوقيّة، وأقروا بذلك في عقولهم، ووافقوا على تلك الأدلّة الصحيحة الصريحة، وعلموا أنّ من لم يكن موصوفًا بالعلوّ فهو موصوف بالسفل، ومن لم يكن موصوفًا بالفوقيّة فهو موصوف بالتحتيّة، واستدلّوا بهذه النّصوص، وأقرّوا على ذلك بعقولهم، ولا عبرة بمن خالفهم في ذلك، ولو كثر عددهم.

قرأتُ لبعض هؤلاء المبتدعة لما تكلّموا ونقلوا أثرًا يخالف معتقدًا على تفسير قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ [الشورى: ٥]، فنقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «تكاد السموات تتفطّر من ثقل الربّ تعالى»[1]، فكبرت هذه الكلمة عند هذا الجهميّ ونحوه، فقال: من هيبته!! انظر كيف صرف هذا الأثر عن الظاهر، وجعل المراد الهيبة؟! لأنه لا يدين بأن الله تعالى فوق السموات، وأنّ السموات تتفطّر من ثقله، ويُكذب أيضًا ما ورد في الحديث أنّ العرش يئطّ به، ونحو ذلك.

فعلى كل حال يُقال لهم: العقول السليمة تدلّ على أنّ من لم يتصّف بالعلوّ اتّصف بالسفل، ومن لم يتّصف بالفوقيّة اتّصف بالتحتيّة، فأنت يلزمك إذا نفيت

---

(١) أخرجه الطبري (٢٥/ ٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦١٤).

الفوق أن تثبت التحت، وذلك وصف ذُلّ، أو وصف نقص كامل فلا يجوز، فأصبح العقل والنقل كلاهما متفقان على هذا الذي هو وصف كمال، وأصبحت عقلياتهم متهافتة، كما وصفها شيخ الإسلام بالبيت الذي استشهد به:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ[1]

شبّهها بالزجاج، فإن الزجاجة إذا ضربت بأختها تكسّرت هذه، وتكسّرت هذه، هكذا شُبه هؤلاء وهؤلاء.

---

(١) راجع (٢/ ٢٣٠).

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: لَا نُسَلِّمَ أَنَّهُ قَابِلٌ لِلْفَوْقِيَّةِ حَتَّىٰ يَلْزَمُ مَنْ نَفْيِهَا ثُبُوتُ ضِدِّهَا. قِيلَ: لَو لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لِلْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَقِيقَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، فَمَتَى أَقْرَرْتُم بِأَنَّهُ ذَاتٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، غَيْرُ مُخَالِطٍ لِلْعَالَمِ، وَأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الخَارِجِ، لَيْسَ وُجُودُهُ ذِهْنِيًا فَقَطْ، بَلْ وُجُودُهُ خَارِجَ الْأَذْهَانِ قَطْعًا، وَقَدْ عَلِمَ العُقَلاءُ كُلُّهُم بِالضَّرُورَةِ أَنَّ مَا كَانَ وُجُودُهُ كَذَلِكَ، فَهُوَ إِمَّا دَاخِلُ الْعَالَمِ، وَإِمَّا خَارِجٌ عَنْهُ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارُ مَا هُوَ أَجْلَى وَأَظْهَرُ مِنَ الْأُمُورِ البَدِيهِيَّاتِ الضَّرُورِيَّةِ بِلَا رَيْبٍ، فَلَا يُسْتَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ بِدَلِيلٍ إِلَا كَانَ الْعِلْمُ بِالْمُبَايَنَةِ أَظْهَرَ مِنْهُ، وَأَوْضَحَ وَأَبْيَنَ، وَإِذَا كَانَ صِفَةُ العُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ صِفَةَ كَمَالٍ، لَا نَقْصَ فِيهِ، وَلَا يَسْتَلْزِمُ نَقْصًا، وَلَا يُوجِبُ مَحْذُورًا، وَلَا يُخَالِفُ كِتَابًا، وَلَا سُنَّةً، وَلَا إِجْمَاعًا، فَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ يَكُونُ عَيْنَ البَاطِلِ وَالمُحَالِ الَّذِي لَا تَأْتِي بِهِ شَرِيعَةٌ أَصْلًا. فَكَيفَ إِذَا كَانَ لَا يُمْكِنُ الإِقْرَارُ بِوُجُودِهِ وَتَصْدِيقُ رُسُلِهِ، وَالْإِيمَانُ بِكِتَابِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُه إِلَّا بِذَلِكَ؟! فَكَيفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ شَهادَةُ العُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَالفِطَرِ الـمُسْتَقِيمَةِ، والنُّصُوصِ الوَارِدَةِ الـمُتَنَوِّعَةِ الـمُحْكَمَةِ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ فَوْقَ عِبَادِهِ، الَّتِي تَقْرُبُ مِنْ عِشْرِينَ نَوْعًا.

قال الشيخ:

هذه مجادلةٌ مع أصحاب المذاهب العقليّة، ولا يستحسن التوسُّع في الكلام معهم بالعقليّات؛ لما في ذلك من سلبيات:

أولها: فيه مضيعةٌ للوقت.

وثانيًا: فيه إثارةٌ لشبهات لا ينبغي الخوض فيها.

وثالثًا: لا شكّ أنّ تصوّر ما يقولونه فيه مما يسبب التشويش على الإنسان، والتفكّر في أشياء لا يحتاج إلى التفكّر فيها، وقد أُمرنا بالتفكر في مخلوقات الله وآلائه؛ لأننا نأخذ منها عبرةً على عظمة خالقها، وأمّا ذات الخالق، وكيفيّة صفاته، فنصرف عنها الأفكار، ونستحضر في أذهاننا عظمته وجلاله وكبرياءه وعلوّه على خلقه، وتفرّده بالملك، وتفرّده بالتصرّف، واستحقاقه للعبادة من خلقه وللتعظيم، وإذا اعتقدنا ذلك كفينا عن الإثم، وعن الخوض في الأشياء الباطلة.

وكلامهم في وصف الله تعالى ليس له حقيقة ولا وجود إلا في الأذهان، وهم يقسمون الوجود إلى وجودين: وجود في الأذهان ووجود في الأعيان، خارج الأذهان هو الذي يمكن للعيان أن يصل إليه فيقول: إنّنا إذا تأمّلنا ما يقوله المعتزلة وما يقوله سلفهم، وهم الفلاسفة، من ذلك النفي المحض، وعدم الاعتراف بخالقٍ مدبِّر متصرِّف في الخلق.

فيُقال لهم: إمّا أن تعترفوا بوجود ربٍّ خارج الأذهان، أو لا تعترفوا، وعلى كل حال فإنّه ولابدّ فوق العباد، أو تحت، أو عن يمين، أو عن يسار، وجهة الفوقيّة أشرف الجهات، فاعتقدوها، ولا يلزم منها محذور إذا اعْتُقِدت، لا يلزم أن يقال: إنّها تدلّ على حصرٍ، أو على تحيّز، أو على تجسيم، أو على غير ذلك من المحظورات، التي يلتزمون بها، ندين بذلك ونترك خوضنا فيما يقولونه مما هو في الحقيقة نفيٌ محضٌ، ولا فرق بين ما يقولونه ويعتقدونه، وبين العدم المحض الذي هو حقيقة المعدوم الذي لا مدح له ولا وجود أصلًا فيمدح.

وبكلّ حال هذا هو معتقد أهل السنّة، وتلك هي أقوال الفلاسفة أخذها عنهم المعتزلة في أوّل الكلام، يقولون: إنّ ما يتّصف بالسفل يكون قابلًا للعلوّ، فإذا لم يكن قابلًا للعلوّ لم يلزم اتّصافه بالسّفل، وهذا أيضًا من أقوالهم في كل ما يعتقدونه، يقولون مثلًا: إنّه لا يقبل السمع ولا البصر، فلا يوصف به، يلتزمون ذلك في نفي السمع والبصر، وإذا قيل لهم مثلًا: شبَّهتم الله تعالى، فإذا نفيتم عنه السمع والبصر لزمكم أن تشبِّهوه بفاقد السمع وهو الأصمّ، وفاقد البصر وهو الأعمى، فيقولون: هذا لو كان قابلًا، أما إذا لم يكن قابلًا فلا. ثم يقولون مثلًا: الجدار لا يقبل الاتصاف بهما، فلا يُقال للجدار: حيًّا ولا ميّتًا؛ لأنّه لا يقبلهما، ولا يُقال للجدار إنّه أصمّ ولا سميع ولا أعمى ولا بصير؛ لأنه ليس قابلًا لواحدٍ منهما.

وهذا ليس بصحيح؛ بل هو قابلٌ لهما، يوصف بأنّه جماد، ويوصف بأنّه ميت لا حركة فيه، فهو يقبل ذلك، فعُرف بذلك أن تمسّكهم بهذه الشبهة التّي تلقّوها من الفلاسفة شبهة باطلةٌ ضالّة.

قال الشارح:

أَحُدُهَا: التَّصْرِيحُ بِالفَوْقِيَّةِ مَقْرُونًا بِأَدَاةِ «مِنْ» الـمُعَيِّنَةِ لِلْفَوْقِيَّةِ بِالذَّاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠].

الثَّانِي: ذِكرُها مُجَرَّدَةً عَنِ الأَدَاةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٨].

الثَّالِثُ: التَّصْرِيحُ بِالعُرُوجِ إِلَيْهِ نَحْوُ: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤]، وقوله ﷺ: «فيعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيْكُم فَيَسْأَلُهم»(١).

الرَّابِعُ: التَّصْرِيحُ بِالصُّعُودِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠].

الخَامِسُ: التَّصْرِيحُ بِرَفْعِهِ بَعْضَ المَخْلُوقَاتِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥].

السَّادِسُ: التَّصْرِيحُ بِالعُلُوِّ المُطْلَقِ الدَّالِّ عَلَى جَمِيعِ مَرَاتِبِ الْعُلُوِّ ذَاتًا وَقَدْرًا وَشَرَفًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]. ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣]، ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:٥١].

السَّابِعُ: التَّصْرِيحُ بِتَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنْهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﵟٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِﵞ [الزمر:١]. ﵟتَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِﵞ [غافر:٢]. ﵟتَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِﵞ [فصلت:٢]. ﵟتَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖﵞ [فصلت:٤٢]. ﵟقُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّﵞ [النحل:١٠٢]، ﵟحمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَﵞ [الدخان:١-٥].

الثَّامِنُ: التَّصْرِيحُ بِاخْتِصَاصِ بَعْضِ المَخْلُوقَاتِ بِأَنَّهَا عِنْدَهُ، وَأَنَّ بَعْضَهَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْضٍ، كَقَوْلِهِ: ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَﵞ [الأعراف:٢٠٦]. ﵟوَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥﵞ [الأنبياء:١٩]. فَفَرَّقَ بَيْنَ «مَنْ لَهُ» عُمُومًا وَبَيْنَ «مَنْ عِنْدَهُ» مِنْ مَمَالِيكِهِ وَعَبِيدِهِ خُصُوصًا، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ: «عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»[1].

التَّاسِعُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ، وَهَذَا عِنْدَ المُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ «فِي» بِمَعْنَى «عَلَى»، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ بِالسَّمَاءِ العُلُوُّ، لَا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ الحَمْلُ عَلَى غَيْرِهِ.

الْعَاشِرُ: التَّصْرِيحُ بِالِاسْتِوَاءِ مَقْرُونًا بِأَدَاةِ «عَلَى» مُخْتَصًّا بِالْعَرْشِ، الَّذِي هُوَ أَعْلَى المَخْلُوقَاتِ، مُصَاحِبًا فِي الْأَكْثَرِ لِأَدَاةِ «ثُمَّ» الدَّالَّةِ عَلَى التَّرْتِيبِ وَالمُهْلَةِ.

---

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

قال الشيخ:

الأدلّة على علوِّ اللهِ تعالى كثيرة، يمكن أن تصل إلى أكثر من مئتين - يعني: فروعها وأفرادها - ولكن بإجمال حصروها في هذه الوجوه، وهي تسمّى أنواعًا من الأدلّة، وكل نوع تحته أفراد:

النوع الأول: الفوقيّة المقرونة بـ «من»، ورد في قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠].

الثاني: ذكر الفوق مجردًا عن «من»، وهو عامٌّ لأنواع الفوقيّة، وهو قوله: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٨]، يعمُّ ذلك أنّه فوقهم بقهره، وفوقهم بذاته، فوقيّةً تليق بجلاله.

الثالث: التصريح بالعروج، والعروج والمعراج: الرُّقيُّ، ذُكر في قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة: ٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، ولا شكّ أنّ العروج يكون من أسفل إلى أعلى، وهذا دليل على أنّه العلي الأعلى.

الرابع: التصريح بالصّعود، والصعود هو الرُّقيُّ أيضًا، ذُكر في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر:١٠]، الصعود معناه الرّقي، فدلَّ على إثبات صفة العلوّ.

الخامس: ذكر الرّفع، ومعلوم أنّ الرّفع يكون لشيء نازلٍ إلى شيءٍ رافع، ذُكر في قوله تعالى: ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر:١٠]، وذُكر في قوله في

عيسى - عليه السلام - في سورة آل عمران: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وفي سورة النساء: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]؛ كان عيسى - عليه السلام - في الأرض فرفعه الله تعالى إلى السموات، فهذا دليل على صفة العلوّ.

السادس: ذكرُ العلوّ، وكلمة العلوّ وردت بثلاث صيغ: وردت بصيغة العليّ، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:٥١]، ووردت بصيغة الأعلى، كقوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل:٢٠].

ولا شكّ أنّ العلوّ يستلزم ثلاثة أنواع: علوّ القدر، وعلوّ القهر، وعلوّ الذّات.

السابع: التصريح بذكر أنّه في السّماء، في موضعين من سورة الملك: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦].

وأمّا في الأحاديث فكثيرٌ جدًا، كقوله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونَنِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1]، وقوله: «ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»[2]، ولما قال للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟»، قالت: في السّماء، فقال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٥).

مُؤْمِنَةٌ»[١]؛ تفسَّر هذه الكلمة بتفسيرين:

التفسير الأوّل: أنّ «في» بمعنى «على»، فيكون قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾، يعني: على السّماء، ولا يلزم أن تكون السّماء تحيط به أو تحصره - تعالى الله - ويدل لذلك قوله تعالى عن فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١]، أي: على جذوع النّخل، وقوله تعالى: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة: ٢]، أي: على الأرض، وكذلك «في السماء»، أي: على السماء.

ولها معنى ثانٍ: أنّ السّماء اسمٌ للعلوّ، فكل ما علا وارتفع فهو سماء، فيكون قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي: من في العلوّ.

الثامن: ذكر التنزيل، والنّزول من الله تعالى في عدّة من المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام:١١٤]، وقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [غافر:٢]، والنزول معناه الهبوط، فدلَّ على أنَّ الملائكة تنزل من الله، وكذلك الكتاب نزل من الله، فهذا يستدعي أن يكون النزول من أعلى، فدلَّ على إثبات صفة العلوّ.

التاسع: تخصيص بعض المخلوقات بأنّها عند الله: قال تعالى عن امرأة فرعون: ﴿ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم:١١]. وقال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩]. والحديث الذي أورده المؤلف، وهو قوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]. فالتّصريح بأنّها عنده دليلٌ على صفة العلوّ، والله أخبر بأنّ بعض المخلوقات أقرب إليه مِن بعض، والقرب قد يكون حسيًّا، وقد يكون معنويًّا، وإن كان الجميع بالنسبة إلى قدرة الله وعظمته سويًّا.

العاشر: ذكر الاستواء، وقد ورد في سبعة مواضع: في سورة الأعراف، وفي سورة يونس، وفي سورة الرّعد: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾، وفي سورة طه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾، وفي سورة الفرقان: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، وفي سورة السجدة، وفي سورة الحديد، كلُّها ذكر فيها لفظ استوى. والعرب إذا ذكرت الاستواء وعُدِّيَ بـ (على) فإنّها تقصد بذلك العلوّ، دليل ذلك قوله تعالى في سفينة نوح: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود:٤٤]، استوت عليه: يعني استقرّت مرتفعة عليه، وقوله تعالى في الإبل: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٣]، يعني: تركبوا مرتفعين على ظهورها، فهذا الاستواء بمعنى الارتفاع.

فهكذا قوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾، وقد فسّرها السلف رحمهم الله، وإن كان أكثرهم يفوّضون كيفيّتها، كما ذُكر عن مالك أنّه قال: «الاستواء معلوم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

والكيف مجهول»[١]، وصفه بأنّه معلوم، أي: معروف من جهة اللغة؛ لأنّه كلام عربيّ فصيح نزل على قوم يعرفونه ويفهمونه، فهو معروف يُفسّر ويبيّن ويترجم من لغة إلى أخرى، ولكن له كيفيّة؛ تلك الكيفيّة هي الممنوعة، وهي المجهولة، وهي الخفيّة التي لا يُخاض فيها، فالكيف مجهول. هذا تفسير السلف ـ رحمهم الله ـ مالك إمام دار الهجرة، وشيخه ربيعة بن أبي عبدالرحمن، وأم سلمة رضي الله عنها إحدى أمّهات المؤمنين روي عنهم هذا التفسير.

أمّا المعتزلة والنّفاة فقد حرّفوا هذه اللفظة، وجعلوها بمعنى الاستيلاء، فقالوا: استوى، أي: استولى.

وردَّ عليهم بعض علماء أهل السنّة، فقالوا: الاستيلاء عام، ليس خاصًا، فالله مستولٍ على جميع المخلوقات لا على العرش وحده، وإنّما خصّ الله الاستواء بالعرش، وأنتم تجعلون الاستواء بمعنى الاستيلاء، ولا خصوصيّة للعرش بذلك، وبذلك يبطل تأويلهم.

فعرفنا بذلك أنّ هذه الأنواع أنواع صريحة في أنّ الله سبحانه وتعالى فوق عباده، كما أخبر في هذه الأنواع من الأدلّة وغيرها.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٠٣).

قال الشارح:

الحَادِي عَشَر: التَّصْرِيحُ بِرَفْعِ الأَيْدِي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِيّ مِنْ عَبْدِهِ إذا رفعَ إليهِ يديهِ أَنْ يَرُدَّهُما صِفْرًا»[١].

وَالقَوْلُ بِأَنَّ العُلُوَّ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ فَقَطْ بَاطِلٌ بِالضَّرُورَةِ وَالْفِطْرَةِ، وَهَذَا يَجِدُهُ مِنْ نَفْسِهِ كُلُّ دَاعٍ، كَمَا يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الثَّانِي عَشَر: التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَالنُّزُولُ المَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ.

الثَّالِثُ عَشَر: الإِشَارَةُ إِلَيْهِ حِسًّا إِلَى الْعُلُوِّ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ وَبِمَا يَجِبُ لَهُ، وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ البَشَرِ، لَـمَّا كَانَ بِالمَجْمَعِ الأَعْظَمِ الَّذِي لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ مِثْلُهُ، فِي اليَوْمِ الأَعْظَمِ، فِي المَكَانِ الأَعْظَمِ، قَالَ لَهُم: «أَنْتُمْ مَسْؤولُونَ عَنِّي، فَمَاذا أَنْتُم قائِلُونَ؟»، قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَرَفَعَ أُصْبُعَهُ الْكَرِيمَةَ إِلَى السَّمَاءِ، رَافِعًا لَهَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهَا وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، قَائِلًا: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[٢]. فَكَأَنَّا نُشَاهِدُ تِلْكَ الأُصْبُعَ الْكَرِيمةَ وَهِيَ مَرْفُوعَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ اللِّسَانَ الْكَرِيمَ وَهُوَ يَقُولُ لِمَنْ رَفَعَ أُصْبُعَهُ إِلَيْهِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». وَنَشْهَدُ أَنَّهُ بَلَّغَ البَلَاغَ المُبِينَ، وَأَدَّى رِسَالَةَ رَبِّهِ كَمَا أَمَرَ، وَنَصَحَ أُمَّتَهُ غَايَةَ النَّصِيحَةِ، فَلَا يُحْتَاجُ مَعَ

---

(١) أخرجه أبوداود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وأحمد (٥/ ٤٣٨) من حديث سلمان ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.

بَيَانِهِ وَتَبْلِيغِهِ وَكَشْفِهِ وَإِيضَاحِهِ إِلَى تَنَطُّعِ الْمُتَنَطِّعِينَ، وَحَذْلَقَةِ الْمُتَحَذْلِقِينَ! وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الرَّابِعُ عَشَرَ: التَّصْرِيحُ بِلَفْظِ «الأَيْنَ»، كَقَوْلِ أَعْلَمِ الْخَلْقِ بِهِ، وَأَنْصَحِهِمْ لِأُمَّتِهِ، وَأَفْصَحِهِمْ بَيَانًا عَنِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ، بِلَفْظٍ لَا يُوهِمُ بَاطِلًا بِوَجْهٍ: «أَيْنَ اللَّهُ»، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ[1].

الْخَامِسُ عَشَرَ: شَهَادَتُهُ ﷺ لِمَنْ قَالَ: إِنَّ رَبَّهُ فِي السَّمَاءِ؛ بِالْإِيمَانِ.

السَّادِسُ عَشَرَ: إِخْبَارُهُ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ رَامَ الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ لِيَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى، فَيُكَذِّبَهُ فِيمَا أَخْبَرَهُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ، فَقَالَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، فَمَنْ نَفَى الْعُلُوَّ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ فَهُوَ فِرْعَوْنِيٌّ، وَمَنْ أَثْبَتَهُ فَهُوَ مُوسَوِيٌّ مُحَمَّدِيٌّ.

السَّابِعُ عَشَرَ: إِخْبَارُهُ ﷺ أَنَّهُ تَرَدَّدَ بَيْنَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَبَيْنَ رَبِّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ بِسَبَبِ تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ، فَيَصْعَدُ إِلَى رَبِّهِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مُوسَى عِدَّةَ مِرَارٍ[2].

الثَّامِنُ عَشَرَ: النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى رُؤْيَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَهُ تَعَالَى مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ كَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ، وَلَا يَرَوْنَهُ إِلَّا مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا قَالَ ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ، إِذْ سَطَعَ

---

(١) منها: سؤاله للجارية في الحديث المتقدم تخريجه (٣/ ٤٩).

(٢) كما ورد في حديث الإسراء والمعراج، وقد تقدم بتمامه فيما مضى.

لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا رُؤُسَهُمْ، فَإِذَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِم، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، سَلامٌ عَلَيْكُم، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨]، ثُمَّ يَتَوَارَى عَنْهُم، وَتَبْقَى رَحْمَتُهُ وبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي دِيَارِهِمْ». رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ»(١)، وَغَيْرُه(٢)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ﷺ.

قال الشيخ:

هذه أيضًا أنواعٌ من الأدلّة، كل نوع قد يكون تحته عدّة أفراد؛ فمنها:

رفع الأيدي، فقد ورد كثيرًا أنّ النبي ﷺ كان إذا دعا رفع يديه، وكذلك صرّح بذلك في قوله في هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِيّ مِنْ عَبْدِهِ إِذا رفعَ إليهِ يديهِ أَنْ يَرُدَّهُما صِفْرًا»(٣).

ولا شكّ أنّ الذي يرفع يديه إنّما يرفعهما إلى الله جل وعلا، وأنّه بذلك يستعطي ويستجدي، ويسأل ويطلب، فلو لم يكن ربُّه فوقه لما رفع يديه، فهذا دليل على ذلك.

كذلك من الأدلّة: الإشارة بالأصبع إليه في التشهّد، وكذلك في الخطب،

---

(١) لم أعثر عليه في نسخة المسند المطبوع بين أيدينا.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٨)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٦/ ٥٨٣) من رواية ابن أبي حاتم، وقال: «في إسناده نظر».

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢).

ونحو ذلك، فالنبيّ ﷺ لَـمّا خطب في حجّة الوداع وبلّغهم وعلّمهم؛ قَالَ بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَيَنْكُتُهَا إلى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]، ولاشكّ أنّ ذلك استشهاد بربّه الذي هو فوق العباد، وهذا من الأدلّة الواضحة على مسألة العلوّ والفوقيّة.

كذلك من أنواع الأدلّة السؤال بكلمة (أين)، كما في قوله ﷺ: «أين الله؟»، قاله للجارية، وقاله في غير حديث، وذلك دليل على أنّه سبحانه وتعالى فوق العباد، أي: أنّه اتصف بالفوقيّة، ولَـمّا قالت الجارية: في السماء؛ شهد لها بالإيمان، وأفاد بأنّ أهل الإيمان هم الذين يعترفون بأنّ الربّ تعالى فوقهم، وأنّهم يعتقدون ذلك، وأنّ هذا فطرة الله التي فطر عليها الخلق، فهم يؤمنون بها.

كذلك مسألة رؤية المؤمنين لربّهم في الجنّة، هي من المسائل التي اعترف بها أهل السنّة، ووافق عليها الأشاعرة، ونفتها المعتزلة، ولكن موافقة الأشاعرة حجّة عليهم، فهم ـ مع ذلك ـ لا يؤمنون بها إيمانًا حقيقيًا؛ لأنّهم ينكرون مسألة العلو، ولَـمّا أنكروا العلوّ وجاءتهم الأدلّة في أنّ المؤمنين يرونَ ربّهُم، لم يجدوا بدًّا من أن يقولوا بالرؤية اتّباعًا للأئمّة الذين ينتسبون إليهم، ومن جملتهم الأشعري الذي يقولون إنّ هذا معتقده، ولكن فسّروا الرّؤية بالمكاشفات القلبيّة، أو بالرؤية القلبيّة، أو برؤية أنواره، أو ما أشبه ذلك، فلم يثبتوا رؤيةً حقيقيّة؛ وذلك لأنها تردّ على مذهبهم بدحضه. وقد تكاثرت الأدلّة الصريحة التي تدلّ على إثبات الرؤية؛

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥٢).

وأن بعض المؤمنين يرون ربّهم، وهي معروفة مشهورة تقدّم بعضها.

وبكلّ حال، فالأدلّة التي ذكرت وغيرها أنواع كثيرة دالّة على أنّ الله تعالى موصوف بأنّه فوق عباده، وبأنّه هو العليّ الأعلى، ومتى اعتقد المسلم هذا الاعتقاد الذي هو علوّ الله تعالى على خلقه وفوقيّته؛ فإنّه يستحضر دائمًا أن الله فوق عباده، وأنّه مع ذلك يسمعهم، ويراهم، ويطّلع عليهم، ويعلم مناجاتهم، ويعلم أقوالهم؛ فيزداد خشية وطاعة لله تعالى، ويعرف بأنّه أهل التقوى وأهل المغفرة.

قال الشارح:

وَلَا يَتِمُّ إِنْكَارُ الفَوْقِيَّةِ إِلَّا بِإِنْكَارِ الرُّؤْيَةِ، وَلِهَذَا طَرَّدَ الجَهْمِيَّةُ النَّفْيَيْنِ، وَصَدَّقَ أَهْلُ السُّنَّةِ بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا، وَأَقَرُّوا بِهِمَا، وَصَارَ مَنْ أَثْبَتَ الرُّؤْيَةَ وَنَفَى العُلُوَّ مُذَبْذَبًا بَيْنَ ذَلِكَ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، وَهَذِهِ الأَنْوَاعُ مِنَ الأَدِلَّةِ لَوْ بُسِطَتْ أَفْرَادُهَا لَبَلَغَتْ نَحْوَ أَلْفِ دَلِيلٍ، فَعَلَى المُتَأَوِّلِ أَنْ يُجِيبَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ! وَهَيْهَاتَ لَهُ بِجَوَابٍ صَحِيحٍ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ!

وَكَلَامُ السَّلَفِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ العُلُوِّ كَثِيرٌ جِدًّا، فَمِنْهُ: مَا رَوَى شَيْخُ الإِسْلَامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِيُّ فِي كِتَابِهِ «الفَارُوق»، بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي مُطِيعٍ البَلْخِيِّ: أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا حَنِيفَةَ عَمَّنْ قَالَ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الأَرْضِ؟ فَقَالَ: قَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، قُلْتُ: فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ عَلَى العَرْشِ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا أَدْرِي العَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ: هُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، فَمَنْ أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، فَقَدْ كَفَرَ. وَزَادَ غَيْرُهُ: لِأَنَّ اللَّهَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَهُوَ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَلَ. انْتَهَى[1].

وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، فَقَدْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ طَوَائِفُ مُعْتَزِلَةٌ وَغَيْرُهُمْ، مُخَالِفُونَ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنِ اعْتِقَادَاتِهِ، وَقَدْ يُنْتَسَبُ إِلَى مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِي بَعْضِ اعْتِقَادَاتِهِمْ. وَقِصَّةُ أَبِي يُوسُفَ فِي اسْتِتَابَتِهِ لِبِشْرٍ المِرِيسِيِّ لَمَّا أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فَوْقَ العَرْشِ مَشْهُورَةٌ. رَوَاهَا

---

(١) انظر: الفقه الأكبر (ص١٣٥).

عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَغَيْرُهُ.

وَمَنْ تَأَوَّلَ «فَوْقَ»، بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادِهِ وأَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَأَنَّه خَيْرٌ مِنَ الْعَرْشِ وَأَفْضَلُ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: الأَمِيرُ فَوْقَ الوَزِيرِ، وَالدِّينَارُ فَوْقَ الدِّرْهَمِ، فَذَلِكَ مَا تَنْفِرُ عَنْهُ العُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَتَشْمَئِزُّ مِنْهُ القُلُوبُ الصَّحِيحَةُ. فَإِنَّ قَوْلَ القَائِلِ ابْتِدَاءً: اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ عِبَادِهِ، وَخَيْرٌ مِنْ عَرْشِهِ؛ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ: الثَّلْجُ بَارِدٌ، وَالنَّارُ حَارَّةٌ، وَالشَّمْسُ أَضْوَأُ مِنَ السِّرَاجِ، وَالسَّمَاءُ أَعْلَى مِنْ سَقْفِ الدَّارِ، وَالجَبَلُ أَثْقَلُ مِنَ الحَصَى، وَرَسُولُ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ فُلَانٍ اليَهُودِيِّ، وَالسَّمَاءُ فَوْقَ الأَرْضِ!! وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَمْجِيدٌ وَلَا تَعْظِيمٌ وَلَا مَدْحٌ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَرْذَلِ الْكَلَامِ وَأَسْمَجِهِ وَأَهْجَنِهِ! فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَلَامِ اللَّهِ، الَّذِي لَو اجْتَمَعَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، لَمَا أَتَوا بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا!! بَلْ فِي ذَلِكَ تَنَقُّصٌ كَمَا قِيلَ فِي المَثَلِ السَّائِرِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا[1]

وَلَو قَالَ قَائِلٌ: الجَوْهَرُ فَوْقَ قِشْرِ البَصَلِ وَقِشْرِ السَّمَكِ؛ لَضَحِكَ مِنْهُ العُقَلَاءُ، لِلتَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، فَالتَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ المُقَامُ يَقْتَضِي ذَلِكَ، بِأَنْ كَانَ احْتِجَاجًا عَلَى مُبْطِلٍ، كَمَا فِي قَوْلِ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]،

---

(١) ذكر نحوه الثعالبي في يتيمة الدهر (٥/ ٢٩٩) ونسبه إلى أبي درهم البندنيجي، وفيه:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَزْرِي بِهِ الفَتَى ... إِذَا قَالَ هَذَا السَّيْفُ أَمْضَى مِنَ العَصَا

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٣].

قال الشيخ:

يبيّن الشارح بهذا الردّ على هؤلاء المتأوّلين؛ وذلك لأنّهم لما جاءتهم هذه الأدلّة، التي يقول: لو بسطت أفرادها لبلغت ألف دليل، وأنّهم يعجزون عن أن يجيبوا عنها دليلًا دليلًا، يقول إنّهم: سلكوا للتخلّص منها مسالك رديئة، فالذين قالوا مثلًا: إنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، المراد: خيرٌ من عباده، ومعنى فوقهم: خير منهم، كما يُقال: هذا الطعام فوق هذا الطعام، يعني: خير منه، أو هذه الشاة فوق هذا الشاة، يعني: أفضل منها، وما أشبه ذلك. فتأوّلوا قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، بمعنى: خير من عباده، وهذا من الكلام البارد الذي لا فائدة فيه، ومَرَّ بنا الكثير من هذه الأمثلة التي يُردّ بها هذا الكلام، ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق حتى يقال: إنّ اللهّ خير من عباده.

وقد سمّاهم الله عباده، فكيف مع ذلك يقال: إن (فوقهم) بمعنى خير منهم!!؟ ثم إنه لا يُقال: إن الملك الذي يملك الكثير من البلاد خيرٌ من المملوك الذي هو عبدٌ ذليل؛ لأنّه لا مناسبة بينهم، ولو قال قائل ذلك لاستحقّ التأديب، كيف يقال: إنّ هذا خيرٌ من عبده؟

وهكذا أيضًا بقيّة الكلام الذي ذكره الشارح عنهم، فهو كلام بارد سمج، يعني: مثل قولهم: السماء فوقنا، والأرض تحتنا، والشمس حارّة، وهي أضوأ من

السراج، فلا مناسبة بينهما حتى يقال ذلك، وضرب الشارح المثل بهذا البيت.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إذا قِيْل إنَّ السَّيْفَ أَمْضى مِنَ العَصا

صحيح أنّ السيف أمضى من العصا، ولكن ينقُص قدر السيف إذا قيل هذا؛ لأنّه لا مناسبة بينهما، فالسيف له قدره، والعصا أنقص وأنقص وأنقص، وكذلك المثل الذي سمعنا؛ لو قال قائل: الجوهر الذي هو من أنفس ما يُدّخر خير من قشر البصل، أو من قشر السمك، صحيح، ولكن يسخر من ذلك العاقل، وأي عاقل إذا سمع هذا استهزأ بقائله، وقال: لا مناسبة بين ذلك، فبذلك يُعرف أنّ هذا الكلام كلامٌ رديءٌ، وأنّه لا مناسبة له، وعلى هذا فإنه ينبغي تفسير هذه الآيات بالمعاني التي تناسبها.

فيقال عن الفوقيّة: إنّها عامّة في فوقيّة القدر، وفوقيّة الذات، وفوقيّة القهر والغلبة، ويقال أيضًا في العلوّ: إنّ الله تعالى عليّ بجميع أنواع العلوّ، ومن ذلك: علوّ الذات، ويقال في بقيّة الأدلّة مثل ذلك، ويقال: إذا اجتمعت هذه الأدلّة بأنواعها التي لو بسطت لبلغت أفرادها ألفَ دليل: كيف إذا اجتمع منها عشرةٌ صعب التخلّص منها، فكيف إذا اجتمع مئة؟ كيف إذا اجتمع ما يقرب من ألف؟ كيف يجيبون عنها ويتخلّصون؟؟

إذًا ليس لهم إلّا أن يسلّموا بهذه الصفة، التي هي صفة العلوّ لله سبحانه وتعالى، وعند ذلك إذا اعترفوا بأنّ الله هو العليّ الأعلى؛ فإنهم يعترفون بصفاته التي منها أنّه قريب منهم، وأنّه مطّلع عليهم، وأنّ علوّه وارتفاعه على خلقه لا يلزم منه غيبة ولا بعد ولا خفاء شيء عليه، كما أخبر بذلك في كتابه

بقولــه تعــالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١]؛ العُزُوْب: بمعنى الغياب، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [المؤمنون:١٧]، أي: أنّه تعالى ليس غافلًا عن عباده، بل هو مطّلع عليهم.

ولّما رفع الصحابة أصواتهم مرّة بالتكبير وكانوا في سفر، قال لهم ﷺ: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّه مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ»(١). أمرهم ـ والحال هذه ـ أن يدعوا ربّهم سرًّا، وأنْ يُناجُوا ربّهُم، وأخبر بأنّهم يذكرونه، وأنّهم يستحضرونه، وأنّه يعلم سرّهم ونجواهم.

فمتى استشعر العبد هذه الصفة التي هي صفة العلوّ والفوقيّة والقهر والغلبة، واستشعر أيضًا صفة القرب والمناجاة ونحو ذلك، حمله هذا الاستشعار كلّه والاستذكار على أنّ يعظم ربّه، وأن يعبده حقّ عبادته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قال الشارح:

وَإِنَّمَا يَثْبُتُ هَذَا المَعْنَى مِنَ الفَوْقِيَّةِ فِي ضِمْنِ ثُبُوتِ الفَوْقِيَّةِ المُطْلَقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقِيَّةُ القَهْرِ، وَفَوْقِيَّةُ القَدْرِ، وَفَوْقِيَّةُ الذَّاتِ، وَمَنْ أَثْبَتَ البَعْضَ وَنَفَى البَعْضَ، فَقَدْ تَنَقَّصَ.

وَعُلُوُّهُ تَعَالَى مُطْلَقٌ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، فَإِنْ قَالُوا: بَلْ عُلُوُّ المَكَانَةِ لَا المَكَانِ؛ فَالمَكَانَةِ: تَأْنِيثُ المَكَانِ، وَالمَنْزِلَةُ: تَأْنِيثُ المَنْزِلِ، فَلَفْظُ: «المَكَانَةِ وَالمَنْزِلَةِ» يُسْتَعْمَلُ فِي المَكَانَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالرَّوْحَانِيَّةِ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ لَفْظُ: «المَكَانِ وَالمَنْزِلِ» فِي الأَمْكِنَةِ الجِسْمَانِيَّةِ، فَإِذَا قِيلَ: لَكَ فِي قُلُوبِنَا مَنْزِلَةٌ، ومَنْزِلَةُ فُلَانٍ فِي قُلُوبِنَا وَفِي نُفُوسِنَا أَعْظَمُ مِنْ مَنْزِلَةِ فُلَانٍ، كَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُم أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ العَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ قَلْبِهِ»[1].

فَقَوْلُهُ: «مَنْزِلَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ»: هُوَ مَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِذَا عُرِفَ أَنَّ: «المَكَانَةَ وَالمَنْزِلَةَ»: تَأْنِيثُ المَكَانِ وَالمَنْزِلِ، وَالمُؤَنَّثُ فَرْعٌ عَلَى المُذَكَّرِ فِي اللفْظِ وَالمَعْنَى، وَتَابِعٌ لَهُ، فَعُلُوُّ المِثْلِ الَّذِي يَكُونُ فِي الذِّهْنِ يَتْبَعُ عُلُوَّ الحَقِيقَةِ، إِذَا كَانَ مُطَابِقًا كَانَ حَقًّا، وَإِلَّا كَانَ بَاطِلًا.

فَإِنْ قِيلَ: المُرَادُ: عُلُوُّهُ فِي القُلُوبِ، وَأَنَّهُ أَعْلَى فِي القُلُوبِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (ص٣٣٣)، وأبو يعلى (٣/ ٣٩٠)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٧)، والحاكم (١/ ٤٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٩٨) من حديث جابر ﷺ.

قِيلَ: وَكَذَلِكَ هُوَ، وَهَذَا العُلُوُّ مُطَابِقٌ لِعُلُوِّهِ فِي نَفْسِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَالِيًا بِنَفْسِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، كَانَ عُلُوُّهُ فِي القُلُوبِ غَيْرَ مُطَابِقٍ، كَمَنْ جَعَلَ مَا لَيْسَ بِأَعْلَى أَعْلَى.

وَعُلُوُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا هُوَ ثَابِتٌ بِالسَّمْعِ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالفِطْرَةِ، أَمَّا ثُبُوتُهُ بِالْعَقْلِ؛ فَمِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: العِلْمُ البَدِيهِيُّ القَاطِعُ بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا سَارِيًا فِي الآخَرِ، قَائِمًا بِهِ كَالصِّفَاتِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَائِمًا بِنَفْسِهِ بَائِنًا مِنَ الآخَرِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَـمَّا خَلَقَ العَالَمَ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَلَقَهُ فِي ذَاتِهِ أَو خَارِجًا عَنْ ذَاتِهِ، وَالأَوَّلُ بَاطِلٌ، أَمَّا أَوَّلًا: فَبِالاتِّفَاقِ، وَأَمَّا ثَانِيًا: فَلِأَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لِلْخَسَائِسِ وَالْقَاذُورَاتِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَالثَّانِي يَقْتَضِي كَوْنَ العَالَمِ وَاقِعًا خَارِجَ ذَاتِهِ، فَيَكُونَ مُنْفَصِلًا، فَتَعَيَّنَتِ المُبَايَنَةُ؛ لأنّ القولَ بأنّه غَيْرُ متّصلٍ بالعالم، وغَيْرُ منفصل عنه غَيْرُ معقول.

الثَّالِثُ: أَنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى لَا دَاخِلَ العَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ يَقْتَضِي نَفْيَ وُجُودِهِ بِالْكُلِّيَّةِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، فَيَكُونُ مَوْجُودًا إِمَّا دَاخِلَهُ وَإِمَّا خَارِجَهُ، وَالأَوَّلُ بَاطِلٌ، فَتَعَيَّنَ الثَّانِي، فَلَزِمَتْ المُبَايَنَةُ.

قال الشيخ:

استكمل الشارح بقية كلام عن العلوّ والفوقيّة، وقد ذكر فيما سبق أن العلوّ ثلاثة أنواع: علوّ الذات، وعلوّ القدر، وعلوّ القهر. كذلك الفوقيّة: فوقيّة القدر،

وفوقيّة القهر، وفوقيّة الذات.

فوقيّة القدر: مثل أن تقول: الذهب فوق الفضّة؛ يعني: فوقها قدْرًا، هذه فوقيّة القدر.

فوقيّة القهر: كأن تقول: الأمير فوق الرَّعيّة؛ يعني: فوقيّة قهر، أي قاهر لهم.

وفوقيّة الذات: كأن تقول: الأمير فوق الكرسي، يعني: أنّه فوقه بذاته.

فنثبت لله تعالى الفوقيّة بأنواعها، والعلو بأنواعه.

وإذا أثبتنا لله فوقية الذات؛ فإننا نثبت مع ذلك قربه، ومعيّته، ومراقبته لعباده، وكونه لا تخفى عليه منهم خافية، بل هو قريب منهم، كما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦].

من هذا يُعرف أنّ الفوقيّة لله تعالى بكلّ الأنواع، فالذين تأوّلوا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام:١٨]، وقالوا: بفوقيّته الغلبة؛ هؤلاء قد استدلّوا بكلمة القهر ليقولوا: هذا نوع من أنواع الفوقيّة.

وقد دلّ على النوع الثاني من أنواع الفوقيّة قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]، فإنّ هذه لا تحتمل أنّها فوقيّة القهر، بل هي فوقيّة الذات، فهم يخافون ربّهم، وربّهم فوقهم، معنى ذلك أنّه مطّلع عليهم وقريب منهم.

وكذلك العلوّ قد يُستعمل بمعنى الغلبة، كما حكى الله تعالى عن فرعون أنّه قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤]، فأراد بالعلوّ هنا الغلبة، أي: أنا الغالب، وأنا المتصرّف، وأنا المالك، وهذا نوع من أنواع العلوّ.

فالله تعالى وصف نفسه بقوله: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠]، فنقول الأعلى: علوّ غلبة، وعلوّ قهر، وعلو قدر وذات، له أنواع العلوّ كلّها، ولا يلزم من ذلك أن يكون محتاجًا لشيء من مخلوقاته، بل هو غنيّ عن العرش وما دونه، كما تقدّم.

وقد ذكرنا أنّ العلوّ صفة دلَّ عليها العقل والفطرة، كما دلّ عليها السّمع الذي هو النقل، والنصوص التي وردت دالّة على صفة العلو أكثر من أن تحصر، والفطرة والعقل دالٌّ لكلّ عاقل على صفة العلوّ.

أما في صفة الاستواء فدلّ عليها النقل؛ دلّت عليها نصوص الآيات الصريحة التي لا تحتمل التأويل، وقد ذكر العلماء بتوسّع آيات الاستواء، مما يدلّ على أنّهم متّفقون على دلالتها على العلوّ؛ حيث إنّها عُدّيت بـ (على): ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وكلمة (على) تدلّ على الفوقيّة، أي: فوق العرش.

فسّروها بأربعة تفاسير: قال بعضهم: استوى على العرش يعني: استقرّ عليه، وقال آخرون: ارتفع عليه، وقال آخرون: علا، وقال البعض: صعد.

كما نظم ذلك ابن القيّم في «النونيّة»[1] بقوله:

وَلَقَدْ أَتَىٰ فِي عَشْرِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَنْـ ـــقُولِ فِي فَوْقِيَّــةِ الرَّحْمَـــنِ
مَـعَ مِثْلِهَـا أَيْـضًا يَزِيـدُ بِوَاحِـدٍ هَـا نَحْـنُ نَسْرُدُهَا بِـلَا كِتْمَانِ

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٣٩٦).

مِنْهَا اسْتِوَاءُ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي سَبْعٍ أَتَتْ فِي مُحْكَمِ القُرْآنِ
وَكَذَلِكَ اطَّرَدَتْ بِلَا لَامٍ وَلَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى اللامِ فِي الأَذْهَانِ
لَأَتَتْ بِهَا فِي مَوْضِعٍ كَيْ يُحْمَلُ البَاقِي عَلَيْهَا بِالبَيَانِ الثَّانِي
وَنَظِيرُ ذَا إِضْمَارُهُمْ فِي مَوْضِعٍ حَمْلًا عَلَى المَذْكُورِ فِي التِّبْيَانِ

اطَّردت في سبع مواضع بلا لام، ولم تمرّ في موضع واحد باللام (استولى).

والسلف فسّروها بأربعة تفاسير، وذكر ذلك في قوله[1]:

وَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيْهَا أَرْبَعٌ قَدْ حُرِّرَتْ لِلْفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِيَ اسْتَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ تَفَعَ الَّذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعَدَ الَّذِي هُوَ رَابِعٌ وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيْبَانِي
يَخْتَارُ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ أَدْرَى مِنَ الجَهْمِيِّ بِالقُرْآنِ

أبو عبيدة هو: معمر بن المثنّى من علماء اللغة، فسّر قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: صعد. وذكروا أنّه طَرَقَ جمعٌ من أصحابه الباب، وكان بغرفة في أعلى بيته، فأطلّ عليهم من فوق، وقال: استووا، أي: ارتفعوا واصعدوا إليّ.

وعلى كل حال، فإن الاستواء دلّ عليه النقل، ولا يخالفه العقل، وبقيّة الأدلّة تؤيّد العقل، فعُرِفَ بذلك أنّ الاستواء دلّ عليه السمع، وأنّ العلو قد دلّ عليه السمع الذي هو النصوص، والعقل الذي هو الفطرة، وأنّ تأويلات المتأوّلين بأنّ

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٤٤٠).

المراد علوّ المكانة وعلوّ المنزلة، وأنّ هذا مثل قولهم: فلان له منزلة في قلبي، أو مكانة في نفسي، وفسّروا أنّ العلوّ علوّ المكانة.

نقول: هذا خلاف الظاهر، وإذا قلنا: إنّ الله فوق عباده لم يلزم أن يكون محتاجًا لشيء من مخلوقاته، بل هو سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وكما قال الشارح ـ رحمه الله ـ: (المَكَانَةُ وَالمَنْزِلَةُ: تَأْنِيثُ المَكَانِ وَالمَنْزِلِ)، وعلى هذا يكونوا قد أثبتوا مكانًا ومنزلًا، وسواء كان هذا المكان في قلوب العباد أو فوق العباد، لازم أنهم قد أثبتوه.

ثم من وجوه دلالة العقل ـ كما تقدم ـ فقد ذكر الشارح أنّ العقل دلّ على انفصال الخالق عن المخلوق وتميزه عنه، وأنه لا يمكن أن يكون الخالق مختلطًا بالمخلوق، فإن ذلك يلزم منه أنه محل لحلول الحوادث، وأن قول الفلاسفة لا داخل العالم ولا خارجه قول بالنفي المحض، فالشيء الذي لا داخل العالم ولا خارجه هذا هو المعدوم حقًا، ويكون قولهم هذا قولًا بالنفي المحض. فيكونون لا يثبتون إلهًا ـ تعالى الله عن قولهم ـ بخلاف أهل السنة، الذين أثبتوا أنه فوق العالم، وأنه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وأنه خلق خلقه متميزين عنه، وهو الذي ابتدأ خلقهم وأنشأهم، وقال لأحدهم: كن فيكون كما أخبر بذلك، والخلق خلقه والأمر أمره، والعباد عليهم أن يعبدوه، وأن يصفوه بصفاته التي هي صفاتُ كمال.

قال الشارح:

وَأَمَّا ثُبُوتُهُ بِالْفِطْرَةِ، فَإِنَّ الخَلْقَ جَمِيعًا - بِطِبَاعِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ السَّلِيمَةِ - يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهِمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ، وَيَقْصِدُونَ جِهَةَ العُلُوِّ بِقُلُوبِهِمْ عِنْدَ التَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ المَقْدِسِيُّ أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا جَعْفَرٍ الهَمَدَانِي حَضَرَ مَجْلِسَ الأُسْتَاذِ أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيِّ المَعْرُوفِ بِإِمَامِ الحَرَمَيْنِ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي نَفْيِ صِفَةِ العُلُوِّ، وَيَقُولُ: كَانَ اللَّهُ وَلَا عَرْشَ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا كَانَ! فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو جَعْفَرٍ: أَخْبِرْنَا يَا أُسْتَاذُ عَنْ هَذِهِ الضَّرُورَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي قُلُوبِنَا؟ فَإِنَّهُ مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللَّه، إِلَّا وَجَدَ فِي قَلْبِهِ ضَرُورَةً تَطْلُبُ العُلُوَّ، لَا يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، فَكَيْفَ نَدْفَعُ هَذِهِ الضَّرُورَةَ عَنْ أَنْفُسِنَا؟

قَالَ: فَلَطَمَ أَبُو المَعَالِي عَلَى رَأْسِهِ وَنَزَلَ! وَأَظُنُّهُ قَالَ: وَبَكَى! وَقَالَ: حَيَّرَنِي الهَمَدَانِي، حَيَّرَنِي الهَمَدَانِي! أَرَادَ الشَّيْخُ: أَنَّ هَذَا أَمْرٌ فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَلَقَّوْهُ مِنَ المُعَلِّمِينَ، يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ طَلَبًا ضَرُورِيًّا يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ، وَيَطْلُبُهُ فِي العُلُوِّ.

وَقَدِ اعْتُرِضَ عَلَى الدَّلِيلِ العَقْلِيِّ بِإِنْكَارِ بَدَاهَتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَهُ جُمْهُورُ العُقَلَاءِ، فَلَوْ كَانَ بَدِيهِيًّا، لَمَا كَانَ مُخْتَلَفًا فِيهِ بَيْنَ العُقَلَاءِ، بَلْ هُوَ قَضِيَّةٌ وَهْمِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ.

وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا الاعْتِرَاضِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَلَكِنْ أُشِيرُ إِلَيْهِ هُنَا إِشَارَةً مُخْتَصَرَةً، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ العَقْلَ إِنْ قَبِلَ قَوْلَكُم، فَهُوَ لِقَوْلِنَا أَقْبَلُ، وَإِنْ رَدَّ العَقْلُ قَوْلَنَا، فَهُوَ لِقَوْلِكُم أَعْظَمُ رَدًّا، فَإِنْ كَانَ قَوْلُنَا بَاطِلًا فِي العَقْلِ، فَقَوْلُكُمْ أَبْطَلُ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُكُمْ حَقًّا مَقْبُولًا فِي العَقْلِ، فَقَوْلُنَا أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا فِي

العَقْلِ، فَإِنَّ دَعْوَى الضَّرُورَةِ مُشْتَرَكَةٌ.

فَإِنَّا نَقُولُ: نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ بُطْلَانَ قَوْلِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ كَذَلِكَ، فَإِذَا قُلْتُمْ: تِلْكَ الضَّرُورَةُ الَّتِي تَحْكُمُ بِبُطْلَانِ قَوْلِنا هِيَ مِنْ حُكْمِ الْوَهْمِ لَا مِنْ حُكْمِ العَقْلِ، قَابَلْنَاكُمْ بِنَظِيرِ قَوْلِكُمْ، وَعَامَّةُ فِطَرِ النَّاسِ -لَيْسُوا مِنْكُمْ وَلَا مِنَّا- يُوافِقُونَنَا عَلَى هَذَا، فَإِنْ كَانَ حُكْمُ فِطَرِ بَنِي آدَمَ مَقْبُولًا، تَرَجَّحْنَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ كَانَ مَرْدُودًا غَيْرَ مَقْبُولٍ، بَطَلَ قَوْلُكُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا بَنَيْتُمْ قَوْلَكُمْ عَلَى مَا تَدَّعُونَ أَنَّهُ مُقَدِّمَاتٌ مَعْلُومَةٌ بِالْفِطْرَةِ الآدَمِيَّةِ، وَبَطَلَتْ عَقْلِيَّاتُنَا أَيْضًا، وَكَانَ السَّمْعُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ مَعَنَا لَا مَعَكُمْ، فَنَحْنُ مُخْتَصُّونَ بِالسَّمْعِ دُونَكُمْ، وَالعَقْلُ مُشْتَرِكٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: أَكْثَرُ العُقَلَاءِ يَقُولُونَ بِقَوْلِنَا، قِيلَ: لَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الَّذِينَ يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ صَانِعَ العَالَمِ لَيْسَ هُوَ فَوْقَ العَالَمِ، وَلَيْسَ فَوْقَ العَالَمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ لَا مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا حَالٌّ فِي الْعَالَمِ، طَائِفَةٌ مِنَ النُّظَّارِ، وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ عَنْهُ ذَلِكَ فِي الإِسْلَامِ: جَهْمُ بنُ صَفْوَانٍ، وَأَتْبَاعُهُ.

قال الشيخ:

مر معنا هذه الدلالة العقلية كما ذكرنا، وهي دلالةٌ على صفة العلو.

وقد ذكر العلماء أن صفة الاستواء دلّ عليها الكتاب والسنة، وأن صفة العلو قد دلَّ عليها الكتاب والسنة والفطرة، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ

عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠]، فالناس مفطورون وقلوبهم موجهة إلى السماء لا يقدرون أن ينكروا ذلك، إذا ناجى أحدهم ربه رفع رأسه، حتى ذكروا أن الدواب إذا أجدبت ترفع رؤوسها إلى السماء، وهذا أيضًا دليل على أنّ هذه الفطرة فطرة عامة، فالخلق المكلَّف وغيره قد فُطر على الخوف والرهبة من الله تعالى فوقه.

وهذه الحكاية من أبي المعالي الجويني وأبي علي الهمداني مشهورة، هذا الجويني عالم مشهور من علماء الشافعية، ولكنه من الأشاعرة، الذين ينكرون صفة العلو، وإن كانوا يقرون بكثير من الصفات، لكن صفة العلو التزموا إنكارها، وحجته: أن الله كان قبل أن يخلق العرش، وهو الآن على ما كان قبل خلق العرش، وهذه الحجة وهمية ليست بلازمة ولا مقنعة.

صحيح أن الله تعالى كان قبل كل شيء، وأنه هو الذي خلق العرش وما دون العرش، وأنه مستغن عن العرش وما دونه، ولا يلزم من استوائه على العرش أنه محتاج إليه أو إلى غيره.

لما تكلَّم الجويني في هذا الجمع الكبير، اعترض عليه الهمداني بهذا الاعتراض، وقال: دعنا من هذا، نحن مضطرون أن نرفع أبصارنا إلى السماء عند الدعاء، فإذا دعا أحدنا ربه، وجد من قلبه ميلًا إلى العلو، لا يلتفت يمنة، ولا يسرة، ولا أمام، ولا خلف، ولا تحت، هذه الضرورة التي نجدها بقلوبنا كيف ندفعها؟ لا نستطيع دفعها، هذه نظريةٌ عقليةٌ راسخة في القلوب.

ولـمّا تكلم الهمداني بهذا حيَّر الجويني، ولم يجد إلا أن يستسلم،

فقال: (حيَّرني الهمداني، حيرني الهمداني).

صحيحٌ أن هذه فطرة فطر اللَّهُ الخلق عليها، لا يستطيعون أن ينكروها، لكن هؤلاء الذين أنكروها أبدًا كانوا مفطورين عليها، وإنما أنكروها عنادًا، وإلا فلا شك أن قلوبهم تميل إلى فوق، ولكنهم لما تلقوا هذه العقيدة عن أكابرهم ومشايخهم لم يجدوا بدًّا من الاستسلام لها، وصرف الاعتراض عليها، هذا هو السبب في كونهم ينكرون ما هو مباشر وما هو منشور.

ثم لقولهم: لو كانت فطرية لاستوى الناس فيها وفي الإقرار بها، فإن الناس كلهم ذوو عقول.

الجواب: قد أقر بها من بقي على فطرته، وأما من تغيرت فطرته، فلا يُلتفت إلى إنكاره؛ وذلك أن هؤلاء المنكرين ممن تغيرت فطرته؛ الله تعالى فطر الناس على معرفته، فتغيرت تلك الفطرة بالبيئة وبالمجتمعات، وبالتربية السيئة فصار لهم حالتان:

إما أنهم مقرون بقلوبهم ولكنهم ينكرون بألسنتهم ما في قلوبهم من الميل إلى الفوقية. وإما أنهم تغيرت فطرتهم، فلم يبقَ في قلوبهم ذلك الميل الذي كان فيها عندما وُلدوا.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الفطرة تتغير بالمجتمعات في قوله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[1]، يعني:

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٩٩).

أنه مولودٌ على الفطرة، التي هي معرفة ربّه، ومعرفة خالقه، وإقراره بالفوقيّة، لكن أبويه ومجتمعه ومعلميه ومدربيه هم الذين يفسدون تلك الفطرة إلى ما يعتقدونه، حتى يصير يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا وثنيًا أو مبتدعًا أو منحلًا أو جهميًا أو غيره.

فإن الله تعالى قد فطر الناس على هذه الفطرة، ولكن هؤلاء أنكروا بزعمهم، وادَّعوا بأن عقولهم لا تدلّ على هذه الفطرة، ولا على هذه العقلية!!

ويُقال في جوابهم أيضًا: أقر بهذه الفطرة وبهذه الخلقة الخلق الكثير، الذين بقوا على عقيدتهم. وأنكرتموها وأنتم على ما أنتم عليه، فيتقابل إقرار هؤلاء، وإقرار هؤلاء، فننظر أيهما أرجح، فنجد أن هؤلاء المقرين في جانبهم النقل من الكتاب والسنة، فيجتمع العقل والنقل، فيكون أرجح من الذين ليس معهم إلا العقل.

ثانيًا: أن عقول هؤلاء دائمًا واهية تتغيّر، وتختلف اختلافًا كثيرًا، فنجد اثنين يتعلمان على معلم واحد ثم يختلفان، فهذا يقول: أنكر عقلي كذا، وهذا يقول: لم ينكره عقلي. وتجد الواحد يبقى مثلًا برهة من الزمن، وهو يقرّ ويعترف بهذا الأمر، ثم تغلب دعوى المجتمعات فتصرفه وينقلب ويقول أنكره قلبي برهة من الزمن!! وقلبك مقرّ به، ثم بعد ذلك أنكره.

وقد يكون العكس؛ إذ يتربى عشرين أو ثلاثين سنة وهو منكر له؛ تقليدًا لمجتمعه، وتقليدًا لمدرسيه ولمعلميه، ثم بعد ذلك يمنّ الله عليه ويرجع إلى العقل السليم فيوافق عليه.

فإذًا: اختلاف عقولهم دليل على عدم اتّزانها، فهذا يقرّ، وهذا ينكر، أو هذا يقر زمنًا ثم ينكر، مما يدل على أن عقولهم ليست معيارًا، إنما المعيار هو الشرع، وكذلك العقول السليمة.

قال الشارح:

وَاعْتُرِضَ عَلَى الدَّلِيلِ الفِطْرِيِّ: أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِكَوْنِ السَّمَاءِ قِبْلَةً لِلدُّعَاءِ، كَمَا أَنَّ الكَعْبَةَ قِبْلَةٌ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ هُوَ مَنْقُوضٌ بِوَضْعِ الجَبْهَةِ عَلَى الأَرْضِ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جِهَةِ الأَرْضِ.

وَأُجِيبَ عَنْ هَذَا الِاعْتِرَاضِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ قَوْلَكُمْ: إِنَّ السَّمَاءَ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الأُمَّةِ، وَلَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَهَذَا مِنَ الأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَلَى جَمِيعِ سَلَفِ الأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا.

الثَّانِي: أَنَّ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ هِيَ قِبْلَةُ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلدَّاعِي أَنْ يَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَسْتَقْبِلُ القِبْلَةَ فِي دُعَائِهِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ[1]، فَمَنْ قَالَ: إِنَّ لِلدُّعَاءِ قِبْلَةً غَيْرَ قِبْلَةِ الصَّلَاةِ، أَوْ إِنَّ لَهُ قِبْلَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا الكَعْبَةُ، وَالأُخْرَى السَّمَاءُ، فَقَدِ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ، وَخَالَفَ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ.

الثَّالِثُ: أَنَّ القِبْلَةَ هِيَ مَا يَسْتَقْبِلُه العَابِدُ بِوَجْهِهِ، كَمَا تُسْتَقْبَلُ الْكَعْبَةُ فِي الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالذَّبْحِ، وَكَمَا يُوَجَّهُ المُحْتَضَرُ وَالمَدْفُونُ؛ وَلِذَلِكَ

---

(١) كما في حديث جابر ﷺ في حجة الوداع، الذي أخرجه مسلم (١٢١٨)، وفيه: «...ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَدَعَاهُ، وَكَبَّرَهُ، وَهَلَّلَهُ، وَوَحَّدَهُ». وكذلك حديث ابن مسعود ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ، فَدَعَا عَلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ». أخرجه البخاري (٣٩٦٠)، ومسلم (١٧٩٤).

سُمِّيَتْ وِجْهَةً، وَالاِسْتِقْبَالُ خِلَافُ الاِسْتِدْبَارِ، فَالاِسْتِقْبَالُ بِالْوَجْهِ، وَالاِسْتِدْبَارُ بِالدُّبُرِ، فَأَمَّا مَا حَاذَاهُ الإِنْسَانُ بِرَأْسِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ جَنْبِهِ، فَهَذَا لَا يُسَمَّى قِبْلَةً، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، فَلَوْ كَانَتِ السَّمَاءُ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ، لَكَانَ الْمَشْرُوعُ أَنْ يُوَجِّهَ الدَّاعِي وَجْهَهُ إِلَيْهَا، وَهَذَا لَمْ يُشْرَعْ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي تُرْفَعُ الْيَدُ إِلَيْهِ لَا يُسَمَّى قِبْلَةً، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، وَلِأَنَّ الْقِبْلَةَ فِي الدُّعَاءِ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ تُتَّبَعُ فِيهِ الشَّرَائِعُ، وَلَمْ تَأْمُرِ الرُّسُلُ أَنَّ الدَّاعِيَ يَسْتَقْبِلُ السَّمَاءَ بِوَجْهِهِ، بَلْ نَهَوْا عَنْ ذَلِكَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوَجُّهَ بِالْقَلْبِ، وَاللَّجَأَ وَالطَّلَبَ الَّذِي يَجِدُهُ الدَّاعِي مِنْ نَفْسِهِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ، وَالْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَأَكْثَرُ مَا يَفْعَلُهُ الْمُضْطَرُّ وَالْمُسْتَغِيثُ بِاللَّهِ، كَمَا فُطِرَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ يَدْعُو اللَّهَ، مَعَ أَنَّ أَمْرَ الْقِبْلَةِ مِمَّا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَالتَّحْوِيلَ، كَمَا تَحَوَّلَتِ الْقِبْلَةُ مِنَ الصَّخْرَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

وَأَمْرُ التَّوَجُّهِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْجِهَةِ الْعُلْوِيَّةِ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَالْمُسْتَقْبِلُ لِلْكَعْبَةِ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ هُنَاكَ، بِخِلَافِ الدَّاعِي، فَإِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ وَخَالِقِهِ، وَيَرْجُو الرَّحْمَةَ أَنْ تَنْزِلَ مِنْ عِنْدِهِ.

وَأَمَّا النَّقْضُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ، فَمَا أَفْسَدَهُ مِنْ نَقْضٍ، فَإِنَّ وَاضِعَ الْجَبْهَةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ الْخُضُوعُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِالذُّلِّ لَهُ، لَا بِأَنْ يَمِيلَ إِلَيْهِ إِذْ هُوَ تَحْتَهُ، هَذَا لَا يَخْطُرُ فِي قَلْبِ سَاجِدٍ، لَكِنْ يُحْكَى عَنْ بِشْرٍ الْمِرِّيسِيِّ أَنَّهُ سُمِعَ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَسْفَلِ!! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَإِنَّ مَنْ أَفْضَى بِهِ النَّفْيُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ لَحَرِيٌّ أَنْ يَتَزَنْدَقَ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ

بِرَحْمَتِهِ، وَبَعِيدٌ مِنْ مِثْلِهِ الصَّلَاحُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]. فَمَنْ لَمْ يَطْلُبِ الاهْتِدَاءَ مِنْ مَظَانِّهِ، يُعَاقَبْ بِالْحِرْمَانِ، نَسْأَلُ اللَّهَ العَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

وَقَوْلُهُ: (وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الإِحَاطَةِ خَلْقَهُ)، أَي: لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَلَا رُؤْيَةً، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِحَاطَةِ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ.

قال الشيخ:

هذا اعتراض اعترض به النفاة، فقالوا: أنتم تقولون: إن رفع الأيدي في الدعاء دليل على صفة العلوّ، وإن الإشارة بالإصبع في التشهّد دليلٌ على صفة العلو. ونحن نجيب ونقول: إنما رُفعت الأيدي إلى السماء؛ لأن السماء قبلة الدعاء، لا أن الله فوق السماء، ولا أن الله فوق العباد؛ إنما السماء قبلة الدعاء كما أن الكعبة قبلة الصلاة. هذا اعتراضهم.

واعترضوا أيضًا بالسجود، فقالوا: السجود وضع الجبهة على الأرض، وهذا دليل على أن الله ليس فوق العباد وإلا لما وضعوا جباههم على الأرض.

والجواب واضح والحمد لله، وخلاصته ـ كما ذكر الشارح ـ: أن قولهم: إن قبلة الدعاء هي السماء، قول باطل، بل الصحيح أن قبلة الدعاء هي قبلةُ

الصلاة، من أراد أن يستجاب دعاؤه استقبل القبلة التي هي الكعبة، وليست السماء هي قبلة الدعاء، ولو كانت قبلة الدعاء لاستقبلها الداعي بوجهه، ولم يكتفِ برفع يديه، فرفع اليدين دليل على أنه يشعر بأن ربه فوقه، وأنه هو الذي يعطيه، والقبلة إنما هي ما يُستقبل بالوجه، كما أن المصلي يستقبل الكعبة أو جهة الكعبة بوجهه.

ثم يُجاب بجواب ثانٍ، وهو: أن القبلة تقبل النسخ، فقبلة الصلاة نُسخت بعد أن كانت إلى بيت المقدس، فحُوّلت إلى الكعبة.

فإذا كانت القِبلةُ تقبلُ النسخ، فدلّ على أن هذه أيضًا تقبل النسخ، وهذا لا يجوز؛ لأنها فطرية، يعني: رفع الأبصار إلى السماء، وكذلك رفع الأيدي إلى السماء، وكذلك تعلق القلوب بمن في السماء، كل هذا أمر فطري، لا يُمكن أن يُنسخ كما نسخت قبلة الصلاة.

ثم يذكر أنهم أجابوا أيضًا عن قولهم: لو كان في السماء لَمَا سجدوا بوجوههم على الأرض.

نقول: السجود على الأرض ليس لأن الله تحت العباد ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكن السجود لأجل التواضع، ولأجل أن يشعر العبد في صلاته أنه متواضع لربه، فإن أعلى شيء في الإنسان هو وجهه، وهو أكرم أعضائه عليه، فإذا وضعه على الأرض تواضعًا وذلًا وخضوعًا، دلَّ ذلك على تعظيمه لربه، وحينئذٍ يرحمه ربه، ويغفر له ذنبه؛ لأنه تواضع هذا التواضع، وشعر من نفسه بالاستكانة والخضوع والفقر والفاقة إلى ربه، وكان ذلك من الأسباب التي

شرعت لأجل أن يشعر العبد في صلاته بالعبودية.

فإن من الصلاة ما يدلّ على العبودية والذل لله، فالقيام فيه ذلٌّ وتواضع، والركوع فيه انحناء وخضوع، والسجود فيه تعبُّد وذلّ وانكسار بين يديّ الله، وليس لأجل الاعتقاد أن الربّ تعالى في جهة التحت، وإنما هذا عقيدة من انتكست فطرته كما نقل الشارح رحمه الله عن بشر بن غياث المريسي، وهو من أكابر المعتزلة والجهمية من أتباع الجهم بن صفوان، الذين ينكرون الصفات، وينكرون أن القرآن كلام الله، وهذه المقالة السيئة التي نقلت عنه تقشعرّ منها الجلود، وهذا دليل على أن زيغ القلوب، والإصابة بالانتكاس من عقوبات الابتداع.

لـمّا طبع الله على قلوبهم وقعوا في هذا الابتداع، فصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، قلّب الله أفئدتهم لـمّا لم يؤمنوا به، فلم يستفيدوا مما سمعوه، تعالى الله عن قولهم وعن معتقداتهم السيئة.

وقد تكرّر أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا على العقيدة السلفية، لم يرتَدَّ منهم أحدٌ أو ينكر شيئًا منها ـ حاشاهم من ذلك ـ ولكن حدث في آخر عهدهم بدعٌ، بعضها أهون من بعض، وأهونها البدعة الأولى التي هي بدعة الخوارج، ثم يليها بدعة القدرية، وقد يكون لهم فيها عذر. وكل هذه حدثت في آخر القرن الأول، ولكن أشنعها وأبشعها البدعة التي حدثت في أوائل

القرن الثاني، بدعة الجهميّة.

نشأت هذه البدعة في خراسان التي تقع الآن في إيران وانتشرت انتشارًا خفيًا، وفي آخر القرن الثاني تمكَّنت من بعض النفوس، وتمكنت في أول القرن الثالث، وحصل ما حصل.

وكان من دعاتها الجعد بن درهم، الذي ضحى به خالد بن عبدالله القسري يوم العيد، ومن دعاتها أيضًا الجهم بن صفوان، وهو الذي ينتسب إليه أهل هذا المذهب، قتلَه سَلم بن أحوز ـ رحمه الله ـ لبدعته، وورثه بشر بن غياث المريسي، وهو أيضًا مبتدع على طريقة الجهم. وتمكن من بعض الولاة فقرِّب وقبل مقالته كثير من المخدوعين، الذين رأوا زخرف قوله وصدَّقوه، حتى أهلكه الله، وقد ذكروا أنه لَـمَّا دُفن في مقبرة من مقابر العراق رُؤي بعض الأموات في المنام وعلى وجهه سفعة من النار أو لفحة منها، فقيل: ما هذا؟ فقال: دفن عندنا بشر المريسي، فالتهبت جهنم على هذا المكان، فنالنا منها هذا اللهب، والعياذ بالله.

ثم ظهر في أواخر القرن الثاني وأول القرن الثالث أحمد بن أبي دؤاد، وهو الذي زين للمأمون الفتنة والدعاء إلى القول بخلق القرآن، فنصر الله الحق وظهر، وخذل الله هذا العدو، فعوقب بإصابته بالفالج في آخر عمره، وبقي ذليلًا مهينًا مهجورًا، لا يحترمه أحد، ولا يعظِّمه أحد، ولما مات لم يوجد من يحمله إلا ثلاثة رجال، والرابع امرأة، وكل ذلك تحقير من الله تعالى لأهل الشر، ولأهل الأهواء والبدع.

أما أهل السنة فإنهم أعزاء، ولهم النصرة والتمكين.

لكن مع الأسف بعد انقضاء القرون الثلاثة المفضَّلة تمكَّن هذا المذهب، وصار أهل القرن الرابع لا يعرفون غيره إلا ما شاء الله، وبقي أهل السنة مستخفين في القرن الرابع وما بعده إلى أن أظهر الله الحق على يد شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن على طريقته ولا يزال لله تعالى بقايا من أهل العلم ومن أهل الدين في كل زمان، ينافحون ويكافحون ويردّون البدع ويردّون على أهلها، وبهم تقوم حجة الله على عباده.

من جملة ما مرَّ بنا في هذه العقيدة: الكلام على صفة العلوّ والفوقية، وقد ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ كثيرًا من الأدلة العقلية والنقلية الشرعية، وفيها أنواع كثيرة من الآيات والأحاديث، وإن لم يستوفِ أحال على الكتب التي استوفت ككتاب «العلو للعليّ الغفار» للإمام الذهبي، وكتب كثيرة استوفت هذه المقالة التي هي صفة العلوّ بأدلّتها، ومنه عرفنا أن المسلم إذا اعتقد هذه الصفة، ودان لله تعالى بأنه العليّ الأعلى، فإن الله تعالى سيتقبّل عبادته، ويضاعف أجره، ويحصل للذين يعتقدونها مخافة ربهم من فوقهم، كما أخبر عن الملائكة بقوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]. فإن المسلم إذا استشعر أن ربه من فوقه، وأنه مطَّلع عليه، فإنه يشعر من نفسه بالذلّ، ولربه بالعزّ والجلال، فيعظِّمه ويراقبه ويخافه، ويعبده حق عبادته. هذا نتيجة تصحيح هذه العقيدة.

قال الطحاوي:

«ونقولُ: إنَّ اللهَ اتَّخَذَ إبْراهيمَ خَليلًا، وكَلَّمَ مُوسى تَكْليمًا، إيمانًا وَتَصْديقًا وتَسْليمًا».

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، الخُلَّةُ: كَمَالُ المَحَبَّةِ، وَأَنْكَرتِ الجَهْمِيَّةُ حَقِيقَةَ المَحَبَّةِ مِنَ الجَانِبَيْنِ، زَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّ المَحَبَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمُنَاسَبَةٍ بَيْنَ المُحِبِّ وَالمَحْبُوبِ، وَأَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ القَدِيمِ وَالمُحْدَثِ تُوجِبُ المَحَبَّةَ! وَكَذَلِكَ أَنْكَرُوا حَقِيقَةَ التَّكْلِيمِ ـ كَمَا تَقَدَّمَ ـ.

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ ابْتَدَعَ هَذَا فِي الإِسْلَامِ هُوَ الجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ، فِي أَوَائِلِ المِئَةِ الثَّانِيَةِ، فَضَحَّىٰ بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ القَسْرِيُّ أَمِيرُ العِرَاقِ وَالمَشْرِقِ بِوَاسِطٍ، خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الأَضْحَىٰ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ تقبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُم، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا، ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ[1]. وَكَانَ ذَلِكَ بِفَتْوَىٰ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ خَيْرًا.

---

(١) تقدم تخريج هذا الأثر (١/ ٤٨).

وَأَخَذَ هَذَا المَذْهَبَ عَنِ الجَعْدِ: الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ، فَأَظْهَرَهُ، وَنَاظَرَ عَلَيْهِ، وَإِلَيْهِ أُضِيفَ قَوْلُ: «الجَهْمِيَّةِ». فَقَتَلَهُ سَلمُ بْنُ أَحْوَزَ ـ أَمِيرُ خُرَاسَانَ ـ بِهَا، ثُمَّ انْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى المُعْتَزِلَةِ أَتْبَاعُ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ، وَظَهَرَ قَوْلُهُمْ فِي أَثْنَاءِ خِلَافَةِ المَأْمُونِ، حَتَّىٰ امْتُحِنَ أَئِمَّةُ الإِسْلَامِ، وَدَعَوْهُم إِلَى المُوَافَقَةِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَصْلُ هَذَا مَأْخُوذٌ عَنِ المُشْرِكِينَ وَالصَّابِئَةِ، وَهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلًا وَمُوسَىٰ كَلِيمًا؛ لِأَنَّ الخُلَّةَ هِيَ كَمَالُ المَحَبَّةِ المُسْتَغْرِقَةِ لِلْمُحِبِّ، كَمَا قِيلَ:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلا[1]

وَلَكِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَخُلَّتَهُ، كَمَا يَلِيقُ بِهِ تَعَالَى، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَيَشْهَدُ لِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»، يَعْنِي نَفْسَهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»[3].

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»[4].

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنَ المَخْلُوقِينَ خَلِيلًا، وَأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ

---

(١) البيت لبشار بن برد، انظر ديوانه (ص٩٧٩).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٤) تقدم تخريجه (١/ ٣٥٩).

ذَلِكَ، لَكَانَ أَحَقَّ النَّاسِ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ، مَعَ أَنَّهُ ﷺ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يُحِبُّ أَشْخَاصًا، كَقَوْلِهِ لِمُعَاذٍ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[(١)]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِلْأَنْصَارِ[(٢)]، وَكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حِبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَابْنُهُ أُسَامَةُ حِبَّهُ[(٣)]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ العَاصِ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قَالَ: فَمِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا»[(٤)].

فَعُلِمَ أَنَّ الخُلَّةَ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ المَحَبَّةِ، وَالمَحْبُوبُ بِهَا لِكَمَالِهَا يَكُونُ مَحْبُوبًا لِذَاتِهِ، لَا لِشَيْءٍ آخَرَ؛ إِذِ المَحْبُوبُ لِغَيْرِهِ هُوَ مُؤَخَّرٌ فِي الحُبِّ عَنْ ذَلِكَ الغَيْرِ، وَمِنْ كَمَالِهَا لَا تَقبَلُ الشَّرِكَةَ وَلَا المُزَاحَمَةَ، لِتَخَلُّلِهَا المُحِبَّ، فَفِيهَا كَمَالُ التَّوْحِيدِ وَكَمَالُ الحُبِّ، وَلِذَلِكَ لَمَّا اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَهَبَ لَهُ وَلَدًا صَالِحًا، فَوَهَبَ لَهُ إِسْمَاعِيلَ، فَأَخَذَ هَذَا الوَلَدُ شُعْبَةً مِنْ قَلْبِهِ، فَغَارَ الخَلِيلُ عَلَى قَلْبِ خَلِيلِهِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَكَانٌ لِغَيْرِهِ، فَامْتَحَنَهُ بِذَبْحِهِ، لِيَظْهَرَ سِرَّ الخُلَّةِ فِي تَقْدِيمِهِ مَحَبَّةَ خَلِيلِهِ عَلَى مَحَبَّةِ وَلَدِهِ، فَلَمَّا اسْتَسْلَمَ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَعَزَمَ عَلَى فِعْلِهِ، وَظَهَرَ سُلْطَانُ الخُلَّةِ فِي الإِقْدَامِ عَلَى ذَبْحِ الوَلَدِ إِيثَارًا لِمَحَبَّةِ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وأحمد (٥/ ٢٤٤)، وابن حبان (٥/ ٣٦٤)، والحاكم (١/ ٢٧٣).

(٢) أخرج البخاري (٣٧٨)، ومسلم (٢٥٠٩) من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: «أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ».

(٣) كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

خَلِيلِهِ عَلَى مَحَبَّتِهِ، نَسَخَ ذَلِكَ عَنْهُ، وَفَدَاهُ بِالذِّبْحِ العَظِيمِ؛ لأَنَّ المَصْلَحَةَ فِي الذَّبْحِ كَانَتْ نَاشِئَةً مِنَ العَزْمِ، وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَى مَا أُمِرَ، فَلَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ المَصْلَحَةُ، عَادَ الذَّبْحُ نَفْسُهُ مَفْسَدَةً، فَنُسِخَ فِي حَقِّهِ، وَصَارَتِ الذَّبَائِحُ وَالقَرَابِينُ مِنَ الهَدَايَا وَالضَّحَايَا سُنَّةً فِي أَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

قال الشيخ:

تكلم الشارحُ ـ رحمه الله ـ على مسألة الخُلَّةِ التي قال الله فيها: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥]، وذكر أن الخلَّة أعلى أنواع المحبة، وأن الخليل في الأصل: هو المحبوب الذي تخلَّلت محبته شغاف القلب، فالخليل هو المحبوب الذي بلغت محبته النهاية، والأخلاَّءُ هم الأحباب، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، يعني: في الآخرة، الذين كانوا متحابين محبة شديدة في الدنيا، إذا لم تكن محبتهم مبنيَّة على التقوى، صار بعضهم في الآخرةِ لبعضهم عدوًّا، ولو كانت تلك المحبَّة والخلَّة وثيقة.

إذًا: الخلَّة أن تتخلل المحبّة شغاف القلب، واستدل الشارح بقول الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِـذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلا

مسلك الروح: يعني دخلت فيما تدخل فيه الروح، والروح تسري في الجسد في العروق والدماء وفي البشر وفي العظم، وفي كل شيء ما عدا الشعر، يخاطب محبوبته، فيقول: إنها تخللت ما تخللته الروح، حتى وصلت إلى شغاف

القلب، ولذا سمي الخليل خليلًا. ويقول الشاعر أيضًا:

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فُرْقَةٍ ... وَكُلُّ الَّذِي دُونَ المَمَاتِ قَلِيلُ

وَإِنَّ افْتِقَادِيَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ... دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومُ خَلِيلُ(١)

الخليل: هو المحبوب.

وذكر أيضًا في قول الله تعالى حكاية عن دعوى الكفار في النار: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٨]، يعني: محبوبًا.

الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلًا، يعني: محبوبًا.

والنبيّ ﷺ له محبوبون، ولكن المحبة الصادقة القوية خالصة لربِّه، بينه وبين ربِّه، وهو قد أحبَّ ربَّه تلك المحبة التي هذه نهايتها، وهذه غايتُها؛ فبقي قلبه ممتلئًا بتلك المحبة التي هي الخلّة، ليس فيه موضع لغيره.

وهكذا يجب على كل مؤمن أن يكون قلبه ممتلئًا بمحبَّة ربه، المحبة التي لا ينازعها غير محبة المحبوب.

عندما اتخذ الله سبحانه إبراهيم - عليه السلام - خليلًا، وأحبّه هذا النوع من المحبة، فإبراهيم - عليه السلام - أحبَّ ربَّه كذلك المحبّة التامّة التي هي أعلى أنواع المحبّة، ولما أعطاه ولده إسماعيل - عليه السلام - ومعلوم أن الولد محبوب في النفس، وأن النفس تميل إليه وتحبّه محبّة طبيعيّة، محبّة شفقة وحنان،

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب قالهما لما ماتت فاطمة رضي الله عنهما. أخرجهما ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٣٤)، والحاكم (٣/ ١٦٣).

تعلق قلب إبراهيم بإسماعيل - عليهما السلام - وأحبَّه، غارَ الرَّبُّ تعالى على خليله ألا يكون في قلبه موضع إلَّا لربّه، أن يكون قلبه منشغلًا بربه، ولا يكون به أية محبة لغير الله تعالى، فعند ذلك امتحنه بأن يذبح ولده، فلمَّا استجاب لربه والتزمْ بأنْ يطيع ربه في هذه المحنة ظهر ذلك الجزء في قلب إبراهيم - عليه السلام - وذلك الاشتراك الذي صار فيه محبة للولد، فصفا قلب إبراهيم - عليه السلام - لربه، وعرف ربه من قلبه أنه ممتلىء بمحبة ربّه، وأنه لا يقدم على محبته محبة المال ولا الولد، ولا خليل ولا غير ذلك، فعند ذلك نسخ الله هذا الأمر كما عرفنا، وفداه بذبح عظيم، هذه هي صفة المحبة، وهي من أعلى الصفات الفعلية.

الله تعالى يحب عباده الصالحين، ويتخذ من يشاء منهم خليلًا، فإبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - هما الخليلان اللذان اتخذهما الله بهذه الخلة التي هي من خصائصهما، وأما بقية الخلق فإنهم يحبون الله تعالى، والله تعالى يحب المؤمنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، كما أخبر بذلك. فالمحبة عامة للمؤمنين، والخلة خاصة بالخليلين، والتي هي من الله تعالى.

هذه الصفة التي هي صفة الخلة بل صفة المحبة عمومًا قد أنكرتها الجهمية؛ أنكروها من الجانبين، فقالوا: الله لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ. أنكروا أن المؤمنين يحبون ربهم، وشبهتهم، يقولون: إن المحبة لا تكون إلا بين اثنين بينهما تجانس، فالإنسان يحب إنسانًا؛ لأنه إنسان، ولأن بينهما تجانس، وليس بين الرب وبين الخلق تجانس. يقولون: الربّ قديم، والإنسان حادث، فما دام أن

بينهما هذا التفاوت، فلا يمكن أن يكون بينهما هذه المحبة التي هي خاصة بالمتجانسين.

وهذه شبهة باطلة، والمؤمنون يجدون في قلوبهم المحبة، ويجدون من ربهم آثار المحبة، إنه تعالى يحب عباده. وأما آثار هذه المحبة فإنه ينصرهم، ويكرمهم، ويقويهم، ويعلي شأنهم، ويعلي كلمتهم، ويوفقهم ويسدِّد خطاهم، أليس ذلك من آثار المحبة؟ إذا رأيت إنسانًا يكرم رجلًا، ويقدره، ويقدسه، ويزوره، ويستزيره، ويهديه، ويقبل هديته، ويمدحه في المجالس، ألست تقول: إنه يحبه؟ تقول: هذا يحبه ذاك، بينهما محبة.

نحن نشهد آثار المحبة من الله تعالى، نشهد أنه يوفق بعض عباده، وأنه ينصرهم، ويؤيدهم، ويقوي عزائمهم، ويقوي قلوبهم، أليس ذلك من آثار المحبة؟ بلى ذلك دليل على أنه أحبهم؛ لأنه أظهرهم، وقواهم، ونصرهم، وأيدهم، كما حصل لأولياء الله تعالى في كل مكان وزمان.

إذًا: نستدل بآثار المحبة على وجودها، وهذا لو لم ترد الأدلة، فكيف إذا وردت الأدلة الشرعية الكثيرة على ذلك؟ قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، اجتمعت المحبّتان: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، هذا رد على المعتزلة في مقولتهم لا يُحِبُّ ولا يُحَبّ. فالآية أثبتت أنه يحبهم ويحبونه، ومن آثار محبته لهم أنه ينصرهم، ويؤيدهم، ويقوي كلمتهم، وآثار محبتهم لربهم أنهم يعبدونه، ويخلصون له العبادة، ويوحِّدونه، ويطيعون أوامره، ويعظمون

شرعه، ويستعدون للقائه، ويعملون بشرائعه كلِّها، ويحذرون من أسباب غضبه، ويرجون أسباب ثوابه، أليس ذلك دليلًا على أنهم يحبونه؟

كذلك محبتهم للنبي ﷺ واجبة عليهم، وهي تابعة لمحبة الله تعالى، يقول النبيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

نحن نحب هذا النبي ﷺ، والكثير يقولون: نعم نحن نحبه، ونشهد أنه رسول الله، لكن لهذه المحبة علامات لابدّ أن تظهر على من يحب النبي ﷺ، ومن أبرز هذه العلامات: طاعته واتباعه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وسنسرد الكلام عن محبته ﷺ في موضع آخر.

ذكر الشارح أيضًا أن الله تعالى كلَّم موسى - عليه السلام - تكليمًا، وقد تقدّم الكلام على القرآن، وأنه كلام الله، وأن الله يتكلّم ويتكلَّم متى شاء، وأن من كلامه القرآن، وأن كلامه لا يفنى ولو كتب بكل أقلام الدنيا لفنيت الأقلام وتكسَّرت، ولو كتب بمياه البحار لنفدت مياه البحار قبل أن تنفد كلمات الله.

فنقول: إن الله خصَّ من عباده من كلّمهم، ومنهم موسى - عليه السلام -

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤) من حديث أنس ﷺ.

قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: اخترتك وفضَّلْتك برسالاتي وبكلامي، وهذه الآية لا يستطيع المعتزلة أن يؤوِّلوها.

أما الآية التي استشهد بها الشارح، وهي قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، ومثلها قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فإنها صريحة في أن الله تعالى قد كلَّم موسى عليه السلام، ومعروف من الكلام أنه مسموع؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولكن المعتزلة لما أنكروا هذه الصفة، تأولوها تأويلًا بعيدًا، وقد ذكر فيما سبق أنهم يقولون: التكليم هو التجريح؛ كلَّمه: أي جرَّحه بأظافر الحكمة. وما أبعد هذا التأويل! ونسوا أن الله تعالى أخبر بأنه اصطفاه برسالته وكلامه، وأن تكرر الآيات يمنع صرفها إلى هذا التأويل البعيد، ونسوا أن التأويل وصرف الآيات إلى هذه الحالة لا يمكن إلا بقرينة ترجح ما تأولوه، وبما أنه ليس هناك قرينة، فلا نقبل منهم هذا التأويل.

وقد ذكر أن الجهم أو أحد تلامذته جاء إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة، وهو من قراء الكوفة وقال له: أريد أن تقرأ هذه الآية هكذا: (وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا)! يريد أن موسى ـ عليه السلام ـ هو الذي كلَّم اللَّهَ، وأن اللَّهَ لم يكلِّم موسى عليه السلام، فجعل اسم «الله» مفعولًا به، أي: منصوب على أنه هو المكَلَّم، فقال أبو عمرو ـ رحمه الله ـ: هب أني أو غيري

قرأها هكذا، فكيف تفعل بقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فبُهت ذلك المعتزلي؛ لأن هذه الآية لا تستطيع المعتزلة تأويلها ولا تحريفها. ويسمى هذا تحريفًا لفظيًا.

والحاصل: أن المعتزلة أنكروا هاتين الصفتين، صفة الخلّة وصفة الكلام، وهذه المقالة اشتهرت عن الجعد بن درهم وهو الذي ضحَّى به خالد القسري أمير واسط ـ بلدة في العراق ـ بعد أن أفتى علماء زمانه بكفره، بعد أن أصرَّ على قوله وعناده، ولم يرجع ولم يقبل، فبعدما خطب رحمه الله نزل وذبحه، يقول ابن القيم في نونيته[1]:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ... قَسْرِيّ يَومَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلاَ مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّانِ

شَكَرَ الضَّحِيَّة كُلّ صَاحِب سنَّةٍ ... لله درّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

أي: أنه جعله ضحيته يتقرب بها إلى الله تعالى.

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ»[2]،

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠). وقد ذكر هذه السلسلة ـ سلسلة التعطيل ـ: ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ١٩)، وابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٧٢).

فأخذها الجهم ونشرها، وإليه نسبت هذه الطائفة، فيقال: جهمية.

وكلمة (الجهم) كلمةٌ مستبشعة، يُقال: إنها مشتقة من جهنم، مما يدل على أن اسمه قريب من هذه الكلمة، وذكر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه أخذ مقالته عن طائفةٍ يُقال لهم السمنية.

وبكل حال أسانيد الجهمي تعود إلى سحرة اليهود وأشباههم! فكيف يترك لها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وعقائد سلف المسلمين؟!

قال الشارح:

وَكَمَا أَنَّ مَنْزِلَةَ الخُلَّةِ الثَّابِتَةِ لِإِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - قَدْ شَارَكَهُ فِيهَا نَبِيُّنَا ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ، كَذَلِكَ مَنْزِلَةُ التَّكْلِيمِ الثَّابِتَةُ لِمُوسَى - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - قَدْ شَارَكَهُ فِيهَا نَبِيُّنَا ﷺ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ[١].

وَهُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ، وَهُوَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَكَيفَ طَلَبَ لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ مِثْلَ مَا لِإِبْرَاهِيمَ، مَعَ أَنَّ المُشَبَّهَ بِهِ أَصْلُهُ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ المُشَبَّهِ؟ وَكَيفَ الجَمْعُ بَيْنَ هَذَينِ الأَمْرَينِ المُتَنَافِيَينِ؟

وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ العُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ عَدِيدَةٍ، يَضِيقُ هَذَا المَكَانُ عَنْ بَسْطِهَا.

وَأَحْسَنُهَا: أَنَّ آلَ إِبْرَاهِيم فِيهِمُ الأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ لَيْسَ فِي آلِ مُحَمَّدٍ مِثْلُهُمْ، فَإِذَا طَلَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِآلِهِ مِنَ الصَّلَاةِ مَا لِإِبْرَاهِيمَ وَآلِهِ وَفِيهِمُ الأَنْبِيَاءُ، حَصَلَ لِآلِ مُحَمَّدٍ مَا يَلِيقُ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَبْلُغُونَ مَرَاتِبَ الأَنْبِيَاءِ، وَتَبْقَى الزِّيَادَةُ الَّتِي لِلْأَنْبِيَاءِ، وَفِيهِمْ إِبْرَاهِيمُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، فَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ المَزِيَّةِ مَا لَمْ يَحْصُلْ لِغَيْرِهِ.

وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا: أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ آلِ إِبْرَاهِيمَ، فَيَكُونُ قَوْلُنَا: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» مُتَنَاوِلًا لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، بَلْ هُوَ مُتَنَاوِلٌ إِبْرَاهِيمَ أَيْضًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]،

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

فَإِبْرَاهِيمُ وَعِمْرَانُ دَخَلَا فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤]، فَإِنَّ لُوطًا دَاخِلٌ فِي آلِ لُوطٍ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٤٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]. فَإِنَّ فِرْعَونَ دَاخِلٌ فِي آلِ فِرْعُونَ.

وَلِهَذَا ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ أَكْثَرُ رِوَايَاتِ حَدِيثِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا فِيهَا: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهَا: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، وَلَمْ يَرِدْ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ» إِلَّا فِي قَلِيلٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ[1]. وَمَا ذَلِكَ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ إِلَّا لِأَنَّ فِي قَوْلِهِ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»، يَدْخُلُ آلُهُ تَبَعًا، وَفِي قَوْلِهِ: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، هُوَ دَاخِلٌ فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ.

قال الشيخ:

مرَّ معنا أن محمدًا ﷺ قد أُعطي مثلما أُعطي الأنبياء قبله، فلما اتخذ الله إبراهيم ﷺ خليلًا اتخذ محمدًا ﷺ خليلًا، كما تقدّم في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيْلًا»[2]، وقد تقدّم أنه ﷺ لم يتّخذ من أمته خليلًا، مع أنه قد أحبَّ قومًا منهم؛ كقوله لمعاذ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[3]، وكتسمية أسامة

---

(١) كما في حديث كعب بن عجرة ﷺ عند البخاري (٣٣٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٨٣).

«حِبّ النَّبِيِّ ﷺ»[١].

ولكن لم يقل إن هذا خليلي، وقال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ»[٢].

أما التكليم: فقد حصل ذلك لنبيِّنا ﷺ لَـمَّا أُسري به؛ كلَّمه الله، منه إليه، وأسمعه كلامه، لَـمَّا فرض خمسين صلاة، قال ﷺ: «فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ فَلَمْ أَزَلْ ارْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّد، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[٣]. ففي هذا أنه كلَّمه تكليمًا، وعلى هذا يكون قد حصل للنبي ﷺ الخلّةُ التي لإبراهيم، والكلام الذي لموسى ـ عليهما السلام ـ وكذلك بقية الفضائل التي لبقية الأنبياء.

ثم ذكر الشارح الإشكال الذي يورده بعض العلماء لقوله في التشهد: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم»، أو «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»، ويقولون: كيف يُسأل للنبي ﷺ مثلما سُئل لإبراهيم، أو مثلما حصل لإبراهيم، يعني: شبيهًا به، والمشبَّه دون المشبَّه به؟

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٦٢٩).

(٣) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

فعلى هذا يكون الذي يحصل لمحمد ﷺ من الصلاة أقل من الذي يحصل لإبراهيم عليه السلام! فكيف يكون ذلك، ومحمد ﷺ أفضل؟

الجواب أن يقال: إن محمدًا ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم؛ ولأجل ذلك يذكر الله قومه بقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، ولما كان في الإسراء ولقيه في السماء السابعة قال: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ»[1]؛ لأنه من ذريته، فهو من آل إبراهيم. وإذا قلنا: «كما صليت على آل إبراهيم»، دخل في ذلك محمد ﷺ، وطلبنا لآل محمد كما طُلِبَ لآل إبراهيم، فلا يصير هناك إشكال إن شاء الله.

قد تكرر أن منبع العقيدة وأصلها هو الإيمان بالغيب، وأن ذلك ينحصر بالأركان الستة التي ذكرها النبي ﷺ في تفسير الإيمان، حيث قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2].

وذكرنا أن أصل ذلك كله هو الإيمان بالله، وأن من آمن بالله ربًا وخالقًا وإلهًا ومعبودًا، التزم بكتابه وبسائر كتبه، والتزم بالإيمان بالعذاب والنعيم الذي وعد به، والتزم بالإيمان بالأمر والنهي الذي شرعه الله، والتزم بالإيمان بالقضاء والقدر الذي قدره وقضاه، والتزم بالإيمان بالبعث والنشور الذي

---

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

أخبر به، وآمن بالرسل، وآمن بالكتب، وآمن بالملائكة، وآمن بالغيب كلّه، ونتج عن الإيمان بذلك العمل، أي: صدق به تصديقًا جازمًا، وعمل بما صدق به، وبما هو قادم عليه، ويتوقف الإيمان بالله تعالى على معرفة الأدلة، ولأجل ذلك كان الأولون يقرئون أبناءهم «الأصول الثلاثة» ويلقنونهم إياها، وهي:

إذا قيل لك: من ربّك؟ فقل: ربّي الله الذي ربّاني وربّى جميع العالمين بنعمته.

وإذا قيل: بمَ عرفت ربّك؟ فقل: عرفته بآياته ومخلوقاته.

وهذه أكبر الدلائل، فمن عرف الله تعالى عرفه بمخلوقاته، وآمن به، ومن آمن به آمن بقضائه بقدره، وآمن بأمره ونهيه، وآمن بوعده ووعيده، وآمن بشرعه وبحكمه، وآمن بكل ما أخبر به، ومتى آمن بذلك وصدق به تصديقًا جازمًا؛ ظهرت آثار ذلك على أعماله، فرأيته مسارعًا للأعمال، ورأيته مستكثرًا من الصالحات، ورأيته مستعدًا للقاء الله، ورأيته عاملًا بما أمر الله، ومبتعدًا عما حرَّم الله، وإذا رأيته ليس كذلك؛ فاعلم أن تصديقه ضعيف، واعلم أن إيمانه ضعيف.

ومن رأيته يترك الأوامر، ويرتكب الكبائر، ويتساهل بالصغائر ويصرّ عليها، فاعلم أن تصديقه ضعيف، وأن إيمانه مشكوك فيه، فإن الإيمان الضعيف يظهر أثره بقلّة الأعمال الصالحة، وباقتراف السيئات وترك المأمورات، والإيمان القوي تظهر آثاره على الأعمال؛ فتجده مسارعًا إلى الخيرات، مستكثرًا منها، يعلم آثارها، ويعلم صلاحها، ويعلم النتيجة التي

يجنيها من ورائها، ويعلم أن ثوابها عظيم، وأن أجرها لا يضيع عند الله، ويعلم أن في تركها الحسرة والندامة. فهذه العلامات التي تعلم بها المصدِّق من المكذِّب، وتعرف بها الإيمان من النفاق.

ومرَّ بنا أن من أركان الإيمان الإيمان بالملائكة، ويدخل في ذلك ما أخبر الله تعالى به عنهم، مع أننا لم نرهم، ولكن نؤمن بهم كما أخبر الله بذلك من الإيمان بالغيب.

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ لَمَّا جَاءَ أَبُو أَوْفَى ﷺ بِصَدَقَتِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»[1]. فَعَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى: «كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»، لَا يَدْخُلُ فِيهِمْ؛ لِإِفْرَادِهِ بِالذِّكْرِ.

وَلَمَّا كَانَ بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشْرَفَ بُيُوتِ العَالَمِ عَلَى الإِطْلَاقِ، خَصَّهُمُ اللَّهُ بِخَصَائِصَ:

مِنْهَا: أَنَّهُ جَعَلَ فِيهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتَابَ، فَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ نَبِيٌّ إِلَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ اتَّخَذَ مِنْهُمُ الخَلِيلَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ جَعَلَ صَاحِبَ هَذَا البَيْتِ إِمَامًا لِلنَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

وَمِنْهَا: أَنَّهُ أَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ بِنَاءَ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ قِيَامًا لِلنَّاسِ، وَمَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، وَجَعَلَهُ قِبْلَةً لَهُمْ وَحَجًّا، فَكَانَ ظُهُورُ هَذَا البَيْتِ مِنْ أَهْلِ هَذَا البَيْتِ الأَكْرَمِينَ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُصَلُّوا عَلَى أَهْلِ هَذَا البَيْتِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخَصَائِصِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) من حديث عبدالله بن أبي أوفى ﷺ.

قال الشيخ:

قد ذكرنا أن من أركان الإيمان الإيمان بالأنبياء والرسل، وأن الأنبياء هم الذين أوحى الله إليهم، وأنزل عليهم شيئًا من شرعه، وأن منهم من كلفه الله بالتبليغ، وأمره بالدعوة، وجعل رسالته مؤكدة في أن يدعو إليها ويبلّغها، وحذّر من أرسل إليهم إذا لم يصدقوه أن يعذّبهم، وأنزل على كل واحد منهم شريعةً مستقلة، فهؤلاء هم رسل الله؛ نؤمن بهم.

ومنهم أنبياء يوحي الله إليهم، ولكن لم يفردهم بشرائع خاصة، بل يحكمون بشرائع من قبلهم، ولكن ينزل عليهم الوحي، ويأمرهم الله به بأوامر تكون موافقة للأوامر التي أوحى بها إلى الأنبياء قبلهم، فهؤلاء أنبياء ولكن ليسوا مكلّفين بالدعوة العامة، ولم يعذِّب من كذّبهم تعذيبًا عامًا كالذين كذّبوا المرسلين.

ورد في حديث أن أبا ذر ﷺ سأل النبي ﷺ: كَمْ وَفَاءُ عِدَّةِ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: **«مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ من ذلك ثَلاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا»**[1]. والله تعالى أخبر في القرآن عن بعضهم؛ عن نحو خمسة وعشرون نبيًّا أو رسولًا، والبقية لم يقصصهم علينا، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١) من حديث أبي أمامة ﷺ. وأخرجه ابن حبان (٢/ ٦٧)، والحاكم (٢/ ٥٩٧)، والبيهقي (٩/ ٤) من حديث أبي ذر ﷺ، وأخرج طرفًا منه الإمام أحمد (٥/ ١٧٨).

﴿ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء:١٦٤].

وأفضل هؤلاء الأنبياء المرسلون منهم، وأفضل المرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم.

وأفضل هؤلاء الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وأفضلهما محمد ﷺ، وهو خاتم الرسل، وهو أفضل الأنبياء وسيد ولد آدم.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ له ميزة، وله فضائل، أثنى الله عليه بها ومدحه بها، وذكر أنه دعا الناس وهو صبي صغير، وبكّتهم ووبّخهم وهو لا يزال في الفتوة، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٦٠]، فهو في ذلك الوقت الذي كسّر فيه أصنامهم لم يزل فتى شابًا، وذلك دليل على أنه قام بالدعوة وهو شاب.

كذلك وقعت له معجزة كبيرة وهي أن الله جعل النار عليه بردًا وسلامًا، وكذلك وهب له الله على الكبر إسماعيل وإسحاق، وأجاب دعوته لما دعا بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات:١٠٠]، فأجاب الله دعوته، وجعل الأنبياء بعده كلّهم في ذرّيّته، فأولاده أنبياء: إسماعيل وإسحاق، وكذلك ابنه يعقوب، وكذلك يوسف بن يعقوب، وهكذا من كان بعده من ذرّيّته إلى أن كان نبيّنا ﷺ، وهو من ذريّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فالكلّ من ذرّيّة إبراهيم، فهم من آل إبراهيم.

ومن فضائله أن الله تعالى جعل على يديه بناء البيت، أمره الله تعالى أن يبنيه بعد أن كان مندرسًا مندثرًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]؛ مكانه يعني: موضعه، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧]، فجعله الله على يديه، وأمره بأن يطهّره بقوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]، وهذه كلّها من الخصائص والميزات، ولما كان بهذا الشرف لم يكن هناك استنكار في أن يُصلَّى على محمد ﷺ كما صُلِّيَ على آل إبراهيم عليه السلام.

قال الطحاوي:

ونُؤمنُ بالمَلائِكَةِ والنَّبيينَ، والكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلى المُرْسَلِينَ، ونَشْهَدُ أَنَّهُم كَانُوا عَلى الحَقِّ المُبينِ.

قال الشارح:

هَذِه الأُمُورُ مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآيات [البقرة: ٢٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

فَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإِيمَانَ هُوَ الإِيمَانَ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ، وَسَمَّى مَنْ آمَنَ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ مُؤْمِنِينَ، كَمَا جَعَلَ الكَافِرِينَ مَنْ كَفَرَ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦]. وَقَالَ ﷺ فِي الحَدِيثِ المُتفقِ عَلَى صِحَّتِهِ، حَدِيث جِبْرِيل وَسُؤاله للنَبيِّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِن باللَّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه»[1].

فَهَذِهِ الأُصُول الَّتِي اتَّفَقتْ عَلَيهَا الأَنْبِياءُ وَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّـهِ عَلَيهِم

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

وَسَلامُهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا حَقِيقَةَ الإِيمَانِ إِلَّا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَأَمَّا أَعْدَاؤُهُمْ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنَ الفَلَاسِفَةِ وَأَهْلِ البِدَعِ، فَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي جَحْدِهَا وَإِنْكَارِهَا، وَأَعْظَمُ النَّاسِ لَـهَا إِنْكَارًا الفَلَاسِفَةُ المُسَمَّونَ عِنْدَ مَنْ يُعَظِّمُهُمْ بِالحُكَمَاءِ، فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا كُتُبِهِ وَلَا مَلَائِكَتِهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ، فَإِنَّ مَذْهَبَهُمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وُجُودٌ مُجَرَّدٌ لَا مَاهِيَّةَ لَهُ وَلَا حَقِيقَةَ، فَلَا يَعْلَمُ الجُزْئِيَّاتِ بِأَعْيَانِهَا، وَكُلُّ مَوْجُودٍ فِي الخَارِجِ، فَهُوَ جُزْئِيٌّ، وَلَا يَفْعَلُ عِنْدَهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَإِنَّمَا العَالَمُ عِنْدَهُمْ لَازِمٌ لَهُ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَإِنْ سَمَّوْهُ مَفْعُولًا لَهُ، فَمُصَانَعَةً وَمُصَالَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ فِي اللَّفْظِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ بِمَفْعُولٍ، وَلَا مَخْلُوقٍ، وَلَا مَقْدُورٍ عَلَيْهِ، وَيَنْفُونَ عَنْهُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ! فَهَذَا إِيمَانُهُمْ بِاللَّهِ.

وَأَمَّا كُتُبُهُ عِنْدَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَصِفُونَهُ بِالْكَلَامِ، فَلَا تَكَلَّمَ وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ، وَالْقُرْآنُ عِنْدَهُمْ فَيْضٌ فَاضَ مِنَ الْعَقْلِ الفَعَّالِ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ زَاكِي النَّفْسِ طَاهِرٍ، متميِّزٍ عَنِ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ بِثَلَاثِ خَصَائِص: قُوَّةِ الإِدْرَاكِ وَسُرْعَتِهِ؛ لِيَنَالَ أَعْظَمَ مِمَّا يَنَالُهُ غَيْرُهُ! وَقُوَّةُ النَّفْسِ؛ لِيُؤَثِّرَ بِهَا فِي هَيُولِي العَالَمِ بِقَلْبِ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ، وَقُوَّةِ التَّخْيِيلِ؛ لِيُخَيِّلُ بِهَا القُوَى العَقْلِيَّةَ فِي أَشْكَالٍ مَحْسُوسَةٍ، وَهِيَ المَلَائِكَةُ عِنْدَهُمْ! وَلَيْسَ فِي الخَارِجِ ذَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ، وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ، وَتَرَى وَتُخَاطِبُ الرَّسُولَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أُمُورٌ ذِهْنِيَّةٌ لَا وُجُودَ لَـهَا فِي الأَعْيَانِ.

وَأَمَّا اليَوْمُ الآخِرُ، فَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ تَكْذِيبًا بِهِ وَإِنْكَارًا لَهُ، وَعِنْدَهُمْ أَنْ هَذَا

العَالَمَ لَا يَخْرَبُ، وَلَا تَنْشَقُّ السَّمَوَاتُ وَلَا تَنْفَطِرُ، وَلَا تنكَدِرُ النُّجُومُ، وَلَا تُكَوَّرُ الشَّمْسُ وَالقَمَرُ، وَلَا يَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيُبْعَثُونَ إِلَى جَنَّةٍ وَنَارٍ! كُلُّ هَذَا عِنْدَهُمْ أَمْثَالٌ مَضْرُوبَةٌ لِتَفْهِيمِ العَوَامِ، لَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي الخَارِجِ، كَمَا يَفْهَمُ مِنْهَا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. فَهَذَا إِيمَانُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ - الذَّلِيلَةِ الحَقِيرَةِ - بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ. وَهَذِهِ هِيَ أُصُولُ الدِّينِ الخَمْسَةُ.

قال الشيخ:

يتمثل الإيمان في الأركان الستة، وقد ذُكرت في القرآن؛ قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذه من أركان الإيمان، وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذه من أركان الإيمان، مدحَ الله تعالى الذين يؤمنون بها، وذمَّ الذين يكذّبون بها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [النساء: ١٣٧]. والمراد بإيمانهم ثم كفرهم: تكذيبهم بعد أن صدَّقوا، أو تصديقهم بشيء ثم تكذيبهم بآخر، أو نحو ذلك، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

أمرنا أن نؤمن بالله، ونؤمن برسله، ونؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء قبلنا، وبالكتاب المنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام، وأخبر بسوء عاقبة من كذب وكفر بهذه الأركان الخمسة، والإيمان بها يستلزم اعتقادها واعتقاد صحتها، فإذا كنا نؤمن بالله تعالى، فإننا نعلم صفاته من كلامه، ومن كلام رسوله، ونؤمن بما جاء في صفاته سبحانه من صفات الكمال، وننزهه مما نزه نفسه عنه من صفات النقص. وهذا كمال الإيمان بالله تعالى.

أما الفلاسفة ونحوهم، فإنهم لم يؤمنوا بالله حقيقة؛ لأنهم إنما يؤمنون بوجود مجرَّد ليس له وجود في الخارج، وإنما هو وجود في الذهن، يرجع في الحقيقة إلى العدم حيث وصفوه بصفات العدم، مما يجلُّ أن يوصف به، وهذا إيمانهم بالله وهم - مع ذلك - يسمون بالحكماء وبالعلماء، وتسميتهم بالفلاسفة؛ لأن الفلسفة عندهم نوع من الحكمة، وهي علم المعتقد الذي يدور على الأدلة، فهو عندهم علم له أهميته، هذا إيمانهم بالله تعالى.

يوجد هذا التفسير في مؤلفات أكابرهم؛ كمؤلفات عالمهم الكبير المشهور ابن سينا، وعالم آخر يقال له «الفارابي»، وآخر يقال له «الطوسي»، وأشباههم، وهؤلاء الذين هم علماء إسلاميون - كما يقال عنهم - معظَّمون ومقدَّسون للأسف عند الكثير في هذه الأزمنة، وكتبهم ذات ثمن رفيع، ولها منزلة عالية عند الكثير؛ وذلك لما فيها - في زعمهم - من الأفكار، ولما فيها من الابتكارات والاختراعات والعلوم العقلية كما يسمونها؛ فلذلك صارت محلَّ تقدير عندهم، مثل كتب ابن سينا سواء التي تتعلق بالطب، أو بالكلام، أو بالعلوم

التي يسمونها علومًا، أو تتعلق بالأحكام، أو غير ذلك. وكذلك كتب العالم الذي يسمونه المعلم الثاني «الفارابي».

وهؤلاء ولو سُمُّوا فلاسفة إسلاميين، لكنهم أبعدوا عن الصواب، وبالأخصّ الإيمان بالغيب، فهم أبعد الناس عنه، فلا يُغترّ بمن يمدحهم، ومن يثني عليهم، ومن يزعم أنهم علماء إسلاميون أجلاء، لهم منزلة رفيعة، ولهم مكانة عند المسلمين، لا يؤبه لذلك.

وكذلك عرفنا إيمانهم ببقية الأركان، وكيف حملوا ذلك على خيالات وأوهام، فالرسل عندهم لم ينزل عليهم الوحي، والرسل عندهم أناس أذكياء وعندهم فطنة، استطاعوا بفطنتهم وبذكائهم أن يلبِّسوا على الناس، وأن يقولوا: أُنزل علينا، وإننا مشرعون بأعلى الشرع، ونحن رسل من الله، ولم يكن هناك رسالة، ولم يكن هناك شرع، وإنما أرادوا أن يكون لهم أتباع، فصار لهم ما أرادوا. هذه عقيدتهم في الرسل، ويسمون ذلك تخييلًا، ولا شكَّ أنهم ما آمنوا بالرسل حقيقة الإيمان.

أما الكتب فماذا يقولون فيها؟ هم لا يعتقدون أنها كلام الله، ولا أن الله يتكلم، ولا أن له صفات حقيقية، ما داموا لا يجعلون له وجودًا، إنما هو وجود في الأذهان، لا وجودًا في الأعيان، فليس لله كلام عندهم، وهذا القرآن هو إما من نظم البشر، أو من تركيب الملك، أو نحو ذلك. فليس لله عندهم كتب منزلة متضمنة لشرعه!!

أما الملائكة، فلا يؤمنون بأن هناك ملائكة، ذوو أرواح، يصعدون

وينزلون ويتكلمون، ويحملون الوحي.

وعندهم أن الروح التي في الإنسان هي حياة عامة في هذا الكون، إذا اتصلت بالمخلوق أحسَّ بالحياة، وإذا انفصلت عنه انتقلَ إلى الوفاة؛ فعندهم أن الملائكة ليس لها حقيقة وجود، بل ليس هناك أفلاك يصعدون بها وينزلون.

وسيأتينا الكلام على الأنبياء والرسل وعلى اليوم الآخر خلافًا لما يقولون من أنه لا حقيقة للبعث، ولا حقيقة لانقضاء الدنيا، بل من معتقد الفلاسفة أنه ليس هناك بعث ولا نشور، ولا حياة للأجساد، ولا جمع لها بعد أن تتفتت، ولا إعادة للأرواح إليها، وليس هناك جنة ولا نار، يُثاب بهذه ويعاقب بهذه، أي: ليس عندهم مبدأ. يقولون: إن هذا العالم لم يزل موجودًا منذ القدم، ولم يسبق بعدم، ويكذبون بخلق آدم، ويقولون: ليس هناك شخص اسمه آدم، خلق من تراب، بل هذا الخلق وهذا الوجود وهذه الأرض قديمة ما سبقت بعدم. هذه عقائد الفلاسفة- كذبوا خبر الله وأخبار الرسل وما جاؤوا به، وخالفهم بذلك أهل السنة وأقروا بها على ما جاءت به، وأخذوا تفاصيلها عن الرسل الذين جاؤوا بهذه الشرائع، وقبلوا بها كما جاءت، وصاروا بذلك أحق باتباع الرسل.

قال الشارح:

وَقَدْ أَبْدَلَتَهَا الْمُعْتَزِلَةُ بِأُصُولِهِمُ الْخَمْسَةِ الَّتِي هَدَمُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الدِّينِ، فَإِنَّهُمْ بَنَوْا أَصْلَ دِينِهِمْ عَلَى الْجِسْمِ وَالْعَرَضِ الَّذِي هُوَ الْمَوْصُوفُ وَالصِّفَةُ عِنْدَهُمْ، وَاحْتَجُّوا بِالصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ الْأَعْرَاضُ عَلَى حُدُوثِ الْمَوْصُوفِ الَّذِي هُوَ الْجِسْمُ، وَتَكَلَّمُوا فِي التَّوْحِيدِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، فَنَفَوْا عَنِ اللَّهِ كُلَّ صِفَةٍ، تَشْبِيهًا بِالصِّفَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْمَوْصُوفَاتِ الَّتِي هِيَ الْأَجْسَامُ، ثُمَّ تَكَلَّمُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي أَفْعَالِهِ الَّتِي هِيَ الْقَدَرُ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ «الْعَدْلَ»، ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي النُّبُوَّةِ وَالشَّرَائِعِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَهِيَ مَسَائِلُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ، الَّتِي هِيَ الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ، وَمَسْأَلَةُ إِنْفَاذِ الْوَعِيدِ، ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي إِلْزَامِ الْغَيْرِ بِذَلِكَ، الَّذِي هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَضَمَّنُوهُ جَوَازَ الْخُرُوجِ عَلَى الْأَئِمَّةِ بِالْقِتَالِ، فَهَذِهِ أُصُولُهُمُ الْخَمْسَةُ، الَّتِي وَضَعُوهَا بِإِزَاءِ أُصُولِ الدِّينِ الْخَمْسَةِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرَّسُولُ.

الرَّافِضَةُ الْمُتَأَخِّرُونَ جَعَلُوا الْأُصُولَ أَرْبَعَةً: التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ وَالنُّبُوَّةَ وَالْإِمَامَةَ.

وَأُصُولُ أَهْلِ السُّنَّةِ تَابِعَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ.

وَأَصْلُ الدِّينِ: الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ - لَمَّا تَضَمَّنَتَا هَذَا الْأَصْلَ - لَهُمَا شَأْنٌ عَظِيمٌ لَيْسَ لِغَيْرِهِمَا، فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ،

قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[١].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[٢] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قَالَ: «بَيْنَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةِ الكِتَابِ، وخَوَاتِيمِ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ».

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ المَكِّيُّ: أَرْكَانُ الإِيمَانِ سَبْعَةٌ، يَعْنِي: هَذِهِ الخَمْسَةَ، وَالإِيمَانَ بِالقَدَرِ، وَالإِيمَانَ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَهَذَا حَقٌّ، وَالأَدِلَّةُ عَلَيْهِ ثَابِتَةٌ مُحْكَمَةٌ قَطْعِيَّةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الإِشَارَةُ إِلَى دَلِيلِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح تأويلات الفلاسفة، ويسمَّون الفلاسفة الإلهيين، يعني: الذين يؤمنون بالإله، ويسمون الذين ينتسبون إلى الإسلام فلاسفة إسلاميين.

ذكر بعد ذلك أركان الإيمان، أو أركان الدين عند المعتزلة، الذين يدّعون بأنهم مسلمون، ويدَّعون أن الحقَّ في جانبهم، ولهم مؤلفاتٌ على مذهبهم ومعتقدهم، وُجدوا وكَثروا في القرن الثالث، ولكن تمكَّنوا بقوة، وسيطروا على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٨).

(٢) برقم (٨٠٦).

أكثر الأمة في القرن الرابع وما بعده، وأصبح وجود أهل السنة قليلًا في تلك القرون، وأركان الدين عند المعتزلة خمسة، ويسمّونها بأسماء حسنة: التوحيد والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ما أحسنها من أسماء! ولكن ماذا تتضمَّن محتوياتها؟ وما تتضمَّنه وما تفسر به فيه الشرّ:

الأصل الأول: التوحيد: فالتوحيد عندهم هو نفي الصفات، ويقولون: إذا أثبتنا سمعًا وبصرًا وقدرة وعلمًا ورحمة ومحبة ويدًا ووجهًا وعلوًّا ونزولًا، لم نثبت واحدًا بل أثبتنا عددًا، فلا نكون موحِّدين، الموحِّد هو الذي يثبت واحد هو الله، إله واحد ولا يجعل له صفات؛ فإن الصفات تكون زائدة على الذات عندهم، ويقولون: إنَّ القِدَم لله، وإنه لو كانت الصفات قديمة، لكان القدماء عددًا. هذه شبههم!!

والجواب: إن الصفة من الموصوف، ولا يلزم من إثباتها تعدّد؛ فتقول مثلًا: جاءني فلان، رجلٌ واحد، ولا تعدّد، ولا تقل: جاءني زيدٌ، ورِجلُه، ورأسُه، ويدُه، وبطنُه، وروحه ونفسه؛ لأنه واحد، يعني: أن الصفة تابعة للموصوف، فلا يلزم من إثبات الصفات إثبات العدد، فبطلت بذلك شبهتهم في إنكارهم الصفات، وزعمهم أن إنكارها هو التوحيد.

الأصل الثاني: العدل: والعدل عندهم هو إنكار القدرة العامة، يقولون: إن الله لا يقدر على خلق أفعال العباد، فكيف يخلقها، ثم يعذب العصاة ويثيب

المطيعين، وهو الذي خلق حركات هؤلاء وحركات هؤلاء.

تقدم الكلام على القدر، وذكرنا هناك أن الله هو الذي خلق أفعال العباد، ولكنه سبحانه، ولو كان الخالق وحده للعبد وعمله، قد أعطى العباد قدرة خاصة يتمكنون بها من مزاولة أعمالهم، وبها تُنسب إليهم، فيُقال: هذا هو المؤمن، وهذا هو الكافر، وهذا هو البرُّ، وهذا هو الفاجر، وهذا هو المصلي، وهذا هو التارك، وهذا هو المزكّي، وهذا هو البخيل؛ تنسب إليهم أعمالهم، ويثابون على حسنها، ويعاقبون على سيئها، وإن كانت خلقًا لله تعالى.

أما المعتزلة، فيقولون: إذا أثبتنا أن الله خلقها، فكيف يعذب عليها؟ بل ننفي خلقها ونقول: لم يخلقها الله، ولا يقدر على خلقها، وليس لله قدرة على أفعال العباد، وليس الله عندهم على كل شيء قدير، وقدرة العبد عندهم تغلب قدرة الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ ولا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، ولا يعطي من يشاء، ولا يمنع من يشاء، كل ذلك عندهم يسمونه العدل، وهذا معتقدٌ باطل.

الأصل الثالث: المنزلة بين منزلتين: فماذا يراد عندهم بذلك؟ يتعلق هذا بأسماء الأحكام والدين، عندنا ـ أهل السنة ـ أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بالذنوب، ولا يدخل في الكفر، بل يُقال للمذنب: مؤمن ناقص الإيمان، ويُقال له: خاسر، ويُقال له: مؤمن بإيمانه، وفاسق بكبيرته، ولا نخرجه من الإيمان كليًّا، ولا ندخله في الكفر، ولا نحكم عليه بالنار، ولا نستحل قتله ولا قتاله، ولا أخذ ماله، ولا سفك دمه؛ لأن معه الأصل الأصيل الذي هو الإيمان بالله

وحده، ولو صدر منه ما صدر.

أما المعتزلة، فيخرجون المذنب من الإيمان ولا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بينهما، فيقولون: ليس بمؤمن وليس بكافر، أي: إننا لا نعامله معاملة المؤمن حتى ولو كان يصلي ويزكي، إذا كان يأكل الربا، أو يزني، أو يشرب الخمر، أو يكذب، أو ما أشبه ذلك. فهم يخرجونه من الإيمان ولا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بين منزلتين، فلو أدخلوه في الكفر لاستحلوا قتله وأخذ ماله، ولكنهم لا يفعلون ذلك، وهذه المنزلة مبتدعة.

وأهل السنة يقولون: إنه لا يخرج من الإيمان، وأن الله تعالى إذا شاء عفا عنه، وإذا شاء عذبه.

الأصل الرابع: الوعيد: ويوردون النصوص التي توعّد الله بها على الكبائر، ويقولون: لا يخلف الله وعده، ولا بد أن تقع تلك النصوص، وتلك العقوبات التي رُتّبت على تلك الذنوب والكبائر، ويُخلّدون أصحاب الكبائر في النار، ويكذبون قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨]. ويقولون: صاحب الكبيرة مخلَّد في النار.

وهذه الطريقة أخذوها من الخوارج، ولكن الخوارج يخرجونه من الإيمان، ويدخلونه في الكفر، ويستحلون دمه وماله، والمعتزلة يخرجونه من الإيمان، ولا يدخلونه في الكفر، ولا يعاملونه في الدنيا معاملة الكفار، ولكن في الآخرة

الخوارج والمعتزلة متفقون على أنه مخلد في النار.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يضمِّنون ذلك الخروج على الأئمّة، يقولون: إذا عصى إمام المسلمين وأصرَّ على معصيته، ولو كانت صغيرة، لا يُقرّه عليه أهل السنة، ولا يخرجون عليه ويقاتلونه، ولكن المعتزلة يسمون ذلك أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

وأهل السنة يقولون: لا نكفِّر الإمامَ، ولا نخرُج عليه ما لم نرَ كفرًا بواحًا، كما أمرنا بذلك النبي ﷺ[1]. هذه أصول الإسلام عند المعتزلة.

أما الرافضة فأصولهم أربعة، وعندهم أيضًا أن الإمامة أصل من أصولهم، وهي عندهم من أقوى أركان دينهم، فالذي لا يؤمن بالإمامة لأهل البيت لا يكون مؤمنًا ولا مسلمًا، ولا يُقبل منه إسلام ولا دين ولا أعمال صالحة.

ويجعلون الأئمّة اثني عشر، وبعدهم ليس لهم أئمّة، إلى هذا اليوم انقطعت الإمامة عندهم، فمن حدود سنة ستين ومائتين من الهجرة ليس لهم إمام، وإمامهم الثاني عشر ينتظرونه إلى اليوم، ويسمّونه المهدي المنتظر، معتقدين أنه دخل سرداب سامراء، وصاروا ينتظرونه في كلّ ليلة، يوقفون

(١) كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ، قال: دَعَانَا رسول اللَّهِ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ في مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قال: «إلا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ من اللَّهِ فيه بُرْهَانٌ». أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

فرسًا عند ذلك السرداب، ويصيحون طول ليلهم: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا. ولا يجيبهم أحدٌ طوال هذه القرون[1].

فهم يؤمنون بأن الأئمّة الاثني عشر من أهل البيت هم الأئمّة، وأنه ليس للناس إمام، وإنه لا تصح الصلاة إلا خلف إمام معصوم، وأن صلاتهم خلفنا لا تُقبل أبدًا، وكذلك صلاتهم خلف غير المعصوم، وهكذا.

وعلى كل حال فهي قواعد باطلةٌ، يُعرف بطلانها بمجرد سماعها.

أما أهل السنة، فإنهم يؤمنون بأن واجب المسلمين طاعة ولاة أمورهم، والسمع والطاعة، والصبر على ما يروا منهم من المخالفات والمعاصي، ما لم يرون كفرًا بواحًا عندهم من الله تعالى فيه برهان، وعند ذلك يخرجون عن طاعتهم، ولا يدخلون في الديانة لهم.

والإيمان بالملائكة والرسل والكتب ونحو ذلك مذكور في الآيات التي مرَّت معنا في أواخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾

---

(١) والغيبة عندهم صغرى وكبرى، فالصغرى - كما يزعمون - لـمّا كان للإمام الثاني عشر في السرداب سفراء يتصل عن طريقهم بقومه، ولـمّا مات آخر السفراء عندهم بدأت الغيبة الكبرى في معتقداتهم الفاسدة، ولقد أحسن من قال:

مَا آنَ لِلسِّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ الَّذِي ... كَلَّمْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَا آنَا

فَعَلَى عُقُولِكُمُ العَفَاءُ فَإِنَّكُمْ ... ثَلَّثْتُمُ العَنْقَاءَ وَالْغِيلَانَا

انظر: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٢/ ٤٨٣).

[البقرة:٢٨٥]، هذه أربعة من أركان الإيمان ذكرها الله في هذه الآية.

وقد ورد حديث فيها، وفي الآية التي بعدها: «مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[1]، أي: أصبحت كافية له عن الأوراد، ومن سأل الله تعالى بها أعطيه؛ لأن الله تعالى أجاب الدعاء الذي ذُكر فيها، إذا قال العبد: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ،قال: فعلت، وإذا قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قال الله تعالى: قد فعلت. وإذا قال: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، قال الله: قد فعلت. وإذا قال: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]، قال الله: قد فعلت[2]. فيعد قراءة هاتين الآيتين تجديدًا للإيمان، وختمًا للآيتين بهذا الدعاء الذي ترجى إجابته إن شاء الله.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشارح:

وَأَمَّا المَلَائِكَةُ، فَهُمُ المُوَكَّلُونَ بِالسَّمواتِ وَالأَرْضِ، فَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي العَالَمِ، فَهِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ المَلَائِكَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]. وَهُمُ المَلَائِكَةُ عِنْدَ أَهْلِ الإِيمَانِ وَأَتْبَاعِ الرُّسُلِ، وَأَمَّا المُكَذِّبُونَ بِالرُّسُلِ، المُنْكِرُونَ لِلصَّانِعِ، فَيَقُولُونَ: هِيَ النُّجُومُ.

وَقَدْ دَلَّ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَصْنَافِ المَلَائِكَةِ، وَأَنَّهَا مُوَكَّلَةٌ بِأَصْنَافِ المَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَّلَ بِالجِبَالِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالسَّحَابِ وَالمَطَرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَائِكَةً تُدَبِّرُ أَمْرَ النُّطْفَةِ حَتَّى يَتِمَّ خَلْقُهَا، ثُمَّ وَكَّلَ بِالْعَبْدِ مَلَائِكَةً لِحِفْظِ مَا يَعْمَلُهُ وَإِحْصَائِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَوَكَّلَ بِالمَوْتِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالسُّؤَالِ فِي القَبْرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالأَفْلَاكِ وَتَعْذِيبِ أَهْلِهَا وَعِمَارَتِهَا مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالجَنَّةِ وَعِمَارَتِهَا وَغِرَاسِهَا وَعَمَلِ آلَاتِهَا مَلَائِكَةً.

فَالمَلَائِكَةُ أَعْظَمُ جُنُودِ اللَّهِ، وَمِنْهُمُ: المُرْسَلَاتِ عُرْفًا، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا، وَالفَارِقَاتِ فَرْقًا، وَالمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا.

وَمِنْهُمُ: النَّازِعَاتِ غَرْقًا، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا.

وَمِنْهُمُ: الصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا.

وَمَعْنَى جَمْعُ التَّأْنِيثِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: الفِرَقُ وَالطَّوَائِفُ وَالجَمَاعَاتُ، الَّتِي مُفْرَدُهَا «فِرْقَةٌ» وَ«طَائِفَةٌ» وَ«جَمَاعَةٌ».

وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ، وَمَلَائِكَةٌ قَدْ وُكِّلُوا بِحَمْلِ العَرْشِ، وَمَلَائِكَةٌ قَدْ وُكِّلُوا بِعِمَارَةِ السَّمَوَاتِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ المَلَائِكَةِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وَلَفْظُ «المَلَكُ» يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مُنَفِّذٌ لِأَمْرِ مُرْسِلِهِ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ الأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ، وَهُمْ يُنَفِّذُونَ أَمْرَهُ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧، ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠].

فَهُمْ عِبَادٌ لَهُ مُكْرَمُونَ، مِنْهُمُ الصَّافُّونَ، وَمِنْهُمُ المُسَبِّحُونَ، لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، لَا يَتَخَطَّاهُ، وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ قَدْ أُمِرَ بِهِ، لَا يُقَصِّرُ عَنْهُ، لَا يَتَعَدَّاهُ، وَأَعْلَاهُمُ الَّذِينَ عِنْدَهُ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠].

قال الشيخ:

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، والملائكة واحدهم مَلَك بفتح اللام، خلق من خلق الله، أرواح لا نراهم، ولا نشك بأنهم يتجسّدون، وأنهم يصعدون وينزلون، وأنهم يتصلون بالإنسان، ويتكلّمون، وأن الملك يتمثّل إنسانًا، ويكلّم النبيّ، وينزل عليه بالوحي.

وقد سمّى الله تعالى منهم في القرآن اثنين في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

سمَّى اللهُ جبريل وميكال، وجبريل قرئ: جبرائيل، وجِبريل، بعدة قراءات، وهو مسمّى واحد.

وذكر الله تعالى ملك الموت في قوله: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة:١١]، وسمِّي في بعض الروايات بعزرائيل[١]، وسمي في الحديث ملك ثالث وهو إسرافيل[٢].

وسمّي ملك رابع وهو مالك، في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وذكر الله تعالى خزنة النار، وخزنة الجنة، في قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ

---

(١) أخرج أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٠٨) عن أشعث بن أسلم قال: «سأل إبراهيم صلوات الله عليه ملك الموت واسمه عزرائيل...». قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٤٧): «وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم». وقد ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ بذلك في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٩) فقال: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون، حتى الملائكة وحتى عزرائيل ملك الموت».

(٢) كما في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله: «اللهم رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ...» الحديث، تقدم تخريجه (٢/ ٢٧٥).

خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الزمر:٧١]، وفي قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ [الملك:٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الزمر:٧٣]، فالملائكة خلق من خلق الله تعالى، لا يُحصي عددهم إلا الله.

لَـمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر:٣٠]، قال المشركون: ما داموا تسعة عشر، فنحن أكثر منهم، سنغلبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر:٣١]، جنوده ـ جل وعلا ـ هم الملائكة، ولا يعلمهم إلا هو.

وورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لها أَنْ تَئِطَّ، ما فيها مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»[١].

وقد مرَّ في كلام الشارح ذكر بعض صفاتهم، وما وُكّلوا به، فمنهم: الموكلون بالمطر وتصريفه، والسحب وتصريفها، وكذلك الموكلون بحفظ بني آدم، كما في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]، وكذلك الموكّلون بحفظ الأعمال، كما في قوله: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، وكذلك الذين ينزلون بالوحي، كما في قوله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٢)، والحاكم (٢/ ٥١٠)، والبيهقي (٧/ ٥٢) من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٥، ١٦]، وصفهم بأنهم سَفَرَةٌ؛ لأنهم وسطاء بين الله ورسله، وأنهم كرام بررة، كذلك أقسم الله بهم في قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]، وفي قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾، أي: الملائكة الذين يصفون صفوفًا، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾، الذين يزجرون السُّحُب ونحوها، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات:١ ـ ٣]، الذين يتلون كلامَ الله ويذكرون الله تعالى به، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات:١]، الذين يُرسلهم الله تعالى ليعرّفوا عباده، وفي قوله: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:١، ٢]، النازعات: التي تنزع أرواح الكفار نزعًا شديدًا، يعني: عند الموت، وهم ملائكة العذاب. والناشطات: التي تنشط أرواح المؤمنين عند الموت نشطًا، وهكذا في الآيات بعدها.

وهذه الأوصاف تبيّن أنواع الملائكة وأعمالهم، فنصدّق بهم، وإن لم نرَهم، لكن نصدّق بأنهم خلقُ الله تعالى، كما أننا نصدّقُ بالجنّ، وبأنهم يدخلون في الإنس، ويداخلونهم، وبأنهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، وإن لم نرَ الجنّ، وإن كذّب بهم من كذّب، وقال: لو كان الجن موجودين لرأيناهم بالمجهر. ونقول: إنهم لا يُرون؛ فهم بمنزلة شعاع النور الذي يشع من الأنوار، ونحوها، فهو ليس جرمًا ولكن يخرقهم البصر، فليس لهم جسد حقيقي حتى ينعكس ويكبّره المكبّر.

فالملائكة والجنّ والشياطين أرواح ليس لهم أجساد تقوم بهم، بينما

الإنسان مركّب من روح وجسد، فإذا خرجت الروح بالموت ما نراها عندما تخرج وتفارق الجسد، يبقى الجسد دون حركة، وليس فيه الروح التي تحركه، فإذا أراد الله إحياءه جمع الجسد مرة ثانية، وأعاد إليه الروح.

وكذا نقول: إن الروح التي يحيا بها الجسد لا يعلم كيفيّتها إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥]، فالأرواح التي ليس لها أجسادٌ تعيش وتتقلّب وتذهب وتجيء، وهي خفيفة الحركة، كالملائكة، وكالجن الذين ذكر الله تعالى إنهم يصلون إلى السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ﴾ [الجن: ٨، ٩]، لا يستغرب أن تكون الملائكة يصعدون إلى السماء في طرفة عين، ويقطعون المسافات الطويلة في لحظة؛ وذلك لخفة أجسادهم، ولأن الله أعطاهم من القوة على الصعود وقطع المسافات ما لم يعطِ الإنسان.

فعلى المسلم أن يصدّق بمثل هذه الأمور وإن كان لم يدركها ببصره؛ وذلك لأنها أخبر عنها الصادق المصدوق ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢].

فتبين بذلك أن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، يجب على المسلم أن يؤمن بوجودهم، ويؤمن بما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه حيث وصفهم بأنهم ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، وبأنهم ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠]، وبأنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، ونحو ذلك من الآيات التي مدحهم بها.

ويجب على المسلم كذلك الإيمان بمن سميّ منهم، والإيمان بأعمالهم التي أسندت إليهم، والإيمان بما نقل من أوصافهم، كل ذلك يدخل في الإيمان؛ لأنه من الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب يعمّ كل شيء غائب عنا أُخبرنا به يقينًا، ويلزمنا أن نصدق به كما وُصفَ لنا، وليس لنا أن نتكلَّف أكثر من ذلك.

ومعلوم أن الملائكة لا يمكننا رؤيتهم، فهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، والذي خلق الأجساد خلق الأرواح، ومعلومٌ أنهم أجسام خفيفة علوية نورانية حيّة متحركة، تسمع وتعقل وتمثل، وتركع وتسجد وتأتمر بأمر الله، وتقطع المسافات الطويلة الشاسعة في زمن قصير، وكل ذلك بقدرة الله الذي أقدرهم على ذلك.

ومرّت بنا مسألة التفضيل بين البشر والملائكة: أيهم أفضل؟ وهي مسألة كلامية، الكلام فيها من باب الجدل، ولكن بعض المتأخرين أخذ يرجح جانب تفضيل البشر حتى تكلّم بعبارات فيها شيء من التنقص والجفاء للملائكة، وأن الملائكة خدم للإنسان، والملائكة دون الإنسان بمرتبة أو مراتب، ولأجل ذلك تكلّم الشارح كغيره على هذه المسألة، وهي مسألة التفضيل بين البشر والملائكة، والمراد بين الصالحين منهم.

فالملائكة كلّهم مخلوقون للعبادة، وكلّهم عابدون، وأمّا البشر الذي هو الإنسان، فإن فيهم الفاسق وفيهم الكافر، وفيهم التقي والمؤمن، وفيهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومثلهم أيضًا قسم من المخلوقات الروحانية، وهم الجن الذين قد ذكر الله عنهم أن فيهم الصالح وغيره، كما قالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن:١١]. وأمّا الشياطين فهم كلّهم شر، وكلّهم كفر؛ فلهذا يقال: إن الجنّ والإنس من كان منهم تقيًا نقيًا مؤمنًا عاملًا للصالحات، التحق بالملائكة، ومن كان منهم شقيًّا عاصيًا، خارجًا عن الطاعة، التحق بالشياطين الذين هم شر محض، ففي الجن شياطين وفي الإنس شياطين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام:١١٢]، أخبر بأنّه في الإنس شياطين، بمعنى أنهم متشيطنة، أي: ملتحقون بالشياطين.

فعلى هذا يكون التفضيل بحسن الأعمال، فمن كان من الإنس من أهل التُّقى، وأهل الورع، وأهل الإيمان والعمل الصالح، وأهل الزهد في الدنيا، التحق بالملائكة، وقد يكون أفضل منهم، ومن كان شقيًا خارجًا عن الطاعة معتديًا، التحق بالشياطين، وقد يكون شرًا منهم.

أما مسألة المفاضلة فيراد بها البعض لا الكلّ، يعني: الصفوة والخيار من بني آدم هم الذين اختُلِف فيهم: هل هم أفضل أو الملائكة؟ ولعلَّ الأقرب أن الأفضل هو من كان لله أكثر عبادة وطاعة، سواء من الملائكة، أو من بني آدم.

قال الشارح:

وَرُؤَسَاؤُهُمُ الأَمْلَاكُ الثَّلَاثَةُ: جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ، المُوَكَّلُونَ بِالحَيَاةِ، فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالوَحْيِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَالأَرْوَاحِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالقَطْرِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الأَرْضِ وَالنَّبَاتِ وَالحَيَوَانِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الخَلْقِ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ.

فَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَسُفَرَاؤُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يَنْزِلُونَ بِالأَمْرِ مِنْ عِنْدِهِ فِي أَقْطَارِ العَالَمِ، وَيَصْعَدُونَ إِلَيْهِ بِالأَمْرِ، قَدْ أَطَّتِ السَّمَوَاتُ بِهِمْ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ لِلَّهِ[1]، وَيَدْخُلُ البَيْتَ المَعْمُورِ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ[2].

قال الشيخ:

يتكلم - رحمه الله - على الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠]، فيذكر أن رؤساءهم ثلاثة.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ١١٨)، وسيأتي في كلام سماحة الشيخ حفظه الله.

(٢) ثبت ذلك في حديث الإسراء الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

وذكر أن جبرائيل ـ عليه السلام ـ موكل بالوحي الذي ينزل به على الأنبياء، وهذا الوحي به حياة القلوب والأرواح، فإن الوحي الذي هو: الكتب التي ينزلها الله تعالى على عباده تكون بها حياة القلوب، وحياة الأرواح وتنعمها، فهو الذي ينزل على الأنبياء.

وقد ذكر اليهود أنه عدو لهم، وقالوا: لأنه ينزل بالعذاب، وينزل بالعقوبات، ونحو ذلك، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٧، ٩٨].

أما ميكائيل ـ وقرأه بعضهم: ميكال ـ فإنه موكل بالقطر، أي: بإنزال المطر، والمطر تحصل به حياة الأرض بعهد موتها، وكذلك يحصل به نمو النبات، ويحصل به حياة الحيوان الذي يأكل من ذلك النبات ويعيش عليه.

وأما إسرافيل فإنه موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، وكثيرًا ما يذكر الله تعالى الصور ويذكر النفخ فيه؛ كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]، وذُكر أن الصور مثل: القرن الكبير، قال بعض العلماء: إن فيه ثقوب بقدر عدد الآدميين، كل ثقب يخرج منه روح ذلك

الإنسان إذا نفخ فيه(١). فعند ذلك تدخل تلك الروح في جسدها بعدما ينبت ذلك الجسد ويعيده الله كما كان.

قوله: (فَهُم)، أي: هؤلاء الملائكة، (رُسُلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ)؛ كما قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، وهم أيضًا سفراؤه بينه وبين عباده، والسفير هو: الواسطة، فهم الذين يبلغون العباد، أي: يبلغون الأنبياء، فهم سفراء بين الله وبين الأنبياء، والأنبياء سفراء بين العباد وبين ربهم، فالملائكة ينزلون بالأمر من عند الله في أقطار العالم، فالأمر الذي من الله تعالى ينزلون به في أي قطر من أقطار العالم، ثم يصعدون إليه بالأمر؛ كما في قول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وكما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]،أي: يعرجون إلى الله تعالى، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، فهم يصعدون بالأوامر إليه ـ سبحانه ـ وهو أعلم بهم، وبما يكون في الأرض، وبما يكتبونه من أعمال بني آدم.

قوله: (قَدْ أَطَّتِ السَّمَوَاتُ بِهِم)، والأطيط: هو صوت الأقتاب، عادة أن الراحلة إذا رُحل عليها، وكان الرحل ثقيلاً يُسمع له أزيز ويُسمع له صوت، أي: أن السماء لكثرة ما فيها من الملائكة فقد أثقلها وجودهم حتى أطت، أي:

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٤١) عن وهب بن منبه، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٦٧).

سُمع لها أطيط.

يقول ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ لِلَّهِ»، وهذا الحديث أخرجه الترمذي[١]، وابن ماجه[٢]، والإمام أحمد[٣] عن أبي ذر ﷺ قال: قَال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ لِلَّهِ سَاجِدًا»، وحسنه الترمذي، ويشهد له حديث حكيم بن حزام عند الطحاوي في المشكل[٤]، وعند الطبراني في الكبير[٥] بسند قوي، وآخر من حديث أنس عند أبي نعيم[٦].

قوله: (وَيَدْخُلُ البَيْتَ المَعْمُورِ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ)، وهذا قطعة من حديث الإسراء المطول الذي في الصحيحين فيه: أن النبي ﷺ قال بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «فَرُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، وإذا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كل يومٍ سَبْعُونَ أَلفَ مَلكٍ لا يَعُودُون إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ».

وقد ذكر الله تعالى البيت المعمور في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ

---

(١) برقم (٢٣١٢).

(٢) برقم (٤١٩٠).

(٣) (٥/ ١٧٣).

(٤) (٢/ ٤٣).

(٥) برقم (٣١٢٢).

(٦) في الحلية (٦/ ٢٦٩).

مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:١ـ ٤]، يعني: أنه بيت في أعلى السَّمَوات، وأنه يدخله كل يوم سبعين ألفًا ليصلوا فيه، ثم لا يعودون إليه، ويدخله في اليوم الثاني مثلهم سبعون ألفًا لا يعودون إليه، ثم في اليوم الثالث آخرون غيرهم سبعون ألفًا، وهكذا من أول الدنيا إلى آخرها، وهذا دليل على أن الملائكة كثير، وأن عددهم لا يحصيه إلا الله تعالى.

قال الشارح:

وَالقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِذِكْرِ المَلَائِكَةِ وَأَصْنَافِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، فَتَارَةً يُقْرِنُ اللَّهُ تَعَالَى اسْمَهُ بِاسْمِهِمْ، وَصَلَاتَهُ بِصَلَاتِهِمْ، وَيُضِيفُهُمْ إِلَيْهِ فِي مَوَاضِعِ التَّشْرِيفِ.

وَتَارَةً يَذْكُرُ حَفَّهُمْ بِالْعَرْشِ، وَحَمْلَهُمْ لَهُ، وَبَرَاءَتَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَتَارَةً يَصِفُهُمْ بِالإِكْرَامِ، وَالْكَرَمِ، وَالتَّقْرِيبِ، وَالْعُلُوِّ، وَالطَّهَارَةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالإِخْلَاصِ.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢١]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات:٨].

وَكَذَلِكَ الأَحَادِيثُ طَافِحَةٌ بِذِكْرِهِمْ؛ فَلِهَذَا كَانَ الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ أَحَدَ الأُصُولِ الخَمْسَةِ الَّتِي هِيَ أَرْكَانُ الإِيمَانِ.

قال الشيخ:

قد أكثر الله تعالى من ذكر الملائكة في القرآن، وكذلك أكثر النبي ﷺ من الأحاديث التي تتعلق بالملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فالله تعالى تارة يقرن اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب:٤٣]، فقد قرن اسمه باسم الملائكة، وصلاته بصلاتهم، وتارة يضيفهم إليه يعني أنهم عبيده؛ كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢]، يعني: ولا يستنكف الملائكة الذين هم عبيد لله تعالى.

وتارة يذكر أنهم يحفون بالعرش وأنهم يحملونه، ويذكر أيضًا براءتهم من الذنوب، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص، وكل هذه مذكورة في القرآن في آيات كثيرة مثل:

قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فها هنا قرن الملائكة بالرب تعالى، أي: قرن اسمه باسمهم.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]، فأشهدهم على إلهيته، وعطف شهادتهم على شهادته، مما يدل على فضلهم.

كذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الأحزاب:٤٣]، فعطف الملائكة عليه، أي: يصلي عليكم وتصلي عليكم ملائكته، وقد ذكر العلماء أن صلاة الله ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى، والصلاة من الملائكة هي الاستغفار، والصلاة من الآدميين الدعاء[1]، وأنه بسبب صلاته وصلاة الملائكة يخرجهم من الظلمات إلى النور، أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر:٧]، وهم الملائكة الذين وكلهم الله أو خلقهم لحمل العرش؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٧]، وقد ذُكر في عظمة خلقهم أدلة كثيرة، ووصفهم النبي ﷺ في الحديث بقوله: «**بَينَ أَظْلافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمْ الْعَرْشُ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلى سَمَاءٍ...**»[2]، فمن يقدر يقدرهم إلا الله تعالى، يحملون هذا العرش، ولا يحملونه إلا بتقوية الله، وقيل: إنهم لا يحملونه إلا بالتسبيح.

(١) تقدمت الإشارة إلى أقوال أهل العلم في معنى الصلاة على العبد من الله عز وجل، ومن الملائكة، ومن المؤمنين (١/ ٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦) من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[الزمر:٧٥]، يعني: أنهم محيطون بالعرش من جهاته، وأن عملهم تسبيح الرب سبحانه وتعالى، فهم عباد لله تعالى خلقهم لعبادته، فامتثلوا بذلك، وقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥، ١٦٦].

ووصفهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، أي: أنهم كرام على الله تعالى، ووصفهم بكل صفات الكمال، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[الأعراف:٢٠٦]، وهم الملائكة وصفهم بأنهم عنده كما يشاء، وزكاهم بأنهم لا يتكبرون عن عبادته، بل يرون أن عبادته أفضل الأفعال، ويرون أنها رفعة وشرف لهم.

وكذلك يسبحونه؛ كما في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، فيقدسونه وينزهونه وله يسجدون، كما في الحديث الذي مضى أن السماء: «**مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ لِلَّهِ سَاجِدًا**»، وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، أي: إذا استكبر الكفار عن الإيمان فإن ربك قد خلق عبادًا له لا يستكبرون عن عبادته، بل يسبحون له دائمًا ليلاً ونهارًا ولا يسأمون أي: لا يملون ولا يتعبون، يقويهم الله تعالى بقوة منه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠، ١١]، أي: الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بحفظ أعمال بني آدم، وصفهم

بالكرم أنهم كرام، ووصفهم أنهم يكتبون أعمال العباد، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

ووصفهم بقوله تعالى: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٦]،أي: موصوفون بالكرم وكذلك بالبر الذي هو الصدق والإخلاص في الأعمال.

وكذلك قال تعالى: ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:٢١]، أي: يشهدون ذلك النعيم، وهم الملائكة.

كذلك أيضًا وصف الشياطين بأنهم محجوبون عن الملأ الأعلى بقوله: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾[الصافات:٨-١٠]، أي: أن الشياطين لا يستطيعون أن يستمعوا إلى الملأ الأعلى.

قال: (وَكَذَلِكَ الأَحَادِيثُ)، أي: النبوية (طَافِحَةٌ بِذِكْرِهِمْ)، أي: بفضائلهم وبما فيهم.

قوله: (فَلِهَذَا كَانَ الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ أَحَدَ الأُصُولِ الخَمْسَةِ الَّتِي هِيَ أَرْكَانُ الإِيمَانِ)، وأركان الإيمان ستة - كما تقدم - ومن جملتها: الإيمان بالملائكة، وقد ذكر الله تعالى الإيمان بالملائكة وجعله من أركان الإيمان في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:١٧٧]، فجعل الإيمان بالملائكة بعد الإيمان باليوم الآخر، وكذلك أنكر على الذين يكفرون بالملائكة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦]، فجاء الكفر بالملائكة مع الكفر بالله، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت:٣٠]، ذُكر أنها إذا أقبل الموت تتنزل عليهم، وأنهم يبشرونهم، ويقولون لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ كما في حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»[1].

وقد مدحهم الله تعالى بصفات شريفة؛ كقوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢]، أي: أن الملائكة لا يأنفون ولا يمتنعون من عبادة الله، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩]، أي: لا يتكبرون عن عبادة الله تعالى، ولا يستحسرون: أي ولا يفترون.

وهكذا قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر:١]، أي: أنه جعلهم رسلًا.

---

(١) أخرجه النسائي (١٨٣٣)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٤)، والحاكم (١/ ٣٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأما خلقهم ففي صحيح مسلم[1] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكُمْ»، وإذا خُلقوا من نور فإنهم نور، وهكذا ثبت في أحاديث المعراج أنه رُفع له ﷺ البيت المعمور في السماء السابعة محاذيًا للكعبة، وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، يدخله هذا العدد العظيم الذي لا يعودون إليه[2].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا فِي السَّمَاءِ مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات:١٦٥]»[3].

ورُوي عن جابر ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدِمٍ وَلا شِبْرٍ وَلا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ، أو مَلَكٌ رَاكِعٌ، أو مَلَكٌ سَاجِدٌ، فإذا كان يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا: سُبْحَانَكَ، ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شيئًا»[4].

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ١٢٥).

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٦٠)، والطبري (٢٣/ ١١١، ١١٢)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٣٢).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٥١).

وقال النبي ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»، هكذا أخرجه أبو داود(١)، والبيهقي في (الأسماء والصفات)(٢)، وغيرهما(٣).

فمن سادة الملائكة جبرائيل ـ عليه السلام ـ فقد وصفه الله تعالى بالأمانة، في قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢٠، ٢١]، وكذلك بحسن الخلق والقوة، ومن شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط بمن فيهن من الأمم، وما معهم من الدواب والحيوانات على طرف جناحه، حتى بلغ عنان السماء، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها بإذن الله تعالى(٤).

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم:٦]، أي: خلق حسن وبهاء وسماع وقوة شديدة، أو ذو قوة واستطاعة، فله قوة وبأس شديد ومكانة ومنزلة عالية رفيعة، وهو السفير بين الله وبين رسله، كان يأتي إلى النبي ﷺ في صفات متعددة، وقد روى الإمام أحمد(٥) عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي

---

(١) برقم (٤٧٢٧) من حديث جابر ﷺ.

(٢) (١/ ٢٨٤) برقم (٨٤٦) من حديث جابر ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٩٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٤٨) من حديث جابر ﷺ، وذكره الذهبي في العلو (ص٩٧) وصححه.

(٤) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٦٧) عن محمد بن كعب القرظي.

(٥) (١/ ٣٩٥).

صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنْ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ»، وروى مسلم[(١)] عن ابن مسعود ﷺ قال: «رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ له ستمائة جَنَاحٍ»، وروى الترمذي[(٢)] عن ابن مسعود ﷺ قال: «رَأَى رسول اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ من رَفْرَفٍ قد مَلأَ ما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «رَأَيتُ جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ مُهْبَطًا قد مَلأَ ما بين الخَافِقَيْنِ، عَلَيْهِ ثِيَابُ سُنْدُسٍ مُعَلَّقٌ بِهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ». رواه أبو الشيخ[(٣)].

ولابن جرير[(٤)] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «جبرائيل عبدالله، ومكيائيل عبدالله، وكل اسم فيه (إيل) فهو عبد الله».

وروى الطبراني[(٥)] عن النبي ﷺ قال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ المَلائِكَةِ؟ جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ»، وعن أبي عمران الجوني أنه بلغه أن جبرائيل أتى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال: «وما لي لا أبكي، ما جفت لي عين منذ خلق الله النار مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها»[(٦)].

---

(١) برقم (١٧٤).

(٢) برقم (٣٢٨٣).

(٣) في العظمة (٢/ ٦٧٨).

(٤) في تفسيره (١/ ٤٣٧).

(٥) في الكبير (١١٣٦١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٢١)، وأخرج نحوه الإمام أحمد في الزهد (ص٧).

ومن سادتهم ميكائيل - عليه السلام - وهو موكل بالنبات والقطر، كما في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «... **فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟ قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ، قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، قُلْتُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: عَلَى قَبْضِ الأَنْفُسِ**»[1]، وروى الإمام أحمد[2] عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال لجبريل - عليه السلام -: «**مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكاً قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ**».

ومن سادتهم إسرافيل، وهو أحد حملة العرش وهو الذي ينفخ في الصور.

وروى الترمذي[3] وحسنه عن أبي سعيد ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قد الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟**»، فكأَنَّ ذلك ثَقُلَ على أَصْحَابِ النبي ﷺ فقال لهم: «**قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، على اللَّهِ تَوَكَّلْنَا**».

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ: «**إن ملكًا مِن حملة العرش يُقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى ومرق رأسه من السماء السابعة العليا**»، رواه أبو نعيم في (الحلية)[4].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١).

(٢) في المسند (٣/ ٢٢٤).

(٣) برقم (٢٤٣١).

(٤) (٦/ ٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وروى أبو الشيخ[1] عن الأوزاعي قال: «ليس أحد من خلق الله ـ عز وجل ـ أحسن صوتًا من إسرافيل، فإذا أخذ في التسبيح قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم».

ومن سادتهم ملك الموت، وليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل، والله أعلم. قاله ابن كثير[2].

وقال: «إنهم بالنسبة إلى ما هيأهم له أقسام: فمنهم حملة العرش، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش، وهم الملائكة المقربون ... ومنهم سكان السموات السبع، يعمرونها عبادة دائبة، ليلاً ونهارًا، صباحًا ومساءً... فمنهم الراكع دائمًا، والقائم دائمًا، والساجد دائمًا، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور، كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم، ومنهم الموكلون بالجنان، وإعداد الكرامة لأهلها، وتهيئة

---

(١) في العظمة (٣/ ٨٦).

(٢) في البداية والنهاية (١/ ٤٧). وأخرج أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٠٩) عن أشعث بن أسلم قال: «سأل إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ ملك الموت، واسمه عزرائيل...».
وقال الحافظ ابن حجر في الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (ص١٠٨): «وأما تسمية ملك الموت عزرائيل، فقد اشتهر ذلك بين الناس، وقد راجعت مبهمات القرآن لأبي القاسم السهيلي فلم أجد ذلك فيه، ثم راجعت تفسير القرطبي فوجدته ذكر أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولم ينسبه لقائل، ولا ذكر فيه أثرًا، ثم راجعت تفسير الثعلبي فوجدته حكى أن اسمه عزرائيل، وعزاه لتفسير مقاتل وتفسير ابن الكلبي».

الضيافة لساكنيها، من ملابس، ومصاغ، ومساكن، ومآكل، ومشارب، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية، ومقدموهم تسعة عشر، وخازنها مالك، وهو مقدم على الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ [التحريم:٦]، وقال: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١].

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء أمر الله خلوا عنه»[(٢)]. وقال مجاهد: «ما من عبد إلا وملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له: وراءك، إلا شيء يأذن الله تعالى فيه فيصيبه»[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٤٩، ٥٠).

(٢) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٣/ ١١٦).

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال العباد؛ كما قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

وروى البزار[١] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجذمة[٢] حائط، أو بغيره».

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى إكرامهم أن يستحي منهم، فلا يملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها، فإن الله خلقهم كرامًا في خُلقهم وأخلاقهم، ومن كرمهم أنه قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تَدْخُلُ الْمَلائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلا كَلْبٌ وَلا جُنُبٌ»[٣]، وفي رواية: «وَلاَ بَوْلٌ»[٤]، وفي رواية:

---

(١) كما في كشف الأستار (١/ ١٦٠ رقم ٣١٧)، وقال: «فيه حفص بن سليمان لين الحديث».

(٢) الجذم: القطع، والجذمة: القطعة من الشيء. انظر: لسان العرب (١٢/ ٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٢٧)، والنسائي (٢٦١)، وأحمد (١/ ١٣٩)، وابن حبان (٤/ ٥)، والحاكم (١/ ١٧١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٤٦) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

«لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ ولا تَمَاثِيلُ»[١]، وفي رواية: «لا تَصْحَبُ المَلائِكَةُ رُفْقَةً فيها كَلْبٌ ولا جَرَسٌ»[٢][٣].

وروى مالك[٤]، والبخاري[٥]، ومسلم[٦] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ، وَصَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وهو أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عبادي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وهم يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

وفي رواية[٧] أن أبا هريرة ﷺ قال: «اقرأوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]».

وأخرج مسلم[٨] عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ من بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة الأنصاري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢١١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) انظر: البداية والنهاية (١/ ٥٠، ٥١).

(٤) في الموطأ برقم (٤١١).

(٥) برقم (٥٥٥).

(٦) برقم (٦٣٢).

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٨) برقم (٢٦٩٩).

السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

وفي المسند[1] والسنن[2] حديث: «إِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ، رِضًا بِمَا يَطْلُبُ». والأحاديث في ذكر الملائكة - عليهم السلام - كثيرة ومشهورة. وبذلك جاءت الأدلة الكثيرة في فضل الملائكة.

---

(١) (٤/ ٢٣٩) من حديث صفوان بن عسال ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥)، والنسائي (١٥٨) من حديث صفوان بن عسال ﷺ.

وأخرج نحوه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

قال الشارح:

وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَصَالِحِي الْبَشَرِ، وَيُنْسَبُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ تَفْضِيلُ صَالِحِي الْبَشَرِ أَوِ الأَنْبِيَاءَ فَقَطْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَى الْمُعْتَزِلَةِ تَفْضِيلُ الْمَلَائِكَةِ، وَأَتْبَاعُ الأَشْعَرِيِّ عَلَى قَوْلَيْنِ:

مِنْهُمْ مَنْ يُفَضِّلُ الأَنْبِيَاءَ وَالأَوْلِيَاءَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ وَلَا يَقْطَعُ فِي ذَلِكَ قَوْلًا.

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ مَيْلُهُمْ إِلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ.

وَقَالَتِ الشِّيعَةُ: إِنَّ جَمِيعَ الأَئِمَّةِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَصَّلَ تَفْصِيلًا آخَرَ.

وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِمَّنْ لَهُ قَوْلٌ يُؤْثَرُ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَكُنْتُ تَرَدَّدْتُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ لِقِلَّةِ ثَمَرَتِهَا، وَأَنَّهَا قَرِيبٌ مِمَّا لَا يَعْنِي، وَ«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[1].

قال الشيخ:

كلام الناس كثير في المفاضلة بين الملائكة والبشر، وما يُنسب إلى أهل السنة قد يكون غير مشهور، الذين يفضلون صالحي البشر أو الأنبياء على

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٢١).

الملائكة؛ وكذلك ما يُنسب إلى المعتزلة من تفضيل الملائكة، وكلٌ له حجة وله قول، والأولى عدم التدخل في هذه المفاضلة، فإن أمرهم إلى الله تعالى[١].

أما الأشاعرة: فإن منهم من يقول: إن الأنبياء والأولياء أفضل من الملائكة؛ وذلك لحجج يقولونها.

والقسم الثاني: الذين يتوقفون ولا يقطعون في ذلك قولاً، ويقولون: إنه قد حُكي عن بعض الأشاعرة تفضيل الملائكة، وكذلك عن بعض أهل السنة وبعض الصوفية.

وأما الرافضة: فإنهم يدَّعون أن أئمتهم أفضل من جميع الملائكة، وأفضل من جميع البشر، وأئمتهم الذين يغلون فيهم هم: الاثنا عشر، ومنهم محمد بن الحسن العسكري الذي هو غائب منتظر ـ كما يقولون ـ وهو لا حقيقة له.

وعلى كل حال: الأولى عدم التدخل في هذه المفاضلة، فالله تعالى هو الذي يفضل بعضهم على بعض، كما قال في الملائكة، وكما قال في الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٥٥].

---

(١) انظر: كلام شيخ الإسلام في مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥٧).

قال الشارح:

وَالشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ، وَلَعَلَّهُ يَكُونُ قَدْ تَرَكَ الكَلَامَ فِيهَا قَصْدًا، فَإِنَّ الإِمَامَ أَبَا حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَقَفَ فِي الجَوَابِ عَنْهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي (مَآلِ الفَتَاوَى)، فَإِنَّهُ ذَكَرَ مَسَائِلَ لَمْ يَقْطَعْ أَبُو حَنِيفَةَ فِيهَا بِجَوَابٍ، وَعَدَّ مِنْهَا: التَّفْضِيلَ بَيْنَ المَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ.

وَهَذَا هُوَ الحَقّ، فَإِنَّ الوَاجِبَ عَلَيْنَا الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَفْضَلُ، فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ مِنَ الوَاجِبَاتِ لَبُيِّنَ لَنَا نَصًّا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤].

وَفِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا»[1]. فَالسُّكُوتُ عَنِ الكَلَامِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا - وَالحَالَةُ هَذِهِ - أَوْلَى.

قال الشيخ:

الطحاوي - رحمه الله - لم يتعرض لمسألة التفضيل بين الملائكة والبشر،

---

(١) يأتي تخريجه في تعليق سماحة الشيخ حفظه الله.

وترك الكلام فيها قصدًا، وأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ توقف في الجواب عنها على ما ذكره في (مآل الفتاوى)، وهو (الملتقط في الفتاوى الحنفية)[1] تأليف أبي القاسم محمد بن يوسف العلوي السمرقندي الحنفي، وهو عالم بالتفسير والحديث والفقه والموعظة، مات سنة ست وخمسين وخمسمائة، فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، ومنها: التفضيل بين الملائكة والأنبياء.

قوله: (**وَهَذَا هُوَ الحَقُّ**)، جاء في بعض النسخ.

قوله: (**الوَاجِبُ عَلَيْنَا الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَفْضَلُ**)؛ لأن هذا من علم الغيب، والله تعالى هو الذي يفضل بعضهم على بعض.

قوله: (**فَإِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ مِنَ الوَاجِبَاتِ لَبُيِّنَ لَنَا نَصًّا**)، أي: ولو كان هذا الاعتقاد معرفة الفاضل من النبيين أو من الملائكة لبينه الله تعالى لنا نصًا، والله تعالى قد أكمل لنا الدين، ومن كماله أنه بيّن كل ما نحتاج إليه؛ وكذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، أي: أنه سبحانه لا يترك شيئًا نسيانًا.

وأما هذا الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا...**»، فهو ليس في الصحيحين، ولا في أحدهما، وهو حديث حسن أخرجه الدارقطني[2]،

---

(١) انظر: كشف الظنون (٢/ ١٨١٣).

(٢) (١/ ١٨٤).

والحاكم في المستدرك[١]، والبيهقي[٢]، وأبو نعيم في الحلية[٣]، والخطيب في (الفقيه المتفقه)[٤]، من طرق عدة عن مدكور عن أبي ثعلبة الخشني ورجاله ثقات، إلا أن مدكور لم يصح له سماع من أبي ثعلبة، ولكن له شواهد، وهو أحد الأحاديث الأربعين التي اختارها النووي، فهو من الأربعين النووية، قد شرحه ابن رجب في (جامع العلوم والحكم)[٥] وذكر له أيضًا شواهد وطرقًا يتقوى بها.

---

(١) (٤/ ١١٥).

(٢) (١٠/ ١٢).

(٣) (٩/ ١٧).

(٤) (٢/ ٩).

(٥) (ص٢٧٥ - ٢٨٢).

قال الشارح:

وَلَا يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ نَظِيرُ غَيْرِهَا مِنَ الْمَسَائِلِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ هُنَا مُتَكَافِئَةٌ، عَلَى مَا أُشِيرُ إِلَيْهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَحَمَلَنِي عَلَى بَسْطِ الْكَلَامِ هُنَا: أَنَّ بَعْضَ الْجَاهِلِينَ يُسِيئُونَ الْأَدَبَ بِقَوْلِهِمْ: كَانَ الْمَلَكُ خَادِمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ! أَوْ: إِنَّ بَعْضَ الْمَلَائِكَةِ خُدَّامُ بَنِي آدَمَ! يَعْنُونَ الْمَلَائِكَةَ الْمُوَكَّلِينَ بِالْبَشَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ، الْمُجَانِبَةِ لِلْأَدَبِ.

وَالتَّفْضِيلُ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّنَقُّصِ، أَوِ الْحَمِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ لِلْجِنْسِ: لَا شَكَّ فِي رَدِّهِ، وَلَيْسَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ نَظِيرَ الْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ تِلْكَ قَدْ وُجِدَ فِيهَا نَصٌّ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] الآية، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ)، يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ.

وَالْمُعْتَبَرُ رُجْحَانُ الدَّلِيلِ، وَلَا يُهْجَرُ الْقَوْلُ؛ لِأَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَافَقَ عَلَيْهِ، بَعْدَ أَنْ تَكُونَ الْمَسْأَلَةُ مُخْتَلَفًا فِيهَا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ ﷺ يَقُولُ أَوَّلًا بِتَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ، ثُمَّ قَالَ بِعَكْسِهِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْقَوْلَ بِالتَّوَقُّفِ أَحَدُ أَقْوَالِهِ.

وَالْأَدِلَّةُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى الْفَضْلِ، لَا عَلَى الْأَفْضَلِيَّةِ، وَلَا نِزَاعَ فِي ذَلِكَ.

قال الشيخ:

هذه المسألة ولو كانت مثل غيرها من المسائل المستنبطة من الأدلة، فإنها لا حاجة إلى التطويل فيها؛ لأن الأدلة فيها متكافئة، مَنْ فَضَّلَ الأنبياء، وَمَنْ فَضَّلَ الملائكة، وَمَنْ فَضَّلَ الأولياء، وَمَنْ فَضَّلَ الصالحين، وكذلك مَنْ فَضَّلَ الأئمة كما تقوله الرافضة.

وقد توسع الشارح - رحمه الله - في شرح هذه المسألة، وحمله على ذلك: هذه الإساءة - إساءة الأدب والتنقص - للملائكة، فقولهم: (المَلَكُ خادم للنبي ﷺ) ليس كذلك، بل الملائكة مطيعون لله تعالى، وكذلك قول بعضهم: (الملائكة خدام بني آدم) ليس كذلك، إنما يطيعون الله تعالى في أن جعلهم حفظة يحفظون بني آدم؛ وكذلك يحفظون أعمال بني آدم، وهذه الألفاظ فيها شيء من التنقص، وهي مخالفة للشرع، ومجانبة للأدب، ولا يجوز التنقص لعباد الله الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧]، فإن هذا عيب لهم، مع أنهم مطيعون لأمر الله تعالى.

هذا التنقص حملهم عليه الحمية لبني آدم، أو العصبية للجنس، فهو مردود.

وهذه المسألة ليست نظير التفضيل بين الملائكة؛ لوجود الدليل كهاتين

الآيتين: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ففيها تفضيل لبعض الرسل؛ كأولي العزم وغيرهم، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥].

والشيخ ـ رحمه الله ـ قد تكلم على ذلك في أول الكتاب عند قوله في وصف النبي ﷺ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ).

قوله: (وَالْمُعْتَبَرُ رُجْحَانُ الدَّلِيلِ)، أي: المعتبر العمل بالدليل الراجح، والمصير إليه، (وَلَا يُهْجَرُ الْقَوْلُ)، إذا كان بعض أهل الأهواء قد قالوا به، نحو بعض الشيعة وهم الرافضة، أو بعض المعتزلة، ونحو ذلك، إذا كانت المسألة مختلفًا فيها بين أهل السنة فلا مانع من الخوض فيها.

ثم ذكر أن أبا حنيفة كان أولاً يفضل الملائكة على البشر، ثم تراجع وفضل صالحي البشر، والراجح أن القول بالتوقف هو أحد أقواله.

ثم ذكر أن الأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية ولا نزاع في ذلك، وهذا صحيح أنها تدل على الفضل، وأن الملائكة فضلاء ولهم من الفضل كذا وكذا، ولكن لا تدل على أنهم أفضل من البشر؛ وكذلك فضائل البشر إنما تدل على فضائل الأنبياء، ولا نزاع في فضلهم وأنهم من أفضل البشر، والرسل والأولياء والصديقين والشهداء والصالحين.

قال الشارح:

وَللشَّيْخِ تَاجِ الدِّينِ الفَزَّارِي -رَحِمَهُ اللَّهُ- مُصَنَّفٌ سَمَّاهُ: (الإِشَارَة فِي البِشَارَةِ فِي تَفْضِيلِ البَشَرِ عَلَى المَلَكِ)، قَالَ فِي آخِرِهِ: «اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ بِدَعِ عِلْمِ الْكَلَامِ، الَّتِي لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا الصَّدْرُ الأَوَّلُ مِنَ الأُمَّةِ، وَلَا مَنْ بَعْدهم مِنْ أَعْلَامِ الأَئِمَّةِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ العَقَائِدِ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ كَثِيرٌ مِنَ المَقَاصِدِ؛ وَلِهَذَا خَلَا عَنْهَا طَائِفَةٌ مِنْ مُصَنَّفَاتِ هَذَا الشَّأْنِ، وَامْتَنَعَ مِنَ الكَلَامِ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الأَعْيَانِ، وَكُلُّ مُتَكَلِّمٍ فِيهَا مِنْ عُلَمَاءِ الظَّاهِرِ بِعِلْمِهِ، لَمْ يَخْلُ كَلَامُهُ عَنْ ضَعْفٍ وَاضْطِرَابٍ». انْتَهى، وَاللَّهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ.

قال الشيخ:

هذا كلام تاج الدين الفزاري، وهو شيخ الشافعية في زمانه: عبدالرحمن ابن إبراهيم بن ضياء بن سباع الفزاري، وكتابه (الإقليد) الذي جمعه على أبواب (التنبيه)، دليل على فقه نفسه، ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية)[1].

هذا المصنف قيل: إنه (الإشارة)، وقيل: (الإثارة)، ولعله موجود عند الشافعية أو غيرهم. يقول في آخر هذا الكتاب: (اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ بِدَعِ عِلْمِ الْكَلَامِ)، الذي تكلم به المتكلمون، والحق أنه لا حاجة إليها حيث إنه

---

(١) (١٣/ ٣٢٥).

(لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا الصَّدْرُ الأَوَّلُ مِنَ الأُمَّةِ)، أي: الصحابة والتابعون (وَلَا مَنْ بَعْدهم مِنْ أَعْلَامِ الأَئِمَّةِ)؛ الأئمة الأربعة ونحوهم؛ وكذلك (لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ العَقَائِدِ)، أي: ولا تدخل في العقيدة، وكذلك (لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ كَثِيرٌ مِنَ المَقَاصِدِ)؛ لأنها من الكلام الذي ليس عليه دليل واضح، فلما خلت عنها مصنفات العلماء، وتوقف عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، (وَكُلُّ مُتَكَلِّمٍ فِيهَا مِنْ عُلَمَاءِ الظَّاهِرِ بِعِلْمِهِ)، أي: كل من تكلم فيها إنما هو من علماء الظاهر، ومع ذلك (لَمْ يَخْلُ كَلَامُهُ عَنْ ضَعْفٍ وَاضْطِرَابٍ)، وكان الأولى عدم الجزم فيها بإثبات أو نفي تفضيل الملائكة أو غيرها.

قال الشارح:

فَمِمَّا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى تَفْضِيلِ الأَنْبِيَاءِ عَلَى المَلَائِكَةِ: أَنَّ اللَّـهَ أَمَرَ المَلَائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لآدَمَ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِمْ؛ وَلِذَلِكَ امْتَنَعَ إِبْلِيسُ وَاسْتَكْبَرَ، وَقَالَ، ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء:٦٢].

قَالَ الآخَرُونَ: إِنَّ سُجُودَ المَلَائِكَةِ كَانَ امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، وَعِبَادَةً وَانْقِيَادًا وَطَاعَةً لَهُ، وَتَكْرِيمًا لآدَمَ وَتَعْظِيمًا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الأَفْضَلِيَّةُ، كَمَا لَمْ يَلْزَمْ مِنْ سُجُودِ يَعْقُوبَ لابْنِهِ يُوسُفَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - تَفْضِيلُ ابْنِهِ عَلَيْهِ، وَلَا تَفْضِيلُ الكَعْبَةِ عَلَى بَنِي آدَمَ بِسُجُودِهِمْ إِلَيْهَا، امْتِثَالًا لأَمْرِ رَبِّهِمْ.

وَأَمَّا امْتِنَاعُ إِبْلِيسَ، فَإِنَّهُ عَارَضَ النَّصَّ بِرَأْيِهِ وَقِيَاسِهِ الفَاسِدِ بِأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ، وَهَذِهِ المُقَدِّمَةُ الصُّغْرَى، وَالكُبْرَى مَحْذُوفَةٌ، تَقْدِيرُهَا: وَالفَاضِلُ لَا يَسْجُدُ لِلْمَفْضُولِ! وَكِلْتَا المُقَدِّمَتَيْنِ فَاسِدَةٌ:

أَمَّا الأُولَى: فَإِنَّ التُّرَابَ يَفُوقُ النَّارَ فِي أَكْثَرِ صِفَاتِهِ؛ وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسَ عُنْصُرُهُ، فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ النَّارِ طَلَبَ العُلُوِّ وَالخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَالرُّعُونَةَ، وَإِفْسَادَ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ وَمَحْقَهُ وَإِهْلَاكَهُ وَإِحْرَاقَهُ، وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصُرُهُ، فِي التَّوْبَةِ وَالاسْتِكَانَةِ، وَالانْقِيَادِ وَالاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّـهِ، وَالاعْتِرَافِ وَطَلَبِ المَغْفِرَةِ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ التُّرَابِ الثَّبَاتَ وَالسُّكُونَ وَالرَّصَانَةَ، وَالتَّوَاضُعَ وَالخُضُوعَ وَالخُشُوعَ وَالتَّذَلُّلَ، وَمَا دَنَا مِنْهُ يَنْبُتُ وَيَزْكُو، وَيَنْمِي وَيُبَارَكُ فِيهِ، ضِدَّ النَّارِ.

قال الشيخ:

هكذا أجاب الشارح ـ رحمه الله ـ عن هذا الاستدلال؛ حيث إن الذين فضلوا البشر ادعوا أن آدم أفضل من الملائكة؛ لأنهم سجدوا له، والصحيح أن سجودهم لأمر الله تعالى، حيث أمرهم بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ [البقرة:٣٤]، فهو طاعة لله، وليس تعظيمًا لآدم، ولعل المراد الاعتراف بأن الله تعالى خلقه لعبادته؛ فلأجل ذلك أمرهم أن يحترموه ويعترفوا بفضله، ولا يلزم من ذلك كونه أفضل، وقد ذكر الله تعالى أن يعقوب ـ عليه السلام ـ وأولاده سجدوا ليوسف ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف:١٠٠]، ولا يُقال: إن يوسف أفضل من أبيه ـ عليهما السلام ـ بل أبوه نبي من الأنبياء، وهو أبو الأنبياء من بني إسرائيل.

ومعلوم أيضًا أن المسلمين يستقبلون الكعبة ، ويسجدون إلى جهتها، ولا يُقال: إن الكعبة أفضل من بني آدم، لسجودهم إليها؛ لأن ذلك امتثالٌ لله تعالى، فسجدوا امتثالاً لأمر ربهم.

وأما إبليس فإنه عارض أمر الله تعالى برأيه وقياسه الفاسد ـ نظر إلى أن هذا فيه شيء من التذلل لآدم، وكذلك اعتقد أنه أفضل حيث قاس بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢]، هذه المقدمة الصغرى، وأما

الكبرى فإنها محذوفة، وتقديرها: فأنا أفضل منه، والفاضل لا يسجد للمفضول. هاتان مقدمتان، (وَكِلْتَا الْمُقَدِّمَتَيْنِ فَاسِدَةٌ)، وذكر أنه لا يلزم أن تكون النار أفضل من التراب، ويقول: التراب يتفوق على النار في أكثر صفاته، فإبليس خانه أصله وعنصره؛ فلذلك أبى واستكبر.

قوله: (مِنْ صِفَاتِ النَّارِ طَلَبَ الْعُلُوِّ وَالْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَالرُّعُونَةَ، وَإِفْسَادَ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ وَمَحْقَهُ وَإِهْلَاكَهُ وَإِحْرَاقَهُ)، هذه من صفات النار، أنها تتكبر وتتجبر وتعلو، وهي أيضًا خفيفة، وطائشة، وفيها شدة ورعونة، وفيها أنها تحرق ما تصل إليه وتمحقه وتتلفه، فلا يلزم أن تكون أفضل من الطين.

قوله: (وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصُرُهُ)، آدم عنصره الطين؛ فلذلك نفعه عنصره في التوبة والاستكانة، والانقياد والاستسلام لأمر الله، فتاب في الحال، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧]، واستكان لأمر ربه وتواضع له وانقاد، وندم على ما فعل، واستسلم لأمر الله تعالى، واعترف بالذنب بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، وطلب المغفرة، بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]؛ وذلك لأن التراب من صفاته: الثبات، والسكون، والرصانة، والثقل، والتواضع، والخضوع، والخشوع والتذلل، كما هو معروف.

قوله: (وَمَا دَنَا مِنْهُ يَنْبُتُ)، أي: جعله الله تعالى محلاً للنبات، وينميه ويبارك فيه، فهو ليس مثل النار التي هذه صفاتها؛ فلذلك نفع آدم أصله.

قال الشارح:

وَأَمَّا المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ ـ وَهِيَ: أَنَّ الفَاضِلَ لَا يَسْجُدُ لِلْمَفْضُولِ ـ: فَبَاطِلَةٌ، فَإِنَّ السُّجُودَ طَاعَةٌ لِلَّهِ وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِهِ، وَلَوْ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَسْجُدُوا لِحَجَرٍ لَوَجَبَ عَلَيْهِم الامْتِثَالُ وَالمُبَادَرَةُ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ المَسْجُودَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْ السَّاجِدِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ تَكْرِيمُهُ وَتَعْظِيمُهُ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ. قَالُوا: وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء:٦٢]، بَعْدَ طَرْدِهِ لامْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، لَا قَبْلَهُ، فَيَنْتَفِي الاسْتِدْلَالُ بِهِ.

قال الشيخ:

هذه المقدمة اعتقاد إبليس أن المفضول دون الفاضل، أي: أن الفاضل لا يتواضع للمفضول، هذه أيضًا باطلة؛ وذلك لأن هذا السجود ليس تفضيلاً لآدم، وإنما هو طاعة لله تعالى الذي أمر بذلك، وامتثالٌ لأمره، حيث قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة:٣٤]، وأمر الله تعالى يجب امتثاله على كل مسلم، ولو أمر الله تعالى عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة؛ ليكون أجرهم على الله، لا يطلبون الأجر من الحجر.

فكذلك سجود الملائكة طاعة لله لا يطلبون الثواب عليه من آدم، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد، ولا أن آدم أفضل من الملائكة، لكن يدل على أن الله تعالى كرمه وعظمه وشرفه، حيث خلقه وقال:

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥]، فهذه من خصائصه، فيدل ذلك على تفضيله وكرمه، ويدل على فضله.

قوله: (وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢]، بَعْدَ طَرْدِهِ لامْتِنَاعِهِ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، لَا قَبْلَهُ)، فلا يكون في الآية دليل على المفاضلة، مع أن آدم قد فضله الله تعالى بقوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، ومع أن إبليس قد رجح كثير من العلماء أنه ليس من الملائكة، بل إنه من الشياطين؛ لأن الملائكة خُلقوا من النور، وأما إبليس فإنه خُلق من نار؛ لقوله: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ [الأعراف:١٢]، وكذلك أيضًا الجن، قال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧].

وأما الملائكة فإنهم خُلقوا من النور؛ كما ثبت بذلك الحديث في صحيح مسلم[1] عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ من نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ من مَارِجٍ من نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»، وقد ذكر الله تعالى أن إبليس من الجن في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠].

---

(١) برقم (٢٩٩٦).

قال الشارح:

وَمِنْهُ: أَنَّ المَلَائِكَةَ لَهُمْ عُقُولٌ وَلَيْسَتْ لَهُمْ شَهَوَاتٌ، وَالأَنْبِيَاءُ لَهُمْ عَقُولٌ وَشَهَوَاتٌ، فَلَمَّا نَهَوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الهَوَى، وَمَنَعُوهَا عَمَّا تَمِيلُ إِلَيْهِ الطِّبَاعُ، كَانُوا بِذَلِكَ أَفْضَلَ.

قَالَ الآخَرُونَ: يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنَ المَلَائِكَةِ مِنْ مُدَاوَمَةِ الطَّاعَةِ، وَتَحَمُّلِ العِبَادَةِ، وَتَرْكِ الوَنَى وَالفُتُورِ فِيهَا، مَا يَفِي بِتَجَنُّبِ الأَنْبِيَاءِ شَهَوَاتِهِمْ، مَعَ طُولِ مُدَّةِ عِبَادَةِ المَلَائِكَةِ.

قال الشيخ:

هذا دليل ثان يستدلون به على تفضيل البشر؛ لأن الملائكة ليست لهم شهوات، بخلاف الأنبياء والرسل فإن لهم شهوات، ولما نهوا أنفسهم عن الهوى، ومنعوها عما تميل إليه الطباع، كانوا بذلك أفضل من الملائكة، هذه شبهة من يفضل الأنبياء والرسل.

معلوم أن الله تعالى خلق البشر ومنهم الأنبياء، وجعل لهم شهوات:

١ ـ شهوة للبطن: شهوة الأكل.

٢ ـ وشهوة للفرج: شهوة النكاح.

٣ ـ وشهوة للعين: شهوة النظر.

٤ ـ وشهوة للأذن: شهوة السماع.

فإذا وفق الله تعالى العباد ومنعوا أنفسهم عن الشهوات المحرمة، فإنهم

يُثابون على ذلك، كما يُثابون على الطاعات؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [المؤمنون:٥، ٦]، فالعبد الذي يملك نفسه، ولا يتجرأ على حرام، ويقصر نفسه عن الفاحشة التي حرمها الله يعني ذنب الفرج، وذنب البطن الأكل الحرام، وذنب النظر إلى المتبرجات وإلى الصور الفاتنة ونحوها، وذنب السمع الذي هو شهوة الأذنين للسماع وللغناء وللطرب ونحو ذلك، فإن الله تعالى يثيبه على هذا الأمر؛ لكونه ملك نفسه.

ولكن قد يُقال: الملائكة قد خلقهم الله تعالى لطاعته، فمنهم: مَنْ هو ساجد منذ أن خلق الله تعالى الدنيا، أو منذ أن خلقهم الله إلى أن تقوم الساعة في سجدة واحدة، وكذلك أيضًا دائمًا يسبحون الليل والنهار لا يفترون، عبادتهم دائمًا مستمرة، فهذه المداومة للطاعة وتحملها، وكونهم لا يفترون، ولا يعجزون، ولا يتركون العبادة في وقت أبدًا، دليل على أنهم قد كثرت أعمالهم.

أما الأنبياء والبشر والرسل فإن أعمارهم قصيرة، وقد يتركون العبادة اشتغالاً بالمباحات: المباح من الكلام، والمباح من الأكل، والمباح من الاستمتاع، وما أشبه ذلك، فطول مدة عبادة الملائكة يقوم مقام قمع الأنبياء والرسل أنفسهم عن شهواتهم.

قال الشارح:

وَمِنْهُ: أَنَّ اللَّـهَ تَعَالَى جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَسُفَرَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

وَهَذَا الْكَلَامُ قَدِ اعْتَلَّ بِهِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ، وَاسْتِدْلَالُهُمْ بِهِ أَقْوَى، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ، إِنْ ثَبَتَ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ بِالرِّسَالَةِ، ثَبَتَ تَفْضِيلُ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ يَكُونُ رَسُولًا إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ.

وَمِنْهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١] الآيات.

قَالَ الْآخَرُونَ: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْفَضْلِ لَا عَلَى التَّفْضِيلِ، وَآدَمُ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ، وَلَيْسَ الْخَضِرُ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى، بِكَوْنِهِ عَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ مُوسَى، وَقَدْ سَافَرَ مُوسَى وَفَتَاهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى الْخَضِرِ، وَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ، وَطَلَبَ مُوسَى مِنْهُ الْعِلْمَ صَرِيحًا، وَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَلَا الْهُدْهُدُ أَفْضَلُ مِنْ سُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ بِكَوْنِهِ أَحَاطَ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ سُلَيْمَانُ عِلْمًا.

قال الشيخ:

هذا دليل ثالث لمن فضل البشر، يقولون: (إِنَّ اللَّـهَ تَعَالَى جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ)، يعني: يرسلهم إليهم بالوحي، وجعلهم سفراء بينهم وبين

الله، والسفير: هو الواسطة، فالملائكة يكونون سفراء بين الله تعالى وبين أنبيائه.

ثم أجاب بأن هذا الكلام يصلح دليلًا لمن فضل الملائكة، ودلالته على تفضيل الملائكة أقوى؛ لأن الأنبياء والمرسلين إذا ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة، ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، نحن نعرف أن الرسل أفضل من الأمم، مع أن الله تعالى أرسلهم إليهم، وجعلهم وسطاء وسفراء إلى أممهم، فهل يقول قائل: إن الرسل دون المرسل إليهم بالفضل؛ لأنهم صاروا سفراء بينهم وبين الله؟ لا يقول ذلك قائل، لاشك أن الأنبياء أفضل من أممهم، وإذا كان كذلك فيُقال: كذلك في الملائكة الذين هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه، فيكون لهم فضل، ولهم رفعة، وقد يكون الرسول الملكي أفضل من الرسول البشري؛ لأنه امتثل طاعة الله وأُرسل إليه، كما أن الرسول البشري أفضل من البشر الذين هم أمته، ولو كان قد أُرسل إليهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]، فهذا دليلٌ أيضًا على الفضل لا على التفضيل، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لـمَّا خلق آدم علمه أسماء كل شيء، كما في بعض الروايات في قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1]، فلما علمه تلك الأسماء كان ذلك دليلًا على فضله، ثم إنه أمر آدم أن يعلمهم بقوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة:٣٣]، فلا يدل على أن آدم أفضل؛ لأن

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) من حديث أنس ﷺ.

الله تعالى أمره فعلمهم، وهذا علم خاص، والملائكة اعترفوا بقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢]، فدل على أن تعليم آدم لهم إنما هو بأمر الله تعالى فيكون طاعة لله.

ثم استدل على أن الأنبياء الذين يتعلمون قد يكونون أفضل من المعلمين بقصة الخضر، فالخضر ليس أفضل من موسى عليه السلام، مع أن موسى -عليه السلام- احتاج إلى علمه، وتزود من المال وسافر، وقال: ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠]، وصحب معه فتاه؛ وذلك في طلب العلم من الخضر، طلب موسى -عليه السلام- من الخضر بقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]، واعترف الخضر بأنه على علم من الله، قال: «يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ»[1].

ورُوي أنه لَـمَّا وقع عصفور على حرف السفينة، ونقر نقرة أو نقرتين من البحر، قال الخضر: «يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ»[2].

فبكل حال هذا دليل على أن آدم فيه فضل، حيث علمه الله هذه الأسماء

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أُبي بن كعب ﷺ.

(٢) قطعة من الحديث السابق تخريجه.

فحفظها، وعرضها على الملائكة فلم يحفظوها؛ لقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣١، ٣٢]، فلا يدل على أن الملائكة مفضولون إذا علمهم آدم، كما لا يدل على أن موسى ـ عليه السلام ـ مفضول؛ لأنه تعلم من الخضر.

وكذلك أيضًا مثَّل بالهدهد الذي ذهب إلى اليمن وإلى سبأ وقال لسليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، فذكر أنه أحاط بما لم يحط به سليمان ـ عليه السلام ـ علمًا، فهل يُقال: إن هذا الهدهد أفضل من سليمان ـ عليه السلام ـ؟ لا يُقال ذلك؛ لأن سليمان ـ عليه السلام ـ قد فضله الله تعالى بما أعطاه بقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٦، ٣٧]، وغير ذلك مما يدل على فضله.

قال الشارح:

وَمِنْهُ: قَوْلُه تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

قَالَ الآخَرُونَ: هَذَا دَلِيلُ الفَضْلِ لَا الأَفْضَلِيَّةِ، وَإِلَّا لَزِمَ تَفْضِيلُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنْ قُلْتُمْ: هُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ البَرُّ وَالفَاجِرُ، بَلْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا قِيلَ لآدَمَ: «ابْعَثْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»، «يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ مِئَةً وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدًا إِلَى الجَنَّةِ»[١]. فَمَا بَالُ هَذَا التَّفْضِيلِ سَرَى إِلَى هَذَا الوَاحِدِ مِنَ الأَلْفِ فَقَطْ!

وَمِنْهُ: قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﷺ: «مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ...» الحَدِيثُ[٢]، فَالشَّأْنُ فِي ثُبُوتِهِ، وَإِنْ صَحَّ عَنْهُ، فَالشَّأْنُ فِي ثُبُوتِهِ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

وَمِنْهُ: حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ المَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ فِيهَا، وَيَشْرَبُونَ، وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ، وَلَا نَأْكُلُ وَلَا نَشْرَبُ وَلَا نَلْهُو، فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيَا، فاجْعَلْ لَنَا الآخِرَةَ؟ قَالَ: لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ قُلْتُ لَهُ: كُنْ فَكَانَ». أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٧٢) بنحوه.

(٣) في المعجم الأوسط (٦/ ١٩٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٢): «رواه الطبراني في =

وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَد بن حَنْبَلٍ[١]، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ رُوَيْمٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي الأَنْصَارِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ المَلَائِكَةَ قَالُوا...» الحَدِيث. وَفِيهِ: «وَيَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «لَا»، فَأَعَادُوا القَوْلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا».

وَالشَّأْنُ فِي ثُبُوتِهِمَا، فَإِنَّ فِي سَنَدِهِمَا مَقَالًا، وَفِي مَتْنِهِمَا شَيْئًا، فَكَيْفَ يُظَنُّ بِالمَلَائِكَةِ الِاعْتِرَاضُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ؟ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وَهَلْ يُظَنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ بِأَحْوَالِهِمْ، مُتَشَوِّفُونَ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنْ شَهَوَاتِ بَنِي آدَمَ؟ وَالنَّوْمُ أَخُو المَوْتِ[٢]، فَكَيْفَ يَغْبِطُونَهُمْ بِهِ؟ وَكَيْفَ يُظَنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ يَغْبِطُونَهُمْ بِاللَّهْوِ، وَهُوَ مِنَ البَاطِلِ؟ قَالُوا: بَلْ الأَمْرُ بِالعَكْسِ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا وَسْوَسَ إِلَى آدَمَ، وَدَلَّاه بِغُرُورٍ، إِذْ أَطْمَعَهُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا بِقَوْلِهِ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]. فَدَلَّ أَنَّ أَفْضَلِيَّةَ المَلَكِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ مُسْتَقِرٌّ بِالفِطْرَةِ.

=
الكبير والأوسط، وفيه إبراهيم بن عبدالله بن خالد المصيصي، وهو كذاب متروك».

(١) في السنة (٢/ ٤٦٩)، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٩٨) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ١٣٩) من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٢) من حديث جابر ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٥): «رواه الطبراني في الأوسط، والبزار ورجال البزار رجال الصحيح».

قال الشيخ:

هذه الأدلة ساقها الشارح في مسألة التفضيل بين البشر والمَلَكِ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة:٧]؛ هل المراد الإنس أو المراد الخلق المؤمنون من الملائكة ومن الإنس ومن الجنّ؟ خير البرية: يعني خير الخليقة، فالصحيح أن الآية على عمومها يدخل فيها الملائكة، ويدخل فيها الجنّ المؤمنون، ويدخل فيها الإنس المؤمنون، فكل من آمن وعمل صالحًا من الإنس والجن، والملائكة فهو خير البريّة، أو من خير البريّة؛ البريّة: الخليقة، يدخل في الخليقة جميع المخلوقات، فيدخل فيها الشياطين، ويدخل فيها الجمادات والحيوانات، وتدخل فيها الأفلاك السائرة والأفلاك الثابتة، فهي كلها من البرية كلها من الخلق، والآية عامّة في الملائكة والبشر؛ إذ كل مؤمن عامل للصالحات هو خير البريّة.

وفي الصحيح عن أَنَسِ بن مَالِكٍ ﷺ قال: جاء رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ ﷺ، فقال: يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: **«ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»**[1]. قال ذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ من باب التواضع، وإلا فهو من خير البريّة، لكنه لا يحبّ أن يكون هناك مفاضلة بين الأنبياء؛ حتى لا يكون في ذلك شيء من التنقص لبعض الأنبياء، أو الازدراء والاحتقار لهم، أو يغضب أتباعهم.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

قال الشارح:

يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى، حِكَايَةً عَنِ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ رُؤْيَةِ يُوسُفَ: ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قَالَ الْأَوَّلُونَ: إِنَّ هَذَا إِنَّمَا كَانَ لِمَا هُوَ مَرْكُوزٌ فِي النُّفُوسِ: أَنَّ المَلَائِكَةَ خَلْقٌ جَمِيلٌ عَظِيمٌ، مُقْتَدِرٌ عَلَى الأَفْعَالِ الهَائِلَةِ، خُصُوصًا العَرَبِ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ كَانُوا فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ العَظَمَةِ بِحَيْثُ قَالُوا: إِنَّ المَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

قَالَ الآخَرُونَ: قَدْ يُذْكَرُ «العَالَمُونَ»، وَلَا يُقْصَدُ بِهِ العُمُومُ المُطْلَقُ، بَلْ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِحَسَبِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٠]، ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢].

قال الشيخ:

هذه حجة أخرى لمن يفضلون الملائكة، والجواب عنها: يقول: (قَالَ

الْأَوَّلُونَ: إِنَّ هَذَا إِنَّمَا كَانَ لِمَا هُوَ مَرْكُوزٌ فِي النُّفُوسِ).

لما أن الله تعالى كسا يوسف ـ عليه السلام ـ جمالاً زائدًا متفوقًا، ورآه تلك النسوة انبهرن بجماله، ﴿ وَقُلْنَ حَشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]. فكأن الذين يفضلون الملائكة يقولون: إن هؤلاء النسوة اعتقدن أنه ليس بشرًا بل إنه من الملائكة.

فأجاب: سبب ذلك أنه مركوز في النفوس أن الملائكة خلقهم خلق جميل، وأنهم مقتدرون على الأفعال الهائلة، وأن الله تعالى أعطاهم قوة، وأنهم يقطعون المسافات الطويلة في زمن قصير فالعرب يعتقدون أن الملائكة خلقهم خلق جميل، حيث إن الملائكة كانوا في نفوسهم لهم عظمة، حتى قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا؛ فلذلك قال هؤلاء النسوة: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١]، ولا يدل على أن الملائكة أفضل من البشر، وإنما يدل على أن الملائكة فيهم جمال، ولا يدل جمالهم على أنهم أفضل من البشر.

وأما قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٥٠]، فكأنهم يقولون: إن قوله: ﴿ إِنِّى مَلَكٌ ﴾، يدلّ على أن الملك أفضلُ من البشر، ولكن لا غرابة في ذلك، ولا دلالة فيه على أفضلية البشر، ولا على أفضلية الملك، ولكن الكفار من العرب لما كذبوا النبي ﷺ كان من تعنتهم أن طلبوا الملائكة يحضرون معه، فقالوا: ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٩٢]، وقالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ

إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]، فقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٥]، يعني: أن الملك يناسب الإنزال على الملائكة، وأن يكون رسولًا لهم، وأمّا البشرُ فلا يناسبهم رسول إلّا منهم، ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩] يعني: لو أرسلنا ملكًا لأرسلناه في صورة رجل؛ وذلك لأنهم لا يتمكنون من رؤية الملك، لكونه ليس على خلقتهم، فلا يرونه إلا إذا ظهر في صورة بشرية، وعلى هذا فالآيات ليس فيها دلالة لا على تفضيل الملائكة، ولا تفضيل البشر. والصحيح أن التفاضل إنما هو في الأعمال.

ومن الشُّبَهِ ـ أيضًا ـ: أن آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران أفضل من العالمين كلهم؛ لأن الله اصطفاهم على العالمين فيكونون أفضل من الملائكة، هكذا يستدل هؤلاء بهذه الآية.

وأجيب بأن المراد بالعالمين لا يُقصد به العموم المطلق، بل في كل بحسبه، فقد لا يدخل الملائكة في اسم العالمين، فإن كل مكان يُذكر فيها العالمون إنما هو بحسب ما يحتمله المكان، قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، أفيقال: إنه نذير للملائكة؟ إنما يريد للعالمين من البشر، وكذلك قول قوم لوط: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٠]، يريدون عن الرجال الذين يأتون إليه فيمنعهم من أن يفعلوا بهم

الفاحشة، ولا يريدون أيضًا الملائكة، وكذلك قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، لا يريد الملائكة، وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، يعني: على عالمي زمانهم، فإن بني إسرائيل فضلهم الله تعالى على عالمي زمانهم، لا على العالمين جميعًا، فإن هذه الأمة أفضل من بني إسرائيل، أي: قوم موسى عليه السلام.

قال الشارح:

وَمِنْـهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [البينة:٧]، وَالْبَرِيَّةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ البَرْءِ، بِمَعْنَى الخَلْقِ، فَثَبَتَ أَنَّ صَالِحِي البَشَرِ خَيْرُ الخَلْقِ.

قَالَ الآخَرُونَ: إِنَّمَا صَارُوا خَيْرَ البَرِيَّةِ؛ لِكَوْنِهِمْ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَالمَلَائِكَةُ فِي هَذَا الْوَصْفِ أَكْمَلُ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْأَمُونَ وَلَا يَفْتُرُونَ، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنَ المَلَائِكَةِ. هَذَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (الْبَرِيئَةِ) بِالهَمْزِ، وَعَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِاليَاءِ، إِنْ قُلْنَا: إِنَّهَا مُخَفَّفَةٌ مِنَ الهَمْزَةِ، وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهَا نِسْبَةٌ إِلَى البَرَى وَهُوَ التُّرَابُ - كَمَا قَالَهُ الفَرَّاءُ فِيمَا نَقَلَهُ عَنْهُ الجوهَرِيُّ فِي الصِّحَاحِ - يَكُونُ المَعْنَى: أَنَّهُمْ خَيْرُ مَنْ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ، فَلَا عُمُومَ فِيهَا إِذًا لِغَيْرِ مَنْ خُلِقَ مِنَ التُّرَابِ.

قال الشيخ:

استدلوا بقوله تعالى: ﴿ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾، أو {خَيْرُ البَرِيئَةِ}، على أن البشر خير جميع البرية، أي: خير جميع المبروئين الذين خلقهم الله، فيدخل في ذلك الملائكة.

وأجاب الآخرون بأن الملائكة قد اتصفوا بهذا الوصف، فهم آمنوا وعملوا الصالحات، فيكونون من خير البرية، وليس قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[البينة:٧]، خاصًا بالبشر، بل كل مَنْ آمن وعمل الصالحات.

فاستدل الذين يفضلون البشر بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾، فأجاب

الآخرون بأنهم صاروا خير البرية؛ لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة كذلك في هذا الوصف بالأكمل، فإنهم من المؤمنين حقًا، ومن العاملين للصالحات، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسأمون ولا يفترون، وإذا كان كذلك فلا يلزم أن يكون البشر خيرًا من الملائكة، حيث إن الملائكة أكمل إيمانًا، وكذلك أيضًا أكمل أعمالاً صالحة وأكثر؛ لأنهم منذ أن خُلقوا وهم يعملون الأعمال الصالحة.

وهناك قراءتان[1] في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾. فالقراءة الأولى: {خَيْرُ البَرِيئَةِ}، بالهمز هذه قراءة نافع وابن عامر، وحجتهما أنه مِنْ بَرأَ اللهُ الخَلقَ يبرؤهم برءًا، والله تعالى من أسمائه البارئ، والخلق يبرؤون، والبريئة فعيلة بمعنى مفعولة. وأما عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم فإنهم قرؤوها: ﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ من غير همز، مِنْ بَرأَ اللهُ الخلق. إلا أنهم خففوا الهمزة لكثرة الاستعمال.

فعلى قراءة (البريئة)، بالهمزة، نقول: إن الملائكة من الذين برأهم الله، يعني: خلقهم، وعلى قراءة (البرية)، بالياء إن قلنا: إنها مخففة من الهمز، وقد يُقال: إنها نسبة إلى البري الذي هو التراب كما قاله الفراء[2]، وهو يحيى بن زياد ابن عبدالله بن منصور أبو زكريا الكوفي، فيكون المعنى أنهم خير من خُلق من التراب، فلا عموم فيها إذًا لغير من خُلق من التراب.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٦٤)، والحجة في القراءات السبع (ص٣٧٤).

(٢) انظر: لسان العرب (١/ ٣١).

قال الشارح:

قَالَ الأَوَّلُونَ: إِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي تَفْضِيلِ صَالِحِي الْبَشَرِ إِذَا كَمَلُوا، وَوَصَلُوا إِلَى غَايَتِهِمْ وَأَقْصَى نِهَايَتِهِمْ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، وَنَالُوا الزُّلْفَى، وَسَكَنُوا الدَّرَجَاتِ الْعُلَا، وَحَبَاهُمُ الرَّحْمَنِ بِمَزِيدِ قُرْبِهِ، وَتَجَلَّى لَهُمْ؛ لِيَسْتَمْتِعُوا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

قَالَ الآخَرُونَ: الشَّأْنُ فِي أَنَّهُمْ هَلْ صَارُوا إِلَى حَالَةٍ يَفُوقُونَ فِيهَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ يُسَاوُونَهُمْ فِيهَا؟ فَإِنْ كَانَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى حَالٍ يَفُوقُونَ فِيهَا الْمَلَائِكَةَ سُلِّمَ الْمُدَّعَى، وَإِلَّا فَلَا.

قال الشيخ:

صالحو البشر من أولياء الله وأنبيائه وصالح عباده إذا كملوا في عباداتهم وأحوالهم، ثم بُعثوا ووصلوا إلى غايتهم، وأقصى ما يتمنونه وهو دار الكرامة، أي: دخلوا الجنة، وسكنوا فيها، وحباهم الله تعالى بمزيد قربه، وتجلى لهم؛ ليتمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم، فيكونون بذلك من خيار خير الله.

ولكن يقولون مجيبين: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوون فيها الملائكة؟ قد لا يُسلم ذلك؛ وذلك لأنهم وإن صلحوا وإن كملوا وإن أكرموا في الدار الآخرة ودخلوا الجنة، وسكنوا الدرجات العلا، وتمتعوا بالنظر إلى الله تعالى، فقد لا يفوقون الملائكة، وقد لا يساوونهم، بحيث إنه لم يثبت أنهم يصيرون إلى حالة يتفوقون فيها على الملائكة.

قال الشارح:

وَمِمَّا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى تَفْضِيلِ المَلَائِكَةِ عَلَى البَشَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء:١٧٢]، وَقد ثَبَتَ مِنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْكَلَام يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَعْطُوفَ أَفْضَلُ مِنَ المَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ لأَنَّه لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَنِ يَسْتَنْكِفَ الوَزِيرُ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ، وَلَا الشُّرْطِيُّ أَوِ الحَارِسُ! وَإِنَّمَا يُقَالُ: لَنْ يَسْتَنْكِفُ الشُّرْطِيُّ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ وَلَا الوَزِيرُ.

فَفِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَتَرَقَّى مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، فَإِذَا ثَبَتَ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ثَبَتَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إِنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ دُونَ بَعْضٍ.

أَجَابَ الآخَرُونَ بِأَجْوِبَةٍ، أَحْسَنُهَا، أَوْ مِنْ أَحْسَنِهَا: أَنَّهُ لَا نِزَاعَ فِي فَضْلِ قُوَّةِ المَلَكِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّتِهِ وَعِظَمِ خَلْقِهِ، وَفِي العُبُودِيَّةِ خُضُوعٌ وَذُلٌّ وَانْقِيَادٌ، وَعِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْهَا، وَلَا مَنْ هُوَ أَقْدَرُ مِنْهُ، وَأَقْوَى وَأَعْظَمُ خَلْقًا، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ الأَفْضَلِيَّةُ المُطْلَقَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

قال الشيخ:

يستدل بعض الناس على تفضيل الملائكة بهذه الآية، حيث ذكر الله تعالى أن عيسى - عليه السلام - لا يستنكف من العبادة، ولا يتكبر على الله تعالى، ثم

أخبر أيضًا بأن الملائكة كذلك لا يتكبرون، ولا يأنفون من عبادة الله تعالى.

وكأنهم يقولون: إن عطف الملائكة على عيسى - عليه السلام - يدل على فضل عيسى - عليه السلام - وهو بشر، ولكن ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، فيكون الملائكة معطوفين على عيسى - عليه السلام - وكأنه بدأ بالمفضول ثم عطف عليه أفضل منه.

ومثّل بأنه: (**لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: لَنِ يَسْتَنْكِفَ الْوَزِيرُ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ، وَلَا الشُّرْطِيُّ أَوِ الحَارِسُ**)، بمعنى: أن الوزير قد يتواضع ويخدم الملك، ولا يستنكر ذلك منه؛ لأنه عامل عند الملك، ولأنه موظف عنده، وهكذا الشرطي أو الحارس لا يُستنكر أن يُقال: إن الشرطي أو الحارس لا يأنف من خدمة الملك، أما أن يُقال: (**لَنْ يَسْتَنْكِفُ الشُّرْطِيُّ أَنْ يَكُونَ خَادِمًا لِلْمَلِكِ وَلَا الوَزِيرُ. فَفِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَتَرَقَّى مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى**)، بمعنى: أنه يُبدأ بالأدنى ثم يترقى إلى الأعلى، والوزير أدنى من الملك؛ وكذلك الشرطي أو الحارس كل منهم أدنى من الملك، فعطف الشرطي أو الحارس على الوزير غير مستنكر، وأما الوزير فإنه في رتبة أرفع من الشرطي أو الحارس فلا يُقال: إنه مماثل له، الذي يُعتاد أن يُقال: لا يستنكف الشرطي أن يكون خادمًا للملك، ولا الوزير فيُبدأ بالأقل الذي هو الشرطي، ثم يُعطف عليه الوزير، فيترقى من الأدنى الذي هو الشرطي إلى الأعلى الذي هو الوزير.

فإذا ثبت تفضيل الملائكة على عيسى - عليه السلام - ثبت في حق غيره؛ إذ

لم يقل أحد: إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض، هذا يحتج به من يقول: إن الملائكة أفضل من البشر.

وأجاب الآخرون بأجوبة ذكر منها: (**أَنَّهُ لَا نِزَاعَ فِي فَضْلِ قُوَّةِ الْمَلَكِ وَقُدْرَتِهِ وَشِدَّتِهِ وَعِظَمِ خَلْقِهِ، وَفِي الْعُبُودِيَّةِ خُضُوعٌ وَذُلٌّ وَانْقِيَادٌ**)، فالملائكة أُعطوا قوة وقدرة وعظم خلقة، وكان من آثار ذلك خضوعهم وتذللهم لله تعالى وتعبدهم له، ولاشك أن عيسى ـ عليه السلام ـ لا يستنكف عن العبودية وعن الذل وعن الانقياد، وكذلك من هو أقدر منه، وأقوى وأعظم خلقًا؛ كالملائكة، فالجميع لا يستنكفون، فيكون عطف الملائكة؛ لأنهم أقوى من البشر، ولأنهم أُعطوا قوة واستمرارًا على العبادة، بحيث إنهم لا يستنكفون عنها، أو بحيث إنهم لا يفترون.

كذلك مما استدل به بعضهم على فضل الملائكة، في قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء:١٧٢]، أنه وصف الملائكة بالقرب، والملائكة كلهم مقرَّبون؛ لأنهم عند الله، كما أخبر بذلك في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وبكلِّ حال فالله وصف الملائكة بأنّهم عنده، فالتقريب بحقّهم تقريب ذاتي، فهم مقربون إلى الله حِسًّا ومقرّبون عند الله معنىً. ولكن الصحيح أنَّ كلّ من اتقى الله وآمن به، فإنه من المقرّبين.

وقد ذكر الله أنَّ أهلَ الجنَّة أَبرارٌ ومقرَّبُون، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:٢٧، ٢٨]. فذكر أنها تُمزج للأبرار، وتكون خالصة للمقرّبين، فدلَّ على أنّ المقرّبين أعلى مرتبة من الأبرار، ولا شكّ أن المقرّبين يدخل فيهم الملائكة، ويدخل فيهم الإنس المؤمنون، ويدخل فيهم الجنّ، ونحو ذلك، من آمن وعمل صالحًا، واتقى الله تعالى، وحافظ على طاعته، فإنه من المقرّبين الذين يقربهم الله عنده في جنّته وفي دار كرامته. وعلى هذا فلا تكونُ الآية خاصّة بالملائكة، بل الملائكة مقرّبون، والإنس المؤمنون من الأنبياء ومن الصالحين مقرَّبون أيضًا، والجنّ الذين أطاعوا الله وأثابهم مقربون ـ على خلاف فيهم ـ فلا يكون في الآية دلالة على التفضيل.

قال الشارح:

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٥٠]، وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ بِمَعْنَى: إِنِّي لَوْ قُلْتُ ذَلِكَ لَادَّعَيْتُ فَوْقَ مَنْزِلَتِي، وَلَسْتُ مِمَّنْ يَدَّعِي ذَلِكَ.

أَجَابَ الآخَرُونَ: بِأَنَّ الكُفَّارَ كَانُوا قَدْ قَالُوا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧]، فَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنِّي بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَحْتَاجُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ البَشَرُ مِنَ الاكْتِسَابِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ، لَسْتُ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ حَاجَةً إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَلَا يَلْزَمُ حِينَئِذٍ الأَفْضَلِيَّةُ المُطْلَقَةُ.

قال الشيخ:

هذه حجة أيضًا لمن يُفضل الملائكة، حيث قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾، وهذه الآية مثل ما ذكره الله تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود:٣١]، فكأنهم يقولون: إنه لو قال: إني ملك لادعيت منزلة فوق منزلتي، ولست ادعي ذلك، لا أدعي أنني أَرْفَعُ من رتبتي التي هي البشرية، بل أنا بشر مثلكم لن أصل إلى رتبة الملك، فيكون ذلك دليل على أن الملائكة أفضل.

وأجاب الآخرون أن الكفار قد طعنوا في الرسول بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا

ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان:٧]؛ كأنهم استغربوا أن يكون بشرًا مثلهم، وقد قال الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام:٩]، أي: لو أنزلناه ملكًا لجعلناه بشرًا، فأمره الله تعالى أن يقول: (إِنِّي بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَحْتَاجُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ البَشَرُ مِنَ الاكْتِسَابِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ)؛ لأن هذا طبيعة البشر، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف:١١٠]، لم يخرج الأنبياء عن كونهم من البشر، الذي يحتاجون إلى ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد:٣٨]، فالرسل من جنس البشر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ [إبراهيم:٤]، وكل واحد من الأنبياء يقول: ﴿يَٰقَوْمِ ﴾، فدل على أنه مثلهم في أنه بشر مثلهم.

وتعنت الكفار بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٨]، هذا من باب التعنت؛ لأن البشر هو الذي يتمكنون من رؤيته والكلام معه، وهو الذي يتمكن من إبلاغهم ويتكلم معهم بما يحتاجون إليه، والبشر معروف أنه يحتاج إلى ما يحتاجون إليه، فيحتاج إلى اكتساب المال، ويحتاج بدنه إلى الأكل والشرب، ولا يستغني عن ذلك، فيكون كأنه يقول: (لَسْتُ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمْ حَاجَةً إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ)، فإن الله تعالى خلق الملائكة

أرواحًا لا يحتاجون إلى الطعام ولا الشراب، ويستغنون بذلك، (فَلَا يَلْزَمُ حِينَئِذٍ الأَفْضَلِيَّةُ المُطْلَقَةُ)، أن يكونوا أفضل مطلقًا من جميع البشر، أو أن البشر أفضل منهم، فهذا كله دليل على أن الأولى التوقف عن تفضيل هؤلاء أو هؤلاء، والله تعالى هو الذي يفضل من يشاء، ويرفع من يشاء في الدار الآخرة.

قال الشارح:

وَمِنْهُ مَا رَوَى مُسْلِمٌ[١] بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ». وَمَعْلُومٌ أَنَّ قُوَّةَ الْبَشَرِ لَا تُدَانِي قُوَّةَ الْمَلَكِ وَلَا تُقَارِبُهَا.

قَالَ الْآخَرُونَ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْبَشَرِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فَلَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ فِي هَذَا الْعُمُومِ.

وَمِنْهُ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[٢] الحديث. وَهَذَا نَصٌّ فِي الْأَفْضَلِيَّةِ.

قَالَ الْآخَرُونَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ «خَيْرٌ مِنْهُ» لِلْمَذْكُورِ، لَا الْخَيْرِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ.

وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ[٣] بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١) برقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) في التوحيد (٢/ ٥٢٠). وأخرجه أيضًا الطبراني في الأوسط (٦/ ٢١١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٧٥)، قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤٩): «فيه الحارث بن عبيد، وهو أبو قدامة الإيادي، أخرج له مسلم في صحيحه، إلا أن ابن معين ضعفه وقال: ليس هو بشيء، وقال الإمام أحمد: مضطرب الحديث، وقال أبو حاتم =

«بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ إِذْ جَاءَ جبريلُ فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَقُمْتُ إِلَى شَجَرَةٍ مِثْلِ وَكْرَي الطَّيْرِ، فَقَعَدَ فِي إِحْدَاهُمَا، وَقَعَدْتُ فِي الأُخْرَى، فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى سَدَّتِ الخَافِقَيْنِ، وَأَنَا أُقَلِّبُ بَصَرِي، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّمَاءَ مَسَّيْتُ فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّه حِلْسٌ لَاطِىءٌ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللَّهِ عَلَيَّ».

قَالَ الآخَرُونَ: فِي سَنَدِهِ مَقَالٌ، فَلَا نُسَلِّمُ الِاحْتِجَاجَ بِهِ إِلَّا بَعْدَ ثُبُوتِهِ.

وَحَاصِلُ الكَلَامِ: أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ مِنْ فُضُولِ المَسَائِلِ، وَلِهَذَا لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الأُصُولِ، وَتَوَقَّفَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الجَوَابِ عَنْهَا، كَمَا تَقَدَّم، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح هذين الحديثين لمناقشة الاستدلال بهم على فضل الملائكة، قوله تعالى في الحديث القدسي: «وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»، الملأ: الجماعة، أي: إنّك إذا ذكرت الله تعالى في ملأ ذكرك الله تعالى في ملأ من الملائكة خير من ذلك الملأ الذين هم البشر الذين ذكرت الله بينهم. فيدلّ على أن الملأ من الملائكة أفضل من الملأ من بين آدم، ولكنه لا يدلّ على الأفضليّة

=

الرازي: يُكتب حديثه ولا يُحتج به، وقال ابن حبان: كثر وهمه، فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، فهذا الحديث من غرائب رواياته، فإن فيه نكارة، وغرابة ألفاظ، وسياقًا عجيبًا، ولعله منام، والله أعلم».

المطلقة، إنّما يدلّ على فضل هؤلاء على هؤلاء. وقد يكون هناك ملأ من البشر آخرون أفضل من الملائكة أو مماثلون لهم.

وأما الحديث الذي فيه أن جبريل مع النبي ﷺ لَمَّا عُرِجَ به إلى السماء، أُتي بمثل الشجرة فجلس في وكر، وجلس جبريل في وكر، فسمت تلك الشجرة، يعني: ارتفعت، يقول: حتى لو شئت أن ألمس السماء للمستها، يقول هنا: نظرت إلى جبريل فإذا هو واطئٌ مثل الحلس، يعني: أنه متواضع، وذلك لمعرفته بربِّه، فهو متواضعٌ غاية التواضع.

هذا يستدلّ به على أنّ معرفته بالله تعالى أدّت إلى أنه يتواضع ويكثر من تعظيم ربِّه. وفي ذلك الأثر الذي يقول: «مَنْ كَانَ بِاللَّـهِ أَعْرَفُ، كَانَ مِنْهُ أَخْوَفُ»(١). ولا شكَّ أنَّ جبريل معه معرفة بربّه؛ وذلك لأنه رسوله إلى الأنبياء، هو الذي ينزل بوحي من الله على أنبيائه، وحيث إنه هو الذي ينزل به، فهو عارف بربِّه، لكن لا يلزم تفضيله على جميع البشر الذين خلقهم الله تعالى لعبادته فعبدوه وأدّوا حقّ العبادة.

وعلى كل حالٍ، فالمسألة التي هي مسألة المفاضلة بين جنس البشر وجنس الملك، من فضول الكلام، لم يتكلّم عليها الأئمّة الأربعة، ولا أتباعهم المقتدى بهم، وإنّما تكلّم بها بعض من تكلّم من المتأخّرين وبالغوا، فلا حاجة إلى المبالغة فيها، وإنما قصد المؤلّف بذلك الردّ على الذين انتقصوا أو بالغوا في الانتقاص

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٧٢٨) من قول أحمد بن عاصم الإنطاكي.

للملائكة، حتى جعلوهم في منزلة الخدم لصالح الإنسان، وذلك فيه شيء من الانتقاص لهم، مع ما وصفهم الله تعالى به من الكمال والعبادة والمداومة على الطاعة، هذا ما يتعلّق بالإيمان بالملائكة.

قال الشارح:

وَأَمَّا الأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِمَنْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ رُسُلِهِ، وَالإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ رُسُلًا سِوَاهُمْ، وَأَنْبِيَاءَ لَا يَعْلَمُ أَسْمَاءَهُمْ وَعَدَدَهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَهُمْ.

فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِهِمْ جُمْلَةً؛ لأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي عَدَدِهِمْ نَصٌّ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا جَمِيعَ مَا أُرْسِلُوا بِهِ عَلَى مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَأَنَّهُمْ بَيَّنُوهُ بَيَانًا لَا يَسَعُ أَحَدًا مِمَّنْ أُرْسِلُوا إِلَيْهِ جَهْلُهُ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ خِلَافُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

قال الشيخ:

الإيمان بالرسل ركن من أركان الإيمان؛ لقوله ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ... »[1].

وقد تقدم الكلام على الإيمان بالله وهو أساسها وأصلها، وتقدم أيضًا الكلام على الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، ومنها كلام الله ومنها القرآن، وبقي الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر.

وقد تقدم أيضًا أن من تمام التوحيد الشهادة للَّهِ سبحانه بالألوهية، ولمحمدٍ ﷺ بالرسالة، وتصديقه ﷺ بما جاء به، وأن ذلك من تمام الشهادتين، لا تصح إحدى الشهادتين إلَّا بالأخرى، ولكنه واجب أيضًا نحو بقية رسل الله تعالى، فقد أخبر الله تعالى أنه أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، وقصَّ علينا بعض أخبارهم، وبعض القصص التي في القرآن هي من قصص بعض الأنبياء الذين أرسلهم الله فكذَّبهم أقوامهم، فأهلك الله المكذّبين وأنجى المؤمنين مع أنبيائهم، كقصة نوح، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وموسى، وهارون، وعيسى، ويحيى، وزكريا، وداود، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم.

ذكروا أن الأنبياء الذين ذُكرت أسماؤهم خمسة وعشرون نبيًا ذكروا في كثير من السور؛ في سورة الأنبياء عدد منهم، وفي سورة الأنعام عدد منهم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٨٣ ـ ٨٦]، فهؤلاء الذين سمّى الله تعالى من الأنبياء الواجب علينا أن نصدّق بهم، ونؤمن بأنهم بلغوا ما أُرسِلُوا به؛ لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥]، فجميع الرسل بلّغوا رسالات ربّهم التي أرسلوا بها، ولأجل ذلك نجّاهم الله لما أنهم بلغوا، وأهلك أُممهم التي كذّبَتْهُم، وأنجى من آمن منهم، كما حكى الله ذلك في القرآن.

كذلك نؤمن بأن لله تعالى رسل كثير لم يقصصهم الله علينا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء:١٦٤]، الرسل الذين لم يقصصهم الله لا يعلم عددهم إلا الله؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩]، لا يعلم عددهم ولا أزمنتهم إلا الله تعالى، حتى لو كان هناك مؤرخون ونسابون، ولكن الصحيح أن هناك أزمنة اندرس العلم بها، فلا يعلمها إلا الله تعالى فنؤمن بهم، وإن لم يسمّوا.

ورد في حديث أن أبا ذر ﷺ سأل النبي ﷺ: كَمْ وَفَاءُ عِدَّةِ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ من ذلك ثَلاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا

غَفِيرًا»[1]. وكثير منهم من بني إسرائيل، والله تعالى أخبر أن بني إسرائيل كانوا يقتلون الأنبياء بغير حقّ، قتلوا عددًا من الأنبياء، وآخر من قتلوا: يحيى عليه السلام.

والحاصل: أنهم كثيرون لا يعلم عددهم ولا أزمنتهم ولا أممهم إلا الله تعالى، والإيمان بهم واجب، وما بلغنا من شرائعهم نصدق به، وما لم يبلغنا لم نبحث عنه، ولسنا مكلّفين به، وكذلك نؤمن بأن شرائعهم كلها نسخت بشريعتنا، وأن شريعتنا هذه آخر الشرائع، وأحدثها وأجدّها، فهي آخر ما نزل من الشرائع التي نسخت ما قبلها.

فالعمل بها واجبٌ، وما قبلها منسوخٌ، مثل: التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى، وما أشبهها، كل هذه مما نسخ، ولم يبقَ العمل به، وإذا وجد بها شيء من الفوائد، كما روي في زبور داود: إن فيه فوائد. فتُنقل على أنها للاعتبار، لا على العمل بها، وفيها المواعظ، وفيها قصص، وفيها عبر وحكايات، وما أشبه ذلك من كتب التاريخ، وكتب العلم، وكتب الاستنباط والأحكام، فتُقرأ على أنها للتذكر وللاعتبار وللمواعظ، وللاسترشاد بها، هذا هو الواجب علينا نحو أنبياء الله تعالى ورسله.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٩٨).

قال الشارح:

وَأَمَّا أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، فَقَدْ قِيلَ فِيهِمْ أَقْوَالٌ، أَحْسَنُهَا: مَا نَقَلَهُ البَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ: أَنَّهُمْ نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وَأَمَّا الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَصْدِيقُهُ وَاتِّبَاعُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا.

قال الشيخ:

ذكر الشارح هنا أولي العزم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]؛ العزم على الشيء معناه: الجزم والتصميم عليه، والصبر عليه، وعدم الجزع، وعدم التضجر. والأنبياء كلّهم صبروا على ما أوذوا، وصبروا على ما عذّبوا به، ولكن منهم خمسة اشتهروا بأنهم أبلوا بلاء حسنًا، وأنهم صبروا صبرًا لم يصبره غيرهم، فلأجل ذلك قيل: أولو العزم، وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ

ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]، فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم.

كما أن جميع الأنبياء قد صبروا، وقد حكي لنا عن صبر يوسف ـ عليه السلام ـ على ما أصابه، وصبر يعقوب ـ عليه السلام ـ على ما ناله من الحزن، وكذلك صبر لوط ـ عليه السلام ـ على ما أوذي به، وكذلك صبر هود وشعيب ـ عليهما السلام ـ كل منهم صبر، ولكن الصبر الذي نُقل عن أولي العزم أقوى.

فالواجب علينا الإيمان بهم، والتصديق بهم وكذلك الاقتداء بهم بالتحمّل والتصبّر.

قال الشارح:

وَأَمَّا الإِيمَانُ بِالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، فَنُؤْمِنُ بِمَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا فِي كِتَابِهِ، مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى سُوَى ذَلِكَ كُتُبًا أَنْزَلَهَا عَلَى أَنْبِيَائِهِ، لَا يَعْرِفُ أَسْمَاءَهَا وَلَا عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

الإيمان بالكتب أحد أركان الإيمان، والإيمان بها هو: التصديق بما سمّى الله تعالى منها، قال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة:١١١]؛ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، والزبور الذي أُنزل على داود عليه السلام، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

هذه هي الكتب المشهورة الأربعة، وهناك كتب ذكرها الله تعالى؛ كقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم:٣٦]، فأخبر بأنه أوتي صحفًا قبل التوراة، وأخبر بأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أوتي صحفًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]. هذه الصحف لم تأتِنا، ولا نعرف ماذا تتضمّن، ولكنّنا نؤمن بأنها كلام الله، وبأنها من الله. وكذلك ما أنزله على الأنبياء من الصحف والكتب، نؤمن بأنها منزلة

من الله، ونؤمن بها إيمانًا مجملًا.

وأما الإيمان المفصَّل، فإنَّه يختصُّ بالقرآن، فالقرآن الذي أنزل علينا نؤمن به إيمانًا مفصلًا؛ فنقرأه ونتدبره ونتعلّمه، ونعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ونقف عند عجائبه، ونتلوه حقّ تلاوته، ونعتبر بأمثاله، ونعمل بأوامره، ونسترشد بإرشاداته، وكلّ ذلك مما أمرنا الله تعالى به، فلا بدَّ أن يكون الإيمان به إيمانًا مفصلًا، ونعتقد أنه آخر كتب الله التي أنزلها على الأنبياء، وأنه ناسخ لِمَا قبله من الكتب والشرائع، ونعتقد أنه كلام الله تعالى، وأن كلام الله تعالى لا ينفد، وأنه تكلَّم بكلام لا حدَّ له ولا نهاية، وأنّ هذا القرآن من كلام الله وليس كل كلام الله، وقد أخبر الله تعالى بأنَّ كلامه لا ينفد في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩].

وقد تقدَّم أن الإيمان بالرسل إجمالًا وبمحمد ﷺ وبشريعته تفصيلًا؛ فهو آخر الرسل وخاتمهم، كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، يعني: آخرهم، وشريعته هي الشريعة الباقية إلى أن تقوم الساعة، وإذا نزل عيسى ابن مريم - عليه السلام - في آخر الدنيا يحكم بهذه الشريعة، ويكون واحدًا من أفراد أمّة محمد ﷺ، ولكن الله تعالى يظهر به هذا الدين، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، وينصره الله تعالى، ويظهر الدين على يديه، فهو إنما يُعدّ

مجدّدًا لهذه الشريعة.

فشريعة محمد ﷺ وسنّته والعمل بما جاء به هو الباقي، وهو اللازم لكلّ أحد، كلُّ من جاءه خبر أو أمر أو إرشاد من قبل هذا النبيّ الكريم لزمه العمل به، فالعمل به من تمام الشهادة له بالرسالة، فإذا لم يعمل به نقص حظه من الشهادة له بأنه رسول الله، والعمل بالشريعة إجمالًا واجب على كل مسلم، وعلى المسلم أن يتعلمها إجمالًا، ثم يعمل بها تفصيلًا، وأن يعمل بها حكميًّا، وبذلك يكون من المتبعين لهذه الرسالة، ومن لم يكن كذلك نقص حظه من الاتباع.

قال الشارح:

وَأَمَّا الإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ، فَالإِقْرَارُ بِهِ، وَاتِّبَاعُ مَا فِيهِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الإِيمَانِ بِغَيْرِهِ مِنَ الكُتُبِ، فَعَلَيْنَا الإِيمَانُ بِأَنَّ الكُتُبَ المُنَزَّلَةَ عَلَى رُسُلِ اللَّهِ أَتَتْهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا حَقٌّ وَهُدًى وَنُورٌ وَبَيَانٌ وَشِفَاءٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة:١٣٦]، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١-٤]، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهَا، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ مِنْ عِنْدِهِ، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الكَلَامِ وَالْعُلُوِّ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢١٣]، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ:٦]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن:٨]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي القُرْآنِ.

قال الشيخ:

كأنه قيل: إن من أركان الإيمان: الإيمان بكتب الله، وإن من كتب الله هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وجعله آية من آياته، ومعجزة من معجزاته، فكيف يكون الإيمان بهذا القرآن؟

فأجيب: أن الإيمان به: الإقرار بأنه منزل من الله، والإقرار بأنه حق، وأن النبي ﷺ جاء به ونزل عليه بواسطة الملك؛ وكذلك من الإيمان به اتباع ما فيه، والعمل بتعاليمه كلها، والتقيد بأوامره ونواهيه، وهذا أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فإن الكتب السابقة إنما نؤمن بأنها منزلة من الله، وأما هذا القرآن فنعمل به، ونتبع ما فيه، ونجعله دليلنا، ونقدم دلالته على غيرها من دلالات الكتب السابقة، إذا تخالفا، وكذلك نقدمها على ما تقتضيه العقول وغيرها، فلا نقدم عقولنا على ما جاء في كتاب الله تعالى، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسول الله تعالى أنها من عند الله، وأنها حق، وأنها صدق، وفيها هدى ونور وبيان وشفاء، فتجتمع كلها بأنها حق وأنها كلام الله، وأن فيها الهدى والنور، والبيان والشفاء والتصديق بأنها وحي من الله تعالى، وأما العمل فإنه يختص بما في هذا القرآن، الذي نتحقق أنه كتابنا الذي أُنزل علينا، ومن الأدلة على وجوب الإيمان بالرسل وبكتبهم:

قول الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [البقرة:١٣٦]، أي: نصدق

بالله إلهًا وربًا، ونصدق بكل ما أُنزل إلينا من الكتاب، ومن السنة، وما أُنزل على موسى وعيسى - عليهما السلام - وجميع الأنبياء كلهم.

وهكذا قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٣٦]، أي: نؤمن بكل ما أوتي موسى وعيسى - عليهما السلام - وما أوتي النبيون من ربهم، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [البقرة:١٣٦]، فموسى - عليه السلام - أوتي التوراة، وعيسى - عليه السلام - أوتي الإنجيل، وكذلك النبيون كلهم أوتوا كتبًا من ربهم، نصدق بذلك.

وهكذا أيضًا قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:١-٤]، أي: نؤمن بأنه نزل التوراة والإنجيل، وأنه نزل علينا هذا الكتاب، وأنه أنزل الفرقان الذي هو هذا القرآن الذي هو من المعجزات.

وهكذا أيضًا قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، أي: أن الرسول وأتباعه آمنوا بما أنزله الله تعالى إليهم من هذا القرآن، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: الرسول والمؤمنون آمنوا بذلك كله، وصدقوا به، وعملوا بما يقدرون عليه مما بلغهم، وبما بلغهم إياه نبيهم ﷺ.

وهكـذا قولـه تعـالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، أُمـروا بـأن يتـدبروا هـذا القـرآن، يتعقلـوه ويتدبروا ما فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، يعني: أفلم يتدبروه، ولو تدبروه وتعقلوه لعرفوا أنه من عند الله.

وهكـذا قولـه تعـالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، أي: ليتعقلوهـا ويتفهموهـا، ولـو أنـه مـن عنـد غـير الله لوجـدوا فيـه اضـطرابًا واختلافًا، ولكنه محكم وكله خير وكله شفاء، إلى غير ذلـك مـن الآيـات التـي تدل على أن الله تكلم بهذا القرآن، وكذلك تكلم بالكتب المنزلة على الأنبياء، وتدل أيضًا على أنها نزلت من عند الله تعالى.

وهذه الآيات وما أشبهها دالة على إثبات صفة الكلام؛ وذلك للتصريح بأنها كلام الله، ودالة أيضًا على إثبات صفة العلو؛ لأن النزول لا يكون إلا مـن أعـلى، ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمـران:٤]، يعنـي: أنزلـه مـن السـماء إلى الأرض، وكذلك: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ [البقرة:١٣٦]، يعني: ما أنزلـه الله ـ عز وجل ـ إليهم، فكل ذلك دال على أن الله تعالى فوق عباده.

وهكـذا قـول الله تعـالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢١٣]، دليـل عـلى أنهـم كـانوا قبـل نوح ـ عليه السلام ـ أمة واحدة، ثم حصل منهم الاختلاف، فبعدما اختلفـوا بعث الله النبيين والرسل، وأمرهم بـأن يبشروا مـن اتبعهم وأطـاع الله تعـالى

بالخير، وينذر من خالفهم وخرج عن طاعة ربه، ومع ذلك أنزل معهم الكتب التي تصدق ما جاؤوا به، وتبين أنها حق من الله تعالى.

وقد روى ابن جرير[1] في تفسير هذه الآية قال: «حدثنا محمد بن بشار، قال: ثنا أبو داود الطيالسي، قال: ثنا همام بن منبه، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}». كما في الآية التي في سورة (يونس)، وهكذا أخرجه الحاكم في (المستدرك)[2] عن محمد بن بشار به، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. إلا أن أبا داود الطيالسي اسمه سليمان بن داود، روى له البخاري تعليقًا، وهو من رجال مسلم، وله سنن مطبوعة مشهورة ومحققة، ولفظة (اختلفوا) إنما حُذفت تعليلًا لقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، على أنه وقع التصريح بهذا المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس:١٩]. قال الطبري[3]: «فتأويل (الأمّة) على هذا القول الذي

---

(١) (٢/ ٣٣٤).

(٢) (٢/ ٥٤٦، ٥٤٧).

(٣) (٢/ ٣٣٥).

ذكرناه عن ابن عباس: (الدين)»، ثم استدل بقول النابغة الذبياني:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنَّ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

يعني: ذا الدين.

قال: «فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء: كان الناس أمة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد، ثم يُكتفى بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين؛ لدلالتها عليه؛ كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨]، يُراد به أهل دين واحد وملة واحدة».

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، وصف لهذا القرآن بأنه كتاب عزيز يعني شريف، وأن الله تعالى حماه عن الباطل، فلا يأتيه الباطل - أي: الكذب والاختلاف والاضطراب - لا من بين يديه ولا من خلفه لا من قبله ولا من بعده؛ وذلك لأنه تنزيل من الله تعالى الذي من أسمائه أنه هو الحكيم والحميد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦]،أي: هو الصدق.

وكذلك قوله - عز وجل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]،فإن هذا وصف لهذا القرآن.

وكذلك قوله -جل وعلا-: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤]، وقوله -جل شأنه-: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وكل هذه الآيات وأمثالها كثيرة في القرآن تدل على صفة هذا القرآن، وأن الله تعالى ضمنه المواعظ التي إذا تأملها السامع اتعظ بها، وعرف الدنيا، وعرف الآخرة، وعرف الفرق بينهما، وأن الله تعالى جعله شفاء لما في الصدور من الشكوك والريب والتوقف ونحو ذلك، وأنه يهدي به المؤمنين، وأنه يحرمهم به على النار، وأنه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا، وقد أمرنا الله تعالى أن نؤمن به، والإيمان به التصديق بكل ما فيه، ووصفه أيضًا بأنه نور في قوله: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾؛ وذلك لأنه ينير للجاهلين كل ما يتوقفون فيه، ينور لهم الطرق التي يشكون فيها، من سار على ما فيه فإنه يسير على هدى وعلى بيان.

وأما من تركه وعدل عنه فإنه يتخبط في الظلمات؛ لأن النور ضده الظلمات، وهي التي يدعو إليها الشياطين؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فالمؤمنون حقًا يخرجهم الله تعالى من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، بعدما كانوا في جهل وفي ظلمات، لا يهتدون سبيلاً، وإن لم تكن ظلمات حسية، ولكنها ظلمات وجهل بحيث أنهم لا يتأملون ولا يتفكرون فيما هم فيه، ولا يدرون ما هم فيه،فيخرجهم الله تعالى بهذا القرآن والعمل به واتباع ما فيه إلى النور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى

ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا المشي ليس مشيًا حسيًا، وإنما هو مشي معنوي، والمعنى أن الله تعالى جعل له ما يستضيء به حتى يعرف به الحق من الباطل، ويميز بين ما يحبه الله تعالى ويرضاه، فإذا مشى على النور في هذه الدنيا ـ أي: على نور الإيمان والهدى ـ فإن الله تعالى يجزيه، فالجزاء من جنس العمل، فيكون في الدنيا في نعيم الروح وراحة القلب، وفي الآخرة في جنات النعيم بفضل الله تعالى.

قال الطحاوي ـ رحمه الله ـ:

وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَهُ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ.

قال الشارح:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيه مَا عَلَيْنَا». وَيُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بِهَذَا الكَلَامِ إِلَى أَنَّ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَاحِدٌ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِسْلَامِ بِارْتِكَابِ الذَّنْبِ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ.

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (أَهْلَ قِبْلَتِنَا) مَنْ يَدَّعِي الإِسْلَامَ وَيَسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْمَعَاصِي، مَا لَمْ يُكَذِّبْ بِشَيْءٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ. وَسَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَى هَذَينِ الْمَعْنَيَيْنِ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ). وَعِنْدَ قَوْلِهِ: (وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ).

قال الشيخ:

كلام الماتن ـ رحمه الله ـ يتعلق بالمسلمين جميعًا، أي: أنهم مسلمون مؤمنون، وعلى هذا فكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن فإنه مسلم، يقول: نسميهم بذلك؛ لأنهم اعترفوا بكل ما جاء به النبي ﷺ، وصدقوا به، وقبلوا كل ما جاء

به من الأوامر والنواهي.

ثم استدل الشارح ـ رحمه الله ـ بقول النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيهِ مَا عَلَينا». وهذا الحديث أخرجه البخاري[1] عن أنس ﷺ، ولفظه: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلاَ تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ».

ويشير الشيخ ـ رحمه الله ـ بكلامه المتقدم إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله، ولكن الذي يترجح أن الإسلام أعم من الإيمان، وعلى هذا فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، وقد حقق ذلك شيخ الإسلام في كتاب (الإيمان)[2]، وبيّن أن قوله تعالى عن الأعراب: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، دليل على أنه ليس كل من ادعى أنه مؤمن يكون مؤمنًا حقًا، إنما عليه أن يقول: إنه مسلم، فإذا حقق بعد ذلك أركان الإيمان صدق عليه أنه مؤمن ومسلم.

يقول: المؤمن والمسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنوب إلا إذا استحل الذنب وتعمد فعله، أو أباح فعله للناس، كمن يستحل ترك الصلاة كليًا، أو

---

(١) برقم (٣٩١).

(٢) انظر: كتاب الإيمان الكبير ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٥ وما بعدها).

يستحل أكل الربا ويجعله حلالاً مباحًا، أو يستحل فعل الزنى أو يحله للمسلمين.

وأما قوله: (أَهْلِ قِبْلَتِنَا) ، فالمراد: المسلمون الذين هم على الإسلام، والذين يستقبلون القبلة في صلاتهم، وكذلك أيضًا يحجون ويتوجهون إلى القبلة ولو كانوا من أهل الأهواء الذين معهم شيء من النقص في دينهم، أو عندهم شيء من المعاصي، فإنهم لا يخرجون بالمعاصي عن الإيمان، فلو شربوا الخمر وهم يعترفون بأنهم مذنبون، أو أكلوا شيئًا من الربا مع اعترافهم بأن الله تعالى حرمه، فإن ذلك لا يخرجهم من الإسلام، ولا يخرجون منه إلا إذا كذبوا بشيء مما جاء به النبي ﷺ تكذيبًا جازمًا، وقد وعد الشيخ ـ رحمه الله ـ بالكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ الماتن: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، كما يأتي إن شاء الله، وكذلك عند قوله ـ رحمه الله ـ: (وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ)؛ حيث نبه على أن الإسلام والإيمان اسم لمسمى واحد، وسوف يتعرض لذلك الشارح ويُبين الخطأ أو الخلاف في أن أهل الإيمان في أصله سواء.

قال الطحاوي:

وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ، وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إِلَى الكَفِّ عَنْ كَلَامِ المُتَكَلِّمِينَ البَاطِلِ، وَذَمِّ عِلْمِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي الإِلَهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ اللَّهِ بِشَيْءٍ، بَلْ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ».

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «الحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: مَنْ أَلْزَمْتُهُ القِيَامَ مَعَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي أَلْزَمْتُهُ الأَدَبَ، وَمَنْ كَشَفْتُ لَهُ حَقِيقَةَ ذَاتِي أَلْزَمْتُهُ العَطَبَ، فَاخْتَرِ الأَدَبَ، أَوِ العَطَبَ».

وَيَشْهَدُ لِهَذَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا كَشَفَ لِلْجَبَلِ عَنْ ذَاتِهِ سَاخَ الجَبَلُ وَتَدَكْدَكَ وَلَمْ يَثْبُتْ لِعَظَمَةِ الذَّاتِ.

قَالَ الشِّبْلِيُّ: «الانْبِسَاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الحَقِّ تَرْكُ الأَدَبِ».

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ)، مَعْنَاهُ: لَا نُخَاصِمُ أَهْلَ الحَقِّ بِإِلْقَاءِ شُبُهَاتِ أَهْلِ الأَهْوَاءِ عَلَيْهِمْ، الْتِمَاسًا لِامْتِرَائِهِمْ وَمَيْلِهِمْ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الدُّعَاءِ إِلَى البَاطِلِ، وَتَلْبِيسِ الحَقِّ، وَإِفْسَادِ دِينِ الإِسْلَامِ.

قال الشيخ:

كلام المؤلف ـ رحمه الله ـ فيه النهي عن الخوض، وعن المجادلة والمماحكة في دين الله تعالى؛ كما يفعل ذلك المتكلمون الذين وسعوا علم الكلام، وتدخلوا فيما لا فائدة لهم فيه، فتكلموا بغير علم، ولا برهان من الله تعالى، وقد نهى العلماء عن علم الكلام، ونهوا أيضًا عن الاستماع إلى المتكلمين وإلى شبهاتهم؛ لأنهم إنما يُلقون الشبهات التي يشبهون بها على أهل الحق، فلا يجوز لنا مجالستهم، ولا سماع كلامهم، ولا القراءة في كتبهم، إلا للمتمكن الذي لا تروج عليه تلك البدع ولا تلك الشبهات، فكلامهم إنما هو بالخرص، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣]؛ هكذا أخبر بأنهم يتبعون هوى أنفسهم، ويعدلون عن الهدى الذي جاءهم من الله تعالى.

ثم ذكر كلام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو قوله: (**لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْطِقَ فِي ذَاتِ اللَّه بِشَيْءٍ، بَلْ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ**)، أي: لا يتكلم في صفات الله بغير علم، إنما يقتصر على ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه سبحانه أعلم بنفسه، ورسوله أعلم بمن أرسله، وكان السلف ـ رحمهم الله ـ يكرهون التكلم في ذات الله تعالى؛ وكذلك ينهون عن الخوض أو طلب الكيفية لصفة من صفات الله تعالى، فيقولون في آيات الله وأحاديث الرسول ﷺ التي تتعلق بالصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف»، ونعرف أنهم يفهمون معانيها،

ويعتقدون ما دلت عليه، إلا أنهم لا يخوضون مع الخائضين الذين ذكر الله أن ذلك من أسباب عذابهم.

ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال: (الحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: مَنْ أَلْزَمْتُهُ القِيَامَ مَعَ أَسْمَائِي وَصِفَاتِي أَلْزَمْتُهُ الأَدَبَ)، المراد بـ(الحق): الرب سبحانه وتعالى، وهذه من الحكم، أي: أن من ألزمه الله تعالى أن يكون مع أسمائه وصفاته يقف معها بلا تأويل، ولا تكذيب ولا تكييف ولا رد ولا تحريف، فإنه يكون من أهل الأدب مع الله، وأما قوله: (وَمَنْ كَشَفْتُ لَهُ حَقِيقَةَ ذَاتِي أَلْزَمْتُهُ العَطَبْ)، يعني: الذي يحاول الكشف عن ماهية ذات الرب سبحانه وتعالى، فإنه يقع في العطب؛ لأننا نثبت لله تعالى ذاتًا، كما في شعر خبيب بن عدي ﷺ:

وَلستُ أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[1]

فأثبت أن لله تعالى ذات، وأهل السنة ـ وكذلك المبتدعة ـ يقرون أن لله تعالى ذات، ولكنها ليست كسائر الذوات، فيعترفون بأن ذات الله تعالى تليق به، وإن قصرت الأفهام عن كيفيتها، فالذين يخوضون في كيفية الذات يقعون في العطب.

قوله: (فَاخْتَرِ الأَدَبَ أَوِ العَطَبَ)، إذا التزمت بالقيام مع أسماء الله تعالى فأنت من أهل الأدب، وإذا بحثت ودققت وتعمقت في كيفية الذات، وفي كيفية الصفات تقع في العطب، والعاقل يختار الأدب على العطب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٥، ٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

واستشهد الشارح بما ثبت أن الله سبحانه لما تجلى للجبل ساخ الجبل وتدكدك، ولم يثبت لعظمة الذات؛ وذلك في قوله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، تجلى بعض الذات للجبل فلم يصبر ذلك الجبل، ولم يثبت مع عظمه لذات الله، بل اندك وساخ في الأرض هيبة لعظمة الله تعالى، ولما رأى موسى ـ عليه السلام ـ ذلك صعق وخر ساجدًا، وعلم بأن الله تعالى لا يثبت لرؤيته شيء في الدنيا.

ثم ذكر كلام الشبلي، وقوله: «**الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب**».

الشبلي: اسمه دلف بن جحدر الشبلي البغدادي، قال الذهبي[1]: «كان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن، لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسكر، فيقول أشياء يُعتذر عنه فيها، لا تكون قدوة»، وما يُحكى عنه من الكلمات التي فيها شيء من الشطحات، لعل ذلك قاله عندما يلف دماغه، فقوله: (**الانْبِسَاطُ بِالْقَوْلِ مَعَ الحَقِّ تَرْكُ الأَدَبِ**)، مع الحق: أي مع الله تعالى، الانبساط بالقول معه، يعني: الاقتصار على ما أمر به، وهذا ذكر أنه ترك الأدب.

قوله: (**وَلَا نُمَارِي فِي دِينِ اللَّهِ**)، أي: لا نخاصم أهل الباطل، ولا نخاصم أهل الحق، أي: بأن نلقي عليهم شبهات أهل الأهواء التي تسبب شكًا فيقع في

(١) في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٧).

قلوبهم شك، أو تقع تلك الشبهات في القلب، ويصعب بعد ذلك إخراجها، وكذلك أيضًا لا نخاصم أهل الباطل؛ لمعرفتنا بأنهم على باطل، إلا من كان عنده قوة ومعرفة بشبهاتهم وإبطالها، كما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية في أنه كان يجادلهم، ويظهر بالحجة عليهم، ويبطل شبهاتهم؛ لأنه يعرف الحق؛ وكذلك يعرف كيف يبطل تلك الشبهات فلا نخاصم على الحق؛ مخافة أنهم إذا وقع منهم ميل إلى تلك الشبهات صعب عليهم التخلص؛ لأن هذا في معنى الدعاء إلى الباطل، يعني: أن نشر شبهات أهل الأهواء دعوة إلى الشر، وتلبيس الحق بالباطل، وإفساد لدين الله، وإظهار لبدع المبتدعين.

قال الطحاوي:

وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينَ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ.

قال الشارح:

فَقَوْلُهُ: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ)، يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ: أَنَّا لَا نَقُولُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الزَّيْغِ وَاخْتَلَفُوا، وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ: أَنَّا لَا نُجَادِلُ فِي القِرَاءَةِ الثَّابِتَةِ، بَلْ نَقْرَؤُهُ بِكُلِّ مَا ثَبَتَ وَصَحَّ، وَكُلٌّ مِنَ المَعْنَيَيْنِ حَقٌّ. وَيَشْهَدُ بِصِحَّةِ المَعْنَى الثَّانِي: مَا رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْكَرَاهِيَةَ، فَقَالَ: كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، لَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

نَهَى ﷺ عَنِ الاخْتِلَافِ الَّذِي فِيهِ جَحْدُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ مَا مَعَ صَاحِبِهِ مِنَ الحَقِّ؛ لِأَنَّ كِلَا القَارِئَيْنِ كَانَ مُحْسِنًا فِيمَا قَرَأَهُ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا

---

(١) يأتي تخريجه في شرح سماحة الشيخ حفظه الله.

اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا؛ وَلِهَذَا قَالَ حُذَيْفَةَ ﷺ لِعُثْمَانَ ﷺ: «أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَخْتَلِفُ كَمَا اخْتَلَفَتْ الأُمَمُ قَبْلَهُمْ»(١). فَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ اجْتِمَاعًا سَائِغًا، وَهُمْ مَعْصُومُونَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالٍ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ تَرْكٌ لِوَاجِبٍ، وَلَا فِعْلٌ لِمَحْظُورٍ؛ إِذْ كَانَتْ قِرَاءَةُ القُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ جَائِزَةً لَا وَاجِبَةً، رُخْصَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ جَعَلَ الاخْتِيَارَ إِلَيْهِمْ فِي أَيِّ حَرْفٍ اخْتَارُوهُ.

قال الشيخ:

قوله: (أَنَّا لَا نَقُولُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الزَّيْغِ وَاخْتَلَفُوا، وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ الحَقَّ)، وادعوا أنه مخلوق أو أنه عبارة أو حكاية وترجمة لكلام الله، بل إنه كلامه أتى به جبريل ـ عليه السلام ـ لينسخ به كل كتاب.

(بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ)، تكلم به حقًا، نشهد بذلك، ونعرف أنه (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينَ)، الذي هو الملك.

وقوله: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ) أي: لا نقول فيه كما يقول أهل الزيغ الذين اختلفوا فيه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وهم جميع أهل الأهواء الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم؛ لما أكثروا من الجدال، وأكثروا من إلقاء الشبهات، وأكثروا من التشكيك في آيات الله تعالى، وفي صفاته، وصاروا يضربون بعض القرآن ببعض، ويأخذون ما يناسبهم من الآيات، ويحملونها على محامل تخالف ما

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

دلت عليه، حتى توافق أهواءهم، فجادلوا بالباطل حتى انتشر باطلهم، واغتر بهم خلق كثير، ونحن إنما نقول: إنه كلام رب العالمين الذي تكلم به حقًا، ونزل به الروح الأمين.

ويحتمل قوله: (وَلَا نُجَادِلُ فِي الْقُرْآنِ) أي: في القراءات الثابتة التي ثبتت القراءة بها، وأقرها النبي ﷺ بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح من القراءات.

قوله: (وَكُلٌّ مِنَ المَعْنَيَيْنِ حَقٌّ)، يعني: مجادلة أهل الزيغ والباطل، وكذلك مجادلة أهل القراءات الثابتة.

قوله: (وَيَشْهَدُ بِصِحَّةِ المَعْنَى الثَّانِي)، الذي هو المجادلة في القراءات، ما رُوِي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلاَفَهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَانطلقت بِهِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْكَرَاهِيَةَ، فَقَالَ: كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ، لاَ تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»، أخرجه البخاري[1]، والإمام أحمد[2]، ولم يروه مسلم كما نبه عليه العلماء، فالنبي ﷺ نهى عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق، فإن القرآن يصدق بعضه بعضًا، ولا يجوز أن يُضرب بعضه ببعض، أن يُظهروا فيه أنه مختلف.

قال: (لِأَنَّ كِلَا الْقَارِئَيْنِ كَانَ مُحْسِنًا فِيمَا قَرَأَهُ)؛ لأنه متبع والقراءة بذلك جائزة.

(١) برقم (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

(٢) (١/ ٣٩٣).

قوله: (وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا)، اختلفوا في كتبهم، واختلفوا في أديانهم، واختلفوا في نحلهم، واختلفوا في عباداتهم، وصار بعضهم يُكذب بعضًا، ثم ذكر أن عثمان ﷺ هو الذي وضع المصحف هذا؛ ولهذا يُقال: إنه بالرسم العثماني؛ وذلك لما جاءه حذيفة ﷺ من الشام والعراق، وذكر اختلاف قراءتهم أن هؤلاء يقرؤون بقراءة تخالف قراءة الآخريين، فخاف أنهم يختلفون؛ لأن هؤلاء يدعون أن قراءتهم هي الصواب، والآخرون كذلك، فقال حذيفة ﷺ: «أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ لَا تَخْتَلِفُ كَمَا اخْتَلَفَتْ الأُمَمُ قَبْلَهُمْ». أخرجه البخاري في صحيحه من طريق موسى بن إسماعيل، عن إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك ﷺ حدثه: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلاَفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ؛ حتى لا يحصل الاختلاف (فَجَمَعَ النَّاسَ عَلَى

حَرْفٍ وَاحِدٍ)، وهذا اجتماع سائغ وجائز، ولما اجتمعت الأمة على ذلك عُرف أنه حق؛ لأنهم (مَعْصُومُونَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالٍ)، ولم يكن في ذلك ترك لشيء من الواجبات، ولا فعل شيء من المحظورات، فلا يُقال: إنهم تركوا بقية القراءات التي أُنزل القرآن بها؛ إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف، إنما هي جائزة لا واجبة، فيجوز أن يقرأ ببعض القراءات الثابتة، وذلك رخصة من الله تعالى، وقد جعل الله الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه، وكذلك أيضًا النبي ﷺ .

قال الشارح:

كَمَا أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِمْ مَنْصُوصًا؛ وَلِهَذَا كَانَ تَرْتِيبَ مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِيِّ، وَكَذَلِكَ مُصْحَفُ غَيْرِهِ.

وَأَمَّا تَرْتِيبُ آيَاتِ السُّوَرِ فَهُوَ تَرْتِيبٌ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يُقَدِّمُوا آيَةً عَلَى آيَةٍ، بِخِلَافِ السُّوَرِ، فَلَمَّا رَأَى الصَّحَابَةُ أَنَّ الْأُمَّةَ تَفْتَرِقُ وَتَخْتَلِفُ، وَتَتَقَاتَلُ إِنْ لَمْ تَجْتَمِعْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، جَمَعَهُمُ الصَّحَابَةُ عَلَيْهِ.

هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْقُرَّاءِ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ التَّرَخُّصَ فِي الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، لِمَا فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا، فَلَمَّا تَذَلَّلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْقِرَاءَةِ، وَكَانَ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ يَسِيرًا عَلَيْهِمْ - وَهُوَ أَوْفَقُ لَهُمْ - أَجْمَعُوا عَلَى الْحَرْفِ الَّذِي كَانَ فِي الْعَرْضَةِ الْأَخِيرَةِ.

قال الشيخ:

ذكر العلماء أن ترتيب السور ليس واجبًا وليس منصوصًا عليه، ولكن اجتهد الصحابة فرتبوا هذه السور فبدؤوا بسورة (البقرة)، ثم (آل عمران) .. إلى آخره، إلى أن ختموا بسورة (الناس)، وليس ذلك واجبًا عليهم منصوصًا، وذكروا أن مصحف عبدالله ترتيبه على غير ترتيب هذا المصحف، كما نبه على ذلك الذين تكلموا في المصاحف، وكما نبه على ذلك الذين تكلموا في علوم القرآن كالسيوطي في (الإتقان) وصاحب (البرهان) وغيرهم، وهكذا كثير من مصاحف الصحابة.

أما ترتيب آيات السور فإنه ترتيب منصوص عليه، كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه آيات يقول: «ضعوا هذه الآيات في كذا وكذا، بعد آية كذا من سورة كذا»[1]، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية، فترتيب الآيات التي في السور منصوص عليه؛ بخلاف السور، فلما رأى الصحابة ﷺ أن الأمة يُخاف عليها أن تتفرق وأن تختلف وأن تتقاتل وأن يضلل بعضهم بعضًا بهذا الاختلاف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد، جمعهم عثمان والصحابة على هذا الحرف الذي هو الرسم في هذه المصاحف.

هذا قول جمهور العلماء من سلف الأمة وأئمتها، وكذلك القراء كما نقل ذلك ابن جرير - رحمه الله - في تفسيره[2]، حيث أطال في ذلك.

ثم يقول: إن بعض العلماء رخصوا في الأحرف السبعة، وقالوا: إن ذلك كان في أول الإسلام، أي: أن الرخصة كانت في أول الإسلام؛ لِمَا في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً؛ ولأن أكثرهم لا يقرؤون ولا يكتبون فيقرؤون الكتابات، ولم تكن القراءة في الكتب أو في الصحف متيسرة عندهم، فكانوا يحفظونه حفظًا، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرًا عليهم - وهو أوفق لهم - أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة

---

(١) كما جاء في حديث زَيْدِ بن ثَابِتٍ ﷺ أنه قال: «كنا عِنْدَ رسول الله ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ من الرِّقَاعِ...». أخرجه الترمذي (٣٩٥٤)، وأحمد (٥/ ١٨٤).

(٢) (١/ ٥٦ وما بعدها).

الأخيرة، فهذا القرآن إنما هو ما في العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعرضه عليه كل سنة مرة، وفي السنة الأخيرة عرضه عليه مرتين، واستنبط أن ذلك لقرب أجله ﷺ، وقد أخبر ﷺ بذلك فاطمة رضي الله عنها، كما في حديث عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قالت: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي»، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عن يَمِينِهِ أو عن شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ، فقلت لها: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ، فقلت: ما رأيت كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ من حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قال، فقالت: ما كنت لأُفْشِيَ سِرَّ رسول اللهَّ ﷺ، حتى قُبِضَ النبي ﷺ، فَسَأَلْتُهَا، فقالت: أَسَرَّ إلي: «إِنَّ جِبْرِيلَ كان يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، ولا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لحَاقًا بِي»، فَبَكَيْتُ، فقال: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أو نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ؟»، فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

قال الشارح:

وَذَهَبَ طَوَائِفُ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى أَنَّ الْمُصْحَفَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُهْمَلَ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ، وَقَدِ اتَّفَقُوا عَلَى نَقْلِ الْمُصْحَفِ الْعُثْمَانِيِّ، وَتَرْكِ مَا سِوَاهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْجَوَابِ، وَهُوَ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ جَائِزًا لَا وَاجِبًا، أَوْ أَنَّهُ صَارَ مَنْسُوخًا.

قال الشيخ:

هكذا يقول بعض الفقهاء أن هذا المصحف مشتملٌ على الأحرف السبعة، ولكن الصحيح أنه ليس مشتملًا عليها؛ لأن كثيرًا من القراءات التي ثبتت كقراءة بعض الصحابة المروية بأسانيد صحيحة ليست في هذا المصحف، بل في غيره، كما ذُكر أن ابن مسعود ﷺ كان يقرأ: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَالذَّكَرَ وَالْأُنثَى} [الليل:١-٣].

فدل ذلك على أنها لم تُنقل قراءته، وكذلك كثير من قراءات الصحابة - رضي الله عنهم - ومن الزيادات التي كان يقرأ بها كثير من السلف لم تُذكر ولم تُكتب في هذا المصحف العثماني.

وعلى كل حال فإن القراءة بالأحرف السبعة كانت رخصة، فقد تكلم العلماء على المراد بالأحرف السبعة في مؤلفات كثيرة؛ كمقدمة تفسير ابن جرير، وكذلك

شرح الحديث الذي أخرجه البخاري[١] ومسلم[٢]، في قصة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم بن حزام - رضي الله عنهما - أخرجه البخاري، وتوسع في شرحه ابن حجر في (فتح الباري)[٣]، فعُرف بذلك أنها كانت توسعة ورخصة، وأن القراءة بتلك الأحرف كانت جائزة وليس واجبًا، أو أنه كان منسوخًا حيث اقتصروا على العرضة الأخيرة.

(١) برقم (٢٤١٩).

(٢) برقم (٨١٨).

(٣) (٩/ ٢٤ وما بعدها).

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: إِنَّهُ كَانَ يُجَوِّزُ القِرَاءَةَ بِالمَعْنَى! فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا قَالَ: (قَدْ نَظَرْتُ إِلَى القُرَّاءِ فَرَأَيْتُ قِرَاءَتَهُمْ مُتَقَارِبَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ: هَلُمَّ، وَأَقْبِلْ، وَتَعَالَ، فَاقْرَؤوا كَمَا عُلِّمْتُمْ». أَوْ كَمَا قَالَ.

قال الشيخ:

هذا الأثر أخرجه الطبري في (جامع البيان)[1]، والطبراني في الكبير[2] من ثلاثة طرق، ولفظه: إني قد سمعت إلى القرّاء فوجدتهم متقاربين، فاقرؤوا على ما علمتم وإياكم والتنطع في الاختلاف، إنما هو كقول: أحدكم أقبل وهلم وتعال»، وإسناده صحيح، ويريد أن قراءتهم مع اختلاف الألفاظ متقاربة المعاني، ومثل بقوله: هلم وأقبل وتعال، وما أشبه ذلك. وأما أنه يجوّز تغيير الحروف وقراءتها بالمعنى، فإن ذلك كذب عليه، وما رُوي من أنه أقرأ أحد الذين لم يعلموا بدل قوله: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٤]، {طعام الفاجر}، فلعل ذلك تفسير لما صعب عليه أن ينطق بالأثيم، أمره بأن ينطق بالفاجر كتفسير لها، ولكن لا يجوز أن تُقرأ بهذه الكلمة، فهو ﷺ رأى أن قراءة القراء الذين أقرأهم النبي ﷺ ليست مختلفة، بل متقاربة، فعند ذلك صوب قراءتهم.

---

(١) (١٢/ ١٨١).

(٢) برقم (٨٦٨٠).

قال الشارح:

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا أَنْ لَا نُجَادِلَ أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، فَكَيْفَ بِمُنَاظَرَةِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ؟ فَإِنَّ أَهْلَ الْقِبْلَةِ مِنْ حَيْثُ الجُمْلَةِ خَيْرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُنَاظَرَ مَنْ لَمْ يَظْلِمْ مِنْهُمْ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلَيْسَ إِذَا أَخْطَأَ يُقَالُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، قَبْلَ أَنْ تُقَامَ عَلَيْهِ الحُجَّةُ الَّتِي حَكَمَ الرَّسُولُ ﷺ بِكُفْرِ مَنْ تَرَكَهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى قَد عَفَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَنِ الخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ؛ وَلِهَذَا ذَمَّ السَّلَفُ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، وَذَكَرُوا أَنَّ آخِرَ أَمْرِهِمُ السَّيْفُ.

وَسَيَأْتِي لِهَذَا المَعْنَى زِيَادَةُ بَيَانٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا).

قال الشيخ:

أمر الله تعالى بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، في قوله - عز وجل -: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، والمراد بمجادلتهم: مساءلتهم عما في كتبهم، وعما يشتبه عليهم فإذا جادلهم المسلم مجادلة حسنة، رُجي أنهم ينصاعون إلى الحق ويتقبلونه، وأما الظالمون منهم فيُشدد عليهم وينهون عن أن يتكبروا، وينهون عن الإصغاء إلى قولهم، فلا يجوز أن نجادلهم إلا بالتي هي أحسن، بل نضللهم ونبين لهم خطأهم أو بعدهم عن الصواب.

وهكذا أيضًا أمر الله تعالى بالمجادلة بالتي هي أحسن في الدعوة، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، أي: عندما يحتاج إلى المجادلة تكون مجادلة لطيفة، ليس فيها شراسة ولا قوة، ولا فظاظة أيضًا في الكلام.

فإذا كان أهل الكتاب لا يُجادلون إلا بالتي هي أحسن فكيف بمناظرة أهل القبلة؟ الذين هم من المسلمين،فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب؛ لأنهم يدينون بطاعة الله ورسوله، ويدينون بالإسلام، ويعترفون بالقرآن أنه كلام الله، وبالسنة أنها كلام النبي ﷺ، وإذا كانوا كذلك فلا يجوز أن يُناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن،أما المبتدعة الظالمون كالرافضة ـ مثلاً ـ أو كالمعتزلة، أو غلاة الصوفية فإنه يُشدد عليهم في النزاع، ويُبين بعدهم عن الصواب، أما الذين يحبون الحق فإنهم إذا جُودلوا بالتي هي أحسن رُجي أنهم يتأثرون ويتوبون ويعترفون بخطئهم.

قوله: (وَلَيْسَ إِذَا أَخْطَأَ يُقَالُ: إِنَّهُ كَافِرٌ)، أي: لا يُقال له ذلك (قَبْلَ أَنْ تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي حَكَمَ الرَّسُولُ ﷺ بِكُفْرِ مَنْ تَرَكَهَا)، هكذا يعترف المسلمون بأن الله سبحانه وتعالى أمر بالدعوة إليه، ونهى عن الغلظة في الدعوة، ونهى أيضًا الذي يدعو أن يكون متكلمًا بكلام سيئ ينفر منه المدعو؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣]، أي: دعا إلى عبادة الله، ودعا إلى دينه، ولكن لا يدعو بشدة فلا يقول: أنك

قد كفرت وخرجت من الدين. حتى تُقام عليه الحجة، فإذا أصر بعد قيام الحجة فإنه حينئذٍ يُغلظ عليه.

قوله: (وَاللَّهُ تَعَالَى قَد عَفَا لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَنِ الخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ)، كما في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وفي صحيح مسلم[١] أن الله تعالى قال: «قَدْ فَعَلت»، وروى ابن ماجه[٢] من طريق الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ». وهذا إسناد صحيح إن سلم من الانقطاع، وظاهره أنه منقطع.

قال المزي: «رواه بشر بن بكر التنيسي، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد ابن عمير، عن ابن عباس»[٣]، «وليس ببعيد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية»[٤]، فأسقط عبيد بن عمير بعد عطاء، وجعل الحديث عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعلى كلٍ فالآية كافية، وهي قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؛ ولهذا السلف - رحمهم الله - يذمون أهل الأهواء وأهل الكلام ويحذرون منهم،

---

(١) برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) برقم (٢٠٤٥).

(٣) انظر: تحفة الأشراف (٥/ ٨٥) برقم (٥٩٠٥).

(٤) انظر: مصباح الزجاجة (٢/ ١٢٦).

ويذكرون أن آخر أمرهم السيف، إذا امتنعوا من قبول الحق فإنهم يُقاتلون بقدر ما يصرون عليه من الباطل، أو ما ينكرونه من الحق.

ووعد الشارح ـ رحمه الله ـ أنه سيزيد هذا المعنى بيانًا عند قول الشيخ: (وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا).

قال الشارح:

قَوْلُهُ: (وَنَشْهَدُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ)، قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا المَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ: «وَإِنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا».

قَوْلُهُ: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ)، هُوَ: جِبْرَائِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُمِّيَ رُوحًا؛ لأَنَّهُ حَامِلُ الوَحْيِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ القُلُوبِ إِلَى الرُّسُلِ مِنَ البَشَرِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ أَمِينُ حَقُّ أَمِين - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - قَالَ تَعَالَى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، وَهَذَا وَصْفُ جِبْرَائِيل، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٤٠، ٤١]،الآيات، فَإِنَّ الرَّسُولَ هُنَا هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

قال الشيخ:

قوله: (قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا المَعْنَى)، فهناك حقق أن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، كما يقول ذلك المبتدعة من الأشاعرة ونحوهم، الذين يقولون: إن كلام الله ليس بحرف ولا بصوت، وإنما هو المعنى، وأن هذا القرآن ترجمة كلام الله.

قوله: (هُوَ: جِبْرَائِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - سُمِّيَ رُوحًا)، وجبريل - عليه

السلام - روح؛ لأن الملائكة أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، كما ذكر ذلك ابن القيم في كتاب (الروح)[1]، وقيل: إنه سمي روحًا - كما ذكر الشارح - لأنه يحمل الوحي، والوحي كالروح للقلوب تحيى به القلوب، يحمل ذلك إلى الرسل من البشر، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

قوله: (وَهُوَ أَمِينُ حَقٍّ أَمِين)، أي: ووصف أيضًا بأنه أمين، أي: أنه أهل للأمانة إذا اؤتمن على الوحي، فإنه لا يغيره، بل يأمن به ويؤديه كما أؤتمن عليه؛ ولذلك وصفه الله تعالى بذلك في قوله - عز وجل -: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:١٩٣- ١٩٥]، أي: نزل به إليك هذا الملك، الذي هو الروح الأمين، وهو جبريل عليه السلام، ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، أي: أنزله على قلبك، وأقره في قلبك، ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾، أي: لتنذر به الناس، وجعله ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾، حتى تفهمه، ويفهمه الذين أرسلت إليهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير:١٩- ٢١]، هذا الرسول هو جبريل - عليه السلام - وصفه الله تعالى بأنه:

أولاً: رسول، أي: يرسله إلى عباده.

ثانيًا: كريم عند الله تعالى، من الكرم الذي هو الشرف والرفعة.

---

(١) (ص١٤٨).

ثالثًا: ذو قوة، أي: له قوة؛ كما في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٥]، وذكروا من قوته ـ ما تقدم ـ أنه حمل قرى قوم لوط إلى السماء، ثم قلبهم.

رابعًا: وصفه بأنه ﴿ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾، أي: عند رب العرش الذي هو الله مكين، أي: له مكانة ومنزلة.

خامسًا: مطاع، أي: يطيعه الملائكة؛ لأنهم جاء في حديث: «**إذا أَحَبَّ اللَّهَ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ له الْقَبُولُ فِي الأرض**»[1]، وذكر مثل ذلك في البغض، فدل على أنه مطاع، ومحترم عند الملائكة.

سادسًا: أمين، أي: مؤتمن على ما أرسل به من الوحي.

فالمراد بهذه الآيات في سورة (التكوير) جبريل ـ عليه السلام ـ وأما قوله تعالى في سورة (الحاقة): ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ، وصفه بأنه رسول من الله، وبأنه كريم على الله، ونزه من جاء به عن أن يكون شاعرًا، أو يكون كاهنًا أو نحو ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٥٦١).

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ)، تَصْرِيحٌ بِتَعْلِيمِ جِبْرَائِيلَ إِيَّاهُ، إِبْطَالًا لِتَوَهُّمِ الْقَرَامِطَةِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَصَوَّرَهُ فِي نَفْسِهِ إِلْهَامًا.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)، تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فَقَدْ خَالَفَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ سَلَفَ الْأُمَّةِ كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ بِالْحَقِيقَةِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، بَلْ قَوْلُهُ: (وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)، مُجْرَى عَلَى إِطْلَاقِهِ: أَنَّا لَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ خِلَافَهُمْ زَيْغٌ وَضَلَالٌ وَبِدْعَةٌ.

قال الشيخ:

هكذا يرد الشارح - رحمه الله - على قول هؤلاء القرامطة، فالله تعالى علم أو تكلم بالقرآن فسمعه جبريل، فنزل به حتى علمه النبي ﷺ بلفظه، بحروفه ومعانيه، والرسول هو سيد المرسلين، فهذا تصريح بأن جبريل - عليه السلام - هو الذي علم محمدًا هذا القرآن، ففيه إبطال ورد لتوهم القرامطة وغيرهم، أن هذا القرآن تصوره في نفسه إلهامًا، أنه إنما هو خيالات تخيلها في نفسه، ثم تكلم بها فلا يكون على هذا كلام الله تعالى، بيّن ذلك شيخ الإسلام في كتابه (درء تعارض العقل والنقل)[1]، وتوسع في بيانه.

---

(١) (١٠/ ٢٠٤).

وقوله: (تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فَقَدْ خَالَفَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)، فيه إشارة إلى أن الذين قالوا: إن القرآن مخلوق، قد خالفوا جماعة المسلمين، فيكون ذلك دليلاً على أنهم ليسوا من المسلمين حقًا، فيكون في هذا تنبيه على أنه كلام الله، وأن الذين يقولون: إنه مخلوق، قد خالفوا جماعة المسلمين، فلا يكونون من المسلمين، فإن سلف الأمة وأئمتها من عهد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إلى هذا الزمان، الذين اتبعوا الصحابة في الحقيقة، كلهم متفقون على أن القرآن كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، فمن قال: إنه مخلوق، فقد خالف جماعة المسلمين.

فقوله: (قَوْلُهُ: (وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ)، مُجْرَى عَلَى إِطْلَاقِهِ)، أي: أننا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه، سواء فيما يتعلق بالقرآن أنه كلام الله، أو فيما يتعلق ببقية الأحكام التي ابتدعوها، فإن خلاف جماعة المسلمين يكون زيغًا في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، ويكون ضلالاً وبدعة، وكل بدعة ضلالة.

ربع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ، وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ».

قال الشارح:

أَرَادَ بِأَهْلِ الْقِبْلَةِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ: (وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ)، يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهَذَا الكَلَامِ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الخَوَارِجِ القَائِلِينَ بِالتَّكْفِيرِ بِكُلِّ ذَنْبٍ.

وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ وَإِيَّانَا - أَنَّ بَابَ التَّكْفِيرِ وَعَدَمَ التَّكْفِيرِ بَابٌ عَظُمَتْ الفِتْنَةُ وَالمِحْنَةُ فيه، وَكَثُرَ فِيهِ الافْتِرَاقُ، وَتَشَتَّتَتْ فِيهِ الأَهْوَاءُ وَالآرَاءُ، وَتَعَارَضَتْ فِيهِ دَلَائِلُهُمْ، فَالنَّاسُ فِيهِ فِي جِنْسِ تَكْفِيرِ أَهْلِ المَقَالَاتِ وَالعَقَائِدِ الفَاسِدَةِ، المُخَالِفَةِ لِلْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، أَوْ المُخَالِفَةِ لِذَلِكَ فِي اعْتِقَادِهِمْ، عَلَى طَرَفَيْنِ وَوَسَطٍ، مِنْ جِنْسِ الاخْتِلَافِ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ العَمَلِيَّةِ.

فَطَائِفَةٌ تَقُولُ: لَا نُكَفِّرُ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ أَحَدًا. فَتَنْفِي التَّكْفِيرَ نَفْيًا عَامًّا، مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ فِي أَهْلِ القِبْلَةِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَكْفَرُ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ، وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ يُظْهِرُ بَعْضَ ذَلِكَ حَيْثُ يُمْكِنُهُمْ، وَهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ.

وَأَيْضًا فَلَا خِلَافَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ أَظْهَرَ إِنْكَارَ الوَاجِبَاتِ

الظَّاهِرَةِ الـمُتَوَاتِرَةِ، والمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ الـمُتَوَاتِرَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ كَافِرًا مُرْتَدًا.

وَالنِّفَاقُ وَالرِّدَّةُ مَظَنَّتُهُمَا البِدَعُ وَالفُجُورُ، كَمَا ذَكَرَهُ الخَلَّالُ فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ» بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ رِدَّةً أَهْلُ الأَهْوَاءِ، وَكَانَ يَرَى هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وَلِهَذَا امْتَنَعَ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ عَنْ إِطْلَاقِ القَوْلِ بِأَنَّا لَا نُكَفِّرُ أَحَدًا بِذَنْبٍ، بَلْ يُقَالُ: لَا نُكَفِّرُهُمْ بِكُلِّ ذَنْبٍ كَمَا تَفْعَلُهُ الخَوَارِجُ، وَفَرْقٌ بَيْنَ النَّفْيِ العَامِ وَنَفْيِ العُمُومِ، وَالوَاجِبُ إِنَّمَا هُوَ نَفْيُ العُمُومِ مُنَاقَضَةً لِقَوْلِ الخَوَارِجِ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِكُلِّ ذَنْبٍ.

وَلِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - قَيَّدَهُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ)، وَفِي قَوْلِهِ: (مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُرَادَهُ مِنْ هَذَا النَّفْيِ العَامِ لِكُلِّ ذَنْبٍ مِنَ الذُّنُوبِ العَمَلِيَّةِ لَا العِلْمِيَّةِ، وَفِيهِ إِشْكَالٌ؛ فَإِنَّ الشَّارِعَ لَمْ يَكْتَفِ مِنَ المُكَلَّفِ فِي العَمَلِيَّاتِ بِمُجَرَّدِ العَمَلِ دُونَ العِلْمِ، وَلَا فِي العِلْمِيَّاتِ بِمُجَرَّدِ العِلْمِ دُونَ العَمَلِ، وَلَيْسَ العَمَلُ مَقْصُورًا عَلَى عَمَلِ الجَوَارِحِ، بَلْ أَعْمَالُ القُلُوبِ أَصْلٌ لِعَمَلِ الجَوَارِحِ، وَأَعْمَالُ الجَوَارِحِ تَبَعٌ، إِلَّا أَنْ يُضَمِّنَ قَوْلَهُ (يَسْتَحِلَّهُ) بِمَعْنَى: يَعْتَقِدُهُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

إن عقيدة أهل السنة أنهم لا يكفّرون بالذّنب، أي: إن مرتكب الكبيرة لا يصل إلى حدّ الكفر، ولكن هناك بدع توصل إلى حدّ الكفر، وأما مطلق الذنوب ولو كانت كبائر، ولو كان صاحبها مصرًّا عليها، فإنّه لا يكفَّر بها ما دام أنّه يعترف أنها ذنوب، وأنها محرَّمة، فإذا أكل الرِّبا وهو يعترف أنه محرَّم، أو فعل الزنا وهو يعترف أنه ذنب، وأنه حرام، أو شرب الخمر وهو يعترف بتحريمها، وكذلك غيرها من الذنوب لا يصل إلى حدّ الكفر إلاَّ إذا اعتقد حلَّها، فإنه يكفر بذلك، ويكفَّر مستحلّ الذنب المحرّم، ولو لم يفعله

وخالف في هذا الخوارج، الذين يجعلون الذنب كفرًا، والعفو ذنبًا، وخالف أيضًا المعتزلة، الذين يجعلون أصحاب الكبائر غير مسلمين ولا مؤمنين ولا كافرين، ولكن يجعلونهم في منزلة بين منزلتين.

أما أهل السنّة فلا يكفّرون بالذنوب، وقد ورد أدلة في خطر التكفير؛ منها قول الرسول ﷺ: «وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أو قال عَدُوَّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إلا حَارَ عَلَيْهِ»[1]، يعني: رجع عليه الكفر. وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا على ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي،

(١) أخرجه مسلم (٦١) من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ.

أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فقال: واللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أو لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: كُنْتَ بِي عَالِمًا، أَو كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إلى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ[1].

فدلت هذه الآثار على خطر التكفير.

فهناك ذُنوب أُطلق عليها كفر، ولكن يقول العلماء: إنّه كفر دون كفر. مثل قوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[2]. أي: إن الكفر ها هنا هو كفر أصغر، لا يصل إلى الإخراج من الملة. وكذلك قوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[3]. فالمراد هنا كفران النعمة.

وهكذا قوله ﷺ: «اثْنَتَانِ في الناس هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ في النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ على الْمَيِّتِ»[4]، نقول: إنه كفرٌ للنعمة، لا أنه الكفر المبيح للدم والمال؛ لأن الطعن بالنسب إنما هو ذنب، وعيب الإنسان في نسبه بأنه ليس ابن فلان، أو ليس من آل فلان، لا يصل إلى الكفر الذي يخرج من الملة، وكذلك والنياحة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٢٣)، وابن حبان (١٣/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

على الميت لا تُوصل صاحبها إلى الكفر الذي يخرج من الملة، ويُستباح دمُه ومالُه. فعرف من ذلك أنه كفرٌ دون كفر. هذا مجمل هذه الأحاديث.

وأما تارك الصلاة، فبعض العلماء يحمل الأحاديث التي فيه على أنه كفر النعمة، وفيه حديثان:

الأول: حديث جابر ﷺ: «بين الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ»[1].

والثاني: حديث بريدة الأسلمي ﷺ: «الْعَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[2].

ففيهما إطلاق الكفر على تارك الصلاة. وبعض العلماء يقولون: إنه كفر أصغر، أي: كفر النعمة، مثل الأحاديث الأخرى.

والقول الآخر: إنه كفر يخرج من الملة، ودليله: ما رواه عبدُ اللَّهِ بن شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ: «كان أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَرَوْنَ شيئًا من الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غير الصَّلاةِ»[3]، ولا يرون ذلك في بقية الشرائع.

والصحيح: أنه إذا كان المسلم تركها تهاونًا بها وتمادى على هذا الترك

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد (٥/٣٤٦)، وابن حبان (١٤٥٤) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٢٢).

واستمرّ عليه، فإن ذلك يُعدّ كفرًا مخرجًا من الملّة؛ لأنه وردت أحاديث تدلّ على البراءة منه، منها الحديث الذي في البخاري[١]: «من تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، ومعنى ذلك أنه لا يكون مسلمًا، وهو يدلّ على خطر ترك الصلاة، وأنه حتى ولو كانت الأعمال الأخرى لا توصل صاحبها إلى الكفر إلا إذا استحلّها، لكن ترك الصلاة من بينها له أهميته، وله منزلة، حيث ذهب الجماهير إلى أنه يكفر.

وتوسَّع ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذه المسألة في كتابه الذي أسماه «كتاب الصلاة»، فتكلّم على أن تارك الصلاة يقتل، ثم تكلَّم على ما إذا قتل: هل يقتل حدًّا أو كفرًا؟ وذكر حجج الفريقين، ورجح أنه إذا أصرَّ وعاند وتمادى وامتنع فإنه يصير جاحدًا، فيحكم بكفره وردّته. وهذا نوع من التكفير.

أما البدع التي يكفر بها، فقد ذكرنا أن أكثر البدع لا يكفر بها؛ كبدعة المرجئة، والخوارج، والجبرية، والقدرية، والأشعرية، ونحوهم، لا توصل إلى الكفر وإلى البراءة من أصحابها، والأحاديث التي وردت في الخوارج، فقد أخبر النبي ﷺ أنهم: «يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ»[٢]، وهي أحاديث وعيد، قد تنطبق على بعضهم، وقد لا تنطبق.

والدليل على عدم التكفير أن عليًا ﷺ سُئِلَ عن أهل النهروان: أكفارٌ هم؟

(١) برقم (٥٥٣) من حديث بريدة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٥).

قال: من الكفر فروا، قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل: فما هم؟ قال: قومٌ أصابتهم فتنة، فعموا فيها وصموا، وبغوا علينا، وحاربونا، وقاتلونا، فقتلناهم[1]. فدلَّ على أنه لم يكفّرهم، مع أنه قاتلهم؛ وذلك لأنهم يكفِّرون بالكبائر، فإذا كفّرناهم صرنا مثلهم.

وهناك بدعتان ذكرنا أنّهما مكفّرتان:

الأولى: بدعة غلاة الجهمية، الذين غَلَوْا في إنكار الصفات حتى صار حقيقة قولهم التعطيل.

الثانية: بدعة غلاة الرافضة، الذين طعنوا في القرآن، وطعنوا في السنة، وطعنوا في حملة الشريعة وهم الصحابة، وكفّروهم، فمثل هؤلاء لم يكن عندهم دين يعتمدونه، فأصبحوا بذلك قد أبطلوا الشريعة، وكفَّروا أهلها، فيكونون هم أولى بالكفر؛ لأنهم طعنوا في القرآن، وادّعوا أنه محرّف، وقد زيد فيه ونقص منه، وكذلك لم يقبلوا السنة ولو ثبتت، ولو رواها الخلفاء الأربعة، وغيرهم، فلا يقبلونها ويرمون الخلفاء بأنّهم كفرة وخونة، ونحو ذلك. فهم ليس عندهم شرع يتمسّكون به، ويصبحون بذلك على غير شريعة. هذا يقال لغلاتهم الذين وصلوا إلى هذا الحد. أما الذين لم يكفّروا الصحابة، ولم يكفّروا الخلفاء، فلا يصلون إلى حدّ التكفير.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ١٥٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٦٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٤٤)، والبيهقي (٨/ ١٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣/ ٣٣٥).

قال الشارح:

وَقَوْلُـهُ: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِـمَنْ عَمِلَهُ...»، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ: رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ، فَهَؤُلَاءِ فِي طَرَفٍ، وَالخَوَارِجُ فِي طَرَفٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: نُكَفِّرُ الْمُسْلِمَ بِكُلِّ ذَنْبٍ، أَوْ بِكُلِّ ذَنبٍ كَبِيرٍ، وَكَذَلِكَ الْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: يَحْبطُ إِيمَانُهُ كُلُّهُ بِالْكَبِيرَةِ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الإِيمَانِ.

لَكِنَّ الخَوَارِجَ يَقُولُونَ: يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ، وَيَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ! وَالْمُعْتَزِلَةُ يَقُولُونَ: يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ، وَهَذِهِ الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ!! وَبِقَوْلِهِمْ بِخُرُوجِهِ مِنَ الإِيمَانِ أَوْجَبُوا لَهُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ!.

وَطَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الكَلَامِ، وَالفِقْهِ، وَالحَدِيثِ لَا يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي الأَعْمَالِ، لَكِنْ فِي الاعْتِقَادَاتِ البِدْعِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا مُتَأَوِّلًا، فَيَقُولُونَ: يَكْفُرُ كُلُّ مَنْ قَالَ هَذَا القَوْلَ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمُجْتَهِدِ الْمُخْطِئِ وَغَيْرِهِ، أَوْ يَقُولُونَ بِكُفْرِ كُلِّ مُبْتَدِعٍ، وَهَؤُلَاءِ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الإِثْبَاتِ العَامِّ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ، فَإِنَّ النُّصُوصَ الْمُتَوَاتِرَةَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَنُصُوصُ الوَعْدِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا هَؤُلَاءِ تُعَارِضُ نُصُوصَ الوَعِيدِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا أُولَئِكَ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح أن هناك طائفتين متقابلتين وهم المرجئة والوعيدية؛ فالمرجئة

تعتقد أن الذنوب لا تضر ولو أكثر صاحبها، ويتعلقون بنصوص الوعد التي فيها أن أهل التوحيد ناجون، وأنهم من أهل الجنة، وأنهم يخرجون من النار، أو يشفع فيهم ولو لم يعملوا خيرًا، ونحو ذلك. وهؤلاء هم المرجئة، الذين قال قائلهم:

فَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ المَعَاصِي ... إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيم (١)

وقال آخر:

فَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا ... فَإِنَّكَ بَالِغٌ رَبًّا غَفُورًا

سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدْتَ عَلَيْهِ عَفْوًا ... وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا

تَعُضُّ نَدَامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا ... تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّاسِ السُّرُورَا (٢)

وقد رُوي عن بعض الزهاد أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، فقال: أقول غرّني كرمك.

وهذا خطأ، والصواب أن يُقال: إن الكريم لا ينبغي أن يُقابل بالمعصية؛ إذا كان ربًا كريمًا فيجب أن لا تتجرَّأ على معصيته، ولا أن تتهاون بحقه، بل علينا أن نطيعه ونحذر من أسباب سخطه.

---

(١) ذكر هذا البيت ابن خلكان في وفيات الأعيان (٢/ ٩٧) ونسبه إلى الحسن بن هانئ بن عبدالأول المعروف بأبي نواس. وانظر: الجواب الكافي (ص١٢).

(٢) ذكر هذه الأبيات ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٤٦٢) ونسبه إلى الحسن بن هانئ بن عبدالأول المعروف بأبي نواس.

وعلى كل حال فالمرجئة هم الذين يقولون: لا تضرّ الذنوب، وأصحابها يدخلون الجنة، ولا يعذب واحد من أهل الذنوب ولو كانت كبيرة.

ومعلومٌ أنه قد وردت أحاديث فيها أن المذنبين يعذّبون، وأنهم يحترقون وأنهم يشفع فيهم، وأن الشافعين يعرفونهم بآثار السجود، وهذا دليل على أنهم يصلون ومع ذلك دخلوا النار، إلا أن النار لم تأكل أثر السجود، فأعضاء السجود لا تأكلها النار، أما بقيّتها فإنها تحترق كما ورد، أي: إنهم ما دخلوا النار إلا وهم مسلمون، ومع ذلك دخلوها بسبب ذنوب اقترفوها.

ومن عقيدة أهل السنة أن المعاصي تبقى دون الشرك، وقد يغفرها الله، وقد يعاقب عليها، وأما الشرك فإنه لابدَّ أن يعاقب عليه، والعقوبة على ما دون الشرك، فتارة يعفى عنه، وتارة يغفر ذنبه مهما كبر بمشيئة الله، وتارة يدخله النار بسبب ما اقترفه من السيئات، ويكون ذلك تمحيصًا له من تلك السيئات. وقد ذكرنا أنهم مثلوا أن دخوله إلى النار من أجل تمحيصه وإزالة ما فيه من الدرن؛ كالحديد الذي يدخل إلى النار حتى يصفّى ولا يبقى عليه شيء من الخبث، فهكذا يدخل هؤلاء الذين يدخلون النار من أهل الكبائر.

هذه عقيدة المرجئة الذين يقولون: لا يضرّ مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل.

وقياسهم ليس بصحيح، فنحن نقول: الشرك لا تنفع معه الأعمال، ونوافقهم على أن الشرك يُحبط الأعمال، فالمشرك ولو عمل أي عمل، فإن

أعماله حابطة، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨].

نحن نقول: صحيح أنه لا تنفع الأعمال الحسنة مع الشرك لقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]؛ لأن الشرك أحبطها، وقد قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨] وفي آية أخرى: ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور:٣٩]، وفي آية أخرى: ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، أي: صفاة صلبة عليها تراب جاءها مطر شديد، فلم يبقَ عليها شيء من التراب. فهكذا أعمالهم ونفقاتهم لا تبقى؛ لأنها لا أساس لها ولا أصل. وهذا ردّنا على المرجئة.

أما الطرف الثاني وهم الوعيديّة من المعتزلة ومن الخوارج، فكلهم يخلِّدون أصحاب الكبائر في النار ويقولون: إن من دخل النار فهو مخلّد فيها، وإن أصحاب الكبائر يدخلونها ولا يخرجون منها. ويستدلّون ببعض الآيات التي فيها عدم الخروج من النار كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٣٧].

نقول: الآية وردت في الكفّار الذين يدخلونها، وقد حكم عليهم بالخلود،

وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، إنَّما هي في الكفار أما المؤمنون الذين معهم أصل الإيمان وأهل التوحيد فقد وردت الأدلة في أنهم يخرجون منها بشفاعة الشافعين أو برحمة الله تعالى.

وقول أهل السنة وسط بين الطرفين. طرف شدّدوا، وهم الخوارج والمعتزلة، وجعلوا المذنبين كفارًا، فكل من أذنب ذنبًا جعلوه في النار سواء كفّروه في الدنيا، أو أخرجوه من الإيمان ولم يكفّروه. وفرقة غلوا في فعل الذنوب، وأباحوا للمسلم أن يفعل الذنوب بحجة أنها لا تضره.

أما أهل السنة فقالوا: لا نوصل العاصي إلى الكفر، ولا نخلّده في النار، ولكن نخاف عليه ونخشى عليه من العذاب، ومن يطيق العذاب ولو ساعة؟ ومن يطيق دخول النار ولو قليلًا؟ وإذا كان مفروضًا عليه أن يدخل النار حتى ولو ساعة لكان حقًا عليه أن يهرب من هذا السجن، ومن هذا العذاب، فإن كنّا نخاف عليه فإن ذلك يوجب عليه أن يخشى من أسباب الخوف، ويحذرها.

قال الشارح:

وَالكَلَامُ فِي الوَعِيدِ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَسَيَأْتِي بَعْضُهُ عِنْدَ الكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ).

وَالمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ البِدَعَ هِيَ مِنْ هَذَا الجِنْسِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَكُونُ مُؤْمِنًا بَاطِنًا وَظَاهِرًا، لَكِنْ تَأَوَّلَ تَأْوِيلًا أَخْطَأَ فِيهِ، إِمَّا مُجْتَهِدًا، وَإِمَّا مُفَرِّطًا مُذْنِبًا، فَلَا يُقَالُ: إِنَّ إِيمَانَهُ حَبِطَ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَدُلَّ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، بَلْ هَذَا مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَا نَقُولُ: لَا يَكْفُر، بَلِ العَدْلُ هُوَ الوَسَطُ، وَهُوَ: أَنَّ الأَقْوَالَ البَاطِلَةَ المُبْتَدَعَةَ المُحَرَّمَةَ المُتَضَمِّنَةَ نَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ الرَّسُولُ، أَوْ إِثْبَاتَ مَا نَفَاهُ عَنْهُ، أَوْ الأَمْرَ بِمَا نَهَى عَنْهُ، أَوِ النَّهْيَ عَمَّا أمر به؛ يُقَالُ فِيهَا الحَقُّ، وَيُثْبَتُ لَهَا الوَعِيدُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، وَيُبَيَّنُ أَنَّهَا كُفْرٌ، وَيُقَالُ: مَنْ قَالَهَا، فَهُوَ كَافِرٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا يُذْكَرُ مِنَ الوَعِيدِ فِي الظُّلْمِ فِي النُّفُوسِ وَالأَمْوَالِ، وَكَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ المَشَاهِيرِ بِتَكْفِيرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الآخِرَةِ، وَلَا يَعْلَمُ الأَشْيَاءَ قَبْلَ وُقُوعِهَا.

وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ: نَاظَرْتُ أَبَا حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُدَّةً، حَتَّى اتَّفَقَ رَأْيِي وَرَأْيُهُ: أَنَّ مَنْ قَالَ بِخَلْقِ القُرْآنِ، فَهُوَ كَافِرٌ.

قال الشيخ:

هذه تعدّ أمثلة من البدع، وأن هناك بدعًا توصل إلى الكفر، قد ذكرنا أن أهل السنّة يكفرون غلاة الجهمية؛ وذلك لأنّ من قول الجهمية القول بخلق

القرآن، وأن القرآن مخلوق، والذي حملهم اعتقادهم بأن الله تعالى لا يتكلّم، فنفوا صفة الكلام عن الله، ومعلوم أن هذه الصفة صفة كمال لله، ونفيها يستلزم ضدها وهو النقص، وأن من نفى هذه الصفة فقد تنقّص الخالق، وكذلك قد أبطل الشرائع فلا جرم.

قال أهل السنة: من قال بخلق القرآن فإنه كافر، وقد نقل عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لما كان يناظر على القرآن، ويقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، فقالوا له: القرآن من جملة الموجودات. فقال: القرآن من علم الله، وعلم الله صفة من صفاته، فقال له بعض أولئك الجدليين: أنا أقول: إن علم الله مخلوق ـ تعالى الله عن ذلك ـ فقال: قد كفرت!! صرّح بأنه قد كفر بهذه الكلمة .

والله تعالى هو الخالق، وصفاته من ذاته، وكلامه من صفاته، وعلمه من صفاته، وكلامه من علمه، ومن ادّعى أن صفة من صفاته مخلوقة، فإنه جعل الربّ تعالى محلًا للحوادث، فيكون بذلك متنقّصًا لله تعالى أكبر التنقّص، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

بعد ذلك نقول: إن الذي حملهم على هذا هو إنكارهم للصفات، ولمّا أنكروا الصفات أصبحوا معطّلةً، ولما عطّلوا الله عن هذه الصفات، وصفهم السلف بالكفر، وقد ذكرنا فيما سبق أن ابن القيم رحمه الله صرّح بتكفيرهم فضلًا عن جماهير العلماء، فهو يقول في نونيته[1]:

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٩٠).

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُم خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ العُلَمَاءِ فِي البُلْدَانِ
وَاللَّالَكَائِيُّ الإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

أي: خمسون تضرب في عشر، أي خمسمئة عالم، واللالكائي - رحمه الله - نقل ذلك عن جمع كبير من العلماء، وأنه كفَّر من قال بخلق القرآن، ومن غلا في الصفات، وكتابه مطبوع، ومتداول يسمّى: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» في عدّة مجلّدات، واللالكائي إمام من أئمّة أهل السنّة، نقل بأسانيده هذه الأقوال عن سلف الأمّة، وأنّهم كفَّروا من قال بذلك.

وقد اشتهر أنّ أول من أظهر ذلك هو الجعد بن درهم، ولمّا نفى أن يكون الله تعالى متكلّمًا، وأن يكون القرآن كلامه، وصرّح بأن الله لم يكلّم موسى - عليه السلام - تكليمًا قتله أميرُ العراق في وقته خالد بن عبد الله لقسري؛ لأنه خرج في العراق وأضلَّ خلقًا كثيرًا، فاشتكى علماء السنّة إلى الأمير، فقتله بعد صلاة عيد النحر وقال مقالته المشهورة: يا أيها الناس! ضحّوا تقبّل الله ضحاياكم، فإنّي مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثم نزل فذبحه. يقول ابن القيم في نونيته[1]:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّى بِجَعْدٍ خَالِدُ الـ ... قَسْرِيّ يَومَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ ... كَلاَّ وَلاَ مُوسَى الْكَلِيمُ الدَّانِ

---

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

شَكَر الضَّحِيَّة كُلّ صَاحِب سنَّةٍ ... لله درّكَ مِنْ أَخِي قُربَانِ

جعله قربانًا أي: أضحية تقرّب به إلى الله، وأقرّه أهل السنّة في زمانه، وهذا دليل على أن هذه المقالة كفريّة تستلزم مستلزمات كثيرة.

الذين قالوا: إنَّ الله غير متكلّم، وإنَّ كلامه مخلوق كسائر المخلوقات. نقول لهم: من أين عرف الرسول أن هذا كلام الله، ومن أين يعرفون أن الله أمر بهذا أو نهى عن هذا؟ ومن أين يُعرف أن هذا شرعه، وأنّ هذا أمره إذا كان لا يتكلَّم، وكيف يكون الخلق إلا بالأمر؟ فما يكون هناك خلق إلا بأمر، والله تعالى ذكر أن المخلوقات تكون بأمره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. فالخلق لا بدّ أن يكون بالأمر، والأمر لا بدّ أن يكون بالكلام، فمن عطّل الكلام فقد عطّل الخلق، وقد عطّل الشرع، وقد افترى على الله ومعناه أن الرسل بلغوا شيئًا ما أنزل إليهم، أو ما تحقّقوا أنه شرع الله.

وقولهم هذا يستلزم بشاعة شنيعة؛ فلا جرم أن حكم عليهم أهل السنة والجماعة بأنهم كفار إذا صرّحوا بذلك، وعاندوا عليه، ومن قال بأن علم الله أو كلام الله مخلوق، وعاند على ذلك، وقامت عليه الحجة، فإنه يكفر.

وإطلاق هذه الكلمة وتكرارها على هذا النحو من هؤلاء الأئمّة يقتضي أنّهم يجعلونه كفرًا مخرجًا من الملّة، وكفرًا ناقلًا عن الإسلام، ومبيحًا للدمّ والمال. هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة، أما البدع الأخرى التي تقدّمت، فقد لا توصل إلى الكفر، وإن كانت مفسّقة.

قال الشارح:

وَأَمَّا الشَّخْصُ الْمُعَيَّنُ، إِذَا قِيلَ: هَلْ تَشْهَدُونَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الوَعِيدِ، وَأَنَّهُ كَافِرٌ؟ فَهَذَا لَا نَشْهَدُ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَمْرٍ تَجُوزُ مَعَهُ الشَّهَادَةُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ البَغْيِ أَنْ يُشْهَدَ عَلَى مُعَيَّنٍ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ، وَلَا يَرْحَمُهُ، بَلْ يُخَلِّدُهُ فِي النَّارِ، فَإِنَّ هَذَا حُكْمُ الكَافِرِ بَعْدَ المَوْتِ. وَلِهَذا ذَكَرَ أَبُو دَاودَ فِي «سُنَنِهِ»[1] فِي كِتَابِ الأَدَبِ: «بَابَ النَّهْيِ عَنِ البَغْيِ»، وَذَكَرَ فِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرائيلَ مُتَواخِيَيْنِ، فكَانَ أَحَدُهُما يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ. فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِيْنِ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِد: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟ وَقَالَ للمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ». وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَلأَنَّ الشَّخْصَ الْمُعَيَّنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا مَغْفُورًا لَهُ، أَوْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ إِيمَانٌ عَظِيمٌ وَحَسَنَاتٌ أَوْجَبَتْ لَهُ رَحْمَةَ اللَّهِ، كَمَا غَفَرَ لِلَّذِي قَالَ: «إِذَا مِتُّ فَاسْحَقُونِي

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٢).

ثُمَّ ذُرُّونِي، ثُمَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ لِخَشْيَتِهِ»[1]. وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَمْعِهِ وَإِعَادَتِهِ، أَوْ شَكَّ فِي ذَلِكَ، لَكِنَّ هَذَا التَّوَقُّفَ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ لَا يَمْنَعُنَا أَنْ نُعَاقِبَهُ فِي الدُّنْيَا، لِمَنْعِ بِدْعَتِهِ، وَأَنْ نَسْتَتِيبَهُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ القَوْلُ فِي نَفْسِهِ كُفْرًا، قِيلَ: إِنَّهُ كُفْرٌ، وَالقَائِلُ لَهُ يَكْفُرُ بِشُرُوطٍ وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا صَارَ مُنَافِقًا وَزِنْدِيقًا، فَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُكَفَّرَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ المُظْهِرِينَ الإِسْلَامَ إِلَّا مَنْ يَكُونُ مُنَافِقًا زِنْدِيقًا.

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بالتكفير المعيّن، وهو غير التكفير العام، وذلك أن هناك فرق بين أن يقال فلان كافر، وبين أن يقال فلان يعمل عمل الكفار أو يقال هذا العمل كفر، هذه ثلاثة أنواع:

فالشهادة على معين بأنه كافر؛ هذه لا تجوز إذا كان من أهل القبلة، ومن أهل الإسلام، فمن أعلن الدخول في الإسلام ظاهرًا فلا يجوز أن يُحكم عليه بعينه أنه كافرٌ، ولا نُكفِّر أحدًا منهم ما دام أنه من أهل القبلة حتى لو قال مثل تلك الأقوال التي ذكرنا أن السلف قد كفّروا بها. ولكنّهم لا يكفّرون المعين لأسباب، منها: أنه قد يكون مقلّدًا، وإثمه على من قلّده؛ لأنه يُحسن الظنّ ببعض المشاهير فيظنّ أنه على صواب فيتبعه، فنحن لا نحكم بكفره، ما دام أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لم يكن عنده الدليل الذي قام عليه. وإذا لم نكفّره فلا نقاتله حتّى نقيم عليه الحجة ويصرّ عليها.

في عهد الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب ـ رحمه الله ـ في القرن الثاني عشر، خرج على أُناس قد فشا فيهم الشرك، وهو تعظيم القبور والذبح عندها، والتمسّح بها، والتبرّك بتربتها، ودعاء الأموات، ونحوه مما هو شرك، بل هو شرك أوّلي، ولـمّا دعا إلى توحيد الله لم يكفّر إلّا من عاند منهم، أما الجهلة وعوامّ الناس فلم يكفّرهم، وإنّما كان يخطّئهم، فإذا قامت الحجة عليهم وأصرّوا وعاندوا وتمادوا وردّوا الحقّ مع وضوحه، فهنالك يقاتلهم ويكفّر من قتل منهم، ويستبيح أموالهم ودماءهم؛ لأنهم أصبحوا كالمشركين الأوّلين الذين عبدوا غير الله. وأما قبل ذلك فلا يحكم بكفرهم، وهذا مخالف لما ينقله عنه أعداؤه الذين كذبوا عليه، وقالوا عنه شناعات، وقد ألف العلماء كتبًا في الردود عليهم مثل «الأسنّة الحداد في الردّ على شبهات علوي الحداد»، وهو حضرمي قد غلا في الكذب على الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وادّعى أنّه إذا جاءه إنسان ليدخل في دينه يقول له: لا أقبلُ منك حتّى تقرّ بأنّك كنت كافرًا، وتشهد على أبويك الذين ماتا أنهما ماتا كافرين، وتشهد على أن الناس كانوا كفار من ستمئة سنة، ومثل هذه الأكاذيب ذكرها علويّ الحدّاد في كتاب له في الردّ على محمد بن عبد الوهاب، وكذلك كتاب في الردّ على آخر يقال له: بابصل، حضرميّ أيضًا، جمع ترّهات وأكاذيب مثل هذه.

والحاصل: أنه ـ رحمه الله ـ ما كان يُكَفِّرُ إلَّا من قامت عليه الحجة،

ولم يقاتل إلا بعدما بَيَّن لمن قاتلهم أن هذا شرك، فإذا بيّنه وأوضحه؛ عند ذلك أنذرهم، وقال لهم: إن تبتم وإلَّا قاتلناكم؛ لأنكم أصبحتم من المشركين الذين عملوا عمل المشركين. فهذا دليل على أن أهل السنّة لا يكفّرون المعيّن حتى ولو كان عمله كفرًا، إلا بعدما تقوم عليه الحجة. فهذه شبه، وهي التقليد، وإحسان الظنّ بالعلماء الذين بين ظهراني الناس المقلدين لهم.

ومن الشبهات أيضًا أنهم قد يجدون بعض الكتب المؤلفة في ما هم عليه فلأجل ذلك يسيرون عليها، ويعتقدون أن ما فيها هو الصواب، ولا يقفون على الردود، ولا على أدلة غيرها، فيسيرون عليها، ونحن نعذرهم في ذلك حتّى نبيّن لهم الخطأ الذي فيها، فإذا بيّناه لهم فأصرّوا على تلك الأعمال الكفريّة، رددنا عليهم وكفّرناهم وقاتلناهم وإلا فلا. هذه مما يكفّر بها.

لكن هناك أعمال دون الكفر، وهي التي تعرّض لها الشارح رحمه الله، وهي التي ذكر أنها من جملة البدع التي لا توصل إلى الكفر، وإنما هي أمور اجتهاديّة، ولكنّها خاطئة، وهي بعض البدع.

ذكرنا مثلًا أن الأشاعرة عندهم بدع، وهي إنكار بعض الصفات، والقول بأن كلام الله كلام نفسي، وأن هذا الموجود في المصاحف إنما هو المعنى لا الحروف، ونحو ذلك من بدعهم، ولكن لا نوصل ذلك إلى الكفر.

والمرجئة الذين غلوا في جانب الرجاء، لا نقول: إنهم وصلوا إلى الكفر، ولكن نقول: إنهم عملوا بدعة تفسّق ولا تكفّر، وعلى كل حال، فالتكفير خطره كبير.

والحديث الذي أورده الشارح ـ رحمه الله ـ وفيه قصة ذلك الكتابي الذي قال لصاحبه: والله لا يغفر الله لك! قال الله لذلك المذنب: «ادخل الجنة برحمتي»، وعذّب ذلك الذي تألّى عليه. يقول أبو هريرة ﷺ: «قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته». يدلُّ على أنّ التكفير ذنبه كبير، وخطؤه عظيم، ولأجل ذلك على الإنسان أن يحفظ لسانه فلا يكفّر المعيّن.

أما العمل؛ فيقال: هذا العمل كفر. يقال مثلًا: القول بخلق القرآن كفر. ولا نقول: فلان كافرٌ لأنه يقول بكذا؛ لأنّنا لا نعلم الخاتمة، ولأنّه يمكن أن يكون قد تاب أو كان متأولًا، أو خُتِمَ له بخاتمة حسنة، أو مُحيت عنه سيئاته بسوابق، أو ما أشبه ذلك.

ففرق أن يقال هذا العمل كفر، أو هذا الشخص كافر لأنه يعمل، وهذا هو العمل وهذا الفرق بينهما، فالأعمال قد يطلق عليها كفر، فيقال مثلًا: ترك الصلاة كفر، ولكن ما نحكم على الإنسان أنه كافر لمجرّد عمل عمله، إلاّ إذا أصرّ على ذلك، وعاند عليه، وقاتل عليه، فإن ذلك يحكم عليه بالقول الآخر. فإذا عاند وأصرّ وامتنع من أداء الصلاة حتى قتل، فإن ذلك ـ بقول العلماء ـ يُعامل معاملة الكافر الخارج من الملّة، فلا يصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

قال الشارح:

وَكِتَابُ اللَّهِ يُبَيِّنُ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ صَنَّفَ الخَلْقَ فِيهِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ: كُفَّارٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَصِنْفٌ: مُؤْمِنُونَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَصِنْفٌ: أَقَرُّوا بِهِ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا. وَهَذِهِ الأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ مَذْكُورَةٌ فِي أَوَّلِ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَكُلُّ مَنْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَافِرٌ فِي نَفْسِ الأَمْرِ، وَكَانَ مُقِرًّا بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا زِنْدِيقًا، وَالزِّنْدِيقُ هُوَ المُنَافِقُ.

وَهُنَا يَظْهَرُ غَلَطُ الطَّرَفَيْنِ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَّرَ كُلَّ مَنْ قَالَ القَوْلَ المُبْتَدَعَ فِي البَاطِنِ، يَلْزَمُهُ أَنْ يُكَفِّرَ أَقْوَامًا لَيْسُوا فِي البَاطِنِ مُنَافِقِينَ، بَلْ هُمْ فِي البَاطِنِ يُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ كَانُوا مُذْنِبِينَ، كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»[1]، عَنْ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ ﷺ، عَنْ عُمَرَ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ مِنَ الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ! مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَا تَلْعَنْهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وَهَذَا أَمْرٌ مُتَيَقَّنٌ بِهِ فِي طَوَائِفَ كَثِيرَةٍ وَأَئِمَّةٍ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَفِيهِمْ بَعْضُ مَقَالَاتِ الجَهْمِيَّةِ، أَوِ المُرْجِئَةِ، أَوِ القَدَرِيَّةِ، أَوِ الشِّيعَةِ، أَوِ الخَوَارِجِ، وَلَكِنَّ الأَئِمَّةَ فِي العِلْمِ وَالدِّينِ لَا يَكُونُونَ قَائِمِينَ بِجُمْلَةِ تِلْكَ البِدْعَةِ، بَلْ بِفَرْعٍ مِنْهَا، وَلِهَذَا

---

(١) برقم (٦٧٨٠).

انْتَحَلَ أَهْلُ هَذِهِ الأَهْوَاءِ لِطَوَائِفَ مِنَ السَّلَفِ المَشَاهِيرِ.

فَمِنْ عُيوبِ أَهلِ البِدَعِ تَكْفِيرُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَمِنْ مَمَادِحِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يُخَطِّئُونَ وَلَا يُكَفِّرُونَ.

قال الشيخ:

تقسيم الناس له ثلاثة أقسام مذكور في أول سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٣]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة:٦]، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٨]، هذه الآيات قسّمت الناس إلى: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين.

والمنافقون: هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويسمّيهم العلماء: زنادقة، فهؤلاء أمرهم خفيّ؛ لأننا لا نطلع على ما في صدورهم، ولأجل ذلك كان النبي ﷺ يعاملهم معاملة المسلمين؛ لأنهم يظهرون الإسلام، ويظهرون محبّة المسلمين.

وبكلّ حال، فتكفير المعيّن شيء، والحكم على العمل بأنه كفر شيء آخر، فرق بين هذا وهذا. هذه مسألة أو مسائل في التكفير، والإنسان عليه أن يتثبت في الحكم على المعيّن، فيعرف الدليل على أن العمل من أعمال الكفار.

فيما يتعلّق بالعقيدة من مسألة أحكام الإسلام في الدين أو مسألة أسماء

الإيمان، والأسماء الشرعية، قد عرفنا أن الشرع نقل هذه المسمّيات عن مسمّياتها اللغويّة إلى مسمّيات شرعيّة، فبدل ما كان الإيمان مجرّد التصديق أصبح الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح، وأعمال القلوب. لا يكون مؤمنًا إلا من ظهرت آثار الإيمان على جوارحه. هذا قول أهل السنّة. كذلك بدل ما كان الإسلام هو الإذعان والانقياد، كما هو مسمّاه في اللغة، أصبح الإسلام يصدق على من أقام الشرائع الظاهرة ودان بها. هذا هو المسلم.

وكذلك مسمّى الإحسان؛ الأصل فيه أنه إحسان العمل أيًّا كان، ولو كان عملًا دنيويًا، نقله الشارع إلى الإحسان في الأعمال الصالحة، الذي هو إتقانها بأن يستحضر حاله بأدائها.

وكذلك يقال في اسم التوحيد في اللغة: هو مشتقّ من الواحد، الذي هو العدد الفرد. نقله الشارع وسمّى به: إفراد الله بالعبادة، أي اعتقاد أن العبادة لله وحده، وأن الله وحده هو المتّصف بصفات الكمال، لا يشاركه فيها غيره، وأنه المتفرّد بالملك والتصرّف. هذه حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل.

وهكذا يُقال للتّقوى مثلًا: لها مسمىً في اللغة، ومسمىً في الشرع؛ ففي اللغة هي: توقّي الشرور والأضرار. وأمّا في الشرع: فجعلها توقّي عذاب الله. وغضبه بفعل الأوامر وترك النواهي.

وكذلك مسمّى البرّ الذي حثّ الله عليه بدل ما كان الإحسان إلى الإنسان، أصبح هو إحسان العمل كلّه، وتدخل فيه جميع الأعمال التي تدلّ على برِّ صاحبها وتصديقه.

ويقال كذلك أيضًا في أضداد هذه المسائل التي هي ضدها.

فمثلًا الشرك: كانوا يطلقونه على اشتراك اثنين في عمل، أو اشتراك اثنين في مال. هذا هو الشرك قبل الإسلام، والشرع جعله اسمًا لاشتراك العمل بين الله وبين غيره، فيدعوه ويدعو غيره، ويعبده ويعبد غيره ويتّقيه ويتّقي غيره، ويخافه ويخاف غيره، ويرجوه ويرجو غيره على حدّ سواء، يسمّى هذا شركًا؛ لأنّه تشريك في العبادة بين الخالق والمخلوق، وهو الذي ورد فيه الوعيد.

كذلك مثلًا: الكفر؛ العرب تعرف الكفر أنه ستر الشيء، ولكن جاء الشرع وأطلقه على جحد الربوبيّة، أو جحد الإسلام، أو جحد الشريعة وإنكارها وسترها وتغطيتها تغطية معنوية. هذا مسمّى الكفر، وكذلك الأمر بالنسبة إلى التفسيق والتبديع، هذه المسألة قد مرّت بنا كثيرًا، وقد تكلّم فيها العلماء وأطالوا، ومر بنا بعض ممّا يتعلّق بها.

مذهب أهل السنّة أنا لا نكفِّر أهل القبلة بالذنوب، ولو كانت كبائر إلا إذا استحلّ صاحبها الذنب فإنه يكفر كما ذكر ذلك الماتن، يقال: إنه يكفر وإن لم يفعله، فمن قال: إن الخمر حلال ولو لم يشربها فإنه يكفر؛ لأنه خالف نصًا، ومن قال: إنّ الربا حلال ولو لم يأكله يكفر؛ لأنّه خالف النصوص، ومن قال إن الصلاة ليست فريضة كفر ولو لم يترك الصلاة، ومن قال لم يوجب الله الحجّ، أو لا يجب الصوم، أو أنكر شرعيّة الجهاد، وقال: إن الجهاد شريعة القتل، شيء لم يشرعه الله، هذا ظلم قتل للنفوس وإراقة للدماء، إذا أنكر ذلك

ولو كان مجاهدًا، نقول: هذا كفر، وصاحبه قد كفر بهذا الإنكار.

أما إذا فعل ذنبًا ولكنّه لم يستحلّه فإنّه لا يكفر، فلو فعل الزنى وهو يعتقد أنه حرام، أو شرب الخمر، أو قتل نفسًا وهو يعتقد بحرمة ذلك، ويعرف أنه مذنب، ولو كان ذنبه كبيرة من الكبائر، إلا أنه لا يصل إلى حدّ الكفر الذي يبيح الدمّ والمال، بل لا يزال موصوفًا بأنه قد وقع في ذنب، وإن كان ذلك الذنب يحتمل أن يعاقب عليه، ويحتمل أن يغفر له، و هذا المذنب المصر على هذا الذنب، لا نسمّيه كافرًا، ولا نسمّيه مؤمنًا كامل الإيمان، ولكن نسمّيه مؤمنًا ناقص الإيمان، أو نطلق عليه اسم فاسق أو عاصٍ، هذه عقيدة أهل السنّة، أنّه لا يصل إلى حدّ الكفر؛ لأنّ ذنبه دون الكفر، وأنّه لا يوصف بكمال الإيمان؛ لأنّه قد نقص إيمانه بهذا الذنب.

الذين كفّروا صاحب الذنب انقسموا طائفتين:

طائفة أخرجته من الإسلام ولم تدخله في الكفر، وهم المعتزلة وهم أهل المنزلة بين منزلتين.

وطائفة أخرجته من الإسلام وأدخلته في الكفر، واستحلّت دمه وماله، وهم الخوارج. واتفق الطرفان على أنّه مخلّد في النار.

وأهل السنّة لا يخرجونه من الإسلام، ولكن هو متعرّض للوعيد، وهو تحت مشيئة الله مادام أنّ ذنبه دون الكفر، ودون الشرك، فأمره تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر له وأدخله الجنّة، وإن شاء عاقبه على قدر ذنبه. هذه عقيدة أهل السنّة. وسيأتينا تفصيل لذلك إن شاء الله.

قال الشارح:

وَلَكِن بَقِيَ هُنَا إِشْكَالٌ يَرِدُ عَلَى كَلَامِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ وَهُوَ: أَنَّ الشَّارِعَ قَدْ سَمَّى بَعْضَ الذُّنُوبِ كُفْرًا، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ». متَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ[1].

وَقَالَ ﷺ: «لَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»[2].

«وَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»[3]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَر رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَ فِيْهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». مُتَّفَقٌ عَلِيهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[4].

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (١١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

والتَّوْبَةُ مَعروْضَةٌ بَعْدُ»[١].

وَقَالَ ﷺ: «بَيْنَ المُسْلِم، وبينَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ ﷺ[٢].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»[٣].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ»، رَوَاهُ الحَاكِمُ بِهَذَا اللَّفْظِ[٤].

وَقَالَ ﷺ: «ثِنْتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّيَاحَةُ عَلى المَيِّتِ»[٥]. وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَالجَوَابُ: أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ مُتَّفِقُونَ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ لَا يَكْفُرُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ المِلَّةِ بِالْكُلِّيَّةِ، كَمَا قَالَتِ الخَوَارِجُ؛ إِذْ لَوْ كَفَرَ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ المِلَّةِ، لَكَانَ مُرْتَدًّا يُقْتَلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَا يُقْبَلُ عَفْوُ وَلِيِّ القِصَاصِ، وَلَا تَجْرِي الحُدُودُ فِي الزِّنَى، وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَهَذَا القَوْلُ مَعْلُومٌ بُطْلَانُهُ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (٢/ ٤٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

(٥) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْكُفْرِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ مَعَ الكَافِرِينَ، كَمَا قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ بَاطِلٌ أَيْضًا؛ إِذْ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾، إلى أن قال: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة:١٧٨]. فَلَمْ يُخْرِجِ القَاتِلَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَجَعَلَهُ أَخًا لِوَلِيِّ القِصَاصِ، وَالْمُرَادُ أُخُوَّةُ الدِّينِ بِلَا رَيْبٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات:٩]، إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وَنُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّانِيَ وَالسَّارِقَ وَالقَاذِفَ لَا يُقْتَلُ، بَلْ يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمُرْتَدٍّ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١).

فَثَبَتَ أَنَّ الظَّالِمَ يَكُونُ لَهُ حَسَنَاتٌ يَسْتَوْفِي المَظْلُومُ مِنْهَا حَقَّهُ.

---

(١) انفرد به البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولم يروه مسلم.

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَار. قَالَ: الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ حَسَنَاتٌ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَتْ حَسَناتُه قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلِيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ فِي حَالِ إِسَاءَتَهُ يِفْعَلُ حَسَنَاتٍ تَمْحُو سَيِّئَاتِهِ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

قال الشيخ:

الأحاديث التي تقدّمت هي التي استدلّ بها الخوارج على مسألة التكفير بالذنوب، أخذوا بظاهرها، وأهل السنّة قد أوردوها وأوردوا ما يبيّنها.

فمثلًا الإمام مسلم سرد في كتاب الإيمان من «صحيحه» سرد أحاديث كثيرة فيها التكفير بالذنوب، ثم سرد أحاديث بعدها فيها الرجاء، وفيها نفع الشفاعة لأهل التوحيد، وأنّ أهل التوحيد يخرجون من النار، ولو عملوا ذنوبًا وأن شفاعة النبي ﷺ تنال من لا يشرك بالله شيئًا، وأنهم ولو دخلو النار بذنوب أذنبوها، فإنّهم لا يخلدون في النار.

---

(١) برقم (٢٥٨١) بلفظ مختلف، من حديث أبي هريرة ﷺ.

هذا يدلّ على أنّ أحاديث الوعيد ليست دالّة على الإخراج من الملّة. ثم كثيرٌ من العلماء قالوا في أحاديث الوعيد، إنها تجرى على ظاهرها ليكون أبلغ في الزجر، وأنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد الذين لم يشوبوه بشرك، ولم يبتدعوا بدعًا مكفّرة، وعلى هذا سنسكت عن تأويل هذه الأحاديث، أو نحملها على محامل كما ذكر الشارح، ونحرص على الجمع بينها.

فمثلًا: قول النبيّ ﷺ: «لَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»[1]، هل كل من تقاتلوا لفتنة، أو لخلافات سياسية يصيرون كفارًا؟ لا يكونون كذلك، فقد تقاتل في عصر الصحابة عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، ولم نحكم بكفر هؤلاء ولا هؤلاء. بل نقول: تلك فتن قدّرها الله تعالى، وكل منهما له مقصد وله تأويل، ولم يكونوا كفارًا، وكل منهم قتلاه تحت مشيئة الله، قتلوا في هذه الفتنة.

كذلك الذين تقاتلوا في وقعة الجمل، لم يقل أحد بأنهم كفار ما عدا المعتزلة ونحوهم، بل هم من الصحابة. وفي هذه المعركة قتل من الصحابة من قتل؛ كالزبير وطلحة وغيرهما رضي الله عنهما.

فهي فتن حدثت، ولا نقول إن من وقع فيها وصلوا إلى مرتبة الكفر والعياذ بالله، بل ننزّههم عن ذلك، وقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ»، نجريه على ظاهره، ونقول: إن القتال نوع من الذنب

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

لا يصل إلى الكفر، ونقول: لعلّه قصد الزجر والتحذير من قتال المسلمين بعضهم لبعض.

وكذلك قوله: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1]، نقول: هذا من أحاديث الوعيد أطلق عليه كفرًا وإن لم يكن مخرجًا من الملّة لغرض الزجر، ومن باب التحذير من قتل المسلم، والاستهانة به.

ومثل ذلك الآيات التي فيها وعيد شديد على بعض الذنوب، فمثلًا توعّد الله على أكل الرّبا بقوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٧٥]، معلوم أن آكليه وإن دخلوا النار بذنوبهم، فهم تحت مشيئة الله.

وكذلك في القتل: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٩٣]، وعقيدة أهل السنّة أنّه مسلم لا يخرج من الملّة، لكن هذا من باب الوعيد، وكثير منهم يقولون هذا جزاؤه إذا جازاه. وكذلك قوله تعالى في الفرار من الزّحف: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ [الأنفال:١٦]. هذا أيضًا نصّ فيه وعيد، وأهل السنّة يقولون: هو إن دخلها لا يخلد فيها، أو قد يعفو الله عنه

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

ولا يدخله. وكذلك القذف؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٣، ٢٤]، هذا أيضًا من نصوص الوعيد، مع أنها كلمة قد يكون فيها خطر، وقد لا يكون، ومع ذلك توعّد الله عليها بهذا الوعيد.

وهكذا الوعيد في الأحاديث التي مرت معنا في قوله ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعروضَةٌ بَعْدُ**»(١).

لا شكَّ أنّ هذا فيه تحذير وتخويف شديد من هذه الأعمال التي هي من كبائر الذنوب.

وقوله: لا يفعلها وهو مؤمن؛ أي: مؤمن كامل الإيمان؛ لأنّ إيمانه يزجره عنها ويحذّره من اقترافها، لكن هو كما قيل ناقص الإيمان، أو عند بعضهم أنه ينزع الإيمان، ويكون عليه كالظلّة، حتّى إذا تاب رجع إليه، ولكن لا يرجع إليه كاملًا. وعلى كل حال فهذا من أحاديث الوعيد.

وكذلك حديث النفاق: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا...**»(٢). هذه أيضًا لا نقول إن كذبه أو خيانته يخرجه من الملّة، ولكنّها من نصوص الوعيد،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

وقد أثبت الله عزّ وجلّ الإيمان بين المتقاتلين، والذين بينهم الضغائن والعداوات، وفي الآيات التي مرّت معنا ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، سمّاه أخًا مع كونه قاتلًا، وكذلك في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠]، سمّاهم إخوة وهم يتقاتلون، ولكن قتال بغي فهم بُغاة يتقاتلون، هكذا حُملت هذه الآيات.

ومعلومٌ أيضًا أنّهم لو كانوا كفارًا لحبطت أعمالهم، ولم يبق لهم حسنات، فإن الكفر يحبط الأعمال، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، إذا أُحبط العلم لا يكتب منه حسنة واحدة، الكفار لا يكتب لهم حسنات، ولا شيء من الأعمال الصالحة، بل تبطل أعمالهم بقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

فلو كانوا كفارًا ما كان لهم حسنات، بل إما أن يجازوا بها في الدنيا ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وإمّا أن يبطلها كفرهم وشركهم، يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ويقول أيضًا: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، حبطت: أي بطلت، ومثل الله تعالى أعمالهم بأنها: ﴿ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، لا يبقى منها شيء، فلو كانوا كفار ما بقي لهم أعمال صالحة، ولا حسنات، وقد ورد في الحديث أنه قد

يكون لهم حسنات، لكن يأتي أحدهم وقد قتل هذا وسفك دم هذا وسب هذا، ومع ذلك يؤخذ من حسناته! أليس هذا دليل على أنها باقية؟ إذن: فهو لم يصل إلى درجة الكفر، فهذا دليل على أن أعمالهم لا توصلهم إلى الإخراج من الملّة، وعلى هذا نسمّيهم عصاة، ونسمّيهم فسقة، وأهل كبائر، ونسمّيهم ناقصي الإيمان غير كامليه. هكذا مسمّاهم: أهل المعاصي، وهذا قولنا في أهل المعاصي.

أما الشرك والكفر فمعلوم أنّه يصير كفرًا مخرجًا من الملّة، وأن الشرك لا يغفر حتى ولو كان صغيرًا، فمن الشرك: الحلف بغير الله، وهو من الشرك الأصغر، وعلى هذا الحديث الذي مرّ معنا: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَو أَشْرَكَ**»[1]. المراد به: الشرك الأصغر؛ وذلك لأن الحلف بغير الله فيه إشراك، بنوع تعظيم ذلك المخلوق بتخصيصه بالحلف به حتى يكون شريكًا لله، والتعظيم لا يكون إلا لله. فالحالف قد عظّم الذي حلف به، فإن حلف بالله فقد عظّم الله، وإن حلف بغير الله فقد عظّم المخلوق فيكون تعظيمه شركًا، وإن كان من الأصغر ولكنّه لا يغفر إلا بالعقوبة. وهذا الحديث من الأحاديث التي تبيّن خطر الشرك ولو كان صغيرًا.

وأما البدع فقد عرفنا أن منها ما هو مكفّر، ومنها ما لا يصل إلى حدّ الكفر. والبدع المكفّرة تقدّم بعض منها، فقد تواتر عن الصحابة - رضي الله عنهم - أنهم كفّروا من قال بخلق القرآن، كفّروهم من حيث العموم لا من

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٨٥).

حيث الأفراد، فما كانوا يقولون: هذا الشخص كافر لأنه قال بخلق القرآن، فإن من أشهرهم خليفة من بني العباس وهو المأمون، أول من فتن الناس، وجعلهم يقولون بخلق القرآن، وفتن العلماء، ومع ذلك لم يكفّره الإمام أحمد، بل يعذره بأنه كان متأولًا، أو أنه لبّس عليه أولئك المبتدعة لما قرّبهم وأدناهم، فدخلت أفكارهم في قلبه فشبّه عليه، لكن المبتدعة الذين تمكّنت هذه البدعة، منهم لا نعذرهم، ولكن لا نحكم على فلان بأنه كافر بهذه البدعة، ولكن من حيث العموم نقول: «القول بخلق القرآن كفر».

كذلك بدعة إنكار الصفات. الغلو في إنكارها، وهي طريقة المعتزلة الغلاة في إنكار هذه الصفات لا شكّ أنها كفر؛ لأنّ فيها نوع من التعطيل، حتى إن بعض العلماء جعلها أكبر من الشرك، ومن قول المشركين، الذين يجعلون العبادة مشتركة بين الخالق والمخلوق، ولكن ما دام أنهم يتسمّون بالإسلام، فلا نطلق عليهم الشتم، ولا نقول: فلان المعتزلي كافر لأن هؤلاء وإن كانوا من غلاة المعتزلة، ومن الذين اشتهروا فيه باعتناق هذا المذهب، وغلوا فيه وأضلوا فيه خلقًا كثيرًا، ولكن مقالتهم هذه مقالة كفريّة.

كذلك نقول في المذاهب المعاصرة الجديدة؛ هذه لا شكّ أنها كفر، يعني من حيث معتقداتهم، فمثلًا: الدروز ليسوا بمسلمين حقًا ولو تسمّوا بأنهم مع المسلمين بأنّهم يدلون بالشهادتين ظاهرًا، لكن في الباطن ليسوا بمسلمين مع وجودهم وكثرتهم في بعض البلاد، ولكن لا نقاتلهم، ولا نكفّر أعيانهم حتّى نقيم عليهم الحجج، ونواجههم مواجهة شخصية، ونبيّن لهم ويبيّنون لنا،

لكنّهم في الحقيقة يستخفون ويخفون عقائدهم، ويخفون مؤلفاتهم التي يعتنقون.

ويقال كذلك في الطائفة الجديدة التي تسمّى البعثيين، إذا بحثنا عن معتقداتهم ومؤلفاتهم نجد أنها مبادئ كفر، وأنهم كافرون، وأن معتقدي هذه العقيدة ليسوا حقًا مسلمين، وإنّما هم علمانيون أو اشتراكيون أو ماركسيون أو دنيويون، لا همّ لهم في الآخرة، ولا في مصالح الدين، ولا في الإقبال عليها، ولا على أصل الإسلام، كما يعرف ذلك في مؤلفات مذاهبهم، فمذهبهم مذهب كفريّ.

كذلك يقال في مذهب النصيريين والإسماعيليين وغلاة الشيعة الرافضة وأشباههم من الذين يتسمّون بأنهم من جملة المسلمين، ولكنّهم لهم عقائد ودسائس خفية تخالف الإسلام. فيقاتلون إذا أقيمت عليهم الحجة، وحصلت معهم مواقف يتبين فيها أنهم عارفون بالحقّ، ومعاندون ومحاربون له، أو أبطلت شهادتهم التي يتمسّكون بها فهذا ونحوه دليل على أنه يوجد هناك مكفّرات ولكن الحكم إنما هو للفعل لا للفاعل.

ولأجل ذلك ما ذكرناه في السابق أن أمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ عندما خرج على أهل هذه البلاد ووجد أهلها يشركون بالغلو في الصالحين، لم يكفّرهم مبدئيًا، ولكن بيّن أنّ فعلهم كفر، ولم يقاتلهم مبدئيًا، لكن شرع ببيان أعمالهم وبيان كفرهم، ولّما أصرّوا وعاندوا وجابهوا وكتبوا رسائل بالردّ عليه؛ شبّهوا عليه وعلى الناس مع اتضاح الحق كالشمس،

وأفتى عند ذلك بجواز قتالهم وبأنهم كفار؛ لأنهم أباحوا عبادة غير الله وشابهوا المشركين الأولين أو زادوا عليه، كما بيّن ذلك في مؤلفاته رحمه الله، فما شرع القتال إلا بعد ما كتب الرسائل والكتب وأرسلها إلى الطوائف الأخرى، وبيّن لهم ودعاهم وذكر لهم ما يدعوهم إليه، فهدى الله من هدى بسببه، وأصرّ بعضهم على عناده، وشرع يلبّس على من لبّس عليه، فلما قامت عليهم الحجة، عند ذلك أمر بقتالهم.

وهم يتسمّون بأنّهم مسلمون، ويقرأون القرآن، ويأتون بالشهادتين، ويصلّون ويصومون ويزكّون ويحجّون، ولكن يشركون؛ كانوا قد عملوا مشاهد على القبور، كما تسمى الآن في العراق، والواحد منهم مشهدي؛ لأنهم يحجون إلى تلك القبور. عندهم معابد الآن أعظم من الحرمين، كالنجف وكربلاء، والذين يأتون إليها يتلقون بالحفاوة والتكريم، ويأتون بالخشوع.

وكذلك كانت توجد معابد في نجد منصوبة ومرفوعة، ويذبح عندها، ويجلس عندها، وكانوا يتحرون الصلاة عندها ويطوفون بها، ويدعون أصحابها ويهتفون بأسمائهم: يا زيد، يا يوسف، يا شمسان، فقال لهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب: أليس هذا الدعاء لغير الله؟ ألم يقل الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، فلم يجدوا بدًّا من أن يقتنعوا بكلامه، ولكن بعض الذين فتنوا زاغوا عن ذلك، وأصرّوا على عنادهم، فحكم بكفرهم بعدما قامت عليهم الحجّة، بل تأسيًا بما ثبت عن النبيّ ﷺ أنه ما قاتل قومًا إلا

بعد أن دعاهم، ولَـمَّا أرسل عليًا ﷺ لدعوة اليهود قال له: «انْفُذْ على رِسْلِكَ حتى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عليهم، فَوَاللَّـهِ لَأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لك من أَنْ يَكُونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ»[1]، فكان - عليه الصلاة والسلام - يريد أن يدخل الناس في الإسلام، وليس قصده أن يقاتل، وليس قصده أن تكون له سيادة ومنصب وملك وسعة تصرّف وأموال يقتنيها، ما كان هذا قصده، إنما قصده هداية الناس وإقبالهم على الدين والدخول فيه.

وهذا الذي يجب علينا بالنسبة إلى كل المبتدعة في زماننا، يجب أن نحرص على دعوتهم، وبيان الحق نحوهم، وإظهار الأحكام الشرعية، وبيان مطابقتها للحقيقة، فإذا أصرّوا بعد ذلك وعاندوا فهنالك يقاتلون، إلّا إذا كانوا معاهدين أو لهم ذمّة، فأهل الذمة يؤمنون بقدر مدتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ ﴾ [التوبة:٤].

هناك مسألة ذات أهميّة، وهي مسألة التكفير والتشريك، فينبغي أن تعرف الفرق بين أن تقول: هذا العمل كفر، وهذا الشخص كافر. متى نحكم على الإنسان بأنه كافر؟ وبأنه في النار؟ إذا عرفنا أنه مات على الكفر، وهو ممّن قامت عليه الحجّة، كالذين في عهد رسول الله ﷺ، وهم كفار، أو جاءت الأدلّة

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

بأنهم من الكفار، وهكذا من بعدهم نعلم أنّ أبا لهب توعّده الله بقوله: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد:٣]، وكذلك أبو جهل مات على الكفر، وقتل عليه، وقد قال عنه رسول الله ﷺ: «هذا فِرْعَوْنُ هذه الأُمَّةِ»[1]. فمثل هؤلاء نتحقق أنهم في النار، ونحكم عليهم بذلك، ونعلم أنهم تحقق موتهم على الكفر.

إذا عرفنا أن شخصًا عاند الحق، وقاتل ضدّه، وعرفه المعرفة التامّة، وردّه الردّ الشنيع، وضلّل أهله، وعاند في قبوله، واستمرّ على ذلك، ومات ولم يتب، ولم يرتجع عن بدعته المكفّرة أو عن كفره؛ فحينئذٍ ندعو عليه، ونستحلّ شتمه ولعنه، ونقول: إنّه في النار. وأما من لم يتمّ ذلك فيه، نوكّل أمره إلى الله.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٩٦١)، وأحمد (١/ ٤٠٣، ٤٠٤)، والطبراني في الكبير (٨٤٦٩)، والبيهقي (٩/ ٦٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

قال الشارح:

وَالْمُعْتَزِلَةُ مُوافِقُونَ لِلْخَوارِجِ هُنَا فِي حُكْمِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُمْ وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، لَكِنْ قَالَتِ الخَوَارِجُ: نُسَمِّيهِ كَافِرًا، وَقَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: نُسَمِّيهِ فَاسِقًا، فَالخِلَافُ بَيْنَهُمْ لَفْظِيٌّ فَقَطْ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ أَيضًا متَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الوَعِيدَ المُرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الذَّنْبِ. كَمَا وَرَدَتْ بِهِ النُّصُوصُ، لَا كَمَا يَقُولُهُ الْمُرْجِئَةُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ! وَإِذَا اجْتَمَعَتْ نُصُوصُ الوَعْدِ الَّتِي اسْتَدَلَّتْ بِهَا الْمُرْجِئَةُ، وَنُصُوصُ الوَعِيدِ، الَّتِي اسْتَدَلَّتْ بِهَا الخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ؛ تَبَيَّنَ لَكَ فَسَادُ القَوْلَيْنِ. وَلَا فَائِدَةَ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ سُوَى أَنَّكَ تَسْتَفِيدُ مِنْ كَلَامِ كُلِّ طَائِفَةٍ فَسَادَ مَذْهَبِ الطَّائِفَةِ الأُخْرَى.

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الاتِّفَاقِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا لَفْظِيًّا لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادٌ، وَهُوَ: أَنَّهُ هَلْ يَكُونُ الكُفْرُ عَلَى مَرَاتِبَ، كُفْرًا دُونَ كُفْرٍ؟ كَمَا اخْتَلَفُوا: هَلْ يَكُونُ الإِيمَانُ عَلَى مَرَاتِبَ، إِيمَانًا دُونَ إِيمَانٍ؟ وَهَذَا الاخْتِلَافُ نَشَأَ مِن اخْتِلَافِهِمْ فِي مُسَمَّى «الإِيمَانِ»: هَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، أَمْ لَا؟ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ مَنْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ كَافِرًا نُسَمِّيهِ كَافِرًا؛ إِذْ مِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الحَاكِمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ كَافِرًا، وَيُسَمِّيَ رَسُولُه مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ كَافِرًا، وَلَا نُطْلِقُ عَلَيْهِمَا اسْمَ الكُفْرِ، وَلَكِنْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، قَالَ: هُوَ كُفْرٌ عَمَلِيٌّ لا اعْتِقَادِيٌّ، وَالْكُفْرُ عِنْدَهُ عَلَى مَرَاتِبَ، كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، كَالإِيمَانِ عِنْدَهُ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الإِيمَانَ: هُوَ التَّصْدِيقُ، وَلَا يَدْخُلُ العَمَلُ فِي مُسَمَّى الإِيمَانِ، وَالكُفْرُ: هُوَ الجُحُودُ، وَلَا يَزِيدَانِ وَلَا يَنْقَصانِ، قَالَ: هُوَ كُفْرٌ مَجَازِيٌّ غَيْرُ حَقِيقِيٌّ؛ إِذِ الكُفْر الحَقِيقِيّ هُوَ الَّذِي يَنْقِلُ عَنِ المِلَّةِ. وَكَذَلِكَ يَقُولُ فِي تَسْمِيَةِ بَعْضِ الأَعْمَالِ بِالإِيمَانِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أَيْ: صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، إِنَّهَا سُمِّيَتْ إِيمَانًا مَجَازًا؛ لِتَوَقُّفِ صِحَّتِهَا عَلَى الإِيمَانِ، أَوْ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الإِيمَانِ؛ إِذْ هِيَ دَالَّةٌ عَلَى كَوْنِ مُؤَدِّيهَا مُؤْمِنًا.

وَلِهَذَا يُحْكَمُ بِإِسْلَامِ الكَافِرِ إِذَا صَلَّى كَصَلَاتِنَا، فَلَيْسَ بَيْنَ فُقَهَاءِ المِلَّةِ نِزَاعٌ فِي أَصْحَابِ الذُّنُوبِ، إِذَا كَانُوا مُقِرِّينَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَمَا تَوَاتَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الوَعِيدِ. وَلَكِنَّ الأَقْوَالَ المُنْحَرِفَةَ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ بِتَخْلِيدِهِمْ فِي النَّارِ، كَالخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَلَكِنَّ أَرْدَأَ مَا فِي ذَلِكَ التَّعَصُّبُ مِنْ بَعْضِهِمْ، وَإِلْزَامُهُ لِمَنْ يُخَالِفُ قَوْلَهُ بِمَا لَا يَلْزَمُهُ، والتَّشْنِيعُ عَلَيْهِ! وَإِذَا كُنَّا مَأْمُورِينَ بِالعَدْلِ فِي مُجَادَلَةِ الكَافِرِينَ، وَأَنْ يُجَادَلُوا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَكَيْفَ لَا يَعْدِلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مِثْلِ هَذَا الخِلَافِ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الآية [المائدة: ٨].

قال الشيخ:

هنا في هذا الباب طوائف انحرفوا، فطائفة المعتزلة يقولون: إن أصحاب

المعاصي خارجون من الإسلام، ولم يدخلوا في الكفر، بحيث لا تستباح دماؤهم ولا قتالهم، ولكنهم يخلدون في النار، وطائفة الخوارج يقولون: إنّ أصحاب الكبائر كفار يقاتلون، وتستحلّ دماؤهم وأموالهم، وإذا ماتوا ماتوا كفارًا، ويعاملون معاملة الكفار، فلا يغسّلون، ولا يدفنون في مدافن المسلمين، ولا يصلّى عليهم، وهم في الآخرة يحكمون عليهم بالخلود في النار.

والخوارج يستدلّون بالأحاديث التي تقدّمت في الكفر، كقوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ**»، وقال: «**النَّائِحَةُ إِذا لم تَتُبْ قبل مَوْتِهَا تُقَامُ يوم الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ من جَرَبٍ**»[1].

كذلك طائفة المرجئة الذين يقولون: لا يضرّ مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل. هذه الطائفة تبيح للإنسان أن يكثر من المعاصي، وأنها لا تضرّه، ولو سرق، ولو قتل، ولو شرب الخمر، ومع ذلك كلّه لا ينقُصُ إيمانه، فإيمانه كامل، وحسناته كاملة، وهو من أهل الجنّة، ولا تضرّه هذه الكبائر، ولا هذه السيئات، فيبطلون الأحاديث التي فيها الوعيد، وهؤلاء أيضًا مخطئون.

فالقولُ الوسط هو قول أهل السنّة، نقول: إنّهم مخطئون فهم يخاف عليهم خوف الوعيد، ويخاف عليهم من النار مادام أنهم قد سمّوا في بعض الأحاديث

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

كفارًا، وسمّوا في بعضها فسّاقًا، فلا بدّ أن هذه المعاصي تضرّهم، فإمّا أن تؤخّرهم عن دخول الجنّة، وفي ذلك ضرر، وإما أن يدخلوا النار، وذلك أيضًا ضرر، وقد يدخلون النار ويطول مكثهم فيها، وقد يدخلون النار ولا يطول مكثهم، وذلك على قدر أعمالهم، وهذا دليل على أن المعاصي لها تأثير على العاصي، فلأجل ذلك يخاف عليه إذا أصرّ عليها، ومعروف أيضًا أن الشرع ما حذّر منها، وأكثر الذمّ لها إلا ولها تأثير في الأعمال، وعلى الإنسان أن يرجع إلى الأحاديث التي وردت في الحثّ على كثرة الطاعات، والتحذير من المعاصي ولو كانت صغيرة، وعدم الإصرار عليها، وذكر شيء من أضرارها أو بعضها، فيعدّ ذلك زاجرًا للمسلم أن يصرّ على صغيرة، أو يأتي على ذنب، ولو مرة واحدة؛ مخافة أن يسبب له عذابًا عاجلًا أو آجلًا.

وأما ما ذكره الشارح من أن هذه المسألة مبنيّة على قول أن الإيمان يتفاوت؛ فهناك إيمان كامل، وهناك إيمان ناقص، وهناك كفر دون كفر، ونحو ذلك.

وقد روي في تفسير هذه الآيات التي في سورة المائدة عن بعض السلف: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، أنه أُطلق عليهم الكفر والفسق والظلم؛ وذلك لأنّهم عاندوا وعرفوا أنّهم يحكمون بغير حكم الله، وشرّعوا

مع الله، وادّعوا أنّ شرعهم أحسن من شرع الله، وتنقّصوا حكم الله، وادّعوا أنه ليس بمناسب، وليس بصالح، فلأجل ذلك حكم عليهم بالكفر والظلم والفسق.

وآخرون قالوا: إذا فعل ذلك لمصلحة، ورأى مثلًا أن الحكم الشرعيّ لا يناسب في بعض الأحيان، وأن الحكم بغيره قد يكون أنسب، فحكم بذلك متأوِّلًا لم نخرجه من الإسلام، بل نجعله دون هذا، فقالوا كفر دون كفر، ظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وهذا على طريقة من يجعل الكفر يتفاوت: كفر أكبر، وكفر أصغر، وكفر أوسط. وكذلك يجعلون الإيمان إيمانًا كاملًا، وإيمانًا متوسطًا، وإيمانًا ناقصًا.

ونحن نقول: نعم الإيمان يتفاوت، ولأجل ذلك تنقصه المعاصي، وتزيده الطاعات، وأما الكفر فنقول: إن الكفر يبطل الأعمال، ولأجل ذلك الكافر ولو أدى أعمالًا في حياته فإنها لا تنفعه، إلا أننا إذا رأيناه يعمل الأعمال التي تختصّ بالإسلام عاملناه معاملة المسلم؛ فإذا رأيناه يصلي مع الجماعة حكمنا له بأنه مسلم لأننا لا نعمل بالظاهر، ونكل أمر السرائر إلى الله تعالى، ولو كان في الباطن كافرًا فأمره إلى الله، لكن إن رأيناه مع الصلاة يعبد غير الله مثلًا، أو يشرك، أو لا يحكم بما في الشرع، أو يفضّل حكم غير الشرع على حكم الشرع، عاملناه بما يستحقّه، وبذلك يعرف أن هذا الباب الذي هو باب تفاوت المؤمنين وباب تفاوت الكفار، والتفاوت بحسب ما في القلوب: إما من الإيمان أو ضد الإيمان، فهو مسألة لها أهميتها، فالإيمان القوي يحمل على كثرة الطاعات

والعبادات، والإيمان الضعيف لا يزجر عن المحرّمات، ولا عن الآثام.

فيجب على المسلم أن يهتم بأمر دينه حتى يسلك طريق النجاة، وأهم ما في الدّين أمورَ العقيدة التي إذا ثبتت ورسخت انبنت عليها صحة الأعمال، وثبتت وأثيب عليها، وإذا فسدت العقيدة انبنى عليها فساد الفروع والأعمال.

ومن جملة العقيدة أسماء الإيمان والدين، وقد عرفنا جانبًا كبيرًا منها فيما يتعلّق بالتكفير والتفسيق وطريقة أهل السنّة في ذلك، ومن خالفهم. وسبب الخلاف في ذلك أنه جاءت أحاديث كثيرة فيها الحكم بالكفر على بعض الأعمال التي هي من المعاصي، وتسمّى تلك النصوص نصوص الوعيد، وأحاديث الوعيد طريقة أهل السنّة فيها أنهم يجرونها على ظاهرها؛ ليكون ذلك أبلغ في الزجر مع اعتقادهم أنها لا تخرج من الملّة، وأنّ مرتكب الكبيرة ولو كان متوعّدًا بالعذاب أو بالكفر أو نحو ذلك؛ فإنه لا يصل في العذاب إلى درجة أن يستباح دمه وماله، وأن يحكم عليه بالخلود في النار، بل يقال هذا من الذنوب التي توعّد عليها بهذا الوعيد، وأمرها إلى الله تعالى، وكل المعاصي التي دون الشرك، فإنّها تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفر لصاحبها، وإن شاء عذّبه بقدر ذنوبه؛ هذه طريقة أهل السنة.

وقد مرّ بنا بعض أحاديث الوعيد التي فيها شيء من الغلظة، مثل قوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعروضَةٌ بَعْدُ»[١]

وهذا فيه نفي الإيمان، فنحن لا نقول: إنه خرج من الإيمان كليًّا، ولا أنه دخل في الكفر. المعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، والخوارج يقولون يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، ونحن نقول إنه لا يخرج من الإيمان ولكنّه تحت مشيئة الله تعالى. ونقول: إنه فاسق بهذا الذنب، ولكن لا يصل إلى أن يستباح دمه وماله وعرضه، ويباح قتله، ولكن ذنبه غليظ.

ومثله قول رسول الله ﷺ: «ثِنْتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّيَاحةُ عَلى المَيِّتِ»[٢]، معلوم أن هاتين لا يكفّر بهما المسلم.

ومثله قوله ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[٣]. معلوم أن قتاله لا يصل إلى حدّ أنه يخرج من الملّة.

ومثله قوله ﷺ: «ليس مِنَّا من لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[٤]. والأحاديث كثيرة التي فيها: «ليس منا»، كقوله ﷺ: «من غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»[٥]، وأحاديث البراء، كقوله ﷺ: «يا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري واللفظ له (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بَعْدِي، فَأَخْبِرْ الناس أَنَّهُ من عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أو تَقَلَّدَ وَتَرًا، أو اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أو عَظْمٍ، فإِنَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْهُ بَرِيءٌ»[١]. وأشباه ذلك مما فيه البراءة من الفعل والفاعل.

نقول: إن هذه الأحاديث جاءت للزجر عن هذه المعاصي، وقد جاءت أحاديث تدلّ على إخراج المسلمين الذين يدخلون النار وهم من أهل التوحيد؛ وإخراجهم من النار إمّا بشفاعة الشافعين، أو برحمة الله تعالى، فتلك الأحاديث صريحة واضحة، تدلّ دلالة واضحة على أنه وإن عمل صاحبها الكبائر ونحوها، إلا أنه لا يصل إلى حدّ الكفر.

وفي حديث أبي ذرٍّ ﷺ: لَـمَّا قال النبيُّ ﷺ: «أَتَانِي آتٍ من رَبِّي، فَأَخْبَرَنِي - أو قال: بَشَّرَنِي - أَنَّهُ مَنْ مَاتَ من أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ»، قال أبو ذرٍّ ﷺ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قال: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»[٢]. مما يدلّ على أنه لا يصل به حدّ الكفر، وإن فعل مثل تلك الذنوب، وأنه مؤمن بأصل الإيمان.

ومع ذلك فلا يجوز التساهل بهذه الذنوب؛ وذلك لأنّ التساهل بها، والإدمان عليها يقسّي القلب، ويصدّ عن الطاعة، ويكسّل عن الحسنات، ويُجرّئ على كثرة السيّئات، ويضعف في القلب الخوف من ارتكاب السيئات،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦)، والنسائي (٥٠٧٠)، وأحمد (٤/ ١٠٨)، والطبراني في الكبير (٤٤٩١)، والبيهقي (١/ ١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٣٧)، ومسلم (٩٤).

وبسبب هذا الضعف يترك الواجبات، ويرتكب المحرّمات مما قد يكون سببًا في الطعن في الشريعة والعيب لها، والانتقاد لله تعالى في تحريم هذا الشيء، أو إيجاد هذا الشيء، والاعتراض على الله تعالى وذلك كفر، وكذلك انتقاد أحكامه، والطعن في شيء من الشريعة بأنه غير مناسب، أو أنه جور ونحو ذلك، وهذا بلا شكّ تقوّل على الله واعتراض عليه فلأجل ذلك ينهى عن الإصرار على الذنوب، حتى ولو كانت صغائر.

ويكثر في الحديث الزجر عن الصغائر والكبائر، وتكثر الأدلّة على الوعيد الشديد على بعض الذنوب، ويستشهد العلماء بأدلّة فيها الهلاك والعذاب لمن فعل هذه الذنوب، ولمن أصرّ عليها، وإذا عرف المسلم ذلك لم يتهاون فيها، ولو كانت لا توصل إلى الكفر؛ مخافة أنها مع التساهل ومع الاستمرار عليها تقسّي القلب، وتصدّه عن ذكر الله ومعرفته.

هذا واجب المسلم، ومتى تخلى عن السيئات حتى ولو صغيرة وكرهها في قلبه، فسوف يحبّ الطاعات ويألفها وتسهل عليه، ويحبّ الاستكثار منها، والإقلاع عن السيئات والبعد عنها، وكثرة الحسنات وكثرة الأعمال الصالحة مما يرفع الله بها العبد إلى الدرجات، ومما يقبل منه عبادته، ولا شكّ أنّها سبب معرفة ثواب الله تعالى وعصمته وأجره، حتى يكون في ذلك مثابرًا مكبًّا على الإكثار من الحسنات. ومتى عرف عقاب الله وعظيم عذابه على الإصرار على الكبائر حتى ولو كان ذلك عذاب يوم أو عذاب ساعة أو نحو ذلك، فكيف بعذاب دهور متطاولة؟ كلّ ذلك مما يزجر الإنسان عن المعاصي.

قال الشارح:

وَهُنَا أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يُتَفَطَّنَ لَهُ، وَهُوَ: أَنَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً: كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً، وَيَكُونُ كُفْرًا: إِمَّا مَجَازِيًّا، وَإِمَّا كُفْرًا أَصْغَرَ، عَلَى الْقَوْلَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الْحَاكِمِ، فَإِنَّهُ إِنِ اعْتَقَدَ أَنَّ الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ، وَأَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِ، أَوِ اسْتَهَانَ بِهِ مَعَ تَيَقُّنِهِ أَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ؛ فَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِنِ اعْتَقَدَ وُجُوبَ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَعَلِمَهُ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَعَدَلَ عَنْهُ مَعَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ؛ فَهَذَا عَاصٍ، وَيُسَمَّى كَافِرًا كُفْرًا مَجَازِيًّا، أَوْ كُفْرًا أَصْغَرَ. وَإِنْ جَهِلَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهَا، مَعَ بَذْلِ جُهْدِهِ، وَاسْتِفْرَاغِ وُسْعِهِ فِي مَعْرِفَةِ الْحُكْمِ وَأَخْطَأَهُ، فَهَذَا مُخْطِئٌ، لَهُ أَجْرٌ عَلَى اجْتِهَادِهِ، وَخَطَؤُهُ مَغْفُورٌ.

وَأَرَادَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ)، مُخَالَفَةَ الْمُرْجِئَةِ، وَشُبْهَتُهُمْ كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ لِبَعْضِ الأَوَّلِينَ، فَاتَّفَقَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ قُدَامَةَ بْنَ مَظْعُونٍ شَرِبَ الْخَمْرَ بَعْدَ تَحْرِيمِهَا هُوَ وَطَائِفَةٌ، وَتَأَوَّلُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [المائدة: ٩٣]، فَلَمَّا ذُكِرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، اتَّفَقَ هُوَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهُمْ إِنِ اعْتَرَفُوا بِالتَّحْرِيمِ، جُلِدُوا، وَإِنْ أَصَرُّوا عَلَى اسْتِحْلَالِهَا قُتِلُوا، وَقَالَ عُمَرُ لِقُدَامَةَ: أَخْطَأَتْ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوِ اتَّقَيْتَ وَآمَنْتَ

وَعَمِلْتَ الصَّالِحَاتِ، لَمْ تَشْرَبِ الخَمْرَ.

وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَـمَّا حَرَّمَ الخَمْرَ وَكَانَ تَحْرِيمُهَا بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ، قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: فَكَيْفَ بِأَصْحَابِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ[1]. بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ مَنْ طَعِمَ الشَّيْءَ فِي الحَالِ الَّتِي لَمْ يُحَرَّمْ فِيهَا، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِنَ المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ المُصْلِحِينَ، كَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ اسْتِقْبَالِ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ فَعَلُوا ذَلِكَ نَدِمُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ أَخْطَأُوا، وَأَيِسُوا مِنَ التَّوْبَةِ، فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى قُدَامَةَ يَقُولُ لَهُ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١-٣]. مَا أَدْرِي أَيُّ ذَنْبَيْكَ أَعْظَمُ؟ اسْتِحْلَالُكَ المُحَرَّمَ أَوَّلًا؟ أَمْ يَأْسُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ثَانِيًا؟ وَهَذَا الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَئِمَّةِ الإِسْلَامِ.

قال الشيخ:

عرفنا أولًا تفصيل الحكم بغير ما أنزل الله، وأنه ينقسم أهله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كفارٌ، يعرفون حكم الله وينتقدونه، ويقولون الحكم الشرعي لا يناسبنا. أو الحكم الشرعي الذي في القرآن والسنة هذا قديم،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٥٠) من حديث البراء بن عازب ﷺ، وأخرج البخاري نحوه (٢٤٦٤) من حديث أنس ﷺ.

ولا يناسب هذا الزمان، فنحن نبتكر ونبتدع حكمًا يتناسب مع هذا الزمان حتى يوافق الحال.

هؤلاء الذين يحكمون بالقوانين الوضعية في هذا الزمان هم على هذه الطريقة، والعياذ بالله. وذلك أنهم يعرفون الأحكام الشرعية المأخوذة من الوحيين، ولكن زهدوا بها. ووضعوا هذه القوانين التي أخذوها من نحاتة الأفكار، ومن زبالة الأذهان، وممّا تلقوه عن الغربيين واليونان والكفرة والملاحدة؛ فاجتمعت لهم هذه القوانين ورفعوها، وجعلوا التحاكم إليها، وكان من نتيجتها تعطيل الكثير من الحدود، وتغيير الكثير من الأحكام. فكثير منهم كما هو معروف لا يجعلون المال خاصًا وهم الذين يسمّون بالاشتراكيين ونحوهم، فهؤلاء طوائف كثيرة يتسمّون بأنهم مسلمون، وينزعون الملكيّات من أهلها، ويستبدّون بها، ويزعمون أنها اشتراكيّة، وكذبوا؛ فإنّما هي استبداديّة، فهذا من جملة أحكامهم الجائرة.

كذلك من نتيجة أحكامهم تغيير الكثير من الفرائض التي فرضها الله تعالى، فغيّروا في الفرائض والمواريث، وحرّموا كثيرًا، وآتوا كثيرًا ممّن لا ميراث لهم، ونحو ذلك. مما يطول به التفسير.

كذلك أيضًا من نتيجة أقوالهم تعطيل كثير من الحدود. فالقصاص عندهم لا يجوز مع قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة:١٧٩]، سواء في الطرف أو في النفس، يستبدلونه بأخذ المال من القاتل، ويستبدلونه

بالسجن المؤبّد أو نحو ذلك، وكذلك تعطيل حد الزّنى وإباحة الزّنى إذا كان الزانيان متراضيين؛ لأن هذا شيء يملكانه، وقد حدث باختيارهما، وكذلك تعطيل حدّ الخمر؛ حيث إن الخمر عندهم أمر مباح ليس فيه أي بأس، وأن الحكم بتحريمها حكم ظلم وجور. انتقدوا الشرع!! إلى غير ذلك من هذه الأحكام الوضعيّة.

نقول: لا شكّ أنّ هذا كفر؛ لأنّهم اعترضوا على الشرع، وخطّأوه، وادّعوا أنّه قد تغيّر، وأنّه لا يناسب التطوّر كما يقولون، فجعلوا حكمهم أحسن من حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

هذه مقالة هؤلاء الذين يجعلون الحكم بغير ما أنزل الله على حسب أهوائهم، ويحكمون بما يلائمهم، ويتركون حكم الله وهم يعرفونه، ويطعنون في حكم الشرع؛ لا شكّ أنّ هؤلاء كفار ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والقسم الثاني: الذين يحكمون به وهم يعرفون أنّه حرام، ولكن يقولون: إننا نحكم به لعذر أو ضرورة أو نحو ذلك، فهؤلاء عصاةٌ، إلا إذا كانوا مضطَّرِّين، فكثير من الإخوان الصالحين يضطرّون إلى السفر إلى بلاد تحكم بحكم الطاغوت الذي هو القوانين الوضعيّة، مع أنّهم إمّا مسلمون وإمّا غير مسلمين، يكون لأحدهم حقّ وإن كان له حقّ فماذا يفعل؟ يقول: هل أترك حقّي يضيع، أو أتحاكم إلى محاكمهم القانونيّة، وأنا أعرف أنّي صاحب حقّ،

وأعلم أنّهم يحكمون بحكم الطاغوت، ولكنّي مضطرّ إلى التحاكم إليهم؛ لعدم وجود حاكم شرعي، ولو تركت حقّي لذهب وهو قد لا يتساهل به، فبهذه الحالة فهو معذور حتّى لا يضيع حقّه، معذور إذا ترافع خصمه إلى أولئك الذين يحكمون بالقوانين الوضعيّة، ومتى حكموا له أخذ حكمهم وألزمه ضرورة؛ لأنه في بلادهم.

والحاصل: أن الذي يحكم بها وهو يعلم أنها محرّمة، ولكن يدّعي أنّه مضطرّ إليها أو أنّها ذنب، وأنّه لا يناسب في هذا الوقت، أو لا يتخلص له حقّه في هذا المجال إلا بهذا فهو معذور، ولكن هو مذنب؛ لأنّه تعاطى الشيء الذي اضطرّه إلى ذلك، وأما إذا كان ضرورة فلعلّه معذور.

وأمّا **القسم الثالث**: فهو الذي اجتهد في طلب إصابة الحقّ، ولكنّه لم يصبه، فحكم باجتهاده، فهذا معذور، وهو الذي له أجر على اجتهاده، ويُغفر خطؤه.

هذه أقسام من يحكم بغير ما أنزل الله، عرفنا أن منها ما هو معصية، ومنها ما هو كفر، ومنها ما هو عذر.

مرّ معنا حديث قدامة بن مظعون في عهد عمر - رضي الله عنهما - وكان قدامة ﷺ وبعض المسلمين في الشام التي كان يكثر فيها صناعة الخمر، وكانوا يجلسون فيها يدعون إلى الله، ويُعلّمون من دخل في الإسلام، ويجالسون أولئك الناس، فيشاهدونهم يشربون الخمر، وقدامة ﷺ واثنان معه شربوها متأوّلين

قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة:٩٣]، فقالوا: نشربها ونتّقي ونؤمن ونحسن، ولا يكون علينا حرج!! فهذا تأويل منهم، وظنٌّ منهم أن شربها لا ينافي الإيمان؛ فشربوها. فلمّا وصل الخبر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان رجلًا غيورًا، أمر بهم فجلدوا، مع أنهم كانوا من مشاهير المسلمين.

ولكن سُئل الأمير هناك، وهو أبو عبيدة رضي الله عنه: إن اعترفوا بأنها حرام ولكن وقعوا فيها عن معصية فعليهم الجلد، وإن أصرّوا واعتقدوا أنها حلال مباحة، فعليهم القتل؛ لأنهم أباحوا ما حرّم الله مع التصريح بتحريمها في الآية. فمن أباح شيئًا مما حرّمه الله حتى ولو لم يتناوله فقد خالف النصوص، فيُحكم بردّته. ولكنّهم تعلّلوا بأنّهم شبّه عليهم، وظنّوا أن في هذه الآية دليلًا، وبيّن عمر لقدامة - رضي الله عنهما - خطأه قائلًا: (أَخْطَأَتْ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوِ اتَّقَيْتَ وَآمَنْتَ وَعَمِلْتَ الصَّالِحَات، لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْر). فالإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان زواجر تزجر حقيقةً عن هذه المنكرات، ثمّ بيّن لهم أن هذه الآية نزلت في الذين ماتوا وهم يشربونها قبل التحريم، منهم الذين قتلوا في غزوة أحد أو بدر قبل أن تحرّم الخمر؛ نزل فيهم لما قال المسلمون: كيف بفلان مات وهي في بطنه، قتل شهيدًا وهو يشربها كيف حالتهم؟ أنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾، أي: فيما قد طعموا، لم يقل فيما سوف يطعمون، أو فيما سوف يأكلون أو سوف

يشربون، بل قال: ﴿فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، فدلّ على أن المراد في الشيء الذي قد طعمه قبل التحريم، وحتّى أنتم الذين نزل تحريمها وأنتم أحياء، وكنتم تشربونها، فما طعمتم قبل التحريم، قد عفي عنكم، فاستقبلوا وقتًا جديدًا، وتوبوا إلى الله، وأقلعوا عنها.

فالحاصل: أن عمر ﷺ بيّن أنّهم إن اعتقدوا أنها حلال فقد خالفوا النصوص، فهنا يعدّ هذا ردّة، وإن قالوا: بل هي حرام، ولكنّا شربناها متأوّلين الآية، فهذه معصية، لا تخرج عن الملّة، ولكن فيها حدّ الخمر الذي شرعه الله.

وبهذا يُعرف أنّ من استحلّ الحرام المعروف من الدين بالضرورة فإنه يكفر، حتى ولو لم يفعله؛ فمن قال مثلًا: إنّ الزنى حلال إذا كان الزانيان متراضيين، ولا حرج فيه؛ لأنه شيء يمتلكانه، وقد بذلت المرأة نفسها، وبذل الرجل نفسه، فلا حرج عليهما فيما فعلاه، ولا إثم. نقول: هذا قد كفر، ولو لم يزنِ هو؛ لأنّه أحلّ الحرام.

ومن قال: إن الربا الذي حرمه الله في القرآن مباح، ولا إثم على من أكله، كما فعل المشركون فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]. نقول: إذا أباح الرّبا واستحلّه، وجعله مثل البيع، وجعله عملًا يجوز بالتراضي مادام أنّ المتعاقدين متراضيان، ولو لم يتعامل به، ولو لم يأكله، يعدّ بذلك مرتدًا.

ففرق بين من فعل المعصية وهو يعرف أنّها معصية، ويعترف على نفسه، وبين من فعلها وهو مستحلّ لها، أو استحلّها ولم يفعلها، فإنه يكفر.

قال الطحاوي:

وَنَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُم، ويُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نُقَنِّطُهُمْ.

قال الشارح:

وَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَقِدَ هَذَا الَّذِي قَالَهُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَفِي حَقِّ غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة:٤١]. ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وَمَدَحَ أَهْلَ الخَوْفِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وَفِي «الْمُسْنَدِ»[1] وَالتِّرْمِذِي[2] عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا

---

(١) (٦/ ١٥٩، ٢٠٥).

(٢) برقم (٣١٧٥).

رَسُولَ اللَّهِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الخَمْرَ وَيَسْرِقُ؟ قَالَ: «لَا، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ». قَالَ الحَسَنُ ﷺ: عَمِلُوا - وَاللَّهِ - بِالطَّاعَاتِ، وَاجْتَهَدُوا فِيهَا، وَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ، إِنَّ المُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَخَشْيَةً، وَالمُنَافِقُ جَمَعَ إِسَاءَةً وأمنًا. انْتَهَى.

قال الشيخ:

الرجاء: هو تعلق القلب برحمة الله، والخوف: وجل القلب من عذاب الله، وهنا طائفتان منحرفتان:

طائفة المرجئة الذين غلّبوا جانب الرجاء، وقالوا: لا تضرّ الذنوب والمعاصي، ما دام الإنسان مؤمنًا.

طائفة الوعيدية، وهم الخوارج والمعتزلة الذين غلَّبوا جانب الخوف، وهم الذين يخلّدون أصحاب الكبائر في النار، ولا يجعلون لهم توبة، ويقولون إنّهم قد لا يوفقون للتوبة، وإنهم لا يخرجون من النار، فهؤلاء غلّبوا جانب الخوف.

أما أهل السنة، فيأمرون بالجمع بين الرجاء والخوف، فمن العلماء من يقول: عليك أن تسوّي بينهما، وقرأت لبعضهم أنّه مثل المحبة والخوف والرجاء بطائر، فقال: المحبّة رأس الطائر، والخوف والرجاء جناحاه؛ فإذا قطع رأسه مات، وإذا قطع أحد جناحيه تحسر، وإذا كمّل الجناحان الرأس تمّ الطيران.

هكذا تكون المحبّة حاملة للإنسان على العبادات، ويكون الجناح الأول وهو الرجاء يبعد قلبه عن الخوف، ويبعد قلبه عن اليأس وعن القنوط، ويعلق قلبه برحمة ربّه، والجناح الثاني الذي هو الخوف يكون مبعدًا له عن الآثام والمعاصي، وعن الذنوب، وعن الإصرار عليها، فإذا تذكر سعة رحمة الله ومغفرته وفضله وجوده وإحسانه ومحبته لعباده ومغفرته للذنوب جميعًا، برد قلبه ورجا رحمة ربّه، وإذا قرأ الآيات التي فيها الخوف والعقاب والألم والغضب، والنار، وشديد البطش، ونحو ذلك؛ فزع من المعاصي، وابتعد عنها، وتاب وأقلع وحذر من عقوبتها، فهو دائمًا يقرأ هذه وهذه، ولعلّ هذا هو السبب في أنّ الله دائمًا يذكر الخوف والرجاء في آيات تدلّ على هذا وهذا، مثل قول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩، ٥٠]، فالآية الثانية فيها الخوف، حتى لا يغلب على قاسي القلب التساهل بالمعاصي ونحوها، فخوفه يحمله على البعد عن السيئات، ورجاؤه يحمله على الإكثار من الحسنات، رجاء أن تقبل توبته، وأن تغفر سيّئاته.

ومثله قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وهذه الأولى في الرحمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، والثانية: ﴿لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، يعني: فلا تيأس من الرحمة، ولا تقنط منها، ولكن لا تتساهل بالمعصية، فإن الله شديد العقاب.

ومثلها الآية التي استشهد بها عمر ﷺ لما بلغه أن قدامة بن مظعون ﷺ قد يئس وانقطع رجاؤه، وظنّ أنّه ليس له توبةً، فكتب إليه بهذه الآية في أول سورة غافر: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [غافر:٣]، جمع الله فيها بين الأمرين: المغفرة والعقاب، فقال له عمر ﷺ: (مَا أَدْرِي أَيُّ ذَنْبَيْكَ أَعْظَمُ؟ اسْتِحْلَالُكَ الْمُحَرَّمَ أَوَّلًا؟ أَمْ يَأْسُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ثَانِيًا؟)، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]. فإذا يئس العبد من رحمة الله فقد بلغ هذه الرتبة.

وهكذا يكون الإنسان بين هاتين المرتبتين: بين اليأس وبين الأمن، فلا يكون آيسًا ولا يكون آمنًا، فالأمن: أن يُكثر من الذنوب وكأنه آمن، والله تعالى يقول: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والواجب على المسلم أن يكون جامعًا بين الأمرين: بين الخوف، بحيث لا يعصي، وبين الأمن، بحيث لا ييأس.

الأمن الذي لا يوصله إلى التهاون بالمعاصي، فلا يأمن مكر الله، ولكن يكون مؤمنًا بفضل الله، وراجيًا لرحمة الله.

ثم إن الذين يقعون في الذنوب الكبائر من زنى وسرقة وقتل، ومن فواحش؛ كثير منهم إذا نصحته يقول: أنا عملت كذا وكذا، شربت الخمور، وتركت الصلاة مدة طويلة، وقد قسا قلبي، أنا لا تقبل توبتي، أنا مُقدم على

العذاب، أنا من أهل النار، كائنًا ما كان. فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]، هذا هو القنوط، كأنّ أحدهم يقول: ما دمت فعلت الكبائر، فأنا لا تعمّني الرحمة، ولا يصلني العفو، ولا تبلُغني رحمة الله، أنا آيس من الرحمة، ونحو ذلك، يقوله بلسانه، والله أعلم بما في قلبه. ولعلّ السبب أنّه ألف المعاصي ونشأ عليها، وصعب عليه تركها، فلأجل ذلك اعتذر بهذا العذر، الذي هو أفسد من الفعل، هؤلاء قد وصلوا إلى هذه الرتبة الخطرة، وإلى القنوط أو التساهل بالمعاصي، والتساهل بعذاب الله، والإقدام على النار، جازمين بأنهم من أهلها.

وأما القسم الثاني: فإنّك تجدهم يكثرون من المعاصي، وإذا نصحتهم تعلقوا بالرحمة، وقالوا: رحمة الله واسعة، الله يغفر الذنوب جميعًا، الله وسعت رحمته كل شيء، الله غفور رحيم.

فهؤلاء آمنون، فدخلوا في قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فتجد أحدهم يترك العبادات، ويقترف المحرّمات، ويكثر من السيئات، ولا يهاب الإقدام عليها، ويتعلّق بالرحمة، فمثل هذا على طريقة المرجئة الذين يقولون: لا يضرّ مع الإيمان ذنب. ويقول قائلهم:

فَكَثِّر مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ المَعَاصِي إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيم

ومثل هذا قد أمن مكر الله، وتهاون بعقوبة الله. نقول له: لا تأمن أن يأتيك

الأجل وأنت على هذا التفريط، متساهل بحدود الله وحقوقه، لا تأمن أن هذه المعاصي تطمس قلبك وتقسّيه، وتحول بينه وبين المعرفة، وتحول بينه وبين الطاعة، فتبقى طريدًا شريدًا - والعياذ بالله - إذا أتاك الأجل وأنت طريد شريد، إذا أتاك الأجل وأنت على هذه الذنوب مصرّ عليها، فماذا تكون حيلتك؟ هل لك استطاعة على الصبر على النار؟ هل تصبر على عذاب الله ولو لحظة؟ حتى نار الدنيا لو عذبت بها، ماذا يكون صبرك على نار الدنيا حتى يكون صبرك على نار الآخرة؟ تذكّر أنّه قد يعذّبك ؛ لأنك استهنت بحقوقه وحدوده، وأقبلت على هذه المعاصي، وتهاونت بعقابه؛ فلا تأمن أن يعاقبك على هذا، ولو كنت موحّدًا، ولو كنت مؤمنًا حقًا لم تتهاون بحدود الله ولا بعقابه.

وبكلّ حال فقد ظهر لنا ذمّ هاتين الطريقتين: طريقة المرجئة الذين يتساهلون بالمعاصي ويكثرون منها، ويحلونها ويغلّبون جانب الرجاء.

وطريقة الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ويحرمون العاصي من المغفرة في الآخرة، ونحو ذلك.

والطريقة الوسط بينهما أن يكون المسلم خائفًا راجيًا، كما جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يرجون ويخافون؛ رجاء الرحمة حتى تهرب قلوبهم من اليأس، وخوف العذاب حتى لا يأمنوا مكر الله؛ حتّى يحملهم الرجاء على إحسان الظنّ بالله، ويحملهم الخوف على الحذر من

سخط الله، وعلى البعد عن معاصيه من صغائر وكبائر، وعمل الأعمال الصالحة التي تقرّبهم إلى الله، هذا وجه الجمع بين الخوف وبين الرجاء والذي فيه مخالفة الطائفتين: طائفة الوعيديّة من المعتزلة ونحوهم، وطائفة المرجئة من الجهميّة ونحوهم، الوسط بينهما طريقة أهل السنّة.

من عقيدة المسلم الخوف والرجاء، الخوف من عذاب الله، ورجاء رحمته، ونتيجة هذا أن الإنسان لا يأمن من عذاب الله ومن مكره، ولا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته، بل يجمع بينهما، ويكون ذلك في نفسه، وكذلك في غيره.

ففي نفسه يخاف ويقول: إنني مذنب، وإنني مقصّر، وأخاف على نفسي من عذاب الله، وأخاف من مكره، ولكن لا يحمله هذا الخوف على القنوط واليأس من رحمة الله، بل يضيف إلى الخوف الرجاء.

وقد ذكر العلماء أنه في حالة الصحّة يغلّب المسلم جانب الخوف، حتّى يحمله على استقلال أعماله، ويستكثر ويتوب. وأما عند الاحتضار وفي حالة المرض فالأَوْلى أن يغلب جانب الرجاء، فقد ورد في الحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أحدكم إلا وهو يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»[(١)]؛ رجاء أن يتلقّاه الله برحمته، ويصدق عليه قول الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بي ما شَاءَ»[(٢)]. فإذا مات وهو على ذلك رُجي أن يعمّه الله تعالى برحمته.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١)، والدارمي (٢/ ٣٩٥)، وابن حبان (٢/ ٤٠١)، والطبراني في =

هذا بالنسبة إلى الإنسان في نفسه يكون خائفًا راجيًا، يحمله الخوف على أن يحتقر أعماله، ويحمله الرجاء على أن يعلّق قلبه بربّه، ولا ينطفئ رجاؤه، ولا يقنط من رحمته.

كذلك في حق غيرك تخاف عليه، وترجو له، فتقول: فلان توفي وهو على الإسلام، نخاف عليه من العذاب، ونرجوا له الثواب، أو نرجوا للمحسنين، ونخاف على المسيئين. فالمسلمون الذين يظهر من أعمالهم الصالحة أنّهم من أهل الخير، ترجو لهم الثواب، وترجو لهم الجنّة، وترجو لهم المغفرة، وترجو لهم أن يكونوا من أهل الخير، وأن يكونوا من أهل الطاعة، وأن يحظوا بالثواب. والمسيؤون الذين ماتوا وهم على إساءة، أو باقون وهم على سيئاتهم، تقول أخشى على أحدهم، أو أخشى عليهم أن يقعوا في العذاب، أو أن يدركهم عذاب الله ونقمته.

والفقهاء في آخر باب الجنائز قالوا: نرجوا للمحسنين الذين ماتوا وهم من أهل الإيمان والإحسان، ولكن لا نجزم لهم بأنّهم من أهل الجنّة، ولكن نرجوا لهم ونغلّب الرجاء، ونخاف على المسيئين الذين ماتوا وهم مصرّون على بعض السيئات، أو كانوا من أهل الإساءة، أو من أهل التقصير، فنحن نخاف

=

الكبير (٢١٠) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ، وهو عند البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، بدون: «فَلْيَظُنَّ بي ما شَاءَ».

عليهم، ولكن لا نجزم لهم بالنار، ولا نجزم لهم بالعذاب، وإنّما نخشى عليهم، وأما الذين قد ستروا أنفسهم، ولم يظهر لنا منهم هذا وهذا، ولكنّهم في الظاهر مسلمون ومن أهل السنّة، ومن أهل الخير، فهؤلاء لا يجوز أن نظنّ بهم ظنًّا سيئًا، بل يستحب أن يحسُن الظنّ بالمسلم الذي ظاهره الإسلام، ولا يظهر لنا منه ما يوجب سوء الظنّ، نقول: نحسن الظنّ به، ونرجو له الخير في حياته وبعد مماته.

وقد ذكرنا أن المسلم يجمع بين الخوف والرجاء، ومرّت بنا الأدلّة التي فيها أنّ الإنسان دائمًا يكون خائفًا راجيًا؛ منها أنّ الله تعالى كلّما ذكر الجنّة ذكر النار، وكلّما ذكر عذابه ذكر ثوابه، مثل قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤]؛ آيتان متتابعتان، ذكر فيهما النعيم حتى يرجو المسلم رحمة الله، وذكر بعده الجحيم حتى يخشى ويخاف؛ فوجّهه الخوفُ إلى الابتعاد عن أسباب دخول الجحيم، وهكذا في كثير من السور، كلّما ذكر الله أهل الجنّة، ذكر أهل النار، أو بالعكس؛ مثل قوله: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [النبأ:٢١، ٢٢]، ثم قال الله تعالى في السورة نفسها: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ:٣١]، وكما قال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧ ـ ٤١]. وكثيرًا ما يذكر الله ثواب هؤلاء، وعقاب هؤلاء، ليكون المؤمن خائفًا راجيًا، سواء في نفسه، أو في بني جنسه.

الخوف يتعلّق بالخوف من بطش الله وعذابه؛ كأن يقال: خَفِ اللهّ، ألَا تَخاف الله؟ فتقول: كيف أخافه؟ يقال: تخاف من أن يغضب، من أن يعاقب، من أن يبطش بك، فإنه شديد العقاب لمن عصاه، ولمن خرج عن طاعته، وقد يتعلّق الخوف بالعذاب، فيقال: أما تخاف من النار، أما تخاف العذاب، أما تخاف عقاب الله؟ وقد يتعلّق الخوف بالأهوال، فيقال مثلًا: أما تخاف من أهوال القيامة، أما تخاف من هول المطلع، وكلّ ذلك نتيجته واحدة؛ فإن من خاف فإنّه يهتمّ لما خاف منه، ويبتعد عنه، وقد ضرب النبي ﷺ للخوف الحسي في الدنيا فقال: «**من خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، ألا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ**»[1].

فنقول: إنّ هذا مثل حسّي، يعني: إن الخوف في الدنيا قد يكون حسيًا، فمثلًا: إنسانٌ سافر وحده على قدميه، وورد طريقًا بعيدًا فيه مخاوف وقطاع طرق، وسباع وهوامّ، وهو وحده، وليس معه سلاح ولا ما يتقوّى به، فماذا يفعل؟ لا شكّ أنّه يسير بمنتهى الحذر، ويسير في الوقت الذي يهدأ الناس فيه، الوقت الذي يكون فيه قُطّاع الطريق نائمين، أو غافلين، أو مشتغلين بحاجاتهم أو نحو ذلك؛ ولذلك قال ﷺ: «**من خَافَ أَدْلَجَ...**»، الدلجة: السير في الليل، «**وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ**»، سار في الليل في غفلة الناس، حتّى إذا جاء

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وعبد بن حميد (ص٤٢٥)، والحاكم (٤/ ٣٠٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

النهار اختفى؛ حتّى ينزل عليه الليل فلا يراه أحد، ولا يتعرّض له، فتمرّ عليه أيام وهو على هذه الحال، فيبلغ المنزل سالمًا.

نقول كذلك: من خاف من الله تعالى؛ فإنه يهرب من أسباب عذابه، فمن خاف من النار هرب منها، ومن خاف من عذاب الله هرب من أسبابه، كما أنّ من رجا شيئًا طلبه، فالرجاء السابق له علامتان: صدق الطلب، وصدق المواصلة، فإذا قلت لإنسان: أما ترجو ربّك؟ فيقول: أنا أرجوه. وتسأله: ألا ترجو رحمة الله، ألا ترجو جنّته؟ فيقول: نعم، أنا راجيه، فلا بدّ أن تقول له حينئذٍ: أين علامة الرجاء؟ فإن الطلب علامة صدق الرجاء، فمن رجا شيئًا طلبه. إذا كنت ترجو الجنّة، فلا بدّ أن تبذل لها ثمنًا، وثمنها هو الحسنات والأعمال الصالحة، فأما من يقول: أنا أرجو ثواب الله وأرجو رحمته، وأرجو جنّته، ولكنّه لا يقدّم لها ثمنًا، فإنّها لا تحصل له هذه الجنّة فهي غالية، وليست رخيصة، ولا بدّ لها من ثمن.

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً   بَلْ أَنْتِ غَالِية عَلَى الكَسْلَانِ[1]

كذلك نسأل من يقول: أنا أخاف النار؟ فنقول له: ألا تخاف النار؟ فيقول: بلى. نقول: أين علامة الخوف؟ لا بدّ للخوف من علامة، وعلامة ذلك أن تهرب من أسباب دخولها، وهي السيئات، فإذا ابتعدت عن السيئات، وتركت المخالفات، ولازمت الطاعات أتمّ ملازمة، ثبت

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٦٠٠).

عليك أنّك من الخائفين.

فأمّا أن تقول: أنا خائف من العذاب؟ وأنت تكثر من الذنوب والسيئات، ومع ذلك لا تخاف من عاقبتها، فلست بصادق، تذكّر أنّ الجنّة قد أُخرج منها أبونا آدم ـ عليه السلام ـ بذنب واحد.

قال بعض السلف: آدم ـ عليه السلام ـ أُخرج من الجنّة بذنب واحد، وأنتم تعملون الذنوب، وتكثرون منها، وترجون بها دخول الجنّة. وقال في ذلك بعضهم:

يَا نَاظِرًا يَرْنُو بِعَيْنِي رَاقِدٍ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِد

تَصِلِ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرْكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَوْزَ العَابِد

وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمَ ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِد[1]

نستغفر الله أن نكون من العصاة، فالخوف قليل في قلوبنا، وكذلك الرجاء غير محقق في صدورنا، ولكن لعلّ ولعلّ إن شاء الله.

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٤٥٩)، ونسبها بسنده إلى أبي نواس الحسن بن هانىء، وذكر أنه قالها في علته التي مات فيها.

قال الشارح:

وَقَدْ قَالَ اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ رَجَاءَهُمْ مَعَ إِتْيَانِهِمْ بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ؛ فَالرَّجَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الإِتْيَانِ بِالأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، شَرْعُهُ وَقَدَرُهُ وَثَوَابُهُ وَكَرَامَتُهُ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ أَرْضٌ يُؤَمِّلُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مِنْ مَغَلِّهَا مَا يَنْفَعُهُ، فَأَهْمَلَهَا وَلَمْ يَحْرُثْهَا وَلَمْ يَبْذُرْهَا، وَرَجَا أَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مَغَلِّهَا مِثْلَ مَا يَأْتِي مَنْ حَرَثَ وَزَرَعَ وَتَعَاهَدَ الأَرْضَ؛ لَعَدَّهُ النَّاسُ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ! وَكَذَا لَوْ رَجَا، وَحَسَّنَ ظَنَّهُ أَنْ يَجِيئَهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ! أَوْ يَصِيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِه مِنْ غَيْرِ طَلَبِ العِلْمِ وَحِرْصٍ تَام، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. فَكَذَلِكَ مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ، وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ فِي الفَوْزِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ وَلَا تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَنْ رَجَا شَيْئًا، اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ مِن فَوَاتِهِ.

الثَّالِثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسَبِ الإِمْكَانِ.

وَأَمَّا رَجَاءٌ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الأَمَانِيِّ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالأَمَانِي شَيْءٌ آخَرَ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ، وَالسَّائِرُ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الفَوَاتِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]. فَالْمُشْرِكُ لَا تُرْجَى لَهُ الْمَغْفِرَةُ؛ لأَنَّ اللَّهَ نَفَى عَنْهُ الْمَغْفِرَةَ، وَمَا سُوَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ.

وَفِي «مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ»[1]: «عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيامَةِ ثَلَاثَةُ دَوَاوِينَ: دِيوَانٌ لَا يَغْفِرُ مِنْهُ شَيئًا، وَهُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَهُوَ مَظَالِمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَدِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ ظُلْمُ العَبْدُ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ».

وَقَدِ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ العُلَمَاءِ فِي الفَرْقِ بَيْنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، وَسَتَأْتِي الإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ).

وَلَكِنْ ثَمَّ أَمْرٍ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ، وَهُوَ: أَنَّ الكَبِيرَةَ قَدْ يَقْتَرِنُ بِهَا مِنَ الحَيَاءِ، وَالخَوْفِ، وَالاسْتِعْظَامِ، لَهَا مَا يُلْحِقُهَا بِالصَّغَائِرِ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بِالصَّغِيرَةِ، مِنْ قِلَّةِ الحَيَاءِ، وَعَدَمِ المُبَالَاةِ، وَتَرْكِ الخَوْفِ، وَالإِسْتِهَانَةِ بِهَا، مَا يُلْحِقُهَا بِالْكَبَائِرِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَرْجِعُهُ إِلَى مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ الفِعْلِ، وَالإِنْسَانُ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ.

---

(١) في المعجم الكبير (٦١٣٣) بلفظ مختلف من حديث سلمان ﷺ. وما أورده الشارح أخرجه بنحوه: أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشيخ:

ذكرنا أنّ الرجاء هو محبّة الشيء، وطلبه، وترك أضداده، وترك ما يعوق عنه، ومتعلقه؛ قد يتعلّق بالله تعالى، وقد يتعلّق بثوابه، وقد يتعلّق ببعض خلقه؛ فيقال مثلًا: أنت ترضي ربّك، ويقال: هذا يرجو رحمة الله، ويقال: هذا يرجو ربَّه. ولا بدّ لمن رجا أن يعمل. وضرب الشارح لذلك أمثلة، فقال: إذا كان إنسان له أرض وأهملها، وقال: أنا أرجو أن يكون لها غلّة، وأن يكون فيها ثمر، وأن يكون لها بذرة، مثل الذي حرث أرضه، أو غرس فيها وزرع، فهل يكون هذا محقًّا؟ كلا، بل يراه الناس سفيهًا؛ ويقولون له: كيف ترجوها وأنت مهمل لها؟ فإذا كنت ترجو منها ثمرًا وترجو منها غلّة، فلابدّ أن تفعل السبب الذي تحصل منه الغلّة، وهو الحرث والسقي والغرس والإصلاح... وما أشبه ذلك.

وأمثلة أخرى أيضًا: فكيف ينجب إنسان لم يتزوّج مثلًا، أو نقول هنا أشياء محسوسة، كيف يريد الشبع من لم يتناول طعامًا، أو الريّ من لم يشرب إن أراد أن يذهب الظمأ، أو الرزق ولم يطلبه أو يفعل أسبابه. فهكذا من يرجو السعادة ولم يفعل أسبابها. والذي يرجو الجنّة يبذل ثمنها، والذي يرجو رحمة الله تعالى ويرجو ثوابه يقدم له سببًا، يحصل به على ما رجاه. هذا ما يتعلّق بالرجاء.

والمؤلف الماتن ذكر الخوف والرجاء، وأن الخوف على من فعل كبيرة؛ نخاف على أهل الكبائر إذا ماتوا وهم على كبائرهم، وكذلك يخاف الإنسان

من عقاب الله إذا كان قد فعل ذنبًا، وهذا الخوف يحمله على ترك ذلك الذنب، سواء أكان كبيرًا أم صغيرًا، ومعلوم أن الخوف هو الوجل والفزع الذي يحمله على أن يترك هذا الذنب، وأن يتوب منه، ويقلع عنه، ولا يعود إليه، فإذا كان كذلك فهو خوف صادق.

والذنوب التي تسبّب العذاب قد تكون ذنوبًا توجب العذاب مثل الشرك، أو تسببه فلا توجبه، كما دون الشرك. الذي دون الشرك إمّا صغائر أو كبائر، والإصرار على الصغيرة يصيّرها كبيرة؛ وذلك لأنّ من تهاون بالذنب واستهان به، واستمرّ عليه دلّ إصراره وتهاونه به على احتقاره للذنوب. ومن احتقر الذنوب أصبح ذنبه عظيمًا، وبكونها تصبح عظيمة لا يبقى لها في قلبه قدر، فيتهاون بالذنوب، ويكثر من فعلها، فيقع فيها، وتتراكم عليه وتهلكه.

كما ورد ذلك في الأحاديث، وليس المقام يستدعي تفصيل الذنوب أو التوسّع فيها.

تكلّم الشارح أيضًا عن أكبر الذنوب وأكبر الكبائر، وهو الشرك، وأنّه يوجب دخول النار، لأنّ الله ذكر أنّه لا يغفر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨]، والحديث الذي مرّ معنا أن الشرك لا يغفر، حيث جعل الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر وهو الشرك، وصاحبه لابدّ أن يدخل النار بقدر شركه، إن كان أصغر، أو يخلد فيها إن كان أكبر.

وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد لنفسه، تقصيره في حقوق نفسه،

هذا يغفره الله، ولا يحاسب العبد عليه.

وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وهو مظالم العباد فيما بينهم، القصاص لا محالة، إذا كان العباد عندهم مظالم فيما بينهم؛ فلا بدّ أن تستوفى هذه المظالم في الدار الآخرة.

الشاهد هنا ذكر الظلم الذي هو أكبر الذنب، وهو الكفر والشرك، فإن الله تعالى سمّى الشرك ظلمًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وسمّى الكفر ظلمًا في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ وذلك لأنّ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والكافر يضع الإيمان في غير موضعه، والمشرك يضع العبادة في غير موضعها، فأصبحوا بذلك ظالمين، بل هو أعلى أنواع الظلم.

قال الشارح:

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ قَدْ يُعْفَى لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ العَظِيمِ مَا لَا يُعْفَى لِغَيْرِهِ، فَإِنَّ فَاعِلَ السَّيِّئَاتِ تَسْقُطُ عَنْهُ عُقوبَةُ جَهَنَّم بِنَحْوِ عَشَرَةِ أَسْبَابٍ، عُرِفَتْ بِالاسْتِقْرَاءِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

السَّبَبُ الأَوَّلُ: التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [مريم:٦٠]، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا ﴾ [البقرة:١٦٠]، والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ الخَالِصَةُ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا ذَنْبٌ دُونَ ذَنْبٍ، لَكِنْ هَلْ تَتَوَقَّفُ صِحَّتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عَامَّةً؟ حَتَّى لَو تَابَ مِنْ ذَنْبٍ، وَأَصَرَّ عَلَى آخَرَ لَا تُقْبَلُ؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تُقْبَلُ.

وَهَلْ يَجُبُّ الإِسْلَامُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا؟ أَمْ لَا بُدَّ مَعَ الإِسْلَامِ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ غَيْرِ الشِّرْكِ؟ حَتَّى لَوْ أَسْلَمَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الزِّنَى وَشُرْبِ الخَمْرِ مَثَلًا، هَلْ لَا يُؤَاخَذُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي كُفْرِهِ مِنَ الزِّنَى، وَشُرْبِ الخَمْرِ؟ أَمْ لَا بُدَّ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ مَعَ إِسْلَامِهِ؟ أَوْ يَتُوبَ تَوْبَةً عَامَّةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ؟ وَهَذَا هُوَ الأَصَحُّ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّوْبَةِ مَعَ الإِسْلَامِ، وَكَونُ التَّوْبَةِ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وَعَدَمِ المُؤَاخَذَةِ بِهَا، مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ، بَيْنَ الأُمَّةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَكُونُ سَبَبًا لِغُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ إِلَّا التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، وَهَذَا لِمَنْ تَابَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾، وَقَالَ بَعْدَهَا: ﴿ وَأَنِيبُوٓا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ الآية [الزمر:٥٤].

السَّبَبُ الثَّانِي: الاسْتِغْفارُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣]. لَكِنَّ الاسْتِغْفَارَ تَارَةً يُذْكَرُ وَحْدَهُ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِالتَّوْبَةِ، فَإِنْ ذُكِرَ وَحْدَهُ دَخَلَ مَعَهُ التَّوْبَةُ، كَمَا إِذَا ذُكِرَتِ التَّوْبَةُ وَحْدَهَا شَمِلَتْ الاسْتِغْفَارَ، فَالتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ الاسْتِغْفَارَ، وَالاسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الآخَرِ عِنْدَ الإِطْلَاقِ، وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِالأُخْرَى، فَالاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَى، وَالتَّوْبَةُ: الرُّجُوعُ وَطَلَبُ وِقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي المُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ.

وَنَظِيرُ هَذَا: الفَقِيرُ وَالمِسْكِينُ، إِذَا ذُكِرَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ شَمِلَ الآخَرَ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا، كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنًى، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة:٤]، ﴿إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١]. لَا خِلَافَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الاسْمَيْنِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ لَـمَّا أُفْرِدَ شَمِلَ المُقِلَّ وَالمُعْدِمَ، وَلَـمَّا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالآخَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ﴾ الآية [التوبة:٦٠]، كَانَ المُرَادُ بِأَحَدِهِمَا المُقِلَّ، وَالآخَرِ المُعْدِمَ، عَلَى خِلَافٍ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ: الإِثْمُ وَالعُدْوَانُ، وَالبِرُّ وَالتَّقْوَى، وَالفُسُوقُ وَالعِصْيَانُ.

وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا المَعْنَى: الكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، فَإِنَّ الكُفْرَ أَعَمُّ، فَإِذَا ذُكِرَ الكُفْرُ، شَمِلَ النِّفَاقَ، وَإِنْ ذُكِرَا مَعًا، كَانَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنًى.

وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ وَالإِسْلَامُ، عَلَى مَا يَأْتِي الكَلَامُ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

لما ذكر أن الكفر والشرك أعظم الذنوب، وأنّه لا يغفر، ولما ذكر الذنوب التي هي دونه، ذكر أنّ ذلك يغفر بأسبابه، وهذه الأسباب التي ذكر منها سببين الآن أوصلها شيخ الإسلام إلى عشرة أسباب، وهذه أغلبها خاصّة بالمسلم، أمّا المشرك والكافر فلا يغفر له، ولا تنفعه، إلا السبب الأول، وهو التوبة.

ولا شكّ في أنه إذا تاب الكافر من الكفر مُحي عنه الكفر، وإذا تاب المشرك من الشرك مُحي عنه ذنب الشرك، فالتوبة تمحو ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. فهذا السبب يعمّ جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، الكفر وما دون الكفر، إذا وفّق الله تعالى العبد للتوبة وتاب، فإسلامه يُعدُّ توبة، وندمُه على كفره وعلى سيّئاته يُعد توبة، وعزمه على أنّه لا يرجع إلى شيء من ذلك هو من شروط التوبة، وتركه للأعمال التي تاب منها يُعد من التوبة.

وقد أطال العلماء الكلام عن التوبة، كما تكلّم على ذلك ابن القيّم في كتابه «مدارج السالكين»، وأطال فيها إطالة تستدعيها هذه التوبة، ومن جملة ما ذكره الشارح هو أنه هل يشترط لمن تاب أن يتوب من الذنوب كلّها، أو يصحّ أن يتوب من ذنب وهو يعمل ذنبًا.

يقول: الكافر إذا أسلم ودخل في الإسلام ونطق بالشهادتين، وأتى بالأركان الخمسة، ولكنّه يقول: أنا لا أصبر عن الخمر، أو لا أصبر عن الزنى، إذا استمرّ على هذا الذنب، فهل يقبل منه إسلامه أو لا يقبل؟ الصحيح أنّه

يقبل منه، ويكون كسائر المذنبين ما دام أنّه يوجد في المسلمين من يزني ولا يخرجه ذلك عن كونه مسلمًا، وإن كان ذلك ينقص إيمانه، كذلك لو أنّ إنسانًا تاب من الزّنى، ولم يتب من السرقة؛ قُبلت توبته من هذه، وعوقب على هذه، وهكذا بقيّة الذنوب. ويصحّ أن يتوب من ذنب، وإن كان معه ذنب آخر فتقبل توبته من هذا، ويعاقب على الثاني.

أمّا أدلّة التوبة والترغيب فيها، فهو واضح من القرآن والسنّة، وقد ورد الأمر فيها والترغيب فيها، والحضّ عليها، وورد قبوله، وأنّ الله يفرح بها، وما أشبه ذلك.

أما السبب الثاني: فهو الاستغفار. استغفر من غفر: بمعنى الستر، نقول: غفر الشيء ستره، ومنه سمّي المغفَر الذي يلبسه المجاهد على رأسه ليقيه من السلاح؛ لأنه يستر الرأس.

الاستغفار: إذا قال العبد: أستغفر الله، يعني: أسأله أن يغفر لي ذنوبي ويمحو عنّي أثرها. وإذا قال: اللهم اغفر لي، أي: امحُ عنّي السيّئات وكفّرها، وأزل عنّي ما تلوثت به منها. هذا معنى أستغفر الله: وهو طلب المغفرة، وطلب محو الذنب ومحو أثره، وذلك أنّ الذنب يسبب للإنسان شيئًا من الأثر السيّئ، كأنّه يؤثّر عليه أثرًا معنويًا، وليس حسيًّا، وإن كان قليلًا - وسخ وقذر وأذى - وإن كان نظيف الجسم، ونظيف البدن، ونظيف الثياب. لكنّه قد تلبّس بهذه الذنوب، فأكسبته شيئًا من هذا الأذى، ومن الوسخ والقذر، فالاستغفار يمحوها ويزيل أثر السيئات، فإذا قال: اغفر لي؛ أي: امح عنّي، واسترني من

آثار هذه السيّئات.

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أن الاستغفار مقارن للتوبة، فلا يمكن أن يكون تائبًا إلا إذا كان مستغفرًا، فإذا قال: أستغفر الله، فمعناه: ربِّ امْحُ عنِّي، وإذا قال: ربِّ تُبْ عليّ؛ أي: اقبل توبتي وكأنّه راجع إلى الله بعد أن كان معرضًا.

والمستغفر كأنّه طالب أن يزيل عنه أثر السيئات، فيكونان متلازمين، لا يكون توبة إلا ومعها استغفار، وذكر الشارح أنّهما متقاربان في المعنى، كلّ منهما يدخل في معنى الآخر، فلو اشتغل الإنسان بقوله: إني تائب إلى الله، ربّ إنّي تبت إليك، ربّ تب عليّ، أتوب إلى الله، تبت إليك وإني من المؤمنين، كفاه عن طلب الغفر.

وإن قال: أستغفر الله، ربِّ اغفر لي، غفرانك ربّنا، وأكثر من طلب المغفرة، كفاه عن أن يقول إنّي تائب، فالتوبة تقوم مقام الاستغفار، والاستغفار يقوم مقام التوبة، والجمع بينهما من باب التأكيد والتقوّي، ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ يجمع بينهما، وقد ثبت عن ابن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[1]؛ فقول: ربِّ اغفر لي: هذا استغفار، وقول: تب عليّ: هذا توبة، أتى بهما معًا، مع أنّ أحدهما بمعنى الآخر، وهذا من باب

---

(١) أخرجه أبوداود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، وأحمد (٢/ ٢١)، وابن حبان (٣/ ٢٠٦).

التقوية ومن باب المعاهدة، وكان عليه الصلاة والسلام يكثر الاستغفار مع أنّ الله تعالى قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر في قوله سبحانه: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢]، ولكنّه ﷺ كان يعدّ الغفلة ذنبًا، فيتوب منه، وقد ثبت عنه ﷺ أنّه قال: «**إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي**[١] **وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[٢]، هذه توبة واستغفار من ترك الذكر، أو من الغفلة أحيانًا، فكيف بنا ونحن دائمًا ـ إلا ما شاء الله ـ في غفلة، وفي سهو، وفي حديث نفس؟ أليس علينا أن نكثر من التوبة، وأن نكثر من الاستغفار، فهذان سببان في حصول محو السيئات وإزالة أثرها صغيرة كانت أم كبيرة.

قد مرّ بنا سابقًا ما يتعلّق بالخوف والرجاء، وأنّا نخاف على المذنبين، ونرجو للمحسنين، ونخاف عذاب الله، ونرجو ثوابه، وأنّ المسلم يجمع بين الخوف والرجاء.

ومن أسباب الخوف:

١- تذكُّر عظمة الله عزّ وجلّ وهيبته وكبريائه، وهو أهل أن يخاف حقّ الخوف.

٢- تذكُّر العذاب الدنيوي، وما أحلّ الله بالعصاة، وما أوقع بهم من المثُلات، وذلك سبب لأن يخاف العباد من عذاب الله العاجل الذي أنزله بمن

---

(١) أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر. انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث أبي بردة ﷺ.

كفر، وعتا وتجبّر.

٣- تذكّر عذاب الآخرة، وأن عذاب النار شديد، وأنّ هول المطلع شديد، وأنّ عذاب الله في الآخرة أشدّ وأبقى، وذلك يدفع الإنسان إلى أن يخاف أشدّ الخوف.

وقد مدح الله الذين يخافونه ويخشونه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، يعني: الذين يخشونه حقّ خشيته هم الذين يعرفونه حقّ معرفته، العالمون بأمره ونهيه، والعالمون بعقوبته وشدّة بطشه.

وقد أمر الله بأن نخشاه دون غيره بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، والخشية: شدّة الخوف، وكذلك أمرنا أن نخافه، وألّا نخاف غيره، وأخبرنا بأنّ الشيطان يخوّفنا بأعدائنا، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم﴾ [آل عمران:١٧٥]، أي: إنّ الشيطان يعظّم أولياءه في نفوس المؤمنين، ويمكر لهم، أي: يوقع في نفوسهم أن الكفار أهل قوّة وأهل عزّة وأهل منعة وأهل معرفة، فاخشوهم وخافوهم، فعند ذلك يضعف خوف الله في قلب العبد، ويعظمُ خوفه من الإنسان، وذلك أعلى مقاصد الشيطان، فلذلك قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾، أي: يخوّفكم أولياؤه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم﴾. فالأسباب التي تدفع إلى الخوف كثيرة.

وأما الأسباب التي تدفع إلى الرجاء، في كون الإنسان يرجو رحمة الله،

ويعلّق قلبه بربّه، ويثق بأنّه سيعينه وينصره، وأنّه سينجيه من كيدِ عدوّه، ويثق بأنّه سبحانه أهل أن يرحم عبده، وأن يتجاوز عن السيئات، فالأسباب لذلك أيضًا كثيرة، فمنها:

١- تذكر واسع الرحمة، وأن من أسمائه تعالى الرحمن الرحيم، وأنه وصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، ومقتضى هذه الرحمة أن يرحم من يرجوه، ويعلّق آماله برحمته، ولا ييأس من فضله ومن عطائه.

٢- ومن الأسباب التي تدفع العبد أن يرجوه وحده تذكر أنّه سبحانه قد غفر للعباد المذنبين، وكفّر عنهم السيئات، ومحا عنهم الزلاّت، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو واسع الفضل والرحمة، وفي الحديث: «**جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأرض جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذلك الجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ**»[1]، ويوم القيامة يكمل المائة، ويرحم بها عباده، وكل جزء منها طباق ما بين السماء والأرض.

٣- كذلك يتذكر أن الله يغفر الذنوب لمن استغفره، ويفرح بتوبة التائب، ويحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين، ويقبل على عباده إذا أقبلوا إليه، وإذا تقرّبوا منه شبرًا تقرّب منهم ذراعًا، وذلك كلّه دليل على أنّه واسع الرحمة، فيرجوها العباد.

٤- ومن الأسباب التي تدفع العبد إلى الرجاء، تذكره مضاعفة الله

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الحسنات، فإنّ الله يضاعفها أضعافًا كثيرة، والحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها، وقد أخبر النبي ﷺ بأنه: «لَـمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»(١).

فهذه بعض الأسباب التي لأجلها يجمع العبد بين الخوف والرجاء، رجاؤه يكون حاملًا له على تعلّق قلبه بربّه، وفعل الطاعات التي يستحق بها أن ينال واسع الرحمة والثواب. وخوفه يدفعه إلى الهرب من المحرّمات والمعاصي، حتّى ينجو من أسباب العذاب، فإذا جمع بينهما اعتدل أمره، وأصبح بذلك من المؤمنين فلا أمن ولا يأس. فالأمن هو فعل المذنبين الذين يصرّون على الذنوب ويأمنون، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، واليأس: هو قطع الرجاء، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، بل يجمع المؤمن بينهما.

وقد ذكرنا أنّه يستحبّ في حالة الصحّة تغليب الخوف؛ حتّى يستقلّ حسناته فيكثر من الحسنات، وفي حالة المرض يغلّب جانب الرجاء؛ حتّى يقدم على ربّه، وهو يحسّن الظنّ به، وبذلك يعمل الحسنات ويهرب من السيئات.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٨٢).

قال الشارح:

السَّبَبُ الثَّالِثُ: الحَسَناتُ، فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارَهُ، وَقَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وَقَالَ ﷺ: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1].

السَّبَبُ الرَّابِعُ: المَصَائِبُ الدُّنْيَوِيَّةُ، قَالَ ﷺ: «مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، ولَا غَمٍّ، ولَا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ بِهَا خَطَايَاهُ»[2].

وَفِي «المُسْنَدِ»[3]: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَزَلَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَذَلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ». فَالمَصَائِبُ نَفْسُهَا مُكَفِّرَةٌ، وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا يُثَابُ العَبْدُ، وَبِالتَّسَخُّطِ يَأْثَمُ، فَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ المُصِيبَةِ، فَالمُصِيبَةُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ لَا فِعْلِ الْعَبْدِ، وَهِيَ جَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَيُكَفِّرُ ذَنْبَهُ بِهَا،

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، والحاكم (١/ ٥٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) (١/ ١١)، وصححه ابن حبان (٧/ ١٧٠)، والحاكم (٣/ ٧٤) من حديث أبي بكر رضي الله عنه، ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

وَإِنَّمَا يُثَابُ المَرْءُ وَيَأْثَمُ عَلَى فِعْلِهِ، وَالصَّبْرُ وَالسَّخَطُ مِنْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الثَّوَابُ وَالأَجْرُ قَدْ يَحْصُلُ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنَ العَبْدِ، بَلْ هَدِيَّةٌ مِنَ الغَيْرِ، أَوْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فَنَفْسُ المَرَضِ جَزَاءٌ وَكَفَّارَةٌ لِمَا تَقَدَّمَ.

وَكَثِيرًا مَا يُفْهَمُ مِنَ الأَجْرِ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَدْلُولَهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ لَازِمِهِ.

السَّبَبُ الخَامِسُ: عَذَابُ القَبْرِ، وَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ السَّادِسُ: دُعَاءُ المُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ فِي الحَيَاةِ وَبَعْدَ المَمَاتِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: مَا يُهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ المَوْتِ، مِنْ ثَوَابِ صَدَقَةٍ، أَوْ قِرَاءَةٍ، أَوْ حَجٍّ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَيَأْتِي الكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: أَهْوَالُ يَوْمِ القِيَامَةِ وَشَدَائِدُهُ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[1]: «أَنَّ المُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ».

السَّبَبُ العَاشِرُ: شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ وَأَقْسَامِهَا.

السَّبَبُ الحَادِي عَشَرَ: عَفْوُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ مِنْ غَيْرِ شَفَاعَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ

---

(١) تفرد به البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لَهُ لِعِظَمِ جُرْمِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ دُخُولِهِ إِلَى الْكِيرِ، لِيَخْلُصَ طِيبُ إِيمَانِهِ مِنْ خَبَثِ مَعَاصِيهِ، فَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، بَلْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ[1].

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، امْتَنَعَ القَطْعُ لِأَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الأُمَّةِ، غَيْرَ مَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِالجَنَّةِ، وَلَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ.

قال الشيخ:

هذه الأسباب التي ذكرها الشارح، هي أسباب رحمة الله ومغفرته ومحوه للسيئات وإزالة لأثرها.

تقدّم السبب الأول وهو التوبة النّصوح، وأن التّوبة تمحو الذنوب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وتقدّم السبب الثاني وهو الاستغفار والذي هو طلب محو الذنوب وإزالة أثرها، والذي كان يرغب فيه وورد الأمر به في القرآن وفي الأحاديث.

والسبب الثالث هنا وهو الحسنات والأعمال الصالحة، التي تمحو السيّئات، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وَقَالَ ﷺ: «وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[2]، فالحسنات تزيل أثر السيئات، ولو كثرت

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٣).

السيِّئات؛ وذلك لأن الحسنات يضاعفها الله أضعافًا كثيرة، وأما السيّئات فلا تضاعف، وإن كانت قد تعظم بسبب من الأسباب.

والحسنة تضاعف إلى عشر حسنات، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه - عز وجل - قال: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها وعملها كَتَبَهَا اللَّهُ له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إلى سبعمائة ضِعْفٍ، إلى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ له سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»[1]، وقال في رواية: «**أو مَحَاهَا اللَّهُ، وَلَا يَهْلِكُ على اللَّهِ إلا هَالِكٌ**»[2]، أخبر الله أنّه إذا همّ بحسنة ولكن عاقه عائق فلم يعملها، أثابه الله بنيّته، وكتب همَّه حسنة، وإذا همَّ بسيئة فلم يعملها، أو تركها خوفًا من الله كتب همَّه حسنة كاملة، وإذا عمل الحسنة فله عشر حسنات، وإذا عمل السيئة فله سيئة واحدة.

فويلٌ لمن غلبت آحادُه عشراته، الذي تكثر سيئاته وهي واحدة واحدة حتّى تغلب حسناته وهي عشر عشر، فهذا هالك، «**وَلَا يَهْلِكُ على اللَّهِ إلا هَالِكٌ**». فإذا كان الإنسان قد وقع في سيئات وذنوب، فإنّه يؤمر بأن يكثر من الحسنات حتى تمحو أثر تلك السيئات هذا سبب من الأسباب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أما السبب الرابع، فهي المصائب التي تنوب الإنسان في هذه الحياة، والأدلّة عليها كثيرة. فالله تعالى يسلِّط المصائب على الناس ليختبرهم، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

ووردت أدلّة أخرى على أنّ الحسنات تزداد بالمصائب، والسيئات تمحى بالمصائب، فإذا صبر العبد على مصيبته كُتب له بها حسنات، ومُحي عنه سيئات، والمصائب تعمّ ما يصيب المسلم في النفس وفي المال وفي الأولاد، ونحو ذلك. فإذا أصاب الإنسان مرض، أو فقد مال، أو فقد ولد، أو موت قريب وحزن على ذلك، وعلم أن ذلك من عند الله، أثابه الله.

قال علقمة في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم ذلك ويرضى»[1].

وقال ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رضي فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[2]. وقال في حديث آخر: «إذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ له الْعُقُوبَةَ في الدُّنْيَا، وإذا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عنه بِذَنْبِهِ حتى يُوَافِيَ بِهِ يوم الْقِيَامَةِ»[3].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٨/ ١٢٣)، والبيهقي (٤/ ٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وأبو يعلى (٧/ ٢٤٧)، والحاكم (٤/ ٦٠٨) من حديث

=

وقال ﷺ: «مَا يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلَا نَصَبٍ، ولَا غَمٍّ، ولَا هَمٍّ، ولا حَزَنٍ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشاكُهَا، إلَّا كَفَّر بِهَا خَطَايَاهُ»[(١)]، وهذا بشرط أن يعلم أنّها من الله ويصبر، أمّا إذا أصاب العبد المصائب، فيشتكي إلى الناس ويجزع ويصيح، فإن الله يبطل أجره.

ولذلك وردت الأدلّة الكثيرة بأجور الصبر، والنهي عن الجزع.

أمّا السبب الخامس: فهو عذاب القبر؛ فقد يسلّط الله عليه العذاب إذا كان عنده بقيّة ذنوب، وقد يكون ذلك سببًا في محوها، فتنة القبر وعذاب القبر بما فيه من الأهوال.

أمّا السببان السادس والسابع: فهما ما يُهدى إلى الميّت بعد موته من الدعاء له، والصدقة عنه من أقاربه وأصحابه و أحبابه، فيصل إليه ذلك. فإنّهم يصلّون عليه، ويدعون له، ويترحّمون عليه، ويهدي له أهلُه حسناتٍ، ويستغفرون له، ويتصدّقون عنه، ويهبون له أعمالًا جارية ونحو ذلك، فتكون أسبابًا للمغفرة.

أمّا السبب الثامن: فهو ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والشدائد، والفزع الأكبر، وذلك أيضًا مما يكفّر الله به الخطايا، ويمحو به الذنوب ونحوها.

=

أنس رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (٤/ ٨٧)، والحاكم (٤/ ٣٧٦) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

(١) تقدم (٣/ ٣١٢).

أمّا السبب التاسع: فقد ورد في الحديث أنّ الناس إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنّة والنار، فيقتصّ من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم، فهذا أيضًا مما تكفّر به السيئات، ويزال به أثرها[١].

وأما السبب العاشر: فقد أخبر النبي ﷺ بأنّ هناك شفاعة، وأنّ الله تعالى يُشَفِّع عباده الصالحين وأولياءه في أهل التوحيد، فيشفعون لهم فيخرج الله من النار بشفاعتهم من قدَّر الله أنه تزيل عنه هذه الشفاعة أثر السيّئات.

أمّا السبب الحادي عشر: فهو رحمة الله عزّ وجلّ بعباده، وعفوه عنهم، فقد ورد في الحديث أن الله يقول: «شَفَعَتِ المَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»[٢]؛ وذلك لأنهم من أهل العقيدة والتوحيد فيدخلهم الجنّة.

فبكلّ هذه الأسباب وغيرها يغلّب العبد بها جانب الرجاء، بحيث يعلم أنّ هذه من الأسباب التي يرفع الله بها العذاب، ويكفّر بها الله السيئات، فإذا لم تنفع هذه الأسباب، وبقي على العبد سيئات لم تكفّر بهذه المكفّرات كلّها فحينئذٍ لا بدّ أن يدخل الكير حتّى ينقّى؛ فإنّ النار بمنزلة كير الحدّاد، والحدّاد إذا كان عنده حديد مشوب بالتراب يدخله النار حتى يذوب، فإن ذاب الحديد انفصل عن الخبث والشوائب، فإنّه يتبيّن ما هو صالح وما ليس بصالح، قال

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٣).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٧).

الله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:١٧]، يوقدون النار على الذهب حتّى يذوب ويخلص ما هو ذهب مما هو نحاس، ويتميّز هذا من هذا بكير الحدّاد، وكذلك النار التي أعدّها الله تعالى للعذاب، يدخل بها هذا الذي بقيت عليه سيئات، وبقيت عليه ذنوب لم تكفّرها هذه المكفّرات، فإذا طُيِّب ونقِّي ولم يبق فيه إلاّ ما هو خالص، عند ذلك يأذن الله بإخراجه من النار، لأنّ دار النعيم ـ وهي الجنّة ـ دار طيبة لا يدخلها إلَّا الطيّب. فالذي فيه شيء من الخبث لا بدّ أن يُنقّى. وبكل حال عقيدة أهل السنّة أنّه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد، وأهل الإيمان، وأما من ليسوا بمؤمنين، فإنّهم يلحقون بالكفّار.

ومعلوم أنّ الإيمان الذي هو تحقيق الإيمان بالأركان الستّة: «**أَنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١). الإيمان بهذه الأركان الستّة هو الذي يحمل على الأعمال الصالحة، ولكن هذا الإيمان قد يكون ضعيفًا، فيقع معه شيء من المعاصي والسيئات، ويقع صاحبه في شيء من التقصير وترك بعض الطاعات، فتراكم عليه الذنوب، فيحتاج إلى ما يمحوها وما يكفّرها، وقد يكون ضعفه كبيرًا، فيكثر تناوله للسيئات، وقد يكون ضعف الإيمان قليلًا، فلا تكثر منه السيئات، فيمحوها ربّه بالمكفّرات، وقد يكون الإيمان قويًا وراسخًا، أرسخ من الجبال، فلا يُقدِمُ العبدُ على شيء

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

من السيئات، ولا يفعل شيئًا من المحرّمات.

أما من فقد الإيمان بهذه الأمور، ضعف إيمانه بالله، أو لم يؤمن بالله إلهًا وربًّا، وإنّما أنكر أن يكون الله هو ربه، أو عبد غيره أو نحو ذلك، أو لم يؤمن باليوم الآخر، كأن ينكر الدار الآخرة، وأن ينكر الجزاء والجنّة والنار، وجعل الدنيا هي الدار التي ليس غيرها دارًا، أو ما أشبه ذلك، وكذلك إذا أنكر الشرع الشريف، أو أنكر كتاب الله، أو كتبه المنزلة، أو أنكر رسالة الرسل، وما جاؤوا به، أو لم يؤمن برسالتهم وبما جاؤوا به، أو ردّ شيئًا من شرعهم، ولم يقبله، فمثل هذا لا يكون مؤمنًا؛ وذلك لأنّه لم يدخل الإيمان في قلبه، فلا تنفعه الطاعات التي يعملها، ولا القُربات التي يتقرّب بها؛ لأنها لم تكن على أصل ولم تكن على أساس، إذن فهذه هي المكفّرات التي هي من حقّ أهل الإيمان وأهل التوحيد الذين قد يضعف توحيدهم بسبب من الأسباب.

فأمّا من ليسوا من أهل العقيدة، ولا من أهل الإيمان، بل من أهل الكفر والنفاق والشرك، والمخالفات، وإنكار الدار الآخرة، وإنكار الجزاء والحساب، وإنكار الشرائع وردّها، فهؤلاء كفار، ولكن أعمالهم مهما كانت، فإن الله تعالى يحبطها: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]. ولو أكثروا من الحسنات والصدقات وما أشبه ذلك، مادامت ليست على أساس ولا أصل، وهو العقيدة الراسخة التي هي أهم أركان الإيمان كما ذكرنا.

قال الطحاوي:

وَالأَمْنُ وَالإِيَاسُ يَنْقُلَانِ عَنْ مِلَّةِ الإِسْلامِ، وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُمَا لأَهْلِ القِبْلَةِ.

قال الشارح:

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ العَبْدُ خَائِفًا رَاجِيًا، فَإِنَّ الخَوْفَ المَحْمُودَ الصَّادِقَ مَا حَالَ بَينَ صَاحِبِهِ وَبَينَ مَحَارِمِ اللَّـهِ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيفَ مِنْهُ اليَأْسُ وَالقُنُوطُ. وَالرَّجَاءُ المَحْمُودُ: رَجَاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّـهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّـهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِثَوابِهِ، أَوْ رَجُلٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا، ثُمَّ تَابَ مِنْهُ إِلَى اللَّـهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِمَغْفِرَتِهِ. قَالَ اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

أَمَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَمَادِيًا فِي التَّفْرِيطِ وَالخَطَايَا، يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّـهِ بِلَا عَمَلٍ، فَهَذَا هُوَ الغُرُورُ وَالتَّمَنِّي وَالرَّجَاءُ الكَاذِبُ.

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِي - رَحِمَهُ اللَّـهُ -: الخَوْفُ وَالرَّجَاءُ كَجَنَاحَيِّ الطَّائِرِ إِذَا اسْتَوَيَا، اسْتَوَى الطَّيرُ، وتَمَّ طيرانُه، وَإِذَا نَقَصَ أحَدُهُمَا، وَقَعَ فِيهِ النَّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا، صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ المَوْتِ.

وَقَدْ مَدَحَ اللَّـهُ أَهْلَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] الآيـة. وَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الآيـة [السجدة:١٦]. فَالرَّجَاءُ

يَسْتَلْزِمُ الخَوْفَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَكَانَ أَمْنًا، وَالخَوْفُ يَسْتَلْزِمُ الرَّجَاءَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ، لَكَانَ قُنُوطًا وَيَأْسًا. وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ، إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِنَّكَ إِنْ خِفْتَه هَرَبْتَ إِلَيْه، فَالخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَى رَبِّهِ.

وَقَالَ صَاحِبُ «مَنَازِلِ السَّائِرِينَ»[1] - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «الرَّجَاءُ أَضْعَفُ مَنَازِلِ المُرِيدِ». وَفِي كَلَامِهِ نَظَرٌ، بَلِ الرَّجَاءُ وَالخَوْفُ عَلَى الوَجْهِ المَذْكُورِ مِنْ أَشْرَفِ مَنَازِلِ المُرِيدِ.

وَفِي «الصَّحِيحِ»[2] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[3] عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ العَبْدَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَجَاؤُهُ فِي مَرَضِهِ أَرْجَحُ مِنْ خَوْفِهِ، بِخِلَافِ زَمَنِ الصِّحَّةِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ خَوْفُهُ أَرْجَحُ مِنْ رَجَائِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالحُبِّ وَحْدَهُ، فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالحُبِّ وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَحْمُود الوَرَّاق فِي قَوْلِهِ[4]:

---

(١) (ص٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٩٣).

(٣) برقم (٢٨٧٧).

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٤/ ٢٩٦).

لَوْ قَدْ رَأَيتَ الصَّغِيرَ مِنْ عَمَلِ الـ ـخَيْرِ ثَوَابًا عَجِبْتَ مِنْ كِبَرِه
أَوْ قَدْ رَأَيْتَ الحَقِيرَ مِنْ عَمَلِ الشَّـ ـرِّ جَزَاءً أَشْفَقْتَ مِنْ حَذَرِهِ

قال الشيخ:

شاهد الكلام أنّ المسلم يجمع بين الخوف والرجاء وأنّ هذه النصوص تدلّ على ذلك؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، جمع الله فيها بين الخوف والرجاء، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]، جمع الله فيها بين الخوف والطمع، والطمع: هو الرجاء، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، الحذر: هو الخوف، يعني: يخاف عذاب الآخرة، ويرجو رحمة ربِّه، ونحو ذلك من الأدلّة التي تدلّ على أنّ المسلم يجمع بين الخوف والرجاء.

وذكرنا بعض الأسباب التي لأجلها يخاف، والأسباب التي لأجلها يرجو. وقد ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ عن عباده هذه الصفات ليرغِّب بها، وكثيرًا ما يأمر الله عباده بالخوف منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل:٥١]، يعني: خافوا عذابي. وتارةً يعلق الخوف ببعض مخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:٢٤]، أي: خافوا من النار، وابتعدوا عنها، والنار من الأسباب التي تحمل العبد على الخوف، إذا تذكّرها.

ذُكِرَ أن الإنسان يجمع بين الخوف والرجاء، وأنّه يجعله كجناحي الطائر، وأن

المحبّة كرأس الطائر، والخوف والرجاء مثل الجناحين؛ فإذا كان الطائر قد استوى جناحاه، ورأسه موجود، ففيه حياة مستقرّة، وطيرانه معتدل، فإذا قُطع أحد جناحيه تعثَّر، وإذا قطع جناحاه فهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وإذا قطع رأسه مات، فلا بدّ أن تستوي الثلاثة، وأن تجتمع في العبد المحبّة والخوف والرجاء.

المحبّة: هي محبّة الله؛ لإنعامه على عبده، والخوف هو الخوف من عذابه، والرجاء: هو تعلّق قلبه بثوابه، فإذا عبد الله بالمحبّة فقط دون أن يخافه، فهو جاهل، كما يُذكر عن بعض المتصوّفة، وبعض غلاة الزهّاد ونحوهم، الذين يقولون ما نعبد الله خوفًا من ناره، ولا رجاءً لجنّته، ولكن نعبده محبّةً له، ثم إنهم يغالون في بعض المحبّة، وكأنّهم آمنون من العذاب، وكأنّهم لم يكن لهم رغبة في الثواب، فهذا حالة الصوفيّة، والذين يعبدون الله لهذا في الحقيقة منافقون أو زنادقة.

وأما من غلَّب جانب الخوف، فإنّه قد وقع في عقيدة الوعيديّة، الذين يُغلّبون جانب الوعيد، وهم الخوارج والحرورية والمعتزلة، ويسمّون وعيديّة؛ لأنهم يتمسّكون بالأدلّة التي فيها الوعيد، فيحقّقونها، ولهذا يخلدون أصحاب الكبائر في النار كما تقدّم.

وأما من عبد الله وحده وغلَّب جانب الرجاء فهذا يسمى المرجئ، والمرجئة هم الذين يتعلّقون بالرحمة ولا يذكرون العذاب، يرجون الله ولا يخافون عقابه، وهؤلاء على خطأ.

والمؤمن الحق يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يكون هناك خوف شديدٌ فيؤول إلى القنوط، ولا رجاء قويّ فيؤول إلى الأمن؛ لأنّ هذين قد ذمّهما الله تعالى في قوله: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩].

إذا رأيت مثلًا الذي يتمادى في العصيان، ويكثر الذنوب، ويقال له: ألا تخاف الله؟ ألا تتّقيه؟ ألا تخشاه؟ أين الخشية وأين الخوف وأين الرهبة من عذاب الله؟ فيتعلّق بالرحمة ويقول: رحمة الله واسعة، الله أرحم الراحمين. ثم يتمادى في المعصية، وتخوّفه من عذاب الدنيا فيأمن، وتخوّفه من عذاب الآخرة فلا يخاف؛ فمثل هذا يُخشى عليه أن يكون من الذين أمنوا مكرَ الله، وأمنوا انتقامه، وأمنوا عذابه، وأمنوا بطشه الشديد، وأمنوا من أخذه لهم على غرّة وغفلة، يُخاف عليهم أن يأتيهم أمر الله، وهم على غرّتهم وغفلتهم وسلوتهم، ما أخذ الله قومًا إلا عند غرّتهم، وقد أخبر النبيّ ﷺ بأنّ تأخير العذاب إمهال، وليس إهمالًا، فقال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ ما يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»(١)، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٢]، يعني: يغترّون بنعم الله وعطائه، فيأتيهم عذاب الله وهم غافلون.

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ حَتَّى إِذا أَخذَهُ لم يُفلِتْه**»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢](٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني (٩١٣) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٢٩٦).

وهذا الإمهال والتأخير ليس هو لأجل أنهم ليسوا مذنبين، ولكنّ اللهّ يؤخّرهم إلى أجل كما قال سبحانه: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:٥٨]، أي: لهم موعد لا بدّ أن يأتي . هذا في حقّ الذين يأمنون مكر الله، ويعملون السيئات، ويكثرون منها، وهم آمنون مطمئنّون، كأنّهم لم يعملوا سيئة.

وهناك قسمٌ آخر، قد قطعوا رجاءَهم، وقنطوا من الرحمة، واستسلموا للعذاب في نظرهم، ولا ندري هل هم صادقون في هذا أو مستهزئون. تنصح كثيرًا من الذين عاشوا على السيّئات وعلى الكفريات، وعلى ترك القربات، فإذا نصحت أحدهم، وقلت له: تُبْ إلى الله، وأقبل عليه، واترك ما أنت عليه من التمادي والغفلة، واترك الذنوب. فإنه يمتنع ويقول: أنا قد أذنبت وكفرت وأسأت، وارتكبت من الخطايا كذا وكذا، وشربت الخمور، وزنيت، وقتلت، وأكلت الحرام، وفعلت وفعلت، فلا تنالني رحمة الله، ولا حيلة لي فيها، ولست من أهلها، بل أنا من أهل النار، وأنا آيس من الرحمة، هكذا ينقل عن بعضهم، ولعلّ هؤلاء من الذين يستهترون بمن ينصحهم، ويتهاونون بنظر الله عز وجلّ وينكرون أنّ هناك عذابًا دنيويًا، وعذابًا أخرويًا، فيقول هذه المقالة لردّ ذلك الذي ينصحهم، ولعدم قناعتهم بما نقوله.

نقول: بلا شكّ أنّ هذا كفر، ويؤول إلى الكفر، وذلك هو اليأس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، هؤلاء قد يئسوا من الرحمة، وقطعوا رجاءهم، ووقعوا في القنوط، وقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، القنوط: هو قطعُ الرجاء كليًّا من الرحمة، وكأنَّهم يقولون: لا تنالنا الرحمة، ولو كانت رحمة الله واسعةً، فذنوبنا أكبر من أن تنالها، وذنوبنا أكبر من أن تغفرها، قد كفرنا، وأسأنا، وأذنبنا، وأخطأنا، فذنوبنا كثيرة لا تصل إليها رحمة الله. فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال، والفسوق والمعاصي، ويتمادون فيها، ويموتون وهم على ذلك، وكأنّهم يئسوا من الخير، وقد قطعوا رجاءهم. هؤلاء وقعوا في هذه المرتبة القبيحة، التي هي اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله .

وبكلّ حال فالمسلم لو وقع فيما وقع فيه، فإنّ الله يكفّر عنه السيئات للأسباب التي مرّت بنا، فإذا حقق العقيدة والتوحيد قبل الله عزّ وجلّ منه وتاب عليه، ورحمه وهو أرحم الراحمين، وأمّا إذا مات على ذلك فقد أقدم على العذاب والعياذ بالله.

ثم إن من عقيدة المسلمين الأخذ بالظاهر، فهم يصفون الإنسان بما يظهر منه، فإذا أظهر خيرًا أحبّوه، وإذا أظهر سوءًا أبغضوه، ومع ذلك فإنّهم إنّما يحكمون بالظاهر، ففي الأثر عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رسول اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قد انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لنا من أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لنا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا من سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ في سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لنا سُوءًا لم نَأْمَنْهُ ولم نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ

قال: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ»[١]، فليس لنا من أمره الباطن شيء؛ لأن الله تعالى هو الذي يتولى السرائر.

وبناء على هذه العقيدة، أو هذه القاعدة؛ فإنّنا نحبّ المؤمنين الذين أظهروا لنا الخير، ودانوا به وعملوا به، وأظهروا لنا العمل الصالح. وأظهروا لنا السنّة، وظهر لنا أنّهم من أهل الدين، ومن أهل الصلاح، وعملوا لله بما يحبه الله وبما فرضه عليهم، نحبّهم ونشهد لهم بالخير، سواءًا أدركناهم أو سبقونا، وندعو لهم بالمغفرة والرحمة، كما وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وصفهم الله بأنّهم يحبّون من هاجر إليهم ومن سبقهم من المؤمنين، ويدعون لهم بالمغفرة والرحمة، ويدعون الله بأن ينزع من قلوبهم الغلّ والحقد والحسد، والبغضاء والشنآن لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان.

فهذه صفة كلّ مؤمن، فإذا كان كذلك فإنّهم بضدّ ذلك، في حقّ الفسقة والمشركين والمنافقين والمعاندين، إذا رأوا أهل الفساد وأهل السوء وأهل المنكر أبغضوهم، ومقتوهم، وحذروا من شأنهم وعاملوهم بما يظهر منهم من السوء والفحش، والكلام القبيح، وحذّروا من فعلهم، ومقتوهم على هذا، ولو كانت قلوبهم نقيّة ليس إليهم معرفة ما في القلوب، فأهل الفساد وأهل الشرور، وأهل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤١).

البدع إذا أظهروا بدعتهم، وأظهروا معاصيهم وأعلنوها، فإننا نبغضهم ونمقتهم ونحذرهم، ونحذر منهم، ويكون بغضنا لهم بغضًا في ذات الله، لا نبغضهم لأجل أهوائنا، ولا لأجل مصالحنا، ولا لأجل أنهم تنقّصونا أو عابونا، أو ما أشبه ذلك، بل يكون الحامل لنا على بغضهم غيرةً لله، وغيرةً على شريعته ودينه، وحماية لتعاليمه، ويكون من آثار هذا البغض وهذا المقت البعد عنهم والحذر من شرّهم، ومن سوئهم، والتحذير من أن ينخدع أحد بدعاياتهم وتضليلاتهم، وبمعاصيهم وفسوقهم الذي يدعون إليه، والذي ينشرونه ويظهرونه ويزعمون أنّ الحقّ والصواب في جانبهم، فإذا كان كذلك فهكذا يكون أهل الإيمان.

تقدّم أنّ من عقيدة أهل السنّة أنّهم يرجون لأهل الخير النجاة، ولا يجزمون لهم بالجنّة، ويخافون على أهل الشرّ من العذاب، وإن لم يجزموا لهم بالنار، ولكن يكون من آثار معرفتهم أن هؤلاء من الصالحين ـ سواء أدركوهم أو سبقوهم ـ أنّهم يحبّونهم، ويحثّون على أعمالهم، وإن لم يشهدوا لهم بأنّهم من أهل الجنّة؛ لأنّهم لا يعلمون ما في القلوب.

ومن آثار كراهتهم إذا رأوا أهل المعاصي، حذروهم وحذّروا منهم، ولم يشهدوا لهم بالنار، ويخافون عليهم من عذاب الله، وأنّهم من أهل النار، وإذا أنكروا عليهم ومقتوهم، حذّروا من سوئهم، وحذّروا من أفعالهم، وبيّنوا أخطاءهم، وقالوا: إنّهم وقعوا في هذا الخطأ، فإياكم أن تساعدوهم على خطئهم أو توافقوهم، أو تفعلوا كفعلهم، فيُنسب إليكم من الخطأ ما نُسب إليهم، أو ما وقعوا فيه، كذلك تكون طريقة أهل الخير؛ أنّهم يحذرون الشر، ويحذّرون منه،

ومعلومٌ أيضًا أن الشر والمعاصي والفتن تتفاوت، فمنها ما قد يُوصل إلى الكفر، وقد يوصل إلى الردّة والخروج من الإسلام، كالاستهزاء بشعائر الإسلام، والاستهزاء بأوامر الله ونواهيه، والاستهزاء بأهل الدين، والتنقّص لهم، فإذا ظهر هذا من أناس فإنّنا نبرأ منهم، ونضلّلهم، ونخشى أن يكونوا قد وقعوا فيما يخرج من الملّة؛ وذلك لأن الاستهزاء قد ذكر الله أنّه من أعمال الكفّار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩، ٣٠]، والمقصود بالضحك: الاستهزاء.

وكذلك يقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون:١٠٩، ١١٠]، أي: تستهزئون بهم وتتنقّصونهم، فكان من أسباب العذاب: سخريتهم بأهل الدين.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، يستهزئون بهم ويتنقّصونهم، فهذا دليل على أنّ الاستهزاء بالدين وبحملتِهِ يعد من دلائل الكفر.

كذلك قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢١١، ٢١٢]، أي: من أعمالهم، وديانتهم، وما أشبه ذلك، فإن السخرية من أسباب ردّتهم وكفرهم.

وقد روى ابن جرير الطبري[1] عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا أكثر من قرّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]».

فجعل رسول الله ﷺ فعلهم هذا كفرًا؛ لأنّهم استهزؤوا بالله وآياته ورسوله وأصحاب رسوله، فكان ذلك منهم ردّةً أوصلتهم إلى الكفر والعياذ بالله !

وبكلّ حال، فإنّنا نقول: إنّنا نرجو للمحسن، ونخاف على المذنب، نقول إذا وصلوا إلى هذه الحال فإنهم قد وصلوا إلى درجة الكفر، فإنّنا نحكم بكفرهم، ونحكم بردّتهم ظاهرًا.

وأمّا إذا كان مما يحتمل أن يغفر، ويدخل تحت مشيئة الله، فإنّ ذلك مما لا يكفر به صاحبه، فالذنوب التي دون الشرك هي الذنوب المعرّضة للأسباب المكفّرة لها، ومن هذه المكفرات: التوبة، والاستغفار، ودعاء المؤمنين لأهلها، ومنها المصائب الدنيويّة، ومنها شدّة القبض عند الموت، وما يصيبهم من عذاب

---

(١) في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وأخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩).

القبر، ومنها شدّة الفزع في الآخرة، ومنها الحزن الذي ينالهم عند الموقف، وشدّة الألم، ومنها تكفير الله عزّ وجلّ لهم بما حصل لهم من المصائب، ومنها شفاعة الشافعين، ومنها ما ذكر من أنّهم يتهافتون عند القنطرة، وأنّهم يدخلون النّار، ويكفّر عنهم بقدر الذنب، وبعد ذلك يخرجون إذا كانوا من أهل التوحيد ومن أهل الصلاح .

وذكرنا أنّ المسلم مأمور بأن يجمع بين الخوف والرجاء، فيكون خائفًا راجيًا، ولا يبلغ به الرجاء إلى الأمن، بحيث يأمن مكر الله، ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩]، ولا يبلغ به الخوف إلى اليأس ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]، بل يكون بينهما.

وذكرنا أنّ العلماء يقولون: يغلب الخوف في حالة الصحّة حتى يستقلّ أعماله، ويستكثر من الحسنات، وفي حالة المرض يغلب الرجاء؛ ليقدم على الله وهو يحسن الظنّ به، ففي الحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»[1]. فيكون ذلك إن شاء الله من أسباب رحمة الله لعبده.

هكذا ينبغي على المسلم في نفسه أن يجمع بين الخوف والرجاء، أما فيما يتعلق بالآخرين فإنه يخاف على المذنبين، ويرجو للمحسنين، فيجمع بين الخوف والرجاء من غير أن يصل إلى الجزم واليقين.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٩٢).

قال الطحاوي:

وَلاَ يَخْرُجُ العَبْدُ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودِ مَا أدخلَهُ فيهِ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الخَوَارِجِ وَالمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ بِخُرُوجِهِ مِنَ الإِيمَانِ بِارْتِكَابِ الكَبِيرَةِ. وَفِيهِ تَقْرِيرٌ لِمَا قَالَ أَوَّلًا: (إِنَّهُ لَا يُكَفَّرُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ، مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ). وَتَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

قال الشيخ:

تقدّم أنّ الخوارج يكفّرون بالذنب، وأنّ الإنسان إذا أصرّ عليه عدُّوه كافرًا داخلًا في الكفر، خارجًا من الإيمان، وأمّا المعتزلة فإنّهم يخرجونه بالذنب من الإيمان، ولكن لا يدخلونه في الكفر، ويجعلونه في منزلة بين الكفر والإيمان. والكلّ على خطأ، والصواب ما قاله الطحاوي: أنّه لا يخرج المرء منه إلا بما أدخله فيه؛ وهو الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر والبعث، فإذا جحد شيئًا من هذه الأشياء خرج من الإيمان. فما دام يؤمن بالله، ويعمل بطاعته، ويؤمن بالرسل، ويعمل باتّباعهم، ويؤمن بالكتب، ويعمل بها، ويؤمن باليوم الآخر ويستعدّ له، فإنّه لا يخرج من الإيمان، ولو قصّر في بعض الأوامر، ولو ارتكب بعض النواهي، فذلك لا يوصله إلى الكفر.

قال الطحاوي:

وَالإِيمَانُ: هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْجَنَانِ، وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ، وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَواءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالخَشْيَةِ وَالتُّقَى، وَمُخَالَفَةِ الهَوَى، وَمُلَازَمَةِ الأَوْلَى.

قال الشارح:

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الإِيمَانِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا: فَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالأَوْزَاعِيُّ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيه، وَسَائِرُ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَأَهْلُ الظَّاهِرِ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ: إِلى أَنَّه تَصْدِيقٌ بِالجَنَانِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ.

وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِنَا إِلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّحَاوِيُّ: أَنَّهُ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ رُكْنٌ زَائِدٌ لَيْسَ بِأَصْلِيٍّ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ أَبُو مَنْصُورٍ المَاتُرِيدِي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَيُرْوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَذَهَبَ الكَرَّامِيَّةُ إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ فَقَطْ! فَالمُنَافِقُونَ عِنْدَهُمْ مُؤْمِنُونَ كَامِلُو الإِيمَانِ، لَكِنْ يَقُولُونَ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الوَعِيدَ الَّذِي أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ! وَقَوْلُهُمْ ظَاهِرُ الفَسَادِ.

وَذَهَبَ الجَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ وَأَبُو الحُسَيْنِ الصَّالِحِي - أَحَدُ رُؤَسَاءِ القَدَرِيَّةِ - إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ: هُوَ المَعْرِفَةُ بِالقَلْبِ! وَهَذَا القَوْلُ أَظْهَرُ فَسَادًا مِمَّا قَبْلِهِ! فَإِنَّ لَازِمَهُ أَنَّ

فِرْعَونَ وَقَوْمَهُ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ عَرَفُوا صِدْقَ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمَا، وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢]. وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤]. وَأَهْلُ الكِتَابِ كَانُوا يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ، بَلْ كَافِرِينَ بِهِ، مُعَادِينَ لَهُ، وَكَذَلِكَ أَبُو طَالِبَ عِنْدَهُ يَكُونُ مُؤْمِنًا، فَإِنَّهُ قَالَ(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينا

بَلْ إِبْلِيسُ يَكُونُ عِنْدَ الجَهْمِ مُؤْمِنًا كَامِلَ الإِيمَانِ! فَإِنَّهُ لَمْ يَجْهَلْ رَبَّهُ، بَلْ هُوَ عَارِفٌ بِهِ، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]. ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر: ٣٩]. ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢]. وَالكُفْرُ عِنْدَ الجَهْمِ: هُوَ الجَهْلُ بِالرَّبِّ تَعَالَى، وَلَا أَحَدَ أَجْهَلُ مِنْهُ بِرَبِّهِ! فَإِنَّهُ جَعَلَهُ الوُجُودَ المُطْلَقَ، وَسَلَبَ عَنْهُ جَمِيعَ صِفَاتِهِ، وَلَا جَهْلَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا، فَيَكُونُ كَافِرًا بِشَهَادَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ!

وَبَيْنَ هَذِهِ المَذَاهِبِ مَذَاهِبُ أُخَر، بِتَفَاصِيلَ وَقُيودٍ، أَعْرَضْتُ عَنْ ذِكْرِهَا اخْتِصَارًا، ذَكَرَ هَذِهِ المَذَاهِبَ أَبُو المُعِينِ النَّسَفِي فِي «تَبْصِرَةِ الأَدِلَّةِ»، وَغَيْرُهُ.

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن إسحق في السيرة (٢/ ١٣٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٨٨).

قال الشيخ:

ابتدأ الكلام على الإيمان وأسماء الإيمان والدين، ومعلوم أنّ الشرع الشريف جاء إلى هذه الأمّة وهم على جهل، ولكنّهم يتكلّمون بلغة عربيّة فصحى، فخاطبهم بلغتهم، وجاءهم بهذه الشريعة، وشرع لها أسماء، وعرفها، وأصبحت معروفة بأسمائها الشرعيّة، ولو كان لها أسماء لغويّة. فعرفت هذه بأسماء الإيمان والدين.

فيقال: تعريف الصلاة في اللغة: الدعاء، وتعريفها في الشرع: العبادة المشتملة على القيام والركوع والسجود.

وتعريف الزكاة في اللغة النماء أو الطهارة، وتعريفها في الشرع: القدر المخرج من المال الذي ينفق في وجوهه.

وتعريف الصيام في اللغة: مجرّد الإمساك، وفي الشرع: الإمساك بالنيّة عن المفطِّرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وتعريف الحج في اللغة القصد، أو القصد إلى شيء معيّن، وفي الشرع: زيارة البيت الحرام في وقت مخصوص، من إنسان مخصوص.

وتعريف الجهاد في اللغة: بذل الجهد في الشيء الذي فيه مشقّة، وتعريفه في الشرع: هو قتال الكفار لأجل كفرهم.

وكذلك يقال في تعريف المعروف، وفي تعريف المنكر، وفي تعريف الإسلام والإيمان، والكفر والشرك، والنفاق والفسوق، وما أشبهها من المسمّيات في

اللغة، ومسمّياتها في الشرع معروفة، نقلها الشارع من مسمّياتها اللغوية، إلى المسمّيات الشرعية، فأصبحت إذا أطلقت تنصرف إلى المعنى الشرعي لا اللغوي.

فالكلام هنا على الإيمان، والإيمان له معنى في اللغة، وله معنى في الشرع، نقله الشرع إليه، وأصبح أهله إذا قيل: مؤمنون يقصد به المعنى الشرعي لا المعنى اللغوي. فنقول: الإيمان في اللغة: هو التصديق بالقلب، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ أنّهم قالوا لأبيه: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:١٧]، أي: مصدّق لنا، لما قالوا: إن الذئب أكل أخاهم. فالإيمان في اللغة: التصديق، لكن الشرع الشريف جعله أعمّ من التصديق، فأدخل فيه العقيدة والأقوال والأعمال.

وعلى ذلك بنى الأئمّة ـ رحمهم الله ـ هذه الأصول، فنجد أن المؤلفين من العلماء عملوا على ذلك، ففي «صحيح البخاري» كتاب الإيمان، جعله في المقدّمة بعد كتاب بدء الوحي، وأورد فيه الأدلّة، فقال: باب الصلاة من الإيمان، باب الأذان من الإيمان، وهكذا، عدّد الأعمال الصالحة وجعلها من الإيمان، كأركان الدين كلها، وفي «صحيح مسلم» بدأ بعد المقدّمة بكتاب الإيمان، وأورد فيه الأحاديث الكثيرة التي تبين الإيمان، وتبيّن ما يدخل فيه، فأصبح الإيمان إذا أُطلق، فإنّه هو المسمّى الشرعي. فمن لم يكن على هذا فلا يقال له مؤمن، ولا يثاب ثواب المؤمنين.

معلوم أنّه يترتّب على هذه التسمية أحكام: يترتّب عليها أن من آمن عصم

نفسه من القتل، ويترتّب عليها أنّ من آمن أحرز الصواب، واستحقّ الثواب الذي ارتجع من الإيمان، ويترتّب عليها أنّ من آمن عاملناه معاملة إخواننا المؤمنين، فإذن لا بدّ أن يكون هذا هو الذي آمن الإيمان الشرعي، ليس الإيمان اللغويّ؛ لأنّ الإيمان اللغوي خفيٌّ، وإنّما هو شيء في القلب، ونحن لا نشقّ القلوب، ولا نشقّ البطون، وإنّما نعمل بما يظهر لنا إذا رأينا الإنسان يصلّي، ويصوم معنا، ويجاهد، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويترك المعاصي، والمحرّمات، ويستكثر من الأعمال الصالحات، قلنا هذا من أهل الإيمان.

فإذًا نقول: إن هذه الأقوال منها ما هو صواب، ومنها ما هو خطأ، فالصواب هو القول الأول الذي هو قول أهل الحديث، وقول أكثر الأئمّة الذين ذهبوا مذهب الإمام مالك والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه والأوزاعي وأئمّة الحديث البخاري ومسلم، وأهل السنن، وسائر المحدّثين، وأكثر المتكلّمين، وسلف الأمّة، وهذا هو القول الصحيح، وهو أنّ الإيمان تدخل فيه الثلاثة: وهي قول اللسان، وتصديق الجنان، وعمل الأركان. فنقول: ما هو قول باللّسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، والأركان هي الجوارح، فالعينان لهما عمل، والأذنان لهما عمل، واليدان والرجلان لهما عمل، والبطن والفرج كلها لها عمل.

وفي عقيدة أهل السنّة واعتقادهم أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان. وعلى ذلك أدلّة كثيرة، ويأتينا بعضها وأوضحها، قول النبي ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله،

وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ»[١]، يعني: يعمّ الخصال كلّها، فيقال مثلًا: الصدقات والصوم والصلاة من الإيمان، وهكذا الذكر من الإيمان، والتسبيح والقراءة والجهاد وفعل الخير كله من الإيمان، ويقال أيضًا: الزهد في الدنيا، والخوف من الله، والرجاء والحب في الله، والبغض في الله كلها، من خصال الإيمان.

وذكر في الحديث ثلاثة من شعب الإيمان: أعلاها: (قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله)؛ لأنها العقيدة، ولأنها كلمة التوحيد، وهذا قول باللسان «لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إيّاه»، ولكن لها معنى، وأدناها: (إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ)، وهذا عمل بالأركان، كون الإنسان يميط الأذى عن الطريق هذا عمل بالبدن، والحياء شعبة من الإيمان. الحياء عمل قلبي، فذكر قول لا إله إلا الله، وذكر العمل وهو إماطة الأذى، وذكر الاعتقاد الذي هو الحياء، الذي هو فعل قلبي يحمل على ما يجمّل ويزيّن، وينهى عن كل ما يدنّس ويشين، فبذلك تدخل الأعمال كلها في مسمّى الإيمان، ولأجل ذلك اهتمّ العلماء بشعب الإيمان، وصنّف الإمام البيهقي كتابًا كبيرًا سمّاه «شعب الإيمان» يعني خصال الإيمان، وأورد فيه الأحاديث الكثيرة بأسانيدها، وأوصله إلى تسع وسبعين خصلة، وجعل منها الأعمال اليدويّة والبدنيّة ونحوها، ومنها إماطة الأذى عن الطريق، وما أشبه ذلك. وعرفنا بذلك أن هذا القول هو أقوى الأدلّة، ولعلّه يأتينا ما يقوّيه من أدلّة أيضًا .

---

(١) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) بلفظه من حديث أبي هريرة ﷺ.

أما القول الذي ذكره الطحاوي ـ رحمه الله ـ فهو الذي اشتهر عند الحنفية، فأبو حنيفة ـ رحمه الله ـ كان من المتقدّمين، وكأنّه لم يتوسّع في الأدلّة، ولأجل ذلك أخذ الإيمان على أنه كلمة لغويّة، فجعل الإيمان هو التصديق بالقلب، وجعل القول علامة عليه، أو جعل القول منه.

فالإيمان عند أبي حنيفة: سلامة القول والاعتقاد، ولم تكن الأعمال عنده من الإيمان، ولا شكّ أنّ هذا قول خاطئ، وفيه نقص كما سيأتي.

وهناك أقوال أخرى أشار إليها الشارح، ولكنّها أقوال باطلة كما سيأتي.

ومن ذلك قول الماتريديّة: إنّ الإيمان إنّما هو العقيدة، والقول هو من آثاره. وقول الكراميّة: إنّ الإيمان هو القول. والكرّاميّة هم أتباع عالم مشهور يقال له محمد ابن كرَّام، كانوا في باب العقيدة وفي باب الإيمان والصفات أقربَ إلى أهل السنّة، ولكن لهم قول في الإيمان غريب، عندهم قول: إن الإيمان هو القول، هو التلفظ بهذه الكلمة فقط، فمعناه أن المنافقين عندهم مؤمنون؛ لأنّهم تلفظوا به ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]، فمعناه: أنّ من قال باللسان: إنّه مؤمن فهو مؤمن، فالمنافقون عندهم مؤمنون، والله تعالى أثبت أنّ المنافقين كافرون في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ [المنافقون:٣]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٣٧، ١٣٨]، هؤلاء هم المنافقون الذين يقولون: آمنّا

باللسان، وهم مؤمنون عند الكراميّة، ولكنّهم يقولون: إنهم في النار؛ لأنّ الله توعّدهم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٤٥]، وفي الآيات التي فيها الوعيد الشديد لهم، فهم يقولون: إنّهم في النار، وإنّ كلمتهم، وهي قولهم: إنّا آمنّا ليست عاصمةً لهم من العذاب، وعلى كلّ حال، فقد جعلوهم مؤمنين، وهذا قول خاطئ.

القول الرابع: قول الجهميّة، وهو أبعد الأقوال، وهو أنّ الإيمان عندهم هو المعرفة فقط. فمن عرف فهو مؤمن، وهذا القول من أعجب الأقوال كما قال الشارح، فيلزم من ذلك أن كلّ من عرف ذلك ولم يتّبع يصير مؤمنًا كامل الإيمان، والله قد ذكر أنّ إبليس ـ وهو أكبر الكافرين ـ يعرف ربّه، ويعرف أنّ هناك بعثًا، وأنّ هناك عذابًا، وأنّ هناك جنّة ونارًا، وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥]، فهو عارف.

إذًا فهو عندهم مؤمن، يستحق الوعد الذي وعد الله به المؤمنين، هذا هو قول الجهميّة.

كذلك فرعون قد أخبر الله أنّه عارف، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾، أي: آيات موسى عليه السلام ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل:١٤]، فرعون وقومه كانوا مستيقنين بها، وكذلك قوم موسى ـ عليه السلام ـ قد علموا ما أنزل الله من آيات مستيقنين بها، وكانوا عارفين بربّ السموات والأرض، ففرعون عندهم مؤمن كامل الإيمان، ويستحقّ ما يستحقّه أهل الإيمان الكُمَّل، كذلك كثير من

الكفار كانوا مؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦]، قيل: إنّها نزلت في أبي طالب، كان يعرف أن محمدًا رسول الله وأنّه صادق، وكان ينهى عن أذاه، وكان ينهى عن اتباعه، وقيل: إن الكفار كانوا يعرفون صدقه، وكانوا يقولون: إنّه هو الصادق الأمين، وعلى كل حال أبو طالب كان مصدِّقًا بأنّ محمدًا رسول الله ﷺ، وبأنّه صادق، وذكر تصديقه في هذه الأبيات:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينا

يقول: لولا مخافة أن يلومني أهلي وأصدقائي، ويقولون: تركت دين آبائك وأجدادك، وجلبت بذلك المسبّة على آبائك وأسلافك، لولا ذلك لآمنت به ولاتّبعته، فهذا ونحوه دليل على أنّه كان عارفًا، ولكنّ هذه المعرفة ما نفعته.

الإيمان عند الجهمية هو المعرفة، فهو مؤمن عندهم. أما الكفر فهو الجهل بالله؛ فيقال لهم: أنتم أجهل الناس بالله؛ لأنّكم جعلتم له الوجود المحض دون أن تقولوا له: وجود مطلق، أو وجود مقيّد ودون أن تجعلوا لله صفاتٍ، أو تجعلوا له أسماءً، جحدوا أسماء الله وجحدوا صفاته، ولم يصفوه إلا بأنّه موجود . قيل لهم: وجود قديم أو محدث؟ قالوا: وجود مطلق فقط. وهذا غاية الجهل، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر؛ لأنهم جعلوا الكفر هو الجهل، وأي جهل أكبر من جهل هؤلاء الجهميّة؟!

قال الشارح:

وَحَاصِلُ الكُلِّ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الإِيمَانَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَقُومُ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَسَائِرِ الجَوَارِحِ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ السَّلَفِ مِنَ الأَئِمَّةِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهِمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ، أَوْ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ، دُونَ الجَوَارِحِ، كَمَا ذَكَرَهُ الطَّحَاوِيُّ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أَوْ بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ عَنِ الكَرَّامِيَّةِ، أَوْ بِالْقَلْبِ وَحْدَهُ، وَهُوَ: إِمَّا المَعْرِفَةِ، كَمَا قَالَهُ الجَهْمُ، أَوِ التَّصْدِيقُ، كَمَا قَالَهُ أَبُو مَنْصُورٍ المَاتُرِيدِي رَحِمَهُ اللَّهُ. وَفَسَادُ قَوْلِ الكَرَّامِيَّةِ وَالجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ ظَاهِرٌ.

وَالاخْتِلَافُ الَّذِي بَيْنَ أَبِي حَنِيفَةَ وَالأَئِمَّةِ البَاقِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ اخْتِلَافٌ صُورِيٌّ، فَإِنَّ كَونَ أَعْمَال الجَوَارِحِ لَازِمَةً لِإِيمَانِ القَلْبِ، أَوْ جُزْءًا مِنَ الإِيمَانِ، مَعَ الاتِّفَاقِ عَلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ لَا يَخْرُجُ مِنَ الإِيمَانِ، بَلْ هُوَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ، لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادُ اعْتِقَادٍ، وَالقَائِلُونَ بِتَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ، ضَمُّوا إِلَى هَذَا الأَصْلِ أَدِلَّةً أُخْرَى، وَإِلَّا فَقَدْ نَفَى النَّبِيُّ ﷺ الإِيمَانَ عَنْ الزَّانِي وَالسَّارِقِ وَشَارِبِ الخَمْرِ وَالمُنْتَهِبِ، وَلَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ زَوَالَ اسْمِ الإِيمَانِ عَنْهُم بِالكُلِّيَّةِ، اتِّفَاقًا.

وَلَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ مِنَ العِبَادِ القَوْلَ وَالعَمَلَ، وَأَعْنِي بِالقَوْلِ: التَّصْدِيقَ بِالْقَلْبِ، وَالإِقْرَارَ بِاللِّسَانِ، وَهَذَا الَّذِي يُعْنَى بِهِ عِنْدَ إِطْلَاقِ قَوْلِهِمْ: الإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، لَكِنَّ هَذَا المَطْلُوبَ مِنَ العِبَادِ: هَلْ يَشْمَلُهُ اسْمُ الإِيمَانِ أَمِ الإِيمَانُ أَحَدُهُمَا، وَهُوَ القَوْلُ وَحْدَهُ، وَالعَمَلُ مُغَايِرٌ لَهُ لَا يَشْمَلُهُ اسْمُ الإِيمَانِ عِنْدَ إِفْرَادِهِ بِالذِّكْرِ، وَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيهِمَا كَانَ مَجَازًا؟ هَذَا مَحَلُّ النِّزَاعِ.

قال الشيخ:

الشارح - رحمه الله - حنفيُّ المذهب، ومعروف أنّه أراد بهذا الكتاب تقريب الحنفيّة إلى أهل السنّة؛ لأنّه وإن كان حنفيًا في الفروع، لكنّه سلفيٌّ في الأصول والعقيدة، وقد تأثر بشيخه ابن كثير الذي كان شافعي المذهب، وهو تلميذ لابن تيميّة فتأثر ابنُ كثير بابنِ تيميّة وهو حنبليٌّ في باب العقيدة، فبقي ابن كثير شافعيًا في الفروع لكنّه في العقيدة على مذهب أهل السنّة، الذي تلقّاه عن شيخه ابن تيميّة.

أراد الشارح أن يقرّب مذهب الحنفيّة من مذهب أهل السنّة، ويبيّن أن الطحاوي أراد بها قول أهل السنّة، وما عليه سلف الأمّة، حتّى يردّ على الذين تمذهبوا بمذاهب باطلةٍ بعد السلف، وأنكروا الصفات، وأنكروا العلوّ والرؤية لله حقيقة والكلام لله حقيقة. تقدّم أنّه شرح هذه الأشياء، وبيّن أنّ كلام الله حروف ومعانٍ ردًا على الأشاعرة الذين أكثرهم من الحنفية، ويقولون: إنّ كلام الله هو المعنى دون اللفظ، وكذلك في مسألة الرؤية التي ستكون حقيقة بالبصر، وليست مكاشفات ورؤية قلبيةً كما يقول الأشاعرة، ولكن بقيت مسألة الإيمان، فقد عجز عن الجمع بين مذهب أهل السنّة ومذهب الحنفية في باب الإيمان، وذلك لصراحة كلام الطحاوي في أنّ الأعمال ليست من الإيمان؛ حيث جعل الإيمان هو التصديق بالقول فقط، فلم يجد الشارح بدًّا من أن يقول إنّ الخلاف لفظيّ، وإنّ النزاع ليس وراءه جدال، حيث يقول: إذا كنّا متّفقين على أن من عمل السيّئات

لا يخرج من الإيمان، فإنّا لا نجعل فعلها مدخلًا في الإيمان أو زيادة في الإيمان، ولا نجعل تركها مخرجًا من الإيمان. واستدلّ بقول النبيّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِيْنَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِيْنَ يَشْرَبُها وَهُوَ مُؤْمِنٌ، والتَّوْبَةُ مَعروضَةٌ بَعْدُ»[1]، يستدل بهذا الحديث على مذهب أهل السنّة في باب الإيمان، فأهل السنة يقولون: ليس مؤمنًا كامل الإيمان، ولا هو ناقص الإيمان، ونقول: إن العاصي معه رسم الإيمان؛ معه التصديق، ومعه بعض الأعمال فنسمّيه فاسقًا، ونسمّيه مؤمنًا ناقص الإيمان، ولا نسمّيه كامل الإيمان، والحديث جاء على هذا؛ مادام أنّنا اتفقنا على أنّ الأعمال من الإيمان، فلماذا لا نجعل تركها نقصًا في الإيمان، إذًا الأعمال من الإيمان، والخلاف ليس لفظيًّا كما قال الشارح، بل الخلاف معنويّ، ويترتّب عليه معانٍ كثيرة:

يترتّب عليه أنّ الفاسق مهما عمل من عمل يسمّى مؤمنًا كامل الإيمان، وذلك قول الطحاوي ـ عفا الله عنه ـ: أن أهله في أصله سواء. يعني: التفاوت إنّما هو في الخشية والتُّقى، وأما أصل الإيمان فهم متساوون فيه، فعندهم أنّ إيمان جبرائيل وإسرافيل والملائكة مثل إيمان آحاد الناس، كلّهم على حد سواء في الإيمان، لا تفاوتَ بينهم!! والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، وهذا خطأ، بل الناس متفاوتون في الإيمان، والصحيح أن الإيمان يزيد وينقص، وتأتي أدلّة واضحة في أنّ الإيمان يزيد وينقص.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

وبكلّ حال؛ الإيمان تدخل فيه الأعمال، وهي من الإيمان، إذا كان النبي ﷺ جعلها شُعبًا، فالشعب لا بدّ منها، والشعب هي التي يتكوّن منها الشيء، فنقول: إنّ الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أي: إنّ الإيمان يتكوّن من هذه الشعب، فيقال مثلًا: الصلاة شعبةٌ من الإيمان، والزكاة شعبةٌ من الإيمان، والأذكار شعبة من الإيمان، وحُسن الجوار شعبة من الإيمان، والصدقة شعبة من الإيمان، وأشباه ذلك. ويقال: إنّ للكفر شُعبًا كما للإيمان شعب، وإنّ الإيمان يتفاوت أصلُه، فالصحابة إيمانهم الذي في قلوبهم، وكذلك نتيجة أعمالهم التي عملوها هي أقوى وأفضل وآكد من إيمان من بعدهم، ومن إيمان الآخرين، والله تعالى قد أخبر أنّ هناك من هو مؤمن يشمله اسم الإيمان، ولو كان معه نقص في قوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢]، يصدق عليه أنّه يحرر رقبة من أهل الإيمان، ولو كان عاصيًا، ولو كان مذنبًا، ولكنّ الإيمان الذي مدحه الله تعالى ووصفه بالنجاة في قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون:١]، ولم يقتصر على هذه الآية، بل فسّرهم: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٢]، إذًا هذه الآية من الإيمان، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون:٣-٩]، هذه كلّها من الإيمان. وكذلك يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة:١٥]، فيكون الإيمان الذي يكون منه أنّه يسجد وأنّه يسبح، وأنّه يؤمن، وأنّهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وأنّهم يدعون ربّهم خوفًا وطمعًا، هذه كلّها من صفات المؤمن، فلا يكون المؤمن صادقًا إلّا إذا اجتمعت فيه هذه الخصال، ونحوها.

فعرفنا بذلك أنّ الإيمان لا بدّ له من هذه الأصول، ولا بدّ فيه من الأصل الصحيح الصادق، الذي هو الدافع إلى العمل، وهو التصديق القويّ والذي ترى آثاره بالعمل، وترى آثاره بالكلام، فإذا اجتمع العمل بالأركان، وكذلك النطق، وكذلك العقيدة الصادقة كمل الإيمان.

مما تكلّم به العلماء في العقيدة: أسماء الإيمان والدين فقضى أهل السنّة والأئمّة وجماهير السلف: أنّ الإيمان هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وأنّ الأعمال من مسمّى الإيمان. هذه عقيدة أهل السنّة .

وأكثر الحنفيّة على أنّ الإيمان هو: الاعتقاد بالجنان، والإقرار باللّسان، ولم يجعلوا الأعمال من مسمّى الإيمان، وهذا هو الذي ذكره الطحاوي - بناءً على معتقد الحنفيّة - أنّه الإقرار باللّسان، والاعتقاد بالجنان.

وذهب الماتريدية إلى أن الإيمان هو الاعتقاد بالجنان فقط، ولا تدخل فيه الأعمال ولا الأقوال. وذهب الكراميّة إلى أنّه مجرّد الإقرار باللّسان فقط، ولو لم يكن هناك اعتقاد بالجنان، فعلى قول الكراميّة يكون المنافقون الذين يقرّون

باللّسان مؤمنين، ولكنّهم مستحقّون للوعيد الذي توعّدهم الله به.

وذهب الجهم بن صفوان وأتباعه إلى أن الإيمان هو المعرفة، فمجرد المعرفة، تكون عندهم إيمانًا، وعندهم وعلى اصطلاحهم أن إبليس من المؤمنين وأن فرعون من المؤمنين، وكذلك الكفار الذين عرفوا صدق النبي ﷺ من المؤمنين، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وكما مرّ معنا في نظم أبي طالب، أنّه كان يعرف صدق النبيّ ﷺ، ولكنّه لم يتبعه . فعندهم يكون مؤمنًا، وكذلك اليهود عندهم مؤمنون بناءً على قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٦].

ثمّ لخّص الأقوال في مسمّى الإيمان، والأصل قول أهل السنّة، أنّه يجمع بين الثلاثة: القلب واللسان والأركان، وهو الذي ذكره البخاري في أول كتاب الإيمان في «صحيحه»، يقول: هو قول وفعل، نصّ على القول والفعل، والزيادة والنقصان، ولم يذكر الاعتقاد؛ لأنّ الاعتقاد لا خلاف فيه، فلأجل ذلك خصص ووضح أنّ القول والفعل من الإيمان، ثم أخذ بذكر الأبواب في ذلك: باب الصلاة من الإيمان، وباب ردّ السلام من الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، باب الصدقة من الإيمان، وهكذا، وأقرّه على ذلك الشُّرّاح من أهل السنّة، مثل ابن كثير، وابن رجب الذي شرح أوّل صحيح البخاري، وأقرّه عليه وأتى عليه بالأدلّة، وهكذا الذين شرحوه من أهل السنّة، أما الذين شرحوه من غيرهم فإنّهم قد وقعوا في بعض التأويلات، مثل بدر الدين العيني صاحب «عمدة القاري»؛

فإنّه حنفي المذهب، ولأجل ذلك أخذ يتأوّل هذه الأبواب، ويحاول أن تكون على مذهب الحنفيّة، وكذلك شارح الطحاوية ـ هذا الذي نقرأ له ـ حنفي أيضًا، وهو علي بن علي بن محمّد بن أبي العزّ الدمشقي، تتلمذ على يد ابن كثير، وتأثّر به في باب العقيدة، فلأجل ذلك التزم في باب الأسماء والصفات بمذهب أهل السنّة، وكان كلام الطحاوي في أصل الإيمان مخالفًا لمذهب أهل السنّة، بناءً على مذهب الحنفية، فقال الشارح: الخلاف لفظيّ، يعني: إذا جعلنا الإيمان أصلًا هو الاعتقاد الجازم، كانت الأعمال من ثمرات هذا الاعتقاد، فالذي يعمل إنّما يحمله على العمل الاعتقاد الجازم. وهذا صحيح؛ لأن الإنسان إذا رسخت العقيدة في قلبه انبعثت جوارحه بالأعمال، وأكثر من الصالحات والحسنات والقُربات، وإذا ضعفت العقيدة التي في قلبه ضُعفت الأعمال التي عنده، والدوافع التي تدفعه إلى الأعمال الخيريّة.

ولكن لا بدّ أن نقول: إنّ هذه الأعمال التي يعملها تسمّى إيمانًا، وأنّ الإيمان بها يزيد ويقوى، وأنّه يُوصف كل منها بأنّه إيمان، فتوصف الصلاة بأنّها إيمان، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، نزلت هذه لما صرفت القبلة إلى الكعبة؛ فقال بعض الصحابة: «يا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ بِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾»[1].

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٠)، والترمذي (٢٩٦٤)، وأحمد (١/ ٢٩٥)، والطبراني في الكبير (١١٧٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرج البخاري نحوه (٤٠) عن البراء ﷺ.

يعني: صلاتكم قبل التعديل، فلا تضيع أعمالكم، فسمّي الصلاة إيمانًا.

وقد ذكرنا أنّ النبيّ ﷺ جعل الأعمال كلها من الإيمان، في قوله: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**»[1]، الشعب: هي القطع التي إذا تفرّقت ضعفت، وإذا اجتمعت كمل معناها، إنّ هذه الشعب قلّما اجتمعت في قلب المؤمن وفي عمله إلا أصبح مؤمنًا كامل الإيمان، وإذا نقصت واحدة نقص إيمانه، وهكذا إلى أن يذهب الإيمان كلّه من قلبه، فجعل كلمة التوحيد من الإيمان، وهي لفظ من اللسان، وجعل إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان، وهي من عمل الأركان، وجعل الحياء من الإيمان، وهو اعتقاد بالجنان، فدخل في ذلك كلّ ما شابه هذه الأشياء، وهذا معتقد أهل السنّة.

وأما معتقد أهل الحنفيّة، فقد عرفنا أنّه الاعتقاد والقول، وأنّ بعضهم جعل الخلاف لفظيًّا، والنزاع بين السنّة والحنفيّة لفظيًّا، والصحيح أنّه معنويٌّ؛ وذلك لأن الإنسان إن لم يعتقد أنّ الأعمال من مسمّى الإيمان، ضعف حرصه على الأعمال الصالحة، ولم يبالِ بالسيّئات؛ لاعتقاده أنّها لا تنقّصُ الإيمان، وأن الحسنات لا تزيد الإيمان، وأنّها ليست من الإيمان، فيضعف حرصه واجتهاده.

لأجل ذلك اهتمّ أهل السنّة بمن يعمل، أي بمعتقد هذا الاعتقاد ومقرّه، وذكر البخاري أنّه روايةً عن مائتين وسبعين عالمًا، كلّهم يقول: الأعمال من

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

مسمّى الإيمان، يعني: أنّه اختار مشايخه الذين روى عنهم في «الصحيح»، لا خارج «الصحيح»، وبلغ عددهم ما بلغ من الذين يقولون: إن الأعمال من مسمّى الإيمان، وفضّلهم على الذين يقولون: إن الأعمال ليست من الإيمان، مع كثرتهم في زمانه.

هذا دليل على اهتمام السلف - رضي الله عنهم - بعقيدتهم، وتحرّيهم في أخذها، ومعرفتهم بمن هو أهل أن يروى عنه، ومن هو ليس أهلًا لذلك.

قال الشارح:

وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَأَقَرَّ بِلِسَانِهِ، وَامْتَنَعَ عَنِ العَمَلِ بِجَوَارِحِهِ: أَنَّهُ عَاصٍ للَّهِ وَرَسُولِهِ، مُسْتَحِقٌّ الوَعِيدَ، لَكِنْ فِيمَنْ يَقُولُ: إِنَّ الأَعْمَالَ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي مُسَمَّى الإِيمَانِ، مَنْ قَالَ: لَـمَّا كَانَ الإِيمَانُ شَيْئًا وَاحِدًا، فَإِيمَانِي كَإِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا! بَلْ قَالَ: كَإِيمَانِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيهِمُ السَّلَامُ! وَهَذَا غُلُوٌّ مِنْهُ، فَإِنَّ الكُفْرَ مَعَ الإِيمَانِ كَالعَمَى مَعَ البَصَرِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ البُصَرَاءَ يَخْتَلِفُونَ فِي قُوَّةِ البَصَرِ وَضَعْفِهِ، فَمِنْهُمُ الأَخْفَشُ وَالأَعْشَى، وَمَنْ يَرَى الخَطَّ الثَّخِينَ دُونَ الرَّفِيعِ إِلَّا بِزُجَاجَةٍ وَنَحْوِهَا، وَمَنْ يَرَى عَنْ قُرْبٍ زَائِدٍ عَلَى العَادَةِ، وَآخَرَ بِضِدِّهِ.

وَلِهَذَا ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ـ قَالَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: (وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ)، يُشِيرُ إِلَى أَنَّ التَّسَاوِيَ إِنَّمَا هُوَ فِي أَصْلِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ التَّسَاوِي مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، بَلْ تَفَاوُتُ نُورِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهَا، لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالشَّمْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ، وَآخَرُ كَالْمِشْعَلِ العَظِيمِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الْمُضِيءِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ، وَلِهَذَا تَظْهَرُ الأَنْوَارُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَيْمَانِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ عَلَى هَذَا المِقْدَارِ، بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ نُورُ هَذِهِ الكَلِمَةِ وَعَظُمَ أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ، بِحَيْثُ إِنَّهُ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَى حَالٍ لَا يُصَادِفُ شَهْوَةً وَلَا شُبْهَةً وَلَا ذَنْبًا إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذِهِ حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، فَسَمَاءُ إِيمَانِهِ قَدْ حُرِسَتْ بِالرُّجُومِ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ، وَمَنْ عَرَفَ هَذَا،

عَرَفَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى»[1]، وَقَوْلِهِ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[2]. وَمَا جَاءَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الأَحَادِيثِ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى ظَنَّهَا بَعْضُهُم مَنْسُوخَةً، وَظَنَّهَا بَعْضُهُمْ قَبْلَ وُرُودِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، وَحَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى نَارِ المُشْرِكِينَ وَالكُفَّارِ، وَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الدُّخُولَ بِالخُلُودِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

عرفنا أنّ هذا القول ـ الذي هو اعتقاد أنّ الأعمال ليست من مسمّى الإيمان ـ يرى أهله أنّهم إذا حقّقوا الاعتقاد وصحّ اعتقادهم، نتج عنه بعض الأعمال وأثمرت، وقد يستدلّون بعطف الأعمال على الإيمان بمثل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

فالجواب: أنّ المراد هنا بالإيمان أصله، والمراد بالأعمال نتيجته وثمرته، أو تخصيص الصالحات يعني أكثر من الأعمال الصالحة، وبكلّ حال الأعمال لا بدّ أنّها داخلة في الإيمان؛ وذلك لأنّ الإيمان الذي هو قوّة اليقين وقوّة التصديق له علامات، وله آثار وله زمام، ومن أرفعها وأعلاها ظهورها على بدن صاحبها،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري(٤٢٥)، ومسلم(٣٣) عن عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فيكون هذا كلّه إيمانًا.

إذا رأينا العبد يغضّ بصره عما لا يحلّ قلنا: هذا هو الإيمان، وإذا رأيناه يصون سمعه عمّا لا يحلّ قلنا هذا هو الإيمان، وإذا رأيناه يحفظ لسانه عن الكلام القبيح، والسيء، أو سمعناه يتلفّظ بالذكر وبالدعاء والنصح والتعليم قلنا هذا هو الإيمان، وإذا رأينا زهده وتواضعه وتقلّله من المشتبهات وبعده عن الآثام، قلنا: هذا هو الإيمان هذا هو المؤمن، يعني ظهر الإيمان عليه .

وأسباب ذلك هو أنّ الأدلّة التي وردت في اتجاه أهل التوحيد أو أصل كلمة الإخلاص، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّـهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى**»، وقوله ﷺ: «**من قال: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللَّهِ**»[1]، وقال ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الجَنَّةَ**»[2]، وأخبر عن شفاعته يوم القيامة أنّها تنال من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، وأشباه ذلك من هذه الأحاديث.

هذه الأحاديث تمسّك بها أهل الإرجاء الذين غلّبوا جانب الرجاء، وقالوا: يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ويكفي أن ينوي الإخلاص، ولا يشترط أن يعمل، ولا يشترط أن يكفّ عن السيئات؛ لأنها لم تشترط في هذه الأحاديث، ولكن هذا

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٩) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

خطأ. والصواب: أنّ من قال هذا، فلا بدّ أن يعمل بموجبه، وأنّ (لا إله إلَّا الله) قد قيّدت بالقيود الثّقال، وجعل لها شروط، وشروطها السبعة هي المذكورة في قول الشاعر:

عِلْمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلاصٌ وَصِدْقُكَ مَعَ مَحَبَّةٍ وَانْقِيَادٍ وَالقَبُولِ لَهَا[1]

وبعضهم جعل لها شرطًا ثامنًا، ونظمه بقوله:

وَزِيْدَ ثَامِنُهَا الكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا سِوَى الإِلَه مِنَ الأَنْدَادِ قَدْ أُلِهَا

ما دام هذه الشهادة قد قيّدت بتلك القيود، فلا بدَّ أنّ التصديق يتبعه العمل، وإلا فلا يكون القول صادقًا، ولا يحصل صاحبه على النجاة.

عرفنا أنّ النبيّ ﷺ عندما أخبر بنجاة أهل هذه الكلمة، أراد أهلها الذين تقع في قلوبهم موقعًا، ويكون لها أثر، وهذا الأثر هو النتيجة التي هي العمل، وإذا قالوا: لا إله إلا الله، أي: لا معبود إلا الله؛ عبدوه بكلّ أنواع العبادة، فذلك هو التألّه له، وترك التألّه لغيره، فأمّا إذا لم يعبدوه فلا يصدق عليهم أنّهم اتخذوه إلهًا.

وأما الذين قالوا في هذه الأحاديث الكريمة إنّ كلمة لا إله إلا الله محمولة على أُولي الأمر، فإن بعض العلماء يقول: إنّ قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَاس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله...**»[2]. محمول على من دخل الإسلام أوّل مرّة، فإنّه يُكتفى منه بذلك، ولكن بعد ذلك ينظر في حاله هل

---

(١) راجع شرح هذا البيت (١/ ٧٠).

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

يستمرّ في العمل بمعنى (لا إله إلا الله)، فيكفّ عنه كفًّا تامًّا، أو لا يستمرّ في العمل بها، ولا يؤدّي حقوقها؟ وحينئذٍ يعود إلى ما كان عليه، فيقاتل عليها؛ لأنّه قالها ولم يعمل بها.

وأمّا الذين حملوا معنى «من قال: لا إِلَهَ إلا اللَّـهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللَّهِ»، وحديث: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى»، قالوا: المراد هنا نار الكفار، يعني: الذين يخلدون في النار، يعني: أنّه إذا دخلها لا يخلد فيها، أي: لا يدخل نار الكفار. وهذا فيه نظر؛ لأنه خلاف الأحاديث المطلقة.

فإذًا تحمل أحاديث الرجاء التي فيها النجاة لأهل (لا إله إلا الله)، على أنّ المراد من قالها صادقًا من قلبه، وإذا قالها صادقًا من قلبه، انطلقت جوارحه بالعمل، فأنت إذا دعوت إنسانًا إلى (لا إله إلا الله)، نطق وقال: أقول: لا إله إلا الله، وأقول: إنّ محمدًا رسول الله، طالبه بعد ذلك بمعناها، ما معنى الإله؟ أليس الإله المعبود؟ نطالبك أن تعبده؛ لأنك أقررت أنّه يجب أن يعبد، فإن من العبادة أركان الإسلام، ومن العبادة واجبات الإسلام، ومن العبادة مكمّلات الإسلام، ومن العبادة ترك المحرّمات، طالبه بمعنى ذلك، وقل: هذا هو التألّه، وإن أتيت بذلك فأنت صادق، وإلا فأنت منافق؛ لأن الذي يقولها ولا يعمل بها شبيه بالمنافقين، فإنّ المنافقين يقولونها ليحموا بذلك أبدانهم وأموالهم، أما المؤمنون، فإنّهم يطبقونها ويقولونها.

قال الشارح:

وَالشَّارِعُ صَلَوَاتُ اللَّـهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ حَاصِلًا بِمُجَرَّدِ قَوْلِ اللِّسَانِ فَقَطْ، فَإِنَّ هَذَا مِنَ المَعْلُومِ بَالاضطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلامِ، فَإِنَّ المُنَافِقِينَ يَقُولُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ تَحْتَ الجَاحِدِينَ، فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ الأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلُوبِ.

وَتَأَمَّلْ حَدِيثَ البِطَاقَةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، وَيُقَابِلُهَا تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِنْهَا مَدُّ البَصَرِ، فَتَثْقُلُ البِطَاقَةُ، وَتَطِيشُ السِّجِلَّاتُ، فَلَا يُعَذَّبُ صَاحِبُهَا[1]. وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مُوَحِدٍ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ البِطَاقَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ قَاتِلِ المِئَةِ[2] مِنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ، الَّتِي لَمْ تَشْغَلْهُ عِنْدَ السِّيَاقِ عَنِ السَّيْرِ إِلَى القَرْيَةِ، وَحَمَلَتْهُ وَهُوَ فِي تِلْكَ الحَالِ أَنْ جَعَلَ يَنُوءُ بِصَدْرِهِ وَهُوَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ المَوْتِ.

وَتَأَمَّلْ مَا قَامَ بِقَلْبِ البَغِيِّ مِنَ الإِيمَانِ، حِينَ نَزَعَتْ مُوقَهَا، وَسَقَتِ الكَلْبَ مِنَ الرَّكِيَّةِ، فَغُفِرَ لَهَا[3].

وَهَكَذَا العَقْلُ أَيْضًا، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَاضُلَ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، مُسْتَوُونَ

(١) حديث البطاقة تقدم تخريجه (١/ ٤٣١).

(٢) انظر الحديث عند البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٣) انظر الحديث عند البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

فِي أَنَّهم عُقَلَاءُ غَيرُ مَجَانِينَ، وَبَعْضُهُمْ أَعْقَلُ مِنْ بَعْضٍ.

وَكَذَلِكَ الإِيجَابُ وَالتَّحْرِيمُ، فَيَكُونُ إِيجَابٌ دُونَ إِيجَابٍ، وَتَحْرِيمٌ دُونَ تَحْرِيمٍ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ طَرَّدَ ذَلِكَ فِي العَقْلِ وَالوُجُوبِ.

قال الشيخ:

مرّ بنا أنّ كلمة (لا إله إلا الله) لا بدّ أن يعمل بها، وأنّ الذين يقولونها ولا يعملون بها هم المنافقون، وهم في الدّرك الأسفل من النار تحت الكفار؛ لأنّهم أخلّوا بشروطها، وهو العمل والتطبيق، وأنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فلم تنفعهم هذه الكلمة إلّا نفعًا دنيويًا، وذلك بأنّهم حقنوا بها دماءهم، وأحرزوا بها أموالهم، وأظهروا أمام الناس أنّهم مؤمنون، والله مطّلع على ما في قلوبهم، فلم تنفعهم هذه الكلمة حين صدرت عن غير اعتقاد؛ لأنّهم لم يعملوا بها حقّ العمل.

وأما أهل الإيمان الذين يقولونها ويعملون بمقتضاها، وتصدر عن قلوبهم، وتطمئن قلوبُهم بمدلولها، ويعرفون معناها، ويعملون بمقتضاها، هؤلاء هم أهل الإيمان حقًا، وهم بلا شكّ متفاوتون بهذه القوّة، وذلك بحسب كثرة الأدلّة، وبحسب قوة الأعمال أو كثرتها، فكلّما كثرت الأعمال الصالحة قوي الإيمان بالقلب. ولأجل هذا نقول: إن الأعمال من مسمّى الإيمان، وأنّها تزيد الإيمان، وأن السيئات تنقص الإيمان، أو ترك الصالحات ينقص الإيمان، فإذا كان الإيمان متفاوتًا، فإنّه يتفاوت قدره في القلب، الإيمان الذي في القلب يتفاوت، والإيمان

الذي على الأبدان يتفاوت.

وقد مثّل الشارح الإيمان الذي في القلوب بالبصر الذي بالعين؛ وقال: الناس يتفاوتون بالأبصار، تقول: هؤلاء كلّهم مبصرون، ولكنّ بعضهم أقوى بصرًا من بعض، فبعضهم يرى الشخص من بعيد، من مسافة ثلاثة أميال أو أربعة، ويميّزه بشخصه ويعرفه، وبعضهم لا يعرفه، ولو كان بينه وبينه خمسة أمتار أو نحوها، بعضهم يقرأ خطًا دقيقًا من دون نظارة ونحوها، وبعضهم لا يقرؤه ولو كان كبيرًا أو ما أشبه ذلك، كما هو مشاهد، فإذا كان هذا اختلافهم بالبصر، فكذلك اختلافهم بالعقول؛ لأن العقل أيضًا يتفاوت الناس فيه، فمنهم من يكون فطِنًا ذكيًّا، ومنهم من يكون بليدًا غاية البلادة والغباوة، ومنهم من يكون بين ذلك.

إذا كان هذا تفاوت في هذين الأمرين، وهما من خلق الله تعالى وتدبيره، فنقول: كذلك الإيمان الذي في القلب، فهو يقوى في حقّ أهل الإيمان، الذين كثرت الأدلّة في قلوبهم، فرسخ الإيمان في قلوبهم، وآخرون ضعُف الإيمان في قلوبهم بقلّة الأدلّة أو بعدمها.

ولأجل ذلك فإن البعض من أهل الإيمان إذا جاءته شبهة أو دعاه داع إلى الضلال، أو إلى الضد، أو إلى الردّة، ترك الإسلام وترك الصلاة، وترك الأعمال وارتدّ، وما ذاك إلّا لضعف الإيمان في قلبه، وضعف الأدلّة التي بني عليها هذا الإيمان.

وبعضهم الإيمان في قلبه أرسى من الجبال، لا تزعزعه الشبهات والتشكيكات، ولا الإيرادات التي يوردها عليه دعاة الضلال، ولو أتوه بكلّ

دليل عندهم، ولو ألقوا عليه كل شبهة، فإن إيمان قلبه يحرق تلك الشبهات، ويزيلها؛ لأنّ قلبه مستنير.

وقد سبق كلام الشارح ـ رحمه الله ـ حيث مثّل الإيمان بنور القلب، إذا كان فيه إيمان فإنّ فيه نورًا، والأنوار تتفاوت، فمنهم من يكون النور الذي في قلبه كنور الشمس، والذي يضيء على الدنيا، ومنهم من يكون كالسراج المتوسط، ومنهم من يكون كالسراج الضعيف، أو كالشمعة الضعيفة وما أشبهها، هذا بسبب المواد التي تمدّ ذلك النور.

وكذلك النور الذي في القلبي يمده الأدلّة من آيات الله تعالى، ومن مخلوقاته، ومن أحكامه، ومن شرائعه، ومن المعجزات التي جرت على أيدي رسله، وعلى أيدي أوليائه، تواردت على ذلك القلب، فتمكّنت فيه ورسخت، فليس له حيلة في تضعيفها أو إزالتها، وإذا رأيت إنسانًا إيمانه ضعيف، فإنّك تجده قليل الأعمال كثيرًا ما يترك الصلوات، ويتكاسل عنها، ويرتكب بعض المنهيّات، ونحو ذلك. والسبيل إلى إنقاذه أن تحثّه على ما يقوِّي إيمانه، فإن قدرت فإنك تكرّر عليه الأدلّه والآيات والبراهين التي تصل إلى قلبه، وتكرّر عليه ما يبطل الشبهات التي امتلأ بها قلبه، فإن لم تقدر على ذلك، فأرشده إلى ما يقرؤه أو ما يسمعه من النشرات، أو من الكتب والمؤلفات التي تحتوي على براهين وآيات ودلالات واضحات. وبذلك يقوى الإيمان في قلبه، وتزول تلك الأسباب التي تُضعفه.

فعند ذلك ينبعث بدنه كله بالأعمال وجوارحه بالصالحات، فلا ينظر إلّا نظرات إيمان، ولا يسمع إلا سماع إيمان، ولا يتكلّم إلا كلام إيمان، ولا يهمّ بقلبه

إلا بما هو إيمان، ولا يَخشَع إلا إلى إيمان، ولا يعمل بيديه إلا بما هو إيمان، ولا ينفق ماله إلا فيما هو إيمان، وهكذا، فهذا ونحوه ثمرات الإيمان الذي هو أصل في القلب، ثم بعد ذلك ينبعث ذلك على جوارحه.

قال الشارح:

وَأَمَّا زِيَادَةُ الإِيمَانِ مِنْ جِهَةِ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ مَا وَجَبَ بَعْدَ نُزُولِ القُرْآنِ كُلِّهِ، وَلَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنَ الإِيمَانِ المُفَصَّلِ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مَا يَجِبُ عَلَى مَنْ بَلَغَهُ خَبَرُهُ، كَمَا فِي حَقِّ النَّجَاشِيِّ وَأَمْثَالِهِ.

وَأَمَّا الزِّيَادَةُ بِالعَمَلِ وَالتَّصْدِيقِ، المُسْتَلْزِمُ لِعَمَلِ القَلْبِ وَالجَوَارِحِ، فَهُوَ أَكْمَلُ مِنَ التَّصْدِيقِ الَّذِي لَا يَسْتَلْزِمُهُ، فَالعِلْمُ الَّذِي يَعْمَلُ بِهِ صَاحِبُهُ أَكْمَلُ مِنَ العِلْمِ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِهِ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلِ اللَّازِمُ، دَلَّ عَلَى ضَعْفِ المَلْزُومِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ المُخْبَرُ كَالمُعَايِنِ»[1]، وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا أُخْبِرَ أَنَّ قَوْمَهُ عَبَدُوا العِجْلَ لَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدْ عَبَدُوهُ أَلْقَاهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِشَكِّ مُوسَى فِي خَبَرِ اللَّهِ، لَكِنَّ المُخْبَرَ، وَإِنْ جَزَمَ بِصِدْقِ المُخْبِرِ، فَقَدْ لَا يَتَصَوَّرُ المُخْبَرَ بِهِ فِي نَفْسِهِ، كَمَا يَتَصَوَّرُهُ إِذْ عَايَنَهُ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ الخَلِيلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وَأَيْضًا: فَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الحَجُّ وَالزَّكَاةُ مَثَلًا، يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يَعْلَمَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَيُؤْمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَهُ مَا لَا يَجِبُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا مُجْمَلًا، وَهَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الإِيمَانُ المُفَصَّلُ.

---

(١) أخرجه بنحو هذا اللفظ: أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان (١٤/ ٩٦)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٢)، والحاكم (٢/ ٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ أَوَّلَ مَا يُسْلِمُ، إِنَّمَا يَجِبُ عَلَيْهِ الإِقْرَارُ الْمُجْمَلُ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِوُجُوبِهَا وَيُؤَدِّيَهَا، فَلَمْ يَتَسَاوَ النَّاسُ فِيمَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الإِيمَانِ.

قال الشيخ:

من عقيدة أهل السنة والجماعة: أنَّ الإيمان الذي في القلب والذي في اللسان وعلى الجوارح يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . وقد دلَّ على ذلك أدلة كثيرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، كيف زادهم إيمانًا؟ أي: تصديقًا لخبر الله، وعملًا بآثار ذلك التصديق، الله أخبرهم بأنه ينصرهم، وبأنه لا يخذلهم، فلما جاءهم هذا الخبر مازادهم إلا تصديقًا بالله تعالى وبخبره فدل على أن الإيمان يزيد، وكل ما هو قابل للزيادة فهو قابل للنقص.

وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وتلاوتها: هي سماعها وقراءتها، وكيف تزيدهم إيمانًا؟ يعني: أنهم يعملون بها، ويصدقون بها، ويعرفون مدلولها، فيكون ذلك زيادةً في أعمالهم.

وقال تعالى في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، السكينة التي أنزلها في قلوبهم: هي الطمأنينة إلى خبر الله وخبر رسوله ﷺ، والثقة بأنه ينصر من نصره، كما في الآيات الأخرى،

فهذه الثقة زادتهم إيمانًا، فدلَّ على أنهم كانوا مؤمنين، وأن هذه السكينة زادتهم إيمانًا إلى إيمانهم.

ولا شك أنها زيادة محسوسة، بحيث زادت أعمالهم، وكثرت حسناتُهم، وقلَّت سيئاتهم، ويكون ذلك من زيادة الحق والإيمان.

هذه بعض الأدلة على زيادة الإيمان، والشارح يقول: إن الزيادة هي زيادة الأعمال؛ لأن الذي عمل بالشريعة أولَ ما نزلت عملت بأعمال قليلة، ولما زادت الشرائع زادت أعماله، ومعلوم أن الذين أسلموا بمكة في أول الإسلام، ما فُرضت عليهم الطهارةُ ولا الصلاة ولا الصوم ولا الصدقة ولا الجهاد، وما فرضت عليهم الأركان كلها إلا الشهادتان، وظلوا عشر سنين قبل أن تفرضَ عليهم الصلاة، والذين أسلموا في السنة الثامنة من الهجرة أسلموا وقد تمت شرائع الإسلام، فصاروا يصلّون ويزكّون ويصومون ويجاهدون ويحجّون، ويعلمون ويعملون ويتعلمون القرآن ويقرؤونه، فأعمالُهم كانت أكثر من أعمال الأولين الذين اقتصروا على التوحيد وعلى الإخلاص، وهذا دليلٌ على تفاوت الإيمان بكثرة الأعمال، وهذه حجة لبعض العلماء في زيادة الإيمان، أن المراد بها زيادة الأعمال وكثرتها.

ومثَّل الشارح أيضًا بمن بلغته الشريعة، فآمن بها ولم تبلغه تفاصيلها؛ كالنجاشي ملك الحبشة، فإنه لما أسلم لم تبلُغه تفاصيل الشريعة من أركان الإسلام والمحرمات في الدين، وكذلك القرآن الذي أُنزلَ كلُّه ما سمع منه إلا بعضه، ولم يعمل به كله، فإيمانه بحسب ما وصل إليه من الأركان ومن الأحكام، فهو أقلُّ

نسبيًا من الذين حضروا التنزيل، فآمنوا به مفصَّلًا، وعملوا به عملًا كاملًا، فهؤلاء أكثر عملًا، فهم أقوى إيمانًا وأزيد، هكذا فسَّر بعضُ العلماء زيادةَ الإيمان بكثرة الأعمال، والصحيح أن التصديق الذي في القلب يتفاوت.

وقد ذكر الشارح خبر صاحب البطاقة[1] الذي أخبر النبي ﷺ بأنه يُدعى وله تسعةٌ وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، مكتوبٌ فيها سيئاته، فيعترف بذلك كله، ثم يخرج له بطاقة صغيرة مكتوب فيها الشهادتان، فتوضع البطاقة في كفة والسجلات في كفة، فتطيش السجلات، وتثقل البطاقة؛ لأن هذا الشهادة صدرت من صميم قلبه، صدرت وهو موقن بها يقينًا صادقًا وإيمانًا قويًا، فلما قالها بهذه النية وبهذه العقيدة محت جميع ما سبقت، وكفّرت السيئات كلها، وأحرقتها إحراقًا مُزيلًا لآثارها، فلم يبقَ لها جرمٌ توزنُ به، فكانت هذه الشهادة هي التي ثقلت بتلك الأعمال.

واستدلَّ الشارح أيضًا بقصة الرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا من بني إسرائيل[2]، لَمَّا سأل: هل له من توبة؟ فأفتاه عابد بأن لا توبة له، فقتله وتمَّم به المائة، ثم سأل بعد ذلك عالمًا فأفتاه بأن الله يتوب عليه، ودلَّه على قرية بها أُناس صالحون، فجاء إليها مهاجرًا فارًّا بدينه، فأدركه الموت وهو في الطريق، فلما أدركه وكان قد وقر في قلبه محبة تلك القرية؛ أخذ ينأى بصدره ويقرب إليها، ولو أقلّ

---

(١) حديث البطاقة تقدم تخريجه (١/ ٤٣١).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٧).

قليل، فكان فعله هذا دليل على قوة إيمانه وقوة تصديقه، مما جعله يلحق بأهل تلك القرية وتُقبل توبته، وهذا دليل على أنّ الإيمان الذي في القلب إذا كان قويًا ظهرت آثارُه وعلاماته.

واستدل الشارح بقصة امرأة بغيّ[1]، يعني: زانية، ثم إنها تابت، ولما رأت كلبًا يلهث على رِكيَّة وقد كان يموت عطشًا، نزعت مُوقها، أي: خفها، وملأته ماءً، وسقت ذلك الكلب فشكر الله لها فغفر لها، وذلك دليل على أن هذه رحمة منها بهذه البهيمة، وأن الذي حملها على ذلك هو رجاؤها المغفرة من الله، وتعلّق قلبها بربها، وأنه الذي يثيبها على العمل، فكان هذا العمل الصادق الخالص نابعًا من إيمان قوي وتصديق ثابت، فأصبح مكفِّرًا لهذه السيئات التي سبقت .

وبكلِّ حالٍ، فالأعمال التي تخرج من القلب تكون على البدن، فإذا كان البدن عاملًا بها، زاد الإيمان الذي في القلب، فمن تكلم بكلمة من الخير زاد إيمانه، ومن تكلم بكلمة شر أو سوء نقص إيمانه، وإذا أنفق لله تعالى درهمًا أو دينارًا أو شيئًا يسيرًا يبتغي به وجه الله زاد إيمانه، وإن أنفقه فيما يسخط الله من لهو وباطل وكفر وضلال نقص إيمانه، وإن مشى خطوات إلى ذكر وإلى مسجد وإلى علم وإلى عبادة من العبادة زاد إيمانه، وإن مشى خطوة أو خطوات إلى لهو وباطل ولعب ومعصية من المعاصي وما أشبهها، فمشيه هذا يُنقِّص إيمانه .

هذا بمجرد الأفعال، ومعلومٌ أن الصلوات تزيد الإيمان، وأن أكل الحرام

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٧).

ينقص الإيمان، وأن النكاح الحلال بالنية يزيد الإيمان، والنكاح الحرام ينقص الإيمان، وكذلك الكسب الحلال والنفقة منه يزيد الإيمان، والكسب الحرام والنفقة منه ينقص الإيمان، ويقال كذلك في الكلام السيء والكلام الحسن، والذكر بأنواعه والدعاء والأمر بالخير وتعلُّم العلم وتعليمه يزيد به الإيمان، وتعلم الباطل والسوء والكلام السيء والسباب والشتائم ونحوها ينقص الإيمان، وهكذا، فعلى المسلم أن يتفقد نفسه وأعماله، ويحرص على أن يكون في زيادة لا في نقصان .

قال الشارح:

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ قَامَ بِقَلْبِه التَّصْدِيقُ الجَازِمُ، الذي لَا يَقْوَى على مُعَارَضَتِه شَهْوَة وَلَا شُبْهَة، لَا تَقَعُ معه مَعْصِيَة، وَلَوْلَا مَا حَصَلَ له مِنَ الشَّهْوَة وَالشُّبْهَة أَوْ إِحْدَاهُمَا لَمَا عَصَى، بَلْ يَشْتَغِلُ قَلْبُه ذَلِكَ الْوَقْتَ بِمَا يُوَاقِعُه مِنَ المَعْصِيَة، فَيَغِيبُ عنه التَّصْدِيقُ وَالْوَعِيدُ فَيَعْصِي. وَلِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - قَالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1] الحَدِيث. فَهُوَ حِينَ يَزْنِي يَغِيبُ عنه تَصْدِيقُه بِحُرْمَةِ الزِّنَى، وَإِنْ بَقِي أَصْلُ التَّصْدِيقِ في قَلْبِه، ثُمَّ يُعَاوِدُه. فَإِنَّ المُتَّقِينَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]. قَالَ لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: «هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بِالذَّنْبِ فَيَذْكُرُ اللَّهَ فَيَدَعُهُ»[2]. وَالشَّهْوَة وَالْغَضَبُ مَبْدَأُ السَّيِّئَاتِ، فَإِذَا أَبْصَرَ رَجَعَ.

قال الشيخ:

يقرر - رحمه الله - مذهب الحنفية في الإيمان أنه التصديق، ومذهب الأئمة الباقين أنه التصديق باللسان والعمل بالأركان والاعتقاد بالجنان، فكأنه يقول: إن الخلاف لغويٌّ. ولكن الصحيح أن الخلاف ليس لغويًا فقط، بل هو لغوي ومعنوي، ولكنه اعتذر بأن الإنسان إذا صدَّق تصديقًا جازمًا بربوبية الله سبحانه

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٢٥).

وإلهيته، وصدق أيضًا بنبوة النبي ﷺ، وصدق بالجنة والنار، وصدق بالبعث والنشور، تصديقًا لا يكون معه شكٌ ولا شبهة، فإنه - والحال هذه - يتمسك بالدين، ولا تقع منه معصية، ولا يخالف شعائر الدين. هذا صحيح، ولكن إذا اعتقد أن الإيمان هو التصديق فقط، وأن الأعمال تخرج عن مسمى الإيمان، فقد يخل ببعض الأعمال الصالحة، نظرًا إلى أنها لا تنقص الإيمان الذي أمر الله به، والذي دعا به عباده في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [البقرة:١٠٤].

فالشارح يعتذر عن هذا الخلاف، ويخبر بأن الشهوة والشبهة أو إحداهما هي التي تحمل العاصي على الوقوع في المعصية، مع كونه مصدقًا، حتى ولو كان يعتقد أن الإيمان قول وعمل، فيشتغل قلبه بهذه المعصية، ويغيب عنه التصديق الذي هو التصديق بالله وبربوبيته، ويغيب عنه الوعيد الذي هو وعيدالله لمن عصى، فيقع في المعصية، واستدل بقول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ...» الحديث. والذي يدل على أن الإيمان ينتفي من الزاني ومن السارق ومن شارب الخمر حالة مواقعته لهذه المعاصي، يقول بعض العلماء: إنه لا يخرج من الإيمان كليًا، ولكن ينقص إيمانه أو يُنزع منه إيمانه ثم يعود .

يقول الشارح - رحمه الله -: (فَهُوَ حِينَ يَزْنِي يَغِيبُ عنه تَصْدِيقُه بِحُرْمَةِ الزِّنَى، وَإِنْ بَقِي أَصْلُ التَّصْدِيقِ في قَلْبِه)، أي: أنه مصدق بالله تعالى، ومصدق بشرعه، وبعد ذلك يرجع إليه هذا الإيمان، واستدل بأن الله تعالى وصف المتقين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم

مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠١]. والآية تدل على أنهم من أهل التقوى، ومن أهل الإيمان، ولكن يعتريهم وسوسة من الشيطان، يكون من آثارها أن يغيب عنهم شيء من ذكر الله تعالى، ويقعون في معصية أو غفلة، ثم يتذكرون ويستعيذون من الشيطان، ويعودون إلى بصيرتهم، وعلمهم بالتقوى وخوفهم من الله.

ولهذا نقل عن مجاهد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بِالذَّنْبِ فَيَذْكُرُ اللَّهَ فَيَدَعُهُ»، وهذا صحيح، ومعناه أن الشيطان إذا وسوس لهم انتبهوا وتذكروا واستعاذوا من الشيطان، وتركوا ذلك الذنب.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: (**وَالشَّهْوَة وَالْغَضَبُ مَبْدَأُ السَّيِّئَاتِ**)، صحيح أن الشهوة إلى الحرام، كالزنى، وشرب الخمر، والقتل، والكبر، ونحو ذلك، تدفع إلى السيئات، وإلى اقترافها. وكذلك الغضب قد يحمله على أن يتكلم بكلام قبيح، يكون من آثاره أن يقع في معاصٍ، ويقع في ذنوب كبيرة، كسخرية، واستهزاء، وسب للدين، ونحو ذلك.

ولذلك كان النبي ﷺ ينهى عن الغضب، جاءه رجل وقال له: أوصني، قال: «لَا تَغْضَبْ»، فرددها مرارًا، فقال: «لا تغضب»[1]. فالغضب والشهوة مبدأ السيئة التي تحمل عليها، فإذا أبصر وتعقل تراجع وترك ما يقوم به، وما تذهب إليه شهوته والغضب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الشارح:

ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٢]، أي: وَإِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ تَمُدُّهُمُ الشَّيَاطِينُ فِي الْغَي ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لَا الْإِنْسُ تُقْصِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمْسِكُ عَنْهُمْ»[1]. فَإِذَا لَمْ يُبْصِرْ يَبْقَى قَلْبُه فِي عَمَى، وَالشَّيْطَانُ يَمُدُّه فِي غَيِّه، وَإِنْ كَانَ التَّصْدِيقُ فِي قَلْبِه لَمْ يَكْذِبْ، فَذَلِكَ النُّورُ وَالْإِبْصَارُ، وَتِلْكَ الخَشْيَةُ وَالخَوْفُ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِه. وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يُغْمِضُ عَيْنَيْه فَلَا يَرَى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ، بِمَا يَغْشَاه مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ، لَا يُبْصِرُ الحَقَّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى كَعَمَى الْكَافِرِ. وَجَاءَ هَذَا المعنى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ: أنه قَالَ: «إِذَا زَنَى الْعَبْدُ نُزِعَ منه الْإِيمَانُ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إليه»[2].

قال الشيخ:

قولـه تعـالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾، الضمير للعصاة، يعني: إخوانهم من المشياطين، إخوان العصاة ونحوهم، يمدهم الشيطان في الغي، ويوقعهم في الذنب، ويزين لهم اقترافه، ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾، ذكر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: «لَا الْإِنْسُ تُقْصِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَلَا الشَّيَاطِينُ تُمْسِكُ

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٩).

(٢) سيأتي تخريجه في كلام سماحة الشيخ حفظه الله.

عَنْهُمْ»، هكذا جاء في الأثر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، الإنس تستمر في السيئات ولا تتركها؛ لوسوسة الشياطين، ومع ذلك فإن الشياطين لا تمسك عنهم، بل تدفعهم إلى المداومة على السيئات، وعلى البدع، وعلى الكفر، ونحو ذلك. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣].

قوله: (فَإِذَا لَمْ يُبْصِرْ يَبْقَى قَلْبُه في عَمَى، وَالشَّيْطَانُ يَمُدُّه في غَيِّه، وَإِنْ كَانَ التَّصْدِيقُ في قَلْبِه لَمْ يَكْذِبْ)، هكذا وصف الله تعالى الكفار بالعمى، في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، نفى الله عنهم السمع، والكلام، والبصر، والعقل، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وهذا أشد من عمى العين، وكذلك فقد الجوارح معنويًا أشد من فقدها حسيًّا، فالكفرة ونحوهم لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، هكذا وصفهم الله. وقال تعالى في حقهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٦].

فالإنسان إذا لم يبصر بعين قلبه يبقى قلبه في العمى، ويبقى الشيطان يمده في غيه، ويدفعه إلى الكفر أو البدع أو المعاصي، ولو كان التصديق في قلبه ما كَذَبَ ولا كَذَّبَ، ولا وقع في المعاصي، أعني التصديق الجازم. هكذا يقول الشارح؛ لأنه يؤيد أن التصديق الجازم لا يستمر معه معصية أبدًا.

قوله: (فَذَلِكَ النُّورُ وَالْإِبْصَارُ، وَتِلْكَ الْخَشْيَةُ وَالْخَوْفُ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِه)، بسبب الشهوة وبسبب الشيطان، فإن نور الإيمان وإبصار القلب، وكذلك الخوف من الله تعالى، والخشية، تخرج من قلبه، كما أن الإنسان يغمض عينيه ولا يرى، وهو مع ذلك بصير ليس بأعمى، (فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ، بِمَا يَغْشَاه مِنْ رَيْنِ الذُّنُوبِ)، التي تغطي القلب، فالرين في قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ [المطففين:١٤]، هو الغطاء والغشاء الذي يغطي القلب حتى لا يبصر الحق، وإن لم يكن أعمى، يعني: له عينين يبصر بهما، وكذلك أيضًا لا يشبه الكافر الذي عماه أشد من عمى من فقد بصره، هذا الذي معه تصديق قد يغشى قلبه شيءٌ من الذنوب فلا يبصر الحق، وليس أعمى كعمى الكافر، كما في قوله ﷺ: «إِذَا زَنَى الْعَبْدُ نُزِعَ منه الْإِيمَانُ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إليه». هذا الحديث أخرجه أبو داود(١)، والترمذي(٢)، والحاكم(٣)، عن أبي هريرة ﷺ، وهو تفسير لقوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(٤)؛ لأنه يُنزع الإيمان الذي في قلبه، فإذا تاب أُعيد إليه ذلك الإيمان.

---

(١) برقم (٤٦٩٠).

(٢) برقم (٢٦٢٥).

(٣) في المستدرك (١/ ٢٢).

(٤) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٧).

قال الشارح:

وَإِذَا كَانَ النِّزَاعُ في هذه المسألة بَيْنَ أَهْلِ السنة نِزَاعًا لَفْظِيًّا، فَلَا مَحْذُورَ فيه، سِوَى مَا يَحْصُلُ مِنْ عُدْوَانِ إحدى الطَّائِفَتَيْنِ على الأُخرى، وَالِافْتِرَاقِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إلى بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، مِنْ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَنَحْوِهِمْ، وإلى ظُهُورِ الْفِسْقِ وَالْمَعَاصِي، بِأَنْ يَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ حَقًّا كَامِلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ! فَلَا يُبَالِي بِمَا يَكُونُ منه مِنَ الْمَعَاصِي.

وَبِهَذَا المعنى قَالَتِ الْمُرْجِئَةُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَه. وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا.

قال الشيخ:

يقرر الشارح ـ رحمه الله ـ أن النزاع في هذه المسألة نزاعٌ لفظيٌ، ولكن ذكر العلماء أنه ليس نزاعًا لفظيًّا، بل إنه معنويٌّ.

ولا شك أن التساهل في أن الإيمان بالتصديق ذريعة لأن يتساهل الإنسان بالمعاصي، ويقول: أنا مصدقٌ! فيجهر بالمعاصي. ولذلك تكلم العلماء على المرجئة، وأكثروا من الكلام والقدح فيهم، كما فعل الخلال ـ رحمه الله ـ في كتاب «السنة»، فقد أكثر من النقول في ذم المرجئة، وكذلك تعرضوا لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ونقلوا عنه أقوالًا كثيرة تقدح فيه، وإن كان بعضهم أجاب عنها، كما فعل الإمام عبدالله بن أحمد في كتاب «السنة».

قوله: (فَلَا مَحْذُورَ فيه، سِوَى مَا يَحْصُلُ مِنْ عُدْوَانِ إحدى الطَّائِفَتَيْنِ على

الأُخرى)، لا شك أن هذا محذور؛ لأنه عند المخاصمة قد يتعدى بعضهم على بعض بالسب، والذم، والتشنيع، فيكون من آثار هذا النزاع تعدي بعضهم على بعض، ويكون هذا النزاع وسيلة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء، الذين توسعوا في الإرجاء، وتسهيل المعاصي، وظهور الفسوق والمعاصي؛ حيث يقول: أنا مؤمن مسلم حقًا، كامل الإسلام والإيمان، ويقول: أنا ولي لله، ولا يبالي بما يكون منه من المعاصي، فيفعل الذنوب، ويدعي أنه كامل الإيمان.

وهذا هو السبب في ذم المرجئة، الذين يقولون: (لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَه، كَمَا لا يَنْفعُ مَعَ الكُفْرِ عَمَلٌ)، قال الشارح: (وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا)، فذمَّ ـ رحمه الله ـ من يقول: أنا مؤمن كامل الإيمان، ويمدح نفسه ويزكيها، ثم يقع في المعاصي، كما تفعل المرجئة.

قال الشارح:

فَالْإِمَامُ أَبُو حنيفة ﷺ نَظَرَ إلى حَقِيقَة الْإِيمَانِ لُغَةً مَعَ أَدِلَّةٍ مِنْ كَلَامِ الشَّارِعِ، وَبَقِيَّةُ الْأَئِمَّة - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - نَظَرُوا إلى حَقِيقَتِهِ في عُرْفِ الشَّارِعِ، فَإِنَّ الشَّارِعَ ضَمَّ إلى التَّصْدِيقِ أَوْصَافًا وَشَرَائِطَ، كَمَا فِي الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

يعني: أن الإيمان لغة: هو التصديق، ويمكن أنه استنبط أيضًا من كلام النبي ﷺ، أو من الآيات بعض الأدلة على أن الإيمان هو التصديق، ولعل من أدلته عطف الأعمال على الإيمان في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥]، إلى غير ذلك من الأدلة.

أما الأئمة الثلاثة فإنهم نظروا إلى حقيقة عُرْفِ الشارع، فإن الشارع تصرف بمعنى هذه الكلمات، فأضاف إلى الإيمان أوصافًا تدل على أنه لابد منه، فجعل للإسلام معنى غير الذي كان عليه في اللغة، وكذلك الإيمان أضاف إليه أعمالًا، فضم إلى التصديق أوصافًا وشرائط، كما في الصلاة، فالصلاة لغةً: الدعاء، ومع ذلك جعلها الشارع عَلَمًا على هذه العبادة، والصيام لغةً: الإمساك، جعله الشارع اسمًا يدل على الإمساك المخصوص، والحج لغة: القصد، جعله الشارع اسمًا لهذه الأعمال والأنساك التي يقوم بها الحاج، وكذلك الشرك جعله الشارع عَلَمًا على عبادة مع الله غيره، وكذلك التوحيد ونحو ذلك من المسميات.

قال الشارح:

فَمِنْ أَدِلَّة الْأَصْحَابِ لِأَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: أَنَّ الْإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّصْدِيقِ، قَالَ تعالى خَبَرًا عَنْ إِخْوَة يُوسُفَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، أي: بِمُصَدِّقٍ لَنَا.

وَمِنْهُمْ مَنِ ادَّعَى إِجْمَاعَ أَهْلِ اللُّغَة على ذَلِكَ.

ثُمَّ هَذَا المعنى اللُّغَوِي -وَهُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ- هُوَ الْوَاجِبُ على الْعَبْدِ حَقًّا لله، وَهُوَ أَنْ يُصَدِّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله، فَمَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله فَهُوَ مُؤْمِنٌ فِيمَا بَيْنَه وَبَيْنَ الله تعالى، وَالْإِقْرَارُ شَرْطُ إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا. هَذَا على أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ، ولأنه ضِدُّ الْكُفْرِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْجُحُودُ، وَهُمَا يَكُونَانِ بِالْقَلْبِ، فَكَذَا مَا يُضَادُّهُمَا. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، يَدُلُّ على أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ الْإِيمَانِ، لَا اللِّسَانَ، ولأنه لَوْ كَانَ مُرَكَّبًا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ لَزَالَ كله بِزَوَالِ جُزْئِه، وَلِأَنَّ الْعَمَلَ قَدْ عُطِفَ على الْإِيمَانِ، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة، قَالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥]، فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ.

قال الشيخ:

هكذا يستدل الحنفية، وهذا صحيح أن الإيمان لغة: التصديق، ولكن الشارع أضاف إليه، ولذلك قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ

شُعْبَةً...»[١]، فجعلها كلها من الإيمان.

قوله: (وَمِنْهُمْ -أي: من الحنفية- مَنِ ادَّعَى إِجْمَاعَ أَهْلِ اللُّغَة على ذَلِكَ)، وهذا صحيح أن الإيمان لغة هو التصديق، ثم قال: (فَمَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله فَهُوَ مُؤْمِنٌ فِيمَا بَيْنَه وَبَيْنَ الله تعالى)، ولكن هذا خفي لايبصره العباد، ولا يعلمونه حقيقة، فلا بد أن تظهر عليه الأعمال، فليس كل من ادعى أنه مصدق يكون صادقًا، فقد ادعى ذلك المنافقون، وأخبر الله تعالى أنهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١].

قوله: (وَالْإِقْرَارُ شَرْطُ إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي الدُّنْيَا)، لا شك أنه لابد من الإقرار بالشهادتين، والإسلام ونحو ذلك، وهو عبارة عن التصديق، ولكن لابد أن يتبع الإقرار العمل.

قوله: (ولأنه ضِدُّ الْكُفْرِ، وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْجُحُودُ)، يقول: إن الإيمان ضده الكفر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، فجعلهما ضدين متقابلين. الكفر: (التَّكْذِيبُ وَالْجُحُودُ، وَهُمَا يَكُونَانِ بِالْقَلْبِ، فَكَذَا مَا يُضَادُّهُمَا)، أخبر بأن التكذيب والجحود في القلب، ولكن تظهر آثاره على البدن، وكذلك ما يضادهما.

ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

[النحل:١٠٦]، كأنه يقول: إن الإيمان في القلب، فلذلك يكره. ويقول: إنه (يَدُلُّ على أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ الْإِيمَانِ، لَا اللِّسَانَ)، ولكن نقول: إن الإيمان الذي في القلب لا بد أن يظهر على اللسان وعلى الجوارح.

قوله: (لأنه لَوْ كَانَ مُرَكَّبًا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ لَزَالَ كله بِزَوَالِ جُزْئِه)، يعني: يزول الإيمان بزوال العمل. نقول: هذا صحيح أن الذي لا يعمل ولو كان مصدقًا لم يكن مؤمنًا، وكذلك إذا تكلم بلسانه واستهزأ وكان متعمدًا غير مكره.

قوله: (وَلِأَنَّ الْعَمَلَ قَدْ عُطِفَ على الْإِيمَانِ، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ)، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥]، كأنهم يقولون: إن العطف يقتضي المغايرة. ونقول: ليس كذلك، بل الأصل أن العطف إنما هو للتأكيد أو لبيان أثر الإيمان، وأن الإيمان يكون بالعمل، وذلك عمل الصالحات وترك السيئات.

قال الشارح:

وَقَدِ اعْتُرِضَ على اسْتِدْلَالِهِمْ بِأَنَّ الْإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ التَّصْدِيقِ بِمَنْعِ التَّرَادُفِ بَيْنَ التَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ، وَهَبْ أَنَّ الْأَمْرَ يَصِحُّ فِي مَوْضِعٍ، فَلِمَ قُلْتُمْ أَنَّه يُوجِبُ التَّرَادُفَ مُطْلَقًا؟

وَكَذَلِكَ اعْتُرِضَ على دَعْوَى التَّرَادُفِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ. وَمِمَّا يَدُلُّ على عَدَمِ التَّرَادُفِ: أنه يُقَالُ لِلْمُخْبِرِ إِذَا صَدَّقَ: صَدَّقَه، وَلَا يُقَالُ: آمَنَه، وَلَا آمَنَ به، بَلْ يُقَالُ: آمَنَ لَهُ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس:٨٣]، وَقَالَ تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]، فَفَرَّقَ بَيْنَ المُعَدَّى بِالْبَاءِ وَالمُعَدَّى بِاللَّامِ، فَالْأَوَّلُ يُقَالُ لِلْمُخْبَرِ به، والثاني لِلْمُخْبِرِ. وَلَا يَرِدُ كَوْنُه يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: مَا أَنْتَ بِمُصَدِّقٍ لَنَا؛ لِأَنَّ دُخُولَ اللَّامِ لِتَقْوِيَةِ الْعَامِلِ، كَمَا إِذَا تَقَدَّمَ المَعْمُولُ، أَوْ كَانَ الْعَامِلُ اسْمَ فَاعِلٍ، أَوْ مَصْدَرًا، على مَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِه.

قال الشيخ:

ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ الرد على من استدل ببعض النصوص على أن الإيمان والتصديق مترادفان، فذكر أنهما غير مترادفين، بل لكل منهما تعريف. ثم قال: (وَكَذَلِكَ اعْتُرِضَ على دَعْوَى التَّرَادُفِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ)، لا شك أن الإيمان والإسلام إذا جمعا فالإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: أعمال

القلب، ولكن إذا ذُكر أحدهما دخل فيه الآخر، هكذا قال العلماء.

فلفظ الإيمان غير كلمة التصديق، والدليل عليه هذه الآيات التي أوردها الشارح؛ منها قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، مع أن التصديق يتعدَّى بالباء، يقال: صدّقتُ به، ولا يقال: صدّقتُ له . فأنت تقول مثلًا: صدّقت فلانًا، وصدَّقتُ بخبره، ولا تقول: صدقت له، فكذلك قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس:٨٣]، ولم يقل: فما آمن به؛ لأن المراد: اتّبعوه، وعملوا بما جاء به . هذا دليل على أن الإيمان أصبح مغايرًا للتصديق، وليس مرادفًا له. فعُرف بذلك أن الاستدلال بأن الإيمان في اللغة هو التصديق، لا يصلح دليلًا على أن الأعمال ليست من مُسمَّى الإيمان.

قال الشارح:

فَالحَاصِلُ أنه لَا يُقَالُ قَطُّ: آمَنْتُه، وَلَا صَدَّقْتُ له، إِنَّمَا يُقَالُ: آمَنْتُ له، كَمَا يُقَالُ: أَقْرَرْتُ له. فَكَانَ تَفْسِيرُه بِـ (أَقْرَرْتُ) أَقْرَبَ مِنْ تَفْسِيرِه بِـ (صَدَّقْتُ)، مَعَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ثَابِتٌ فِي المعنى، فَإِنَّ كُلَّ مُخْبِرٍ عَنْ مُشَاهَدَةٍ أَوْ غَيْبٍ، يُقَالُ له فِي اللُّغَةِ: صَدَقْتَ، كَمَا يُقَالُ له: كَذَبْتَ. فَمَنْ قَالَ: السَّمَاءُ فَوْقَنَا. قِيلَ له: صَدَقْتَ.

وَأَمَّا لَفْظُ (الْإِيمَانِ)، فَلَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، فَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ: صَدَّقْنَاه، وَلَا يُقَالُ: آمَنَّا له، فَإِنَّ فيه أَصْلَ معنى الْأَمْنِ، وَالإِيمَانُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، فَالْأَمْرُ الْغَائِبُ هُوَ الذي يُؤْتَمَنُ عليه الْمُخْبِرُ. وَلِهَذَا لَمْ يَأْتِ فِي الْقُرْآنِ وغيره لَفْظُ (آمَنَ له) إِلَّا فِي هَذَا النَّوْعِ. ولأنه لَمْ يُقَابَلْ لَفْظُ (الْإِيمَانِ) قَطُّ بِالتَّكْذِيبِ، كَمَا يُقَابَلُ لَفْظُ (التَّصْدِيقِ)، وَإِنَّمَا يُقَابَلُ بِالْكُفْرِ، وَالْكُفْرُ لَا يَخْتَصُّ بِالتَّكْذِيبِ، بَلْ لَوْ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَلَكِنْ لَا أَتَّبِعُكَ، بَلْ أُعَادِيكَ وَأُبْغِضُكَ وَأُخَالِفُكَ؛ لَكَانَ كُفْرًا أَعْظَمَ. فَعُلِمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ التَّصْدِيقَ فَقَطْ، وَلَا الْكُفْرُ هُوَ التَّكْذِيبَ فَقَطْ. بَلْ إِذَا كَانَ الْكُفْرُ يَكُونُ تَكْذِيبًا، وَيَكُونُ مُخَالَفَةً وَمُعَادَاةً بِلَا تَكْذِيبٍ، فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، يَكُونُ تَصْدِيقًا وَمُوَافَقَةً وَمُوَالَاةً وَانْقِيَادًا، وَلَا يَكْفِي مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ جُزْءَ مسمى الْإِيمَانِ.

وَلَوْ سُلِّمَ التَّرَادُفُ، فَالتَّصْدِيقُ يَكُونُ بِالْأَفْعَالِ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنُ تَزْنِي، وَزِنَاهَا

السَّمْعُ»، إلى أَنْ قَالَ: «وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُه»[(١)].

وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّه مَا وَقَرَ فِي الصّدورِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ»[(٢)]. وَلَوْ كَانَ تَصْدِيقًا فَهُوَ تَصْدِيقٌ مَخْصُوصٌ، كَمَا فِي الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا، كَمَا تَقَدَّمَ، وَلَيْسَ هَذَا نَقْلًا لِلَّفْظِ، وَلَا تَغْيِيرًا له، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُر بِإِيمَانٍ مُطْلَقٍ، بَلْ بِإِيمَانٍ خَاصٍّ، وَصَفَه وَبَيَّنَه. فَالتَّصْدِيقُ الذي هُوَ الْإِيمَانُ، أَدْنَى أَحْوَالِه أَنْ يَكُونَ نَوْعًا مِنَ التَّصْدِيقِ الْعَامِّ، فَلَا يَكُونُ مُطَابِقًا له في الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ، مِنْ غَيْرِ تغير اللِّسَانِ وَلَا قَلْبِه، بَلْ يَكُونُ الْإِيمَانُ في كَلَامِ الشَّارِعِ مُؤَلَّفًا مِنَ الْعَامِّ وَالخَاصِّ، كَالْإِنْسَانِ المَوْصُوفِ بِأَنَّه حَيَوَانٌ نَاطِقٌ، أو لِأَنَّ التَّصْدِيقَ التَّامَّ الْقَائِمَ بِالْقَلْبِ مُسْتَلْزِمٌ لِمَا وَجَبَ مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالجَوَارِحِ، فَإِنَّ هذه لَوَازِمِ الْإِيمَانِ التَّامِّ، وَانْتِفَاءُ اللَّازِمِ دَلِيلٌ على انْتِفَاءِ المَلْزُومِ.

وَنَقُولُ: إِنَّ هذه اللَّوَازِمَ تَدْخُلُ في مسمى اللَّفْظِ تَارَة، وَتَخْرُجُ عنه أخرى، أَوْ إِنَّ اللَّفْظَ بَاقٍ على معناه في اللُّغَة، وَلَكِنَّ الشَّارِعَ زَادَ فيه أَحْكَامًا، أَوْ أَنْ يَكُونَ الشَّارِعُ اسْتَعْمَلَه في معناه المَجَازِي، فَهُوَ حقيقة شَرْعِيَّة، مَجَازٌ لُغَوِي، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَقَلَه الشَّارِعُ. وهذه الأَقْوَالُ لِمَنْ سَلَكَ هَذا الطَّرِيقَ.

وَقَالُوا: إِنَّ الرَّسُولَ قَدْ وَقَفَنَا على مَعَانِي الْإِيمَانِ، وَعَلِمْنَا مِنْ مُرَادِه عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قِيلَ: إِنَّه صَدَّقَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِلِسَانِه بِالْإِيمَانِ، مَعَ قُدْرَتِه على ذَلِكَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٨٠).

وَلَا صلى، وَلَا صَامَ، وَلَا أَحَبَّ الله ورسوله، وَلَا خَافَ الله، بَلْ كَانَ مُبْغِضًا لِلرَّسُولِ، مُعَادِيًا له يُقَاتِلُه، أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ.

كَمَا عَلِمْنَا أنه رَتَّبَ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ على التَّكَلُّمِ بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعَ الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة، أعلاها قَوْلُ لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»[1]. وَقَالَ أَيْضًا ﷺ: «الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[2]. وَقَالَ أيضا ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[3]. وَقَالَ أَيْضًا ﷺ: «الْبَذَاذَة مِنَ الْإِيمَانِ»[4].

فَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ أَصْلًا له شُعَبٌ مُتَعَدِّدَة، وَكُلُّ شُعْبَةٍ مِنْهَا تُسَمَّى: إِيمَانًا، فَالصَّلَاة مِنَ الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ الزَّكَاة وَالصَّوْمُ وَالحَجُّ، وَالْأَعْمَالُ الْبَاطِنَة، كَالحَيَاءِ وَالتَّوَكُّلِ وَالخَشْيَة مِنَ الله وَالْإِنَابَة إليه، حتى تَنْتَهِي هذه الشُّعَبُ إلى إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، فإنه مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ. وهذه الشُّعَبُ، مِنْهَا مَا يَزُولُ الْإِيمَانُ بِزَوَالِهَا إِجْمَاعًا، كَشُعْبَة الشَّهَادَتين، وَمِنْهَا مَا لَا يَزُولُ بِزَوَالِهَا إجماعا، كَتَرْكِ إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَبَيْنَهُمَا شُعَبٌ مُتَفَاوِتَة تَفَاوُتًا عَظِيمًا، مِنْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَة الشَّهَادَة،

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

(٢) هو جزء من الحديث المتقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، وابن حبان (٢/ ٢٢٧)، والحاكم (١/ ٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، والطبراني في الكبير (٧٨٨)، والحاكم (١/ ٩)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٢٧) من حديث أبي أمامة بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه.

وَمِنْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَةِ إِمَاطَةِ الْأَذَى.

وَكَمَا أَنَّ شُعَبَ الْإِيمَانِ إِيمَانٌ، فَكَذَا شُعَبُ الْكُفْرِ كُفْرٌ، فَالْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ الله ـ مَثَلًا ـ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَالْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله كُفْرٌ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ». رواه مُسْلِمٌ[1]. وفي لَفْظٍ: «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّة خَرْدَلٍ»[2].

وروى الترمذي[3] عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أنه قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». ومعناه ـ والله أَعْلَمُ ـ أَنَّ الْحُبَّ وَالْبُغْضَ أَصْلُ حَرَكَةِ الْقَلْبِ، وَبَذْلُ الْمَالِ وَمَنْعُه هُوَ كَمَالُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَالَ آخِرُ الْمُتَعَلِّقَاتِ بِالنَّفْسِ، وَالْبَدَنُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْمَالِ، فَمَنْ كَانَ أَوَّلُ أَمْرِه وَآخِرُه كله لله، كَانَ الله إِلَهه فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَمْ يَكُنْ فيه شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَهُوَ إِرَادَةُ غَيْرِ الله وَقَصْدُه وَرَجَاؤُه، فَيَكُونُ مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّة على قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَضَعْفِه بِحَسَبِ الْعَمَلِ.

وسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ ـ رحمه الله ـ فِي شَأْنِ الصَّحَابَة ـ رضي الله عنهم ـ:

---

(١) برقم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) برقم (٢٥٢١) من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ بنحو هذا اللفظ. وما أورده المصنف أخرجه أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ). فَسَمَّى حُبَّ الصَّحَابَةِ إِيمَانًا، وَبُغْضَهُمْ كُفْرًا.

وَمَا أَعْجَبَ مَا أَجَابَ به أَبُو المُعِينِ النَّسَفِي وغيره، عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِحَدِيثِ شُعَبِ الْإِيمَانِ المَذْكُورِ، وَهُوَ: أَنَّ الراوي قَالَ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ»، فَقَدْ شَهِدَ الرَّاوِي بِغَفْلَةِ نَفْسِهِ؛ حَيْثُ شَكَّ فَقَالَ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ»، وَلَا يُظَنُّ بِرَسُولِ الله ﷺ الشَّكُّ فِي ذَلِكَ! وَأَنَّ هَذَا الحَدِيثَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ!!.

فَطَعَنَ فيه بِغَفْلَةِ الرَّاوِي وَمُخَالَفَتِهِ الْكِتَابَ. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الطَّعْنِ مَا أَعْجَبَهُ! فَإِنَّ تَرَدُّدَ الرَّاوِي بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ لَا يَلْزَمُ منه عَدَمُ ضَبْطِهِ، مَعَ أَنَّ البُخَارِيَّ - رحمه الله - إِنَّمَا رواه «بِضْعٌ وَسِتُّونَ» مِنْ غَيْرِ شَكٍّ.

وَأَمَّا الطَّعْنُ بِمُخَالَفَةِ الْكِتَابِ، فَأَيْنَ فِي الْكِتَابِ مَا يَدُلُّ على خِلَافِهِ؟! وَإِنَّمَا فيه مَا يَدُلُّ على وِفَاقِهِ، وَإِنَّمَا هَذَا الطَّعْنُ مِنْ ثَمَرَةِ شُؤْمِ التَّقْلِيدِ وَالتَّعَصُّبِ.

وَقَالُوا أَيْضًا: وَهُنَا أَصْلٌ آخَرُ، وَهُوَ: أَنَّ القَوْلَ قِسْمَانِ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَهُوَ الاعْتِقَادُ، وَقَوْلُ اللِّسَانِ وَهُوَ التَّكَلُّمُ بِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ. وَالْعَمَلُ قِسْمَانِ: عَمَلُ الْقَلْبِ وَهُوَ نِيَّتُهُ وَإِخْلَاصُهُ، وَعَمَلُ الجَوَارِحِ. فَإِذَا زَالَتْ هذه الْأَرْبَعَةُ زَالَ الْإِيمَانُ بِكَمَالِهِ، وَإِذَا زَالَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ لَمْ تَنْفَعْ بَقِيَّةُ الْأَجْزَاءِ، فَإِنَّ تَصْدِيقَ الْقَلْبِ شَرْطٌ فِي اعْتِبَارِهَا وَكَوْنِهَا نَافِعَةً، وَإِذَا بَقِيَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ، وَزَالَ الْبَاقِي، فَهَذَا مَوْضِعُ المَعْرَكَةِ.

وَلَا شَكَّ أنه يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ طَاعَةِ الجَوَارِحِ عَدَمُ طَاعَةِ الْقَلْبِ؛ إِذْ لَوْ أَطَاعَ الْقَلْبُ وَانْقَادَ، لَأَطَاعَتِ الجَوَارِحُ وَانْقَادَتْ، وَيَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ طَاعَةِ الْقَلْبِ وَانْقِيَادِهِ

عَدَمُ التَّصْدِيقِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلطَّاعَةِ. قَالَ ﷺ: «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ، أَلَا وهي الْقَلْبُ»[١]. فَمَنْ صَلَحَ قَلْبُه صَلَحَ جَسَدُه قَطْعًا، بِخِلَافِ الْعَكْسِ. وَأَمَّا كَوْنُه يَلْزَمُ مِنْ زَوَالِ جُزْئِهِ زَوَالُ كُلِّهِ، فَإِنْ أُرِيدَ أَنَّ الهَيْئَةَ الاجْتِمَاعِيَّةَ لَمْ تَبْقَ مُجْتَمِعَةً كَمَا كَانَتْ، فَمُسَلَّمٌ، وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ زَوَالِ بَعْضِهَا زَوَالُ سَائِرِ الْأَجْزَاءِ، فَيَزُولُ عنه الْكَمَالُ فَقَطْ.

قال الشيخ:

كل هذا في البيان والإيضاح للفرق بين التصديق والإيمان، وأنهما ليسا مترادفين، يعني: من كل جهة، ولو كانا مترادفين في اللغة، فإنهما غير مترادفين في الشرع، فمعلومٌ أن التصديق ضده التكذيب؛ يقال: صادق أو كاذب، ويقال: صدّقته أو كذبته، فالتصديق ضدّه التكذيب .

أما الإيمان فليس ضده التكذيب، بل ضدُّه الكفر، فيقال: آمن أو كفر، مؤمن وكافر، فأصبح له ضدًا غير ضد التصديق، فدلَّ على أنه ليس هو التصديق من كل جهة .

ويقال للذين قالوا: إن الإيمان والتصديق معناهما واحد، وإنهما مترادفان: قد دلَّت اللغة على التفريق بينهما، كما في الأمثلة التي ذكرها الشارح، مثل قول القائل: طلعت الشمس، فيقال له: صدقت أو كذبت، ولا يقال: له آمنت به، ولا آمنّا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

بخبرك، بل يقال: صدقنا، وأصبح الإيمان اسمًا للإيمان بالشيء الغائب؛ لأن الله أخبر بذلك في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣]، أي: يجزمون به، ويعتقدونه، وإن كان غائبًا ولم يروه. إلى آخره ما ذكره الشارح.

وبكلِّ حال، فالإيمان في الأصل وفي اللغة هو التصديق، ولكن نقله الشارع من اللغة، وجعل له مسمًّى شرعيًا، فأصبحتِ الأعمال من مسمى الإيمان. فمن صرَّح بلسانه بسبِّ الدين، وبسبِّ الله، وبسب الرسل، وبكلمات الكفر، ونحو ذلك، وهو مع ذلك يزعم أنه من أهل الإيمان، وأنه قلبه مؤمن، لن نصدقه في ذلك، بل ما آمنًّا بما يقول؛ وذلك لأننا نعمل بالظاهر، كما رُوي أن رجلًا استأذن رسول الله ﷺ في قتل رجل من المنافقين، فَجَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَلامِهِ، وَقَالَ: **«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»**، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: **«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»**، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: **«أَلَيْسَ يُصَلِّي؟»**، قَالَ: بَلَى وَلا صَلاةَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهِيتُ عَنْهُمْ»**[1]؛ لأنه أُمر بأن يعمل بالظاهر.

ولما جاء ذو الخويصرة إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، فقال ﷺ: **«وَيْلَكَ، أو لست أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟»**، فقال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ ﷺ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال ﷺ: **«لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»**،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، وابن حبان (١٣/ ٣٠٩) واللفظ له، والبيهقي (٣/ ٣٦٧) من حديث عبدالله بن عدي الأنصاري ﷺ.

قال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ الناس، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ»[1]، يعني: إنما نعاملهم بما يظهر منهم.

فلأجل ذلك إذا قال بعضهم: إن قلبي ممتلئ إيمانًا، وأنا مؤمن . قلنا له: نصدق هذا الإيمان إذا أتيت بعلامة تدل عليه، وهو العمل، فإنه من مكملاته . فإذا لم تعمل بطل ما تقوله بما لم تعمله، وكذبناك ولم نقبل قولك، فلو كنت صادقًا لعملت، فكيف تزعُم أنك تحب اللهَ، وتحب الرسولَ ﷺ، وتحب الشريعة والإسلام، ومع ذلك لا تأتي بعلامة على هذه المحبة؟

تَعْصِي الْإِلَـٰهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَـٰذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ ... مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ[2]

ومشهور الأثر الذي رُوي عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ أنه قال: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّه مَا وَقَرَ فِي الصّدورِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ». فنفى ـ رحمه الله ـ أن يكون الإيمان بالتحلي، يعني: الحلية الظاهرة؛ مثل اللباس والهيئة والشعر والمظهر، أو المقال، أو السكنى بين المسلمين، أو نحو ذلك. وكذلك لا يكون الإيمان بالتمنّي، أي: بالألفاظ، فيقول: أنا مؤمن، وأنا من أهل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) راجع (٢/ ٦٣٣).

الإيمان، يمدح بذلك نفسه، فليس ذلك هو حقيقةَ الإيمان. الإيمان في الحقيقة هو ما امتلأ به القلب، ثم ظهرت آثاره على الأعمال، وصدقته الجوارح بأعمالها.

وبكل حال، فهذا الإيمان الذي يكون في القلب، ويكون في البدن هما متلازمان، وكذلك الذي يكون باللسان والذي يكون بالأركان، هما متلازمان، وكلاهما من خصال الإيمان، فمن استكمل هذه الخصال استكمل الإيمان، كما ذكر ذلك البخاري[1] عن عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أنه قال: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لم يَسْتَكْمِلْهَا لم يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حتى تَعْمَلُوا بها، وَإِنْ أَمُتْ فما أنا على صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ».

هذا كلام عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، ولا شك أنه أخذ ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم، وعرف أن الإيمان لا يكفي فيه الانتماء والتّسمِّي، بل له شروط ومكملاتٌ وآثارٌ، وله أعمال، فلابد للمؤمن أن يأتيَ بها ويستكملها حتى يُكتب بذلك مؤمنًا حقًا، فهكذا يكون المؤمنون الذين لا يفرقون بين طاعة الله ورسله، ولا يردُّون شيئًا من شريعته، هؤلاء همَ المؤمنون حقًا.

وقد عرفنا أن من عقيدة أهل السنة أن الأعمال تدخل في مسمّى الإيمان، وأنه لا يكون مؤمنًا إذا لم يعمل؛ وذلك لأن الإيمان الذي في القلب تظهر آثاره على الأعمال، فالأعمال إيمان كما أن الاعتقاد إيمان، كما أن الأذكار باللسان إيمان، وكما

---

(١) في أول كتاب الإيمان من «صحيحه».

أن النفقات في وجوه الخير إيمان، وكما أن الأعمال الخيرية كلَّها، وخصال الخير وخصال الدين كلها من الإيمان، فالكفر له شُعَب، والإيمان له شُعب، فيقال مثلًا: إن السباب من خصال الكفر، والشتم واللعن من خصال الكفر، قال النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ،وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1]، فجعل الأعمال المحرّمة كفرًا، وقال: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلى الْمَيِّتِ»[2]، فجعلها كفرًا، أي: من خصال الكفر، وخصال الكفر تُسمى كفرًا، وخصال الإيمان تسمى إيمانًا، والعبد يحرص على أن يجمع خصال الخير كي تجتمع فيه كلّها، فيكون مؤمنًا حقًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال:٤] من الذي يزهد في هذا الثواب كله، ولا يحرص على أن يكون مؤمنًا حقًا حتى يحصل له هذا الثواب؟!

والذين زعموا أن الأعمال ليست من الإيمان، وجعلوا الإيمان مقتصرًا على العقيدة، وعلى الكلام ـ كما هو قول الحنفية ـ فإن قولهم فيه خلل، وقد ذكرنا فيما سبق أنهم لما اعتقدوا هذه العقيدة، ضعُف قدر الإيمان الذي في قلوبهم، فصاروا يكتفون بما في القلب وبما في اللسان، ولا يعدُّون الأعمال من مسمَّى الإيمان، فيضعف تنافسهم في الخيرات، ولا يبالي أحدهم بما ارتكب من السيئات والخطيئات، فيقعون في الذنوب ولا يشعرون، أو يظنون أنها لا تنافي إيمانهم، أو أنها لا تنقص ثوابهم، وكذلك يزهدون في الأعمال الخيرية من الحسنات والقُربات

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

وسائر الطاعات، يزهدون فيها ويظنون أنها لا يكون لها تأثير في إيمانهم، ولا في قُرباتهم ولا في أعمالهم، فكان ذلك سببًا في نقص تنافسهم في الخيرات.

أما أهل السنة فإنهم لما عرفوا أن الاعمال من الإيمان، صاروا يتنافسون في كثرة الخصال الخيرية، وصاروا يعملون الأعمال الدينية، ويُكثرون من الحسنات ويتوقّون السيئات والمخالفات، وصاروا بذلك في أعلى المراتب.

قال الشارح:

وَالْأَدِلَّة على زِيَادَة الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِه مِنَ الْكِتَابِ والسنة وَالْآثَارِ السَّلَفِيَّة كثيرة جِدًّا، مِنْهَا قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وَكَيْفَ يُقَالُ فِي هَذِه الآيَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا: إِنَّ الزِّيَادَة بِاعْتِبَارِ زِيَادَة الْمُؤْمِنِ به؟ فَهَلْ فِي قَوْلِ النَّاسِ ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، زِيَادَة مَشْرُوعٍ؟ وَهَلْ فِي إِنْزَالِ السَّكِينَة على قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ زِيَادَة مَشْرُوعٍ؟ وَإِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَة فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَرْجِعَهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَة لِيَزْدَادُوا طُمَأْنِينَة وَيَقِينًا، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٦٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥].

قال الشيخ:

تقدم تعريف الإيمان أنه قولٌ باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان،

يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان . هذه الجملة: يزيد وينقص، هي أيضًا محل خلاف بين أهل السنة وبين الحنفية، أو بين جمهور الأمة وبين الحنفية، وكذلك غيرهم من المبتدعة، فإنهم كالمرجئة والجهمية، لا يرون الأعمال من مسمَّى الإيمان، ولا يرون زيادة الإيمان ولا نقصه، ويعتقدون أن أهلَه في أصله سواءٌ، وأن تفاضُلهم إنما هو بالدرجات في الآخرة، أو بالأعمال، وإلا فالأعمال عندهم زائدة عن الإيمان، ويرون أن الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، هكذا قالوا.

أما أهل السنة فيرون أن الإيمان يزيد وينقص، وقد ذكرنا أمثلة على ذلك فيما سبق، فإن الإنسان يحرص على زيادة إيمانه، فالكلمة الطيبة تزيدُ إيمانه، والكلمة الخبيثة تنقص إيمانه، والدرهم الذي ينفقه في وجوه الخير يزيد إيمانه، وإذا أنفقه في المعاصي ينقص إيمانه، والخطوات التي يسيرها إلى الخير وأماكنه، كالمساجد ونحوها تزيد إيمانه، وإذا خطا إلى أماكن اللهو واللعب والباطل ينقص بذلك إيمانه، وهكذا بقية الأعمال . **هذا مثال على زيادة الإيمان ونقصانه، أنه يزيد بالطاعة** وينقص بالعصيان.

وهذه الآيات التي أوردها الشارح فيها دلالة واضحة، على أن الإيمان يزيد وينقص، أثبت الله فيها الزيادة، وكل شيء يقبل الزيادة فهو يقبل النقصان، ففي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، لَـمّا خرج النبي ﷺ ومعه بعض أصحابه بعد وقعة أُحُد، يريد اللحاق بالمشركين، جاءهم

نعيم بن مسعود وقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، يعني: أن المشركين قد جمعوا لكم يريدون أن يرجعوا إليكم ويقتلوا من بقي فاخشوهم، هذه المقالة هي التي قد قالها نعيم، هذه المقالة ما فيها زيادة أعمال ولا فيها زيادة تشريع، ولا فيها زيادة حكم، كيف زادتهم إيمانًا، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قَوِيَ إيمانهم بها، وكثر عملُهم، وصمدوا فيما جاؤا له، وتوجهوا في طلب المشركين، جادين في اللحاق بهم، مع ما أصابهم من القرْح، كما قال الله تعالى بعد أن ذكر الشهداء: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧١، ١٧٢]، أي: المصيبة التي نزلت بهم وأصيبوا بها في أُحُد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٢، ١٧٣].

كذلك الآيات التي في آخر سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، كيف زادتهم إيمانًا؟ عملوا بما في هذه السورة مثل هذه الآيات، وطبقوها وعملوا بما فيها، وكذلك اعتقدوا مدلولها فزاد إيمانهم، فهذا دليل واضح على أن الإيمان يزيد وينقص.

كذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]،

زادهم هدى، والهدى: زيادة إيمان وطمأنينة، كذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، لَـمَّا رجعوا من عمرة الحديبية أنزل الله عليهم الطمأنينة، وأنزل في قلوبهم السكينة، فازداد إيمانهم وكثُرت أعمالهم، وهذه أدلة واضحة على أن الإيمان يزيد، وأنه إذا كان يقبل الزيادة، فإنه يقبل النقصان.

فلذلك قال أهل السنة: إنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وإذا عرف المسلم ذلك حرص على ما يزيد إيمانه؛ فيحرص على ما يقوّيه، ويثبته ويرسخه، وهو إيمانه بما أخبر الله به، وكذلك اتّباعه لآيات الله، ونظره في مخلوقاته مما يرسّخ الإيمان في قلبه، ويقوّيه، كذلك كثرة عمله وتطبيقه لما جاء في هذه الشريعة، فذلك كله مما يزيد به إيمانه . وإذا عرفنا ما يزيد الإيمان، فإن ضد ذلك هو الذي ينقص الإيمان، أي: ضد الأعمال التي يزيد بها الإيمان، فالأعمال الصالحة تزيد الإيمان فيعملُ بها، وضدها المعاصي، وهي التي تنقص الإيمان، فيبتعد عنها.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَا رواه الْفَقِيه أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِي ـ رحمه الله ـ في تَفْسِيرِه[١] عِنْدَ هذه الآية، فَقَالَ: حَدَّثَنَا الفَقِيهُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ وَأَبُو الْقَاسِمِ السَّابَاذِي، قَالَا: حَدَّثَنَا فَارِسُ بْنُ مَرْدَوَيْه، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ بن الْعَابِدُ، قَالَ: حَدَّثَنَا يحيى بْنُ عيسى، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُطِيعٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سلمة، عَنِ أَبِي الْمُهَزِّمِ، عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: جَاءَ وَفْدُ ثَقِيفٍ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؟ فَقَالَ: «لَا، الْإِيمَانُ مُكَمَّلٌ في الْقَلْبِ، زِيَادَتُه وَنُقْصَانُه كُفْرٌ».

فَقَدْ سُئِلَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ ـ رحمه الله تعالى ـ عَنْ هَذَا الحَدِيثِ؟ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْإِسْنَادَ مِنْ أبي الليْثِ إلى أبي مُطِيعٍ مَجْهُولُونَ، لَا يُعْرَفُونَ في شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ التَّوَارِيخِ الْمَشْهُورَة.

وَأَمَّا أَبُو مُطِيعٍ، فَهُوَ: الحَكَمُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ مَسْلَمَةَ الْبَلْخِي، ضَعَّفَه أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَعَمْرُو بْنُ عَلِي الْفَلَّاسُ، والبُخَارِيُّ، وَأَبُو دَاوُدَ، والنَّسَائِيُّ، وَأَبُو حَاتِمٍ الرَّازِي، وَأَبُو حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حِبَّانَ الْبُسْتِي، وَالْعُقَيْلِي، وَابْنُ عَدِي، وَالدَّارَقُطْنِي، وَغَيْرُهُمْ.

وَأَمَّا أَبُو الْمُهَزِّمِ، الراوي عَنْ أبي هريرة: فَقَدْ تَصَحَّفَ على الْكَاتِبِ، وَاسْمُه: يَزِيدُ بْنُ سُفْيَانَ، فَقَدْ ضَعَّفَه أَيْضًا غَيْرُ وَاحِدٍ، وَتَرَكَه شُعْبَة بْنُ الحَجَّاجِ، وَقَالَ النسائي: مَتْرُوكٌ، وَقَدِ اتَّهَمَه شُعْبَة بِالْوَضْعِ؛ حَيْثُ قَالَ: لَوْ أَعْطَوْه فَلْسَيْنِ

---

(١) (٢/ ٩٩).

حَدَّثَهُمْ سَبْعِينَ حَدِيثًا.

قال الشيخ:

هذا الحديث الذي مرّ معنا لفظه أنَّ النبي ﷺ سُئل عن الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: «لَا، الْإِيمَانُ مُكَمَّلٌ فِي الْقَلْبِ، زِيَادَتُه كُفرٌ، وَنُقْصَانُه شِرْكٌ»!! هذا حديث باطل[1]، وضعه بعض هؤلاء الوضّاعين، ورجال إسناده إما مجهول، وإمّا كذاب، وإما ضعيف، فلا يُلتفت إليه، وليس بدليل، ثم هو مصادم للنّصوص، إذا كانت الآيات تدلّ على زيادته فكيف يأتي الحديث بأنه ليس هناك زيادة، إذا كان الله يقول: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، فكيف يأتي مع ذلك الحديث، ويكون من قول النبي ﷺ؛ ليخالف كتاب ربّه، وهو لا يأتي إلا بما أوحي به إليه، وقد أوحي إليه بأنّ الشريعة في هذا وأنّ أعمالها إذا عمل بها العباد زاد بذلك إيمانهم، فلا يقول قائل إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، معتمدًا على ذلك الحديث المكذوب.

---

(١) انظر: المجروحين (٢/ ١٠٣)، والموضوعات (١/ ٨١)، ولسان الميزان (٥/ ٣٤٧).

قال الشارح:

وَقَدْ وَصَفَ النبي ﷺ النِّسَاءَ بِنُقْصَانِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ[١]. وَقَالَ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه مِنْ وَلَدِه وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٢]. وَالْمُرَادُ نَفْي الْكَمَالِ، وَنَظَائِرُه كثيرة، وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَحَدِيثُ الشَّفَاعَة، وأنه يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ في قَلْبِه أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّة مِنْ إِيمَانٍ[٣].

فَكَيْفَ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا: إِنَّ إِيمَانَ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَاءٌ؟ وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِمَعَانٍ أُخَرَ غَيْرِ الْإِيمَانِ؟!

وَكَلَامُ الصَّحَابَة - رضي الله عَنْهُمْ - في هَذَا المعنى كَثِيرٌ أَيْضًا. منه: قَوْلُ أبي الدَّرْدَاءِ ﷺ: «مِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَتَعَاهَدَ إِيمَانَه وَمَا نَقَصَ منه، وَمِنْ فِقْه الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَيَزْدَادُ هُوَ أَمْ يَنْقص»[٤]. وَكَانَ عُمَرُ ﷺ يَقُولُ لِأَصْحَابِه: «هَلُمُّوا نَزْدَدْ إِيمَانًا»[٥]، فَيَذْكُرُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ في دُعَائِه: «اللَّهُمَّ زِدْنَا إِيمَانًا وَيَقِينًا وَفِقْهًا»[٦].

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٨٧).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٦).

(٤) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ١٢٩).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٦٤). واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤١).

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٢).

وَكَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ يَقُولُ لِرَجُلٍ: «اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً»[١]. وَمِثْلُه عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ رَوَاحَةَ[٢].

وَصَحَّ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ أنه قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ». ذكره البخاري ـ رحمه الله ـ في «صَحِيحِه»[٣]. وفي هَذَا الْقدرِ كِفَايَة، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ

قال الشيخ:

ما أورده الشارح ـ رحمه الله ـ أدلّة واضحة تدلّ على تفاوت أهل الإيمان في إيمانهم، وأنّهم ليسوا سواء كما يقول المبتدعة ونحوهم، إنّ الناس سواءٌ في الإيمان، وأنّهم لا يتفاوتون إلا بمعاني أخرى، فالنبيّ ﷺ نفى الإيمان عمّن فعل بعض المعاصي، ويفسّره العلماء بأنّ المراد نفي كماله، فإذا قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٤]، هل يقال: إنّ من لا يأمن جاره بوائقه كافر؟ لا، بل نقول إنّ إيمانه ناقص، أو قوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٥]، فهل نقول عن الإنسان إذا لم يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه: إنه كافر؟ لا،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٣).

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٣).

(٣) في كتاب الإيمان ـ باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) تقدم تخريجه (١/ ٦٣١).

ولكن نقول: إنّه لم يؤمن الإيمان الكامل؛ لأنّ الإيمان يتفاوت أهله فيه، فيكون منهم من هو كامل الإيمان، ومنهم من هو ناقص الإيمان، فهذا كمال الإيمان الذي هو استيفاء هذه الخصال ونحوها.

وكذلك مثل الأحاديث التي فيها إرشاد النبيّ ﷺ للمؤمن أن يفعل خصالًا معينة، كما في قوله ﷺ: «من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ»[1]، وقوله ﷺ «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»[2]. معلوم أنّها تؤمن، ولكن سفرها بغير محرم ينقص في إيمانها، لا أنّه ينفي الإيمان كلّه، وقوله: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إلا على زَوْجٍ، فَإِنَّهَا تُحِدُّ عليه أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»[3]، ومعلوم أنّه ﷺ لا يخاطب إلّا من هي مؤمنة، ولكن لو حدّت على أبيها أكثر من ثلاث، فلا تخرج بذلك عن الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكن يكون هذا أيضًا نقصًا في الإيمان، ويقال كذلك في الخصال التي ذُكر فيها الإيمان.

وهذا دليل أنّ أهل الإيمان يتفاوتون فيه، فمن استكمل هذه الخصال، وابتعد عن الآثام، فهو كامل الإيمان، وإلاّ فهو ناقص الإيمان بحسب أعماله التي أخلّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٠)، ومسلم (١٤٨٦) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

بها، أو المعاصي التي ارتكبها، وقد أخبر النبي ﷺ بأنّ الإيمان الذي في القلب أيضًا يتفاوت في حقّ من يدخل النار في قوله: «يَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لَا إِلَهَ إلا الله، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ من خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لَا إِلَهَ إلا الله، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ من خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لَا إِلَهَ إلا الله، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ من خَيْرٍ»[1]، أليس هذا دليلًا على أنّ الإيمان الذي في القلب يتفاوت؟ فإن كان الإيمان قويًا كانت آثاره أكبر، وتدفع البدن إلى مزيد من الأعمال، وإذا كان ضعيفًا قلّت الأعمال الخيريّة، وتكثر السيئات، أو تقلّ بحسب قوّة الإيمان الذي في القلب، وتكون الأعمال هذه علامة على ما في القلب، فتكون إيمانًا كذلك.

أيضًا ثبت أنّ السلف ـ رحمهم الله ـ كانوا يسمّون الأعمال إيمانًا، كما ذكر الشارح في بعض الآثار عن بعض الصحابة وغيرهم، كما ورد أنّ عمر ومعاذًا وابن رواحة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يقولون: اجلس بنا نؤمن ساعة، أو يقولون: نزدَدْ إيمانًا، أو: هلمّ فلنعمل أعمالًا نقوّي بها إيماننا، ونزيد بها إيماننا. يقولون: كيف يزيد؟ مثلًا إذا ذكرنا الله وحمدناه وشكرناه وأطعناه وعبدناه، زاد بذلك إيماننا بالذي عملناه، فكثرته يحصل بها ثقل الموازين، وتحصل بها خفة في الحساب في الآخرة، وتحصل بها السعادة، ويحصل بها إعطاء الكتاب باليمين، ويحصل بها أيضًا التمكين من الورود على الحوض، وكذلك أيضًا سرعة المسير على الصراط عندما ينصب، وآخر ذلك دخول الجنّة بسلام، كما أخبر النبي ﷺ، وذكر أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ﷺ.

البخاري[1] عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ أنه قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ إِقْتَارٍ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ»، وذكر البخاري[2] أيضًا عن عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - أنه قال: «إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لم يَسْتَكْمِلْهَا لم يَسْتَكْمِلْ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حتى تَعْمَلُوا بها، وَإِنْ أَمُتْ فما أنا على صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ».

ولا يقول ذلك، ويخبر بأن الإيمان له شرائط، ونتائج، وله ثمرات إلا وقد أخذ ذلك عن الصحابة، فإنّه تلميذ الصحابة، والصحابة أخذوا ذلك عن نبيّهم ﷺ، وعن كتاب ربّهم، فعرفنا بذلك أنّ الإيمان لا بدّ أن يستكمل حتى يفيد أصحابه، وحتى تكون نتيجته السعادة الأبديّة.

---

(١) في كتاب الإيمان - باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٢) في أول كتاب الإيمان.

قال الشارح:

وَأَمَّا كَوْنُ عَطْفِ الْعَمَلِ على الْإِيمَانِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة، فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا في مسمى الْإِيمَانِ: فَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ تَارَة يُذْكَرُ مُطْلَقًا عَنِ الْعَمَلِ وَعَنِ الْإِسْلَام، وَتَارَة يُقْرَنُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَارَة يُقْرَنُ بِالْإِسْلَام. فَالْمُطْلَقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأَعْمَالِ، قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال:٢]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الآية [الحجرات:١٥]. ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة:٨١].

وَقَالَ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[١] الحَدِيثَ.

«لَا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابُّوا»[٢].

«مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»[٣].

وَمَا أَبْعَدَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ معنى قوله: «فَلَيْسَ مِنَّا»، أي: فَلَيْسَ مِثْلَنَا! فَلَيْتَ شِعْرِي: فَمَنْ لَمْ يَغُشَّ يَكُونُ مِثْلَ النبي ﷺ وَأَصْحَابه؟

وأَمَّا إِذَا عُطِفَ عليه الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَاعْلَمْ أَنَّ عَطْفَ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عليه، مَعَ الِاشْتِرَاكِ في الحُكْمِ الذي ذُكِرَ

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٠١) بلفظ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، ومَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» من حديث أبي هريرة ﷺ.

لَهَا، وَالْمُغَايَرَة على مَرَاتِبَ:

أَعْلَاهَا: أَنْ يَكُونَا مُتَبَايِنَيْنِ، لَيْسَ أَحَدُهُمَا هُوَ الْآخَرَ، وَلَا جُزْءًا منه، وَلَا بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ.

وَيَلِيه: أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا تَلَازُمٌ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢].

الثَّالِثُ: عَطْفُ بَعْضِ الشَّيْءِ عليه، كَقَوْلِه تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب:٧].

وفي مِثْلِ هَذَا وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مَذْكُورًا مَرَّتَيْنِ.

والثاني: أَنَّ عَطْفَه عليه يَقْتَضِي أنه لَيْسَ دَاخِلًا فيه هُنَا، وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فيه مُنْفَرِدًا، كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي لَفْظِ (الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ)، وَنَحْوِه، مما تَتَنَوَّعُ دِلَالَتُه بِالْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ.

الرَّابِعُ: عَطْفُ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ لِاخْتِلَافِ الصِّفَتَيْنِ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، وَقَدْ جَاءَ فِي الشِّعْرِ الْعَطْفُ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ فَقَطْ، كَقَوْلِه:

.... فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا[(١)]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]. وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ.

قال الشيخ:

هذا جواب عمّا استدلّ به الحنفيةُ من عطف العمل على الإيمان، فهم يقولون في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٧٧]؛ يقولون: لو كانت الأعمال من الإيمان ما عُطفت عليه، فعطفها عليه يقتضي أنّها ليست من الإيمان، بل هي غيره، فالإيمان عندهم هو ما في القلب، والأعمال شيء زائد على الإيمان، هكذا قرّروا هذا الدليل.

نقول: مرّ معنا جواب الشارح، وكذلك أجاب غيره، حيث ذكر أنّ الإيمان تارة يكون مستقلًا غير معطوف على شيء، وتارة يعطف عليه، فمثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]، فهذا تفسير للمؤمنين، بأنّهم أهل هذه الخصال، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة:١٥]،

---

(١) عجز بيت لعدي بن زيد العبادي، وصدره: فَقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشِيه.
انظر: ديوانه (١٨٣)، وطبقات فحول الشعراء (١/ ٧٦).

فهذا دليلٌ على أن هؤلاء هم المؤمنون، ويكون من إيمانهم هذا السجودُ والتسبيح، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥]، فهذا تفسير للإيمان، وأشباه ذلك كثير، يذكر الله فيها الإيمان، ويذكر أن الأعمال داخلة فيه، فمثل هذا يبيّن الإيمان الحقيقي؛ كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٣، ٤]، فإذًا هذا معنى من المعاني يكون فيه الإيمان مستقلًا غير معطوف على شيء. أمّا إذا عُطفت عليه بعض الأعمال، فذكر أنّ العاطف له عدّة حالات:

فتارة يقتضي العطف التغاير وكون الثاني غير الأول، فليس الثاني هو الأول ولكنه غيره، وهذا هو الكثير، فيما إذا عطفت بعضه على بعض؛ مثل قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٢٧٧]، فإنّ الصلاة غير الزكاة، فعطفت عليه للمغايرة. كذلك من أنواع العطف: العطف لأجل التنويع، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، فالعطف هنا في ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَجَعَلَ﴾ للتنويع لا للتغاير، وهو تفنُّن في الكلمات.

ومن أنواع العطف أن الشيء قد يُعطف على جزئه، أو على بعضه، يذكر مجملًا، ثم يُذكر بعض التفصيل فيه مثل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨]، فإن فجبريل وميكال داخلان في الملائكة، فلماذا عطفا؟ هل هل للتنويع، أو لبيان السبب؟ ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ

مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧]، أخذ من النبيّين كلّهم ميثاقهم، ومن محمد ونوح وإبراهيم وعيسى عليهم الصلاة والسلام، أليسوا جميعًا من النبيّين؟ فلماذا خصّ هؤلاء؟ هذا عطف بيان، ليس عطف تنويع.

ومن العطف أيضًا: قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، الشرعة والمنهاج واحد، فالعطف هنا للترادف.

وذكر الشارح أيضًا قول الشاعر: (فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا)، الكذب والمين واحد، فالعطف هنا عطف بيان، أو عطف إيضاح.

إذًا فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٧٧]، العطف هنا عطف بيان، فبذلك يعرف أنّه ليس في الآيات ما يدلّ على أنّ الأعمال ليست من مسمّى الإيمان.

مرّ بنا أن من عقيدة أهل السنّة والجماعة زيادة الإيمان ونقصانه، والأدلّة على ذلك من الكتاب والسنة، وفائدة اعتقاد ذلك، والنقص والخلل في إيمان من أنكر ذلك. نقول: نعيد بعض الفوائد التي تترتّب على هذا الاعتقاد، فمن اعتقد أن الأعمال من مسمّى الإيمان، فإنه يحرص على استكثار الأعمال الصالحة، ومن اعتقد أنّ الإيمان يزيد بالطاعة حرص على الاستكثار من أنواع الطاعات، ومتى عرف أنّ إيمانه ينقص بالمعاصي ابتعد عن كلّ المعاصي؛ لأنه يحسّ ويستحضر أنه كلّما نقص إيمانه بمعصية؛ ضعف يقينه، ونقص حظّه من الآخرة، ومن الأجر، وكذلك ضعف حظّه من الثواب، فهو يبتعد عن هذه

الآثام التي تكون سببًا في نقص الإيمان.

وإذا كان الإيمان يقبل الزيادة فإنّه يقبل النقصان، وقد ذكرنا بعض الأدلّة التي تدلّ على الإيمان، والأمثلة التي تكون سببًا في زيادة الإيمان ونقصه، فإنّ الإنسان إذا استحضر أنّه بالكلمة الطيّبة يزيد إيمانه، وبالكلمة الخبيثة ينقص إيمانه، وبالنفقة في وجوه الخير يزيد إيمانه، وبسماع اللهو والإثم ونحو ذلك ينقص إيمانه، وبالخطوات التي يخطوها إلى عبادة، أو إلى مكان عبادة، يزداد إيمانه، وبالخطوات التي يخطوها إلى إثم أو محرّم ينقص إيمانه، وأنه يكتب له حسنات فيقدم عليه، وإذا أراد أن يتوجّه إلى طريق تفكرّ أيضًا هل له فيه خير، وهل هو إيمان أو كفر، وهل هو من شُعَب الإيمان، أو من شُعَب الكُفر؟ فلا يقدم إلَّا بعد أن يتحقّق أنّه عمل برّ وخير، وهكذا في بقيّة الأحوال.

ثم قد يقول قائل، فكيف تكون الأعمال من الإيمان، وهي تعطف عليه كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٧٧]، فإنّه يفهم منه أنّ الأعمال زائدة على الإيمان.

والجواب كما مرَّ في الشرح: أنّ هذا العطف من عطف البيان، وعطف البيان مشهور عند العرب، يعطف على أنّه بيان لما قبله، وإيضاح له وتقوية؛ كأنّه يؤكّد أنّهم متى آمنوا فإنّهم يزيدون إيمانهم بهذه الأعمال الصالحة، والله تعالى كثيرًا ما يذكر الأعمال الصالحة ويفصّل فيها، فمثلًا سورة المؤمنون، ذكر فيها عشر صفات، أولها: الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظةُ على الصلوات، وإذا تأمّلنا

هذه الصفات التي أوّلها الإيمان، وجدناها كلها متفرّعةً من الإيمان، ووصفهم بأنّهم مؤمنون، وكأنّه قيل: وما هي أعمالهم؟ فقيل: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٢]، إلى آخرها، فهذا بيان لأنّهم مؤمنون حقًا، يدلّهم إيمانهم على هذه الأشياء، فمن استكملها فهو منهم، ومن أخلّ بشيء منها، فقد أخلّ بالإيمان، أو فقد نقص إيمانه.

بهذا يعرف أنّ الإيمان يتفاوت أهله فيه، أو يزيد بعضهم على بعض، والذين يصلّون ولكنّهم لا يخشعون في صلاتهم أنقص من الخاشعين في صلاتهم، والذين يُصلّون ولكنّهم لا يحافظون على الجماعة بل يتخلّون عنها أحيانًا، أنقص إيمانًا من الذين يحافظون عليها، وكذلك الذين يعرضون كليًّا عن مجالس اللغو ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون:٣]، أي: مبتعدون، فهم أكمل من الذين لا يُعرضون عنها، بل يجلسون مع أهله أو يسمعون لغوهم، ونحو ذلك.

فدلّ على أنّ أهل الإيمان يتفاوتون، وإن كانوا كلّهم مؤمنين، ولكن من استكمل هذه الصفات، فقد استكمل الإيمان، ومن أخلّ بشيء منها فقد نقص إيمانه، والنقص قد يأتي على الأجر، وقد يبقى معه بعض الشيء، فلذلك نعرف أن اعتقاد الإنسان وزيادة إيمانه بالطاعات سبب لاستكثاره من الطاعات، ونقص إيمانه بالمعاصي سبب لإتيانه المعاصي، فلك أن تذكر العاصي وتقول له: يا أخي لأنك مؤمن تذكّر أنّ أعمالك هذه التي تستمرّ فيها حتّى ولو كانت من صغائر الذنوب تنقص إيمانك، فإذا كنت تستمر بحلق لحيتك مثلًا، أو تطيل ثيابك تكبّرًا

وإعجابًا بنفسك، أو تتعاطى هذا الدخان تشربه دائـمًا، وأنت تصرّ على ذلك، ينقص جزء من إيمانك، وكلّ يوم تقدح في إيمانك، وتقطع منه قطعة، وتجمع شعبًا من شعب الكفر، ويزيد حظّك من المعاصي، أفلا تكون منتبهًا خائفًا؟ إنّ هذا النقص وتواليه يضعف إيمانك، حتّى لا يبقى منه إلا القليل.

فما دمت كذلك وما دمت في زمن التمادي؛ فإنّ عليك أن تحرص كلّ الحرص على الأعمال التي يقوى بها إيمانك، ويضعف بها حظّك من الكفر ومن المعاصي، وكذلك تستجمع أهل الطاعة، وتحثّهم على الاستكثار منها، وتبشّرهم بأنّهم بكلّ خطوة إلى المسجد تزيد إيمانهم، وبكلّ ركعة يركعونها من النوافل تزيد إيمانهم، وبكلّ آية يقرؤونها يزيد إيمانهم، وبكلّ تهليلة وتكبيرة وتسبيحة وبكلّ استغفار، وبكلّ دعوة يدعون بها يزيد حظّهم من الإيمان، ويقوى في قلوبهم، وكذلك تقوى أبدانهم بالإيمان، ويكثر نصيبهم من الأجر الذي رُتّب على الإيمان.

فإذًا اعتقادنا أنّ الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي فيه هذه الفوائد، والذين جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، وأنّ الناس في أصله سواء، فاتتهم هذه الفوائد، فصاروا يعتقدون أنّ إيمانهم كامل لا يتزعزع، ولا يتغيّر ولا ينقص، فلا يبالون بالنقص من الحسنات، ولا يبالون باقتراف السيئات، فيقعون في المعاصي، ويتهاونون بها، ويدّعون أنها ـ بزعمهم ـ لا تضرّ ولا تنقص إيمانهم؛ لأنّها ليست من الإيمان، إنّما هو عمل القلب، وهذه إنّما هي أعمال اللسان، أو أعمال البدن، فبهذا الاعتقاد يهونون على أنفسهم أمر الذنوب، ويهونون على غيرهم الوقوع في المعاصي، فيقعون فيما حذّر الله منه وهم لا يشعرون.

قال الشارح:

فَإِذَا كَانَ الْعَطْفُ فِي الْكَلَامِ يَكُونُ على هذه الْوُجُوه، نَظَرْنَا فِي كَلَامِ الشَّارِعِ: كَيْفَ وَرَدَ فيه (الْإِيمَانُ)؟ فَوَجَدْنَاه إِذَا أُطْلِقَ يُرَادُ به مَا يُرَادُ بِلَفْظِ الْبِرِّ، وَالتَّقْوَى، وَالدِّينِ، وَدِينِ الْإِسْلَامِ.

ذُكِرَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَنِ الْإِيمَانِ؟ فَأَنْزَلَ الله هذه الآية: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الْآيَاتِ [البقرة:١٧٧].

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ، وَالْمُلَائِي، قَالَا: حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِي، عَنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ ﷺ، فَسَأَلَه عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَرَأَ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة:١٧٧] إلى آخِرِ الآية، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ، فَقَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي ﷺ، فَسَأَلَه عَنِ الذي سَأَلْتَنِي عنه، فَقَرَأَ عليه الذي قَرَأْتُ عَلَيْكَ، فَقَالَ له الذي قُلْتَ لِي، فَلَمَّا أَبَى أَنْ يَرْضَى، قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ الذي إِذَا عَمِلَ الْحَسَنَةَ سَرَّتْه، وَرَجَا ثَوَابَهَا، وَإِذَا عَمِلَ السَّيِّئَةَ سَاءَتْه، وَخَافَ عِقَابَهَا[1].

وَكَذَلِكَ أَجَابَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذَا الْجَوَابِ.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤١٦). ويشهد له حديث عمر بن الخطاب ﷺ: «من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ»، أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٩١٧٧)، وأحمد (١/ ١٨)، وابن حبان (١٥/ ١٢٢)، والحاكم (١/ ١٠٤)، والبيهقي (٧/ ٩١).

وفي «الصَّحِيحِ» قوله لِوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ: «آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله؟ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له، وَإِقَامُ الصلاة، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة، وَأَنْ تُؤَدُّوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَم»[1].

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أَنَّ هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُونِ إِيمَانِ الْقَلْبِ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ في مَوَاضِعَ أَنَّه لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ، فَعُلِمَ أَنَّ هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ هُوَ الْإِيمَانُ.

قال الشيخ:

ذكرنا أنّ هذا الموضوع يسمى: أسماء الإيمان والدين، أو أسماء الأحكام، وعرفنا أنّ هذه المسمّيات كانت مستعملة في اللغة، ولكن لها معانى يعرفونها، تلك المعاني وإن كانت معروفة عندهم لكن ليست هي المعاني الشرعية، ولأجل ذلك نقلها الشرع إلى هذه المسمّيات الخاصة، وذكرنا أنّهم يقولون مثلًا: الإيمان في اللغة كذا، وفي الشرع كذا، والإسلام لغةً كذا وشرعًا كذا، والتوحيد لغةً كذا وشرعًا كذا، والبرّ لغة كذا وشرعًا كذا، والتقوى في اللغة: مشتقّة من التوقّي، وهي الحذر من المخوف، وأمّا في لسان الشرع: توقّي عذاب الله، وأن يجعل بينه وبين سخط الله وقاية وحاجزًا منيعًا، وذلك يكون بامتثال كلّ ما أمر، وتجنّب كلّ ما عنه نهى وزجر، وهكذا بقيّة التعريفات، كما ذكرنا أيضًا أن أضدادها لها أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مسمّيات شرعيّة، فالشرك له مسمّى في اللغة ومسمّى في الشرع، والفسوق له مسمّى في اللغة ومسمّى في الشرع، وما أشبه ذلك، وهكذا أيضًا أسماء الأحكام، فالصلاة لغة كذا، وشرعًا كذا، والطهارة لغة كذا وشرعًا كذا، وكذا الصوم والجهاد والحج والعمرة والزكاة، وأشباه ذلك من المسمّيات.

نقول: إنّ الإيمان هكذا، كان أصله في اللغة: التصديق الجازم بالقلب، وفي قوله ﷺ لبني عبد القيس: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من المَغْنَمِ الخُمُسَ**». هذه أقوال وأعمال لسانيّة وبدنيّة وماليّة، وكلّها جعلها من الإيمان، ولكن لابدّ معها من الإيمان الذي هو العقيدة، لابدّ أن يكون قلبك انعقد عليها، وإلا فلا تنفع، فإن الأعمال من دون إيمان القلب لا تفيد، فبذلك يعرف أن الشرع أضاف إليها إضافات أصبحت من مسمّياتها؛ لأنه فسّر الإيمان بهذه الأعمال.

وقد ثبت أيضًا أنّه فسّر الإيمان بهذه الأعمال الظاهرة، وهي أركانه الخمسة، وفسّر الإيمان بأعمال القلب وبالغيبيّات، وأركانه الستة، ومراده أنّ هذا أصله يعني التصديق بالأمور الغيبيّة، وهي هذه الأركان ومع ذلك لا بدّ أن يكون له مكمّلات ومتممات، وهي بقيّة الأعمال البدنيّة، فيقال: إنّه أيضًا نقل البرّ من المعنى اللغوي إلى المعنى الشرعي؛ فالبرّ في اللغة: الصدق، والبَرّ الصادق، وقد قالوا البرّ هو طاعة الوالد، كما يقال: أوصيك ببرّ الوالدين، يعني: طاعتهم، فالبرّ لغة طاعة الوالدين، أو صدق الحديث، ولكن الشرع جعله اسمًا لكلّ الأعمال

الخيريّة حتّى أعمال القلوب فأدخل فيه أركان الإيمان الخمسة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فهذه أركان الإيمان الخمسة.

وذكر القدر في مواضع أخرى جعلها أساسًا للإيمان وللبرّ، ثمّ ذكر أعمالًا ماليّة، وجعلها أيضًا داخلةً في البرّ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، يعني: هذا عمل مالي وهو إعطاء المال لهؤلاء، فجعله من البرّ.

ثمّ قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذه أربعة من الأعمال البدنية.

ثم قال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فأخبر بأنّهم الذين صدقوا لـمّا قالوا: آمنّا، وظهر إيمانهم على أبدانهم وعلى أموالهم، فهم قد صدقوا، وهم أيضًا أهل التقوى الذين توقّوا أسباب الهلاك، وجعلوا بينهم وبين النار وقاية وحاجزًا منيعًا، فأصبحوا بذلك مستحقّين لاسم التقوى.

وهكذا يقال في سائر المسمّيات الشرعيّة، وهو أنّ الله شرع لعباده هذه الأشياء، وسمّاها بهذه المسمّيات، وأريد بها هذه المعاني التي تدخل فيها، ورتّب عليها الأجر والثواب، فرتّب الله على البرّ الثواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣]، ورتّب على التقوى الجنّة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]،

أعدّت يعني: هيّئت للمتقين، كما رتّب بذلك على الإيمان، في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين:٦]، على إيمانهم وعملهم الصالح، فمن صدق بذلك كلّه وعمل به فهو المصدّق المتّبع لهذه الشريعة، ومن نقص حظّه من ذلك نقص حظّه من الآخرة.

قال الشارح:

وَأَي دَلِيلٍ على أَنَّ الْأَعْمَالَ دَاخِلَة في مسمى الْإِيمَانِ فَوْقَ هَذَا الدَّلِيلِ؟ فإنه فَسَّرَ الْإِيمَانَ بِالْأَعْمَالِ، وَلَمْ يَذْكُرِ التَّصْدِيقَ، لِلْعِلْمِ بِأَنَّ هذه الْأَعْمَالَ لَا تُفِيدُ مَعَ الْجُحُودِ. وفي «الْمُسْنَدِ»(١) عَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنِ النبي ﷺ، أنه قَالَ: «الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ».

وفي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ على الْمُغَايِرَة بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ. وَيُؤَيِّدُه حَدِيثُ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَدْ قَالَ فيه النبي ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(٢). فَجَعَلَ الدِّينَ هُوَ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ دِينَنَا يَجْمَعُ الثَّلَاثَة. لَكِنْ هُوَ دَرَجَاتٌ ثَلَاثَة: مُسْلِمٌ، ثُمَّ مُؤْمِنٌ، ثُمَّ مُحْسِنٌ. وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِسْلَامِ قَطْعًا، كَمَا أنه أُرِيدَ بِالْإِحْسَانِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، لَا أَنَّ الْإِحْسَانَ يَكُونُ مُجَرَّدًا عَنِ الْإِيمَانِ، هَذَا مُحَالٌ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢]. وَالْمُقْتَصِدُ وَالسَّابِقُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّة بِلَا عُقُوبَة، بِخِلَافِ الظَّالِمِ لِنَفْسِه، فإنه مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ.

وَهَكَذَا مَنْ أَتَى بِالْإِسْلَامِ الظَّاهِرِ مَعَ التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ، لَكِنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عليه مِنَ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ فإنه مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ.

---

(١) (٣/ ١٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

فَأَمَّا الْإِحْسَانُ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهِ، وَالْإِيمَانُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، وَأَخَصُّ مِنَ جِهَةِ أَهْلِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَالْإِحْسَانُ يَدْخُلُ فيه الْإِيمَانُ، وَالْإِيمَانُ يَدْخُلُ فيه الْإِسْلَامُ، وَالْمُحْسِنُونَ أَخَصُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَخَصُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَهَذَا كَالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، فَالنُّبُوَّةُ دَاخِلَةٌ فِي الرِّسَالَةِ، وَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهَا، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِي، وَلَا يَنْعَكِسُ.

قال الشيخ:

هذا كلام يتعلّق بالإسلام والإحسان، فإنّ الرسول ﷺ في حديث وفد عبد القيس، فسّر الإيمان بالأعمال والأقوال؛ لأنّه ما أمرهم إلا بالإيمان، ولكن في حديث جبريل - عليه السلام - المشهور سُئل عن الإسلام والإيمان والإحسان، ففسر كلّ واحد بتفسير، ولكن الثاني لا بدّ أنّه دخل في الأوّل، والثالث لا بدّ أنّه مستلزم للأوّلين قبله، ففسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة؛ فسره بالأركان الخمسة: بالشهادتين، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، هذا هو الإسلام؛ لأنّ هذه يظهر من صاحبها إذعان، وأصل الإسلام هو الإذعان والانقياد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣]، يعني: أذعنوا وانقادوا واستسلموا غيرَ مستعصين ولا متشددين، قويّهم وضعيفهم، حيوانهم وإنسانهم ومؤمنهم وكافرهم أذعنوا، يعني: أسلموا، فالإسلام في الأصل هو الإذعان، وأركانه الخمسة دليل واضح على أنّهم أعلنوا

دخولهم في الإسلام، فمن رأيناه يتلفّظُ بالشهادتين، ويحافظ على الصلوات، ويخرج زكاة ماله، ويصوم معنا، ويحجّ معنا؛ حكمنا أنّه مسلم؛ لأنّه يعمل مع المسلمين، ويدين لله تعالى ظاهرًا، ولم نفتّش ما في قلبه، فنعامله معاملة المسلمين، ولا نتكلّف البحث عن باطنه مادام يفعل هذه الأعمال الظاهرة، هذه تسمّى المرتبة الأولى، وهي المرتبة الواسعة.

ثمّ تليه المرتبة الثانية، وهي الإيمان، فسّره ههنا بالعقيدة: «أَنْ تُؤْمِنَ باللَّهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، الإيمان بهذه الستّة يعني الاعتقاد بصحّتها، والاعتقاد بأحقيّتها: الإيمان بأنّ الله هو ربُّ الأرباب، وإلهُ العالمين، والمعبود وحده، المستحقّ للعبادة وحده دون ما سواه، والإيمان بالملائكة؛ لأنّهم رسل من خلق الله، مسخّرون لعبادته، والإيمان بالكتب؛ لأنّها كلام الله، وفيها شرعه، والإيمان بالرّسل؛ لأنّهم رسل ووسائط بين الله وبين عباده، والإيمان باليوم الآخر، والتصديق بالبعث بعد الموت، وبالجزاء الذي فيه، والإيمان بقدرة الله، وبما قدّره وقضاه على عباده.

هذه أمور عقديّة، ومعلوم أنّها إذ صحّت ورسخت في القلب، فلا بدّ أن تظهر آثارها على البدن، ولا بدّ أن ينطق صاحبها بما يقول، ولا بدّ أن يفعل ما يقول، ولا بدّ أن يظهر عليه الفعل والترك اللذان هما من آثار هذه العقيدة، ومن قال: أنا آمنت بالله وكتبه ورسله وبالملائكة والبعث بعد الموت وبالقدر. ثم رأيناه لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يعبد الله وحده، بل يجعل معه إلهًا آخر؛ قلنا: كذبت، لو كنت صادقًا بإيمانك ويقينك لَـمَا خالفت ذلك بأعمالك؛ فالأعمال التي

نراها ظاهرة هي في الحقيقة ترجمةٌ لما تقولُه وتعتقده، فإذن لا بدّ مع أركان الإيمان من أركان الإسلام؛ حتّى يكون ذلك ثقة وصحيحًا.

كما يقال في الإحسان الذي فسّره بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ». قسّم العلماء هذا التفسير قسمين:

الأول: عين المشاهدة: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

والثاني: عين المراقبة: أن تستحضر أنّه يراك، أي: يراقبك.

فمن استحضر أنّه يرى ربّه اجتهد في الدعاء، واجتهد في العبادة وحسّنها وكمّلها، ومن لم يصل قلبه ويقينه هذا الاستحضار، فإنّه يستحضر أنّ ربّه مطلع عليه، يعلم نظره ولسانه وفلتاته، ويعلم حديث قلبه وما توسوس به نفسه، فيكون من آثار هذا الإيمان أن يحسن العمل إذا استحضر أنّه بمرأى ومسمع من ربّه، وأنّه لا تخفى عليه منه خافية، وأنّ الله مطّلع عليه ألا يكون ذلك حاملًا له على إتقان العمل وإحسانه.

فمثلًا - ولله المثل الأعلى - لو كان الإنسان موظفًا تحت إدارة قويّة المراقبة، ونحن دائمًا نجعل من يراقب الموظفين، فيشددون عليهم في الحضور في العمل وعدم التساهل، وقد يراقبونهم وهم لا يشعرون ولا يبصرونهم، فلا شكّ أنّ الموظفين يجدُّون في العمل، ويجتهدون فيه مخافة أن يُبعدوا عنه، ويحرموا من استحقاقاتهم. أمّا إذا كانوا مهملين، لا ينظر إليهم رئيسهم، ولا يفتّش عليهم ولا يراقبهم، فليس هناك دوافع في قلوبهم، لا دوافع إيمان، ولا مخافة من الله، ولا أمانة، فإنّهم يهملون الأعمال، ويقطعون أوقاتهم في اللهو واللعب، وفي القيل

والقال، ولا يخلصون في الأعمال، ولا يجدّون فيها، فهذا مثلٌ محسوس يشاهد بيانًا. فنقول: كذلك الإنسان الذي يعمل وهو يستحضر أن الله يراه؛ يحرص على إتقان العمل، وإذا غاب عنه هذا الاستحضار، فإنّه يتساهل كثيرًا في عمله.

فنقول بعد ذلك: هذه مراتب ثلاث: المرتبة العليا وهي الإحسان، والمرتبة الوسطى وهي الإيمان، والمرتبة الدنيا وهي الإسلام

أهل الإسلام أكثر من أهل الإيمان؛ لأنّه يوجد فيهم من هو مسلم ظاهرًا وليس بمسلم باطنًا، يصلون وقلوبهم ليست مطمئنّةً بالإيمان.

وأهل الإيمان أقل من أهل الإسلام؛ لأنّهم خلاصتهم وصفوتهم.

وأهل الإحسان أهل المرتبة الثالثة، وهم خلاصة الخلاصة، يعني: أنّهم صفوة الصفوة، بمعنى أنّهم أهل الإحسان القويِّ، الذين بلغت بهم القوة إلى أنّهم يتقنون كلّ عمل، فإذا صلّوا أتقنوا الصلاة، ولم يغفلوا فيها، ولم يحدّثوا أنفسهم، وإذا دخل وقت نافلة لم يضيعوا وقتها إلا بعمل ما يحبّون وما يريدون، وهكذا بقية أعمالهم يحملهم استحضارهم لربّهم على أنّ لا يعصوه، طرفة عين، فيكون ذلك كلّه سببًا لإتقانهم العمل.

فلذلك يقال: إنّ الإسلام أعمّ من جهة أهله، يعني: أهله أكثر من أهل الإيمان، وأخصّ من جهة وصفه؛ لأنّه يدخل فيه أهل الأعمال الظاهرة، فأهل الإسلام أقلّ أعمالًا من أهل الإيمان، ولكنّهم أكثر عددًا، فيدخل فيهم المؤمنون، ويدخل فيهم المسلمون الذين ليسوا بمؤمنين، هذا معنى كونه أعمّ من جهة أهله، وأخصّ من جهة وصفه، يعني: أعمال أهله أقل من أعمال أهل الإيمان.

كذلك يقال: أهلُ الإيمان أكثر أعمالًا؛ لأنّهم آمنوا بالله واليوم الآخر، والكتاب، والملائكة، والنبيّين، والقدر، وصلّوا، وصاموا، وحجّوا، واجتهدوا، وتشهّدوا، وذكروا الله. وأمّا أهل الإسلام، فأعمالهم هي الأعمال الظاهرة: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فهم أقلّ أعمالًا.

كذلك نقول: أهل الإحسان أقل من أهل الإيمان، فأهل الإيمان أكثر من أهل الإحسان، يعني: الإيمان أكثر من جهة أهله وأقلّ من جهة وصفه بالنسبة إلى الإحسان؛ لأنّ أهل الإحسان قد جمعوا الخصال الثلاثة، فأصبحوا مؤمنين مسلمين محسنين، فهم جمعوا بين إتقان العمل، وبين إخلاص العبادة لله، كأنّهم يرونه، ومراقبته، والإيمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، وأداء الصلاة، والصوم، والحج، جمعوا الأعمال كلّها، وتركوا السيّئات، وابتعدوا عن الآثام، فهم أكثر من جهة الوصف، ولكنّهم أقل من أهل الإيمان، فأهل الإحسان أقلّ من أهل الإيمان، وأهل الإيمان أقل من أهل الإسلام، ولكن أهل الإسلام أقلّ أعمالًا من أهل الإيمان، وأهل الإيمان أقلّ أعمالًا من أهل الإحسان.

ثمّ مثّل بالنبوّةِ والرسالة معًا، إن الأنبياء أكثر من الرسل، ولكنّهم أقلّ مسؤولية، وأقلّ عملًا من الرسل، فإنّ الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عليهم أعمال ليست على الأنبياء، ولكنّ الرسل أقل عددًا من الأنبياء؛ فإنّ كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي رسولًا؛ فالرسول أقلّ من جهة أهله، وأكثر من جهة وصفه.

الرسول: هو الذي أوحى الله إليه، وهو الذي أمر بالتبليغ، وهو الذي دعا

وكُذِّب، وهو الذي عُوديَ وأوذي، فهو أكثر عملًا، والرسل أقلّ عددًا من الأنبياء، فالنبوة أكثر من جهة أهلها، وأقل من جهة الوصف، يعني: من جهة الأعمال، هذا التمثيل بالنبوّة والرسالة.

نقول: كذلك أهل الإيمان، وأهل الإحسان، وأهل الإسلام . إذا عرفنا أنّ هذه كلها من الأعمال الشرعية، فيجب على الإنسان أن يحرص على أن يجمع بينها كلّها، وعلى أن يأتي بالأعمال الظاهرة، وهي الإسلام، ويحقق الأعمال الباطنة، وهي أركان للإيمان، ويحرص أيضًا على الأعمال حتّى يكون من أهل مرتبة الإحسان، فيجمع بين المراتب كلّها.

ومعلوم أيضًا أنّ المسلم إذا تسمّى أنّه مسلم، ودخل في الإسلام، أصبح ملزمًا بأمور يعتقدها تسمّى عقائد، وأصبح ملزمًا بأعمال يعملها، وبأقوال يقولها، وكلها داخلة في الدين، ولأجل ذلك جعل النبي ﷺ هذه الأشياء كلّها من الدين في قوله: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1]. فجعل الإسلام والإيمان والإحسان كلّه من الدين الذي بعث الله به هذه الرسل، وسمّاه دين الإسلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فمن حقّق هذا كلّه، فقد حقّق هذا الدين الذي جاء به الرسل، ومن نقص شيئًا نقص بحسبه.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

قال الشارح:

وَقَدْ صَارَ النَّاسُ في مُسَمَّى الْإِسْلَامِ على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ:

فَطَائِفَة جَعَلَتِ الْإِسْلَامَ هُوَ الْكَلِمَةَ.

وَطَائِفَة أَجَابُوا بِمَا أَجَابَ به النبي ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ؛ حَيْثُ فَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة، وَالْإِيمَانَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الْخَمْسَة.

وَطَائِفَة جَعَلُوا الْإِسْلَامَ مُرَادِفًا لِلْإِيمَانِ، وَجَعَلُوا معنى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَإِقَامُ الصلاة»[1]، الحَدِيثَ: شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ. وَالْأَصْلُ عَدَمُ التَّقْدِيرِ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ، ثُمَّ قَالُوا: الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ هُوَ التَّصْدِيقَ! وَهَذَا لَمْ يَقُلْه أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَة، وَإِنَّمَا هُوَ الانْقِيَادُ وَالطَّاعَة، وَقَدْ قَالَ النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ»[2]. وَفَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة، وَالْإِيمَانَ بِالْإِيمَانِ بِالْأُصُولِ الخَمْسَة. فَلَيْسَ لَنَا إِذَا جَمَعْنَا بَيْنَهُمَا أَنْ نُجِيبَ بِغَيْرِ مَا أَجَابَ به النبي ﷺ.

وَأَمَّا إِذَا أُفْرِدَ اسْمُ الْإِيمَانِ فإنه يَتَضَمَّنُ الْإِسْلَامَ، وَإِذَا أُفْرِدَ الْإِسْلَامُ فَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْإِسْلَامِ مُؤْمِنًا بِلَا نِزَاعٍ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ، وَهَلْ يَكُونُ مُسْلِمًا وَلَا يُقَالُ له: مُؤْمِنٌ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فيه.

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الشيخ:

كلمة الإسلام كلمة شرعيّة، ولها معنى في اللغة، والإسلام في الشرع: قريب من معناه في اللغة، فسّره الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، في «ثلاثة الأصول»، بقوله: «الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله». هذا تفسير الإسلام بما يقرب من معناه اللغويّ، الذي هو: الإذعان والانقياد.

وأمّا تفسيره في الشرع: فلا أوضح من تفسير النبيّ ﷺ له بالأركان الخمسة؛ لأنها أول دليل على إذعانه وانقياده والتزامه، فإنّ من التزم هذه الأركان انقاد إلى ربّه، ولم يستعصِ، وفعلها منقادًا ظاهرًا، كأنّه يقاد بزمام إلى هذه الأعمال، كما يُقاد البعير المذلل الذي لا يستعصي ولا ينفر، فإنّ البعير إذا كان ذلولًا قد ذُلّل وانقاد، فإنه يأتي صاحبه بأول إشارة، ينساق إذا ساقه، وينقاد إذا قاده، فهذا مثال للمسلم، ينقاد لأمر الله ويذعن لأمره، ويتذلّل له، بخلاف الكافر؛ إذا أمره الله استعصى، وأظهر الشقاق، وعاند وامتنع وشدّد في الامتناع. فهو مثل الجمل الشرود، الذي كلّما قرب منه صاحبه نفر وابتعد، ولا يستطيع أن يأتيه إلا بقوة، وقد يتمنّع على صاحبه، ولا يُمكّنه من ركوبه، ولا من قيادته، ولا من غير ذلك، هذا سبب تسمية مَنْ دخل في هذا الدين مسلمًا، يعني مستسلمًا في الظاهر.

من الناس من يقول: إن الإسلام هو مجرّد الكلمة، أي: قوله: أسلمنا، يعني: انقدنا ظاهرًا، ولأجل ذلك أنكر الله على من ادَّعى الإيمان، وهو ليس مؤمنًا،

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

وعلى هذا، فلا يفسّر الإسلام بالكلمة التي هي قول أسلمنا، ولكنّ التفسير الواضح هو أن تفسّر الكلمة بالالتزام بالأركان الخمسة، فيقال: هذا مسلم، يعني: ملتزمٌ، والله أعلم بحقيقة باطنه.

أما إذا ذكر الإسلام والإيمان معًا، فإنّ الإسلام يفسّر بالأركان الخمسة؛ لأنها ظاهرةٌ، والإيمان يفسَّرُ بأعمال القلب، لكن إذا اقتصر على الإيمان فإن أهله يكونوا مسلمين، ولا بدّ أن يكونوا قائمين بالأركان الخمسة، وأن يكونوا قائمين ومعتقدين بالأركان الستة التي هي العقيدة.

وعلى هذا من كان مؤمنًا فهو مسلم، أما إذا اقتصر على الإسلام، فهل يدخل فيه الإيمان، أو لا يدخل؟

من العلماء من يقول: إن اسم المسلم عند الإطلاق يعمّ الملتزم، والملتزم لا بدّ أن يكون ملتزمًا بالرسالة. وبكلّ ما جاء فيها، ودليله قول النبيّ ﷺ: «من قال: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ من دُونِ اللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ على اللَّهِ»(١)، اشترط الكفر بما يُعبد من دون الله، وثبت أيضًا قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَـهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَيُقِيمُوا

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٧١).

الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فإذا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ على الله»[1]. فجعل ذلك شرطًا لعصمتهم ولقبولهم، وبذلك يعرف بأنّهما متلازمان، كلّ مسلم يلزم أن يكون مؤمنًا، وكلّ مؤمن يستلزم الإسلام في مسألة مُسمّى الإيمان والإسلام، وما يتفرّع عن هذه الأسماء.

وقد بحث العلماء وأفاضوا في هذا البحث، ومن خلال بحثهم يتبيّن حثُّهم أن يكون المسلم المؤمن عاملًا بما يقتضيه هذا الاسم، فإنه إذا تسمّى بأنّه مسلم لم يكفِ مجرّد التسمية حتّى يظهر عليه أثر هذا الاسم، فلأجل ذلك جعلوا الاسم يشمل ما في القلب، ويشمل ما على اللسان، ويشمل ما على الأركان، ليصدق بذلك المسمّيات؛ لأنّه لو كان الإيمان مجرّد ما يكون في القلب، لَمَا كان هناك فرق بين الناس، بل كلّ يقول أنا مؤمن، ثم بعد ذلك يعمل ما يشاء .

إذا عرفنا أن الإيمان له آثار وله مكمّلات، عرفنا بذلك من هو صادق، ومن هو كاذب، وحقائقُ الأشياء تظهر بعلامات؛ فحقيقة الإيمان علامتها العمل، كما أنّ حقيقة الإسلام علامتها العمل، فمن ادّعى بأنه مؤمن، فلا بدّ أن يعمل، فإنّ العمل من تمام الإيمان، كما أنّ من ادّعى أنّه يحبّ الله، فلا بدّ أن يطيعه، ولا بدّ أن تظهر عليه آثار هذه المحبّة، أما أن يحب الله ولكنّه لا يطيعه بل يعصيه، فليس بصادق، كما ورد عن بعض الصحابة والسلف أنّه قال: «كل من ادعى محبة الله عز وجل، ولم يوافق الله في أمره، فدعواه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

باطلة»(١)، والموافقة: هي الطاعة، أي: تمام الطواعيّة بالأعمال الصالحة. هذه هي حقيقة الموافقة، أي: موافقة ما أمر الله.

وكذلك من يحبّ لا بدّ أن يتأثّر بمحبوبه، ولا بدّ أن تظهر عليه آثار هذا الحبّ، ولأجل ذلك ورد في الأحاديث الحثّ على محبّة الله تعالى، وعلى محبّة رسوله ﷺ، وبيان أثرهما، فقال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢)، وهذه الثلاث كلّها متلازمة، وكلّها من آثار محبّة الله، فإنّ من أحبّ الله، وأحبّ رسوله، وقدّم محبتهما على غيرهما، أطاع الله ورسوله .

وكذلك من آثار محبّة الله ومحبّة رسوله: أن يحبّ أولياء الله، من كانوا، وأينما كانوا، ولو كانوا أباعد، ولو كانوا أجانب.

وكذلك من آثار محبّة الله: أن يبغض معاصي الله، وأن يبغض العصاة، الذين يبغضهم الله.

كذلك أيضًا من آثار محبّة الله: أن يكره الكفر الذي يبعده عن ربّه، وأن يؤثر الإيمان والطاعة التي تقرّبه إلى ربّه . فهذا مثال في أنّ العمل تابع للإيمان، وأثر من آثاره، ولازم من لوازمه، وكذلك لازم من لوازم الإسلام.

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٧٥) عن أبي يعقوب النهرجوري.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٨١).

ولأجل ذلك ورد عن الحسن ﷺ قوله: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّه مَا وَقَرَ فِي الصُّدورِ وَصَدَّقَتْه الْأَعْمَالُ»[١]، فجعل الأعمال أثرًا من آثار الإيمان الذي يكون في القلب.

وبكلّ حال؛ من ظهرت عليه الأعمال الصالحة، فهو المؤمن، ومن ادّعى أنّه مؤمن، ولم تظهر عليه الأعمال الصالحة، فليس بمؤمن، ولو كان باطنه حسنًا، فإنّنا لا نعمل إلا بالظاهر، فالذي في الباطن، والذي في القلب لا يُحاسِبُ عليه إلا الربّ، أمّا نحن فليس لنا إلا الظاهر، فمن أظهر لنا خيرًا وعمل برًّا، أحببناه وشهدنا له بالإيمان والصلاح، ومن أظهر لنا فسوقًا وعصيانًا ومخالفاتٍ وسيّئات، أبغضناه وشهدنا له بالفسوق والمعصية، ومقتناه ولو كان باطنه حسنًا، فالله تعالى هو الذي يحاسب على ما في القلب، فهو علاّم الغيوب، هكذا يجب علينا.

فبذلك يتبين أنّ الأعمال من مسمّى الإيمان، وأنّه لا يتم الإيمان إلا بالأعمال، وأن الإنسان عليه أن يحقّق إيمانه بأعماله التي يعملها سواء كانت أقوالًا يتلفظ بها، كالأذكار والأدعية، والتلاوة ونحوها، أو أعمالًا يعملها ببدنه أين كانت، كجهاد في سبيل الله، ونفقة في وجوه الخير، وما شابه ذلك، أو بقلبه، كحب من يحب الله، وكراهية أعداء الله، وما أشبه ذلك، أو بجميع جوارحه، فإذا كان كذلك سمينا هذه الأعمال بعضًا أو جزءًا من إيمان، فبذلك يعرف أنّ الإيمان يتفاوت أهله فيه بحسب الأعمال.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٣).

قال الشارح:

وَكَذَلِكَ هَلْ يَسْتَلْزِمُ الْإِسْلَامُ الْإِيمَانَ؟ فيه النِّزَاعُ الْمَذْكُورُ، وَإِنَّمَا وَعَدَ اللَّهُ بِالجَنَّةِ في الْقُرْآنِ، وَبِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ بِاسْمِ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وَقَالَ تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وَأَمَّا اسْمُ (الْإِسْلَامِ) مُجَرَّدًا، فَمَا عُلِّقَ به في الْقُرْآنِ دُخُولُ الجَنَّة، لَكِنَّه فَرَضَه وَأَخْبَرَ أنه دِينُه الذي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاه، وبه بَعَثَ النَّبِيِّينَ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

فَالحَاصِلُ أَنَّ حَالَةَ اقْتِرَانِ الْإِسْلَامِ بِالْإِيمَانِ غَيْرُ حَالَة إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَمَثَلُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَثَلِ الشَّهَادَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مِنَ الأخرى، فَشَهَادَةُ الرِّسَالَة غَيْرُ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِيَّة، فَهُمَا شَيْئَانِ في الْأَعْيَانِ، وَإِحْدَاهُمَا مُرْتَبِطَة بِالْأُخْرَى في المعنى وَالحُكْمِ، كَشَيْءٍ وَاحِدٍ. كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ، لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا إِسْلَامَ له، وَلَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا إِيمَانَ له؛ إِذْ لَا يَخْلُو الْمُؤْمِنُ مِنْ إِسْلَامٍ به يَتَحَقَّقُ إِيمَانُه، وَلَا يَخْلُو الْمُسْلِمُ مِنْ إِيمَانٍ به يَصِحُّ إِسْلَامُه.

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وفي كَلَامِ النَّاسِ كثيرة، أَعْنِي في الْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ.

مِنْهَا: لَفْظُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، فَالْكُفْرُ إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا في وَعِيدِ الْآخِرَة دَخَلَ فيه

الْمُنَافِقُونَ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥]، وَنَظَائِرُه كثيرة. وَإِذَا قُرِنَ بَيْنَهُمَا كَانَ الْكَافِرُ مَنْ أَظْهَرَ كُفْرَه، وَالْمُنَافِقُ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِه وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِه.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَفْظُ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَلَفْظُ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَفْظُ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

أورد الشيخ الكلام عن الفرق بين الإسلام والإيمان . ولا شكّ أنّهما مسمّيان شرعيان، وكلاهما مطلوبان ومفروضان على العباد، ولا بدّ للعبد أن يعرف مسمّاهما، وأن يدين لله تعالى بهما، فيدين لله بأنّه هو الإله الحقّ، ويدين لله تعالى بأنّه هو الذي فرض عبادته على الخلق، ويدين للرسول ﷺ بأنّه مرسل من ربّه، وأنّه يحمل هذه الرسالة التي هي الشريعة، ويدين لله بالعبادات، ومن جملتها بقية أركان الإسلام فيؤدّي الصلوات، ويخرج الزكاة، ويصوم ويحجّ ويجاهد، ويعمل بالأعمال الشرعيّة التي كتبها الله، فبذلك يكون مسلمًا ظاهرًا.

وكذلك يصحح عقيدته، فيعتقد ويجزم بعقيدة سليمة بأنّ الله تعالى موصوف بصفات الكمال، ومنزّه عن صفات النقص، وبأنّه لا تصلح الإلهيّة إلاّ له وحده، وبأنّه خالق الكون ومدبّر الأمور، وكذلك يؤمن بأمور الغيب التي تقدّم تفصيلها، وإن لم يرها، فبذلك يصير جامعًا بين الإسلام والإيمان. هذا مجمل

القول في الإسلام والإيمان.

وبكلّ حال؛ إذا جُمع بين الإسلام والإيمان فسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بأعمال القلب، ولا شكّ أنّهما متلازمان، وكلّ من اتصف بواحد منهما دون الآخر لم يكفِه ذلك، فالذي يقول أنا مؤمن إيمانًا خفيًا لا يكفي إلاَّ أن يأتي بالأعمال الظاهرة التي هي أركان الإسلام، والذي يأتي بالأركان الظاهرةً على أتم وجه، ولكنّ قلبه فاسد، لا تنفعه هذه الأركان، ولو صلى، ولو صام، ولو حجّ، ولو زكّى مادام أنها من غير عقيدة، ولأجل ذلك كثيرًا ما يجمع الله بينهما؛ مما يدلّ على أنّ المكلف لا بدّ أن يأتي بهما، قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦]؛ فوصفهم الله تعالى بأنّهم من المؤمنين، ثمّ وصفهم بأنّهم من المسلمين، فدلّ على أنهم يقعون بين الأمرين، بين الإسلام والإيمان، ولكن لا يغني الإيمان عن الإسلام، ولا يكفي الإسلام عن الإيمان، وإن كان أحدهما إن أفرِد دخل فيه الآخر.

وقد كذّب الله تعالى الأعراب الذين قالوا: آمنّا، وهم ليسوا بمؤمنين حقيقة في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤]، فأُخبروا بأنّهم قالوا: آمنّا، وهم ليسوا بمؤمنين حقيقة؛ لأنّ قلوبهم فيها ريب، وشكّ، ولا يزال عندهم توقّف وتردّد في صحة ما جاء به الرسول ﷺ، وفي تصديقه بالأمور الغيبيّة، فلأجل ذلك قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾، أي: لم يصل إلى قلوبكم، فأنتم أسلمتم ظاهرًا، والإيمان الذي

منبعه القلب لم يصل إلى قلوبكم حقيقة.

وثبت في «الصحيح» أَنَّ رَسُولَ اللَّـهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، قال سعد ﷺ: فَتَرَكَ رسول اللَّـهِ ﷺ رَجُلًا هو أَعْجَبُهُمْ إلي، فقلت: يا رَسُولَ اللَّـهِ ما لك عن فُلَانٍ، فَوَاللَّـهِ إني لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فقال: «أو مُسْلِمًا»، فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي ما أَعْلَمُ منه، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فقلت: ما لك عن فُلَانٍ، فَوَاللَّـهِ إني لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فقال: «أو مُسْلِمًا»، ثُمَّ غَلَبَنِي ما أَعْلَمُ منه، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رسول اللَّـهِ ﷺ(١).

يعني: الأَوْلى أن تقول: إنه مسلم، ولا تحكم له بالإيمان، فإن الإيمان يجمع بين الباطن والظاهر، وأنت لا تعرف منه إلاّ الظاهر، هكذا يُفسَّرُ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا، يفسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، ويفسّر الإيمان بأعمال القلب وقد ضرب له الشارح أمثلة.

الإسلام والإيمان متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، مثل الشهادتين، فإنهما متلازمتان؛ مَنْ شهد بإحداهما لزمته الأخرى، بل هي مكمّلة لها؛ لأننا نقول: من أين عرف أنه لا إله إلا الله، من أين عرفت بأن الله هو الإله الحقّ، وأنّه لا تصلح الألوهيّة إلا له، أليس ذلك بواسطة الرسالة، إذن فيلزمك تصديق الرسول والشهادة له بأنّه مرسل من ربّه، إذا صدقت بأنّ الرسول ﷺ مبعوث من الله، فما هي الرسالة التي بلّغها؟ أليس أول شيء بدأ به هو التوحيد؛ أن يقال: لا إله إلا الله؟ أي: بدأ بدعوة النّاس إلى عبادة الله، وترك عبادة ما سواه، أليست

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

هذه أعظم رسالة بلّغها؟ إذن فالشهادتان متلازمتان، ومن شهد أن لا إله إلا الله، ألزم بأن يأتي بالشهادة الثانية، وهي الشهادة بالرسالة، ومن شهد بأنّ محمدًا رسول الله لزمه قبول الرسالة التي أهمّها قول: لا إله إلا الله، فعرفنا بذلك أنّهما متلازمتان، فكذلك الإسلام والإيمان متلازمان، فمن أسلم في الظاهر قلنا له: لابدّ أن يكون إسلامك نابعًا من القلب، ومن آمن في الباطن، وحقّق الإيمان الذي في قلبه قلنا: لا بدّ أن يكون الذي في قلبك له أثر وله علامات، أين علامات الإيمان؟ أين آثار الإيمان؟ فآثار الإيمان تظهر على سمعك وعلى بصرك، وعلى يديك، وعلى لسانك، وعلى رجليك، وعلى مالك، وعلى حالك، تظهر على ذلك آثار الإيمان، فإذا أظهرت ذلك فأنت مؤمن، وإذا لم تظهره لست بمؤمن.

ثم ذكر أيضًا أنّ كثيرًا من الأمور تقترن ويفسّر أحدهما بكذا، والآخر بكذا مثل الكفر والنفاق؛ وهما من الأمور التي بيّنها الشرع، وإن كان له مسمّى في اللغة. وكذلك أيضًا الكفر والشرك متلازمان، فإن كلّ من كفر وصف بأنه مشرك، وكل من أشرك وصف بأنّه كافر، لماذا؟ لأنّ الشرك هو أن يجعل لله شريكًا، ومعروف أن الشرك مشتقّ من الشركة، أي: الاشتراك، كأنّه جعل عبادته مشتركة بين الخالق والمخلوق، وهذا يعم كل من حُكم بكفره؛ لأنّه أطاع غير الله، ولو لم يطع إلا الشيطان الذي نهاه عن عبادة الله، أو أمره بأن يعبد المخلوق، أو أمره أن يجحد الرسالة، أو نحو ذلك، فيكون قد عبد الشيطان، ولأجل ذلك يقول العلماء إن كلّ من عبد غير الله، فعبادته منصبّة على الشياطين.

ولذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، قال المشركون: كيف تزعم أنّ ما نعبده حصب جهنّم، نحن نعبد الملائكة، فهل الملائكة حصب جهنّم؟ والنصارى يعبدون المسيح، هل المسيح حصب جهنّم؟ اليهود يعبدون العُزير، هل العُزير الصالح من حصب جهنّم؟ فقال النبيّ ﷺ: «**كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ**»[(١)]، فالشياطين هي التي دعتهم إلى عبادتها، فأطاعوها، فأصبحوا عابدين للشياطين، وإلاّ فالملائكة بريئة منهم، كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. الجنّ: يعني الشياطين.

فالحاصل أنّ الشرك والكفر متلازمان، كلُّ من أشرك قيل هذا كافر مشرك، وكلُّ من كفر بالله وبنعمة الله، قيل: هذا مشرك كافر، وكذلك أيضًا المنافق موصوف بأنّه منافق، وبأنّه كافر، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣]، ففي أول السورة سمّاهم المنافقين، في قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١]، وفي الآية بعدها وصفهم

---

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ١٩٢) بسنده عن ابن جريج، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٩٦، ٩٧) بسنده عن محمد بن إسحاق بن يسار.

بأنّهم قد آمنوا ثمّ كفروا، فدلّ على أنّ كل من نافق فهو كافر، ولو كان يظهر للناس أنّه معهم؛ لأنّه كما وصف الله تعالى المنافقين بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، فرؤساؤهم الذين يدعونهم إلى النفاق هم شياطينهم.

فهذا دليل على أنّهم في الباطن مع الكفّار، وهذا دليل على أنّ الأعمال متلازمة لا يتمّ الإيمان إلا بها، والإسلام والإيمان والتوحيد واليقين، من المسمّيات الشرعيّة، وكذلك أسماء الكفر متلازمة، الفسوق والعصيان، والشرك والكفر والنفاق، وما أشبهها، إذا وُصِف واحدٌ بوصف منها انطبقت عليه الأوصاف، فيقال: هذا فاسق وكافر وضالّ وعاصٍ ومشرك ومنافق، ونحو ذلك، وإن كان النفاق يختصّ بمن أخفى كفره، ولا يعمّ من أظهر كفره، لكنّه في الحقيقة كثيرًا ما يصدق عليه ما ينطبق عليه أنّه منافق، ولو كان مظهرًا لكفره غالبًا.

قال الشارح:

وَيَشْهَدُ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، إلى آخرِ السورة. وَقَدِ اعْتُرِضَ على هَذَا بِأَنَّ معنى الآية: ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، انْقَدْنَا بِظَوَاهِرِنَا، فَهُمْ مُنَافِقُونَ في الحَقِيقَةِ، وَهَذَا أَحَدُ قولي المُفَسِّرِينَ في هذه الآية الْكَرِيمَة.

وَأُجِيبُ بِالْقَوْلِ الْآخرِ، وَرُجِّحَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ كَامِلِي الْإِيمَانِ، لَا أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ، كَمَا نَفَى الْإِيمَانَ عَنِ الْقَاتِلِ، وَالزَّانِي، وَالسَّارِقِ، وَمَنْ لَا أَمَانَة له. وَيُؤَيِّدُ هَذَا سِيَاقُ الآية، فَإِنَّ السورة مِنْ أَوَّلِهَا إلى هُنَا في النَّهْيِ عَنِ المَعَاصِي، وَأَحْكَامِ بَعْضِ الْعُصَاة، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ المُنَافِقِينَ.

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات:١٤]، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ مَا نَفَعَتْهُمُ الطَّاعَة، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات:١٥] الآية، يعني - والله أَعْلَمُ - أَنَّ المُؤْمِنِينَ الْكَامِلِي الْإِيمَانِ، هُمْ هَؤُلَاءِ، لَا أَنْتُمْ، بَلْ أَنْتُمْ مُنْتَفٍ عَنْكُمُ الْإِيمَانُ الْكَامِلُ.

يُؤَيِّدُ هَذَا: أنه أَمَرَهُمْ، أَوْ أَذِنَ لَهُمْ، أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، وَالمُنَافِقُ لَا يُقَالُ له ذَلِكَ، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ لَنَفَى عَنْهُمُ الْإِسْلَامَ، كَمَا نَفَى عَنْهُمُ الْإِيمَانَ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَمُنُّوا بِإِسْلَامِهِمْ، فَأَثْبَتَ لَهُمْ إِسْلَامًا، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَمُنُّوا به على رسوله، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِسْلَامًا صَحِيحًا لَقَالَ: لَمْ تُسْلِمُوا، بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ، كَمَا كَذَّبَهُمْ في قَوْلِهِمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. واللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قال الشيخ:

هذه الآية في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤، ١٥]، يعني: أنّ المؤمنين حقًا هم الذين اتّصفوا بهذه الصفات:

أوّلًا: التصديق الجازم بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وبالرسول ﷺ وبما جاء عنه، على مراده .

وثانيًا: ثمّ لم يرتابوا، أي: لم يداخل قلوبهم شكّ ولا توقُّف، بل هم على يقين جازم بما هم عليه، دون أن يشكّوا في شيءٍ من الغيبيّات، بل هم على يقين جازم من أمر البعث والحشر والجزاء ونحو ذلك.

وثالثًا: العمل وهو قوله: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهذا من أمثلة العمل؛ يعني أنّهم جمعوا بين الإيمان الذي هو العقيدة، وعدم الرّيب، والعمل، ويكون ذلك هو حقيقة الأعمال، وحقيقة الإيمان، فهؤلاء هم المؤمنون حقًا، إنّما المؤمنون من كان على هذا.

والحاصل: أنّ الله نفى عنهم الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، وأخبر أن الإيمان لم يصل إلى قلوبهم، ولكنهم

آمنوا إيمانًا ظاهرًا.

ولا شكّ أنّ هؤلاء هم من سمّى الله، وهم الأعراب، يعني: بداة من بوادي المسلمين، دخلوا في الإسلام، ولم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، ولأجل ذلك ارتد الكثير منهم لما مات النبي ﷺ؛ لأنّهم لم يتمكّن الإسلام في قلوبهم، فهؤلاء مسلمون، ولكن لم يكونوا في شكّ، ولم يكونوا على يقين، لم تصل إليهم الأدلّة اليقينيّة، هناك من يقول: إنّهم منافقون.

والصواب أنّهم ليسوا من المنافقين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]، ووصفهم بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]، بل أسلموا ظاهرًا وانقادوا، ولكن لم تطمئنّ قلوبهم، ولعلّ إسلامهم كان بالغلبة أنّهم غُلبوا، أو كان بالظهور لما رأوا الإسلام يعلو ويظهر، أي: آمنوا تجربة ونظرًا، يقولون: ندخل في هذا الإسلام، وبعد ذلك نختبره وننظر؛ إن كان لهم الرفعة والمنعة والقوة والتمكين لاطمأننا فيه، وكذلك إن وجدنا فيه سعة مال، ووجدنا فيه كثرةً وغنى وراحةً وأمنًا وفيه توسعة علينا قبلناه وتمسّكنا به، وإن وجدنا فيه تضييقًا وتعبًا رجعنا إلى ما كنّا عليه، فدخلوه عن تجربة لا عن يقين، فهم ليسوا مثل الصحابة الذين دخلوا عن يقين.

وما أكثر الذين هذه حالتهم، ولكن إذا منّ الله على العبد فدخل في الإسلام،

ثم بعد ذلك يسّر الله له من يشرح له تعاليم الإسلام والإيمان، ويبيّن له الأدلّة اليقينيّة، فإنّه عند ذلك يقتنع وينشرح بذلك صدره، ويعرف ويستيقن بأنّ الإسلام دين الحقّ، وأنّه دين الصواب، فعند ذلك تظهر عليه آثار الإسلام، وهي الأعمالُ الصالحة.

قال الشارح:

وَيَنْتَفِي بَعْدَ هَذَا التَّقْدِيرِ وَالتَّفْصِيلِ دَعْوَى التَّرَادُفِ، وَتَشْنِيعُ مَنْ أَلْزَمَ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ لَوْ كَانَ هُوَ الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يُقْبَلَ ذَلِكَ، وَلَا يُقْبَلَ إِيمَانُ الْمُخْلِصِ! وَهَذَا ظَاهِرُ الْفَسَادِ، فإنه قَدْ تَقَدَّمَ تَنْظِيرُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، وَأَنَّ حَالَةَ الِاقْتِرَانِ غَيْرُ حَالَةِ الِانْفِرَادِ.

فَانْظُرْ إِلَى كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّ النبي ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1]، الحَدِيثَ، فَلَوْ قَالُوا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَأَنْكَرُوا الرِّسَالَةَ، مَا كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ الْعِصْمَةَ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَقُولُوا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) قَائِمِينَ بِحَقِّهَا، وَلَا يَكُونُ قَائِمًا بِـ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) حَقَّ الْقِيَامِ، إِلَّا مَنْ صَدَّقَ بِالرِّسَالَةِ، وَكَذَا مَنْ شَهِدَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، لَا يَكُونُ قَائِمًا بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ حَقَّ الْقِيَامِ، إِلَّا مَنْ صَدَّقَ هَذَا الرَّسُولَ فِي كُلِّ مَا جَاءَ به. فَانْتَظَمَتِ التَّوْحِيدَ. وَإِذَا ضُمَّتْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، كَانَ الْمُرَادُ مِنْ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِثْبَاتَ التَّوْحِيدِ، وَمِنْ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِثْبَاتَ الرِّسَالَةِ.

كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ: إِذَا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، كَمَا فِي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ»[2]: كَانَ الْمُرَادُ مِنْ أَحَدِهِمَا غَيْرَ الْمُرَادِ مِنَ الْآخَرِ. وَكَمَا قَالَ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٢٤).

ﷺ: «الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ»[(١)]. وَإِذَا انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا شَمِلَ معنى الْآخَرِ وَحُكْمَه، وَكَمَا فِي الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ وَنَظَائِرِه، فَإِنَّ لَفْظَي الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وإذا افترقا اجتمعا، فَهَلْ يُقَالُ في قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة:٨٩]، أنه يُعْطَى الْمُقِلُّ دُونَ الْمُعْدِمِ، أَوْ بِالْعَكْسِ؟ وَكَذَا في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢].

وَيَنْدَفِعُ أَيْضًا تَشْنِيعُ مَنْ قَالَ: مَا حُكْمُ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُسْلِمْ، أَوْ أَسْلَمَ وَلَمْ يُؤْمِنْ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة؟ فَمَنْ أَثْبَتَ لِأَحَدِهِمَا حُكْمًا لَيْسَ بِثَابِتٍ لِلْآخَرِ، ظَهَرَ بُطْلَانُ قوله.

وَيُقَالُ له في مُقَابَلَة تَشْنِيعِه: أَنْتَ تَقُولُ: الْمُسْلِمُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، والله تعالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، فَجَعَلَهُمَا غَيْرَيْنِ، وَقَدْ قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ والله إِنِّي لَأَرَاه مُؤْمِنًا؟ قَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا»، قَالَهَا ثَلَاثًا[(٢)]، فَأَثْبَتَ له اسم الْإِسْلَامِ، وَتَوَقَّفَ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ قَالَ: هُمَا سَوَاءٌ. كَانَ مُخَالِفًا، وَالْوَاجِبُ رَدُّ مَوَارِدِ النِّزَاعِ إِلَى اللَّهِ ورسوله.

وَقَدْ يَتَرَاءَى فِي بَعْضِ النُّصُوصِ مُعَارَضَة، وَلَا مُعَارَضَة بِحَمْدِ اللَّهِ تعالى، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِي التَّوْفِيقِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٣٣).

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بالجمع بين الإسلام والإيمان، في بعض المواضع كالآيات التي وردت، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، هذه الصفات لا يُكتفى بواحد منها، بل هي متلازمةٌ، فإنّ من أسلم لزمه الإيمان، ومن آمن لزمه القنوت، ومن قنت لزمه الصبر، ومن صبر لزمه الصيام، فكلّها صفات مترابطة من صفات أهل الإيمان، ولكن عطف بعضها على بعض يوافي كثرة الأعمال، يعني: أنّهم متصفون بها كلّها، وأنّها كلّها أعمال صالحة، فكلّ منها له معنى وله تفسير، فالقنوت يفسّر بأنّه دوام الطاعة، وهذا من لوازم الإسلام والإيمان، والصدق يفسّر بأنّه مطابقة القول للعمل، أو مطابقة العمل للقول، يعني أن يصدّق قوله عمله، وهذا من لوازم الإسلام والإيمان، فالذي يسلم ويؤمن، ولكنّه لا يصدق لا يقبل منه، ولأجل ذلك جعل الصدق من شروط (لا إله إلا الله)، في قول النبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]. فلا بدّ من الصدق، فلذلك وصل أمر الله بقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ولابدّ من

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٤).

الصبر، فإنّ الذي يُسلم ويؤمن يُؤمر بالأعمال، فإذا أُمِر بالأعمال، فلا بدّ أن يصبر على الطاعة ولو كان فيها مشقّة، ويصبر عن المحرّمات ولو نازعته نفسه إليها، فإذا لم يصبر انثلم إيمانه، وانخرمت أوصافه الدينيّة، فلا بدّ أن يكون متّصفًا بهذه الأعمال كلّها.

فالحاصل: أنّ العطف في هذه الآية لمجرّد كثرة الصفات، لا للتغاير، وإلا فواحدة منها تستلزم البواقي؛ فالإسلام الحقيقي يستلزم الإيمان والقنوت والصدق والصبر والصيام، وتكون كلُّها من تمامه.

وكذلك بقيّة الآيات التي مرّت فإنّ قول الله تعالى في وصفه المؤمنين: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]؛ دليل على أنّهم حقًا جمعوا بين الوصفين.

فنقول: الشهادتان كلّ منهما مستلزمة للأخرى، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمّدًا رسولُ الله، فنبيّنا ﷺ أوّل ما بُعث كان يدعو الناس أن يقولوا: لا إله إلا الله، كما في قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله»[1]، وأكثر الأحاديث لم يذكر فيها الشهادة الثانية، ولكنّها مستلزمة لها، وهذا هو التصديق بالرسالة، فمن قال: لا إله إلا الله، ولكنّه لم يأت بالشهادة الثانية، لم تنفعه، فهما متلازمتان. وكذلك من قال: أنا مسلم، ولم يأت بصفة الإيمان لم ينفعه، فلا بدّ أن يأتي بصفة الإيمان حتّى يصدُق عليه حقًا أنّه جمع بين الوصفين: الإسلام والإيمان الحقيقيين.

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤٢).

وكذلك بقيّة الأدلّة، فلا بدّ لكل من أتى بصفة أن يأتي ببقيّة الصفات، وإلاّ فليس بصادق، فهذه الأوصاف - التي وصف الله تعالى بها عباده - كلّها أسماء لمسمّى واحد، وهو حقيقة هذا الدين الذي يدينون به، فإنّ الله تعالى سماه دين الإسلام، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، والدين: هو ما يُدان به، يعني: ما يدين به العبد، وما يتقرب به، فمن أسمائه أنّه دين، ولكن من فروعه هذه العبادات التي تسمّى فروعًا، وتسمّى شعبًا للإيمان، وأركانًا للإسلام، وتُسمّى: مراتب للدين، رتبة الإسلام، ثم رتبة الإيمان، ثم رتبة الإحسان، وتسمّى أركانًا ودعائم، يتكوّن منها، ويتقوّم منها.

والمسلم عليه أن يأتي بهذه الأركان كلّها، ومبدؤها كلّها معروف: الإتيان بالشهادتين، ويترتّب على الشهادتين قبول الرسالة، فإنّ من أتى بـ (لا إله إلا الله)، لزمته جميع أنواع العبوديّة؛ لأنّك إذا قلت: لا إله إلا الله، قلنا: الله هو الإله، فهو المعبود وهو المحمود، وهو المدعوُّ، وهو الذي يُشكَرُ، وهو الذي يذكر، وهو الذي يتقرّب إليه، وهو الذي يُطاع، وهو الذي يوحّد. وإذا قلت: إنّ محمّدًا رسول الله، يلزمك أن تؤمن به، وأن تصدّقه وتتّبعه وأن تحبّه وأن تتأسّى به، وأن تقتدي به، وأن تقدّم سنّته على غيرها، وأن تقبل كلّ ما بلّغه، فإنّ ذلك من تمام قولك: إنّه رسول الله، فإن وظيفة الرسول أن يبلّغ الرسالة، ومن حقّه أن يطاع، فيطيعه المرسل إليهم. هذا معنى الشهادتين، وتلازم وصف الإيمان والإسلام.

قال الشارح:

وَأَمَّا الِاحْتِجَاجُ بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، على تَرَادُفِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَلَا حُجَّة فيه؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ الْمُخْرَجَ كَانُوا متصفين بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِهِمَا تَرَادُفُهُمَا.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هذه الْمُعَارَضَاتِ لَمْ تَثْبُتْ عَنْ أَبِي حنيفة رحمه الله، وَإِنَّمَا هي مِنَ الْأَصْحَابِ، فَإِنَّ غَالِبَهَا سَاقِطٌ لَا يَرْتَضِيه أَبُو حنيفة. وَقَدْ حَكَى الطَّحَاوِي حِكَايَة أبي حنيفة مَعَ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَنَّ حَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ لَمَّا روى له حَدِيثَ: «أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ»[1] إلى آخره، قَالَ له: أَلَا تَرَاه يَقُولُ: «أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، قَالَ: الْإِيمَانُ»، ثُمَّ جَعَلَ الْهِجْرَة وَالْجِهَادَ مِنَ الْإِيمَانِ؟ فَسَكَتَ أَبُو حنيفة، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِه: أَلَا تُجِيبه يَا أَبَا حنيفة ؟ قَالَ: بِمَ أُجِيبُه؟ وَهُوَ يُحَدِّثُنِي بِهَذَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ[2].

قال الشيخ:

هذه الآية يحتجون بها على تغاير الإسلام بالإيمان، وهي قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، كأنه

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٢٧)، وعنه أحمد في المسند (٤/ ١١٤) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

(٢) أخرج هذا الأثر ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٤٧).

أخبر بأنّه أخرج من كان فيها من المؤمنين، فلم يجد إلاّ بيتًا من المسلمين، وهو لوط عليه السلام وأهل بيته، ولا شكّ أنّهم جمعوا بين الوصفين، بين الإيمان والإسلام، ولهذا استثنى الله امرأته، فقال: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء:١٧١]. فإذًا لا منازعات بين هذا الدليل وتلك الأدلّة، بل هو دليلٌ واضحٌ على تلازمهما؛ إذ أنّ الإسلام يستلزم الإيمان، فلا يتمّ الإيمان إلا بأركان الإسلام، ولا يتمّ الإسلام إلا بأركان الإيمان، ومن أتى بواحد منهما دون الآخر لن يقبل منه، فمن أتى بالأعمال الظاهرة ولم تكن عن يقين وعن صدق وعن عقيدة وتصديق بقلبه لم يكن مؤمنًا، ولم ينفعه الإسلام، ومن اعتقد اعتقادًا جازمًا، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وصدّق بخبر الله وبالبعث بعد الموت، ثم لم يعمل ولم يصلِّ ولم يصم ولم يحجّ ولم يؤدّ زكاة أمواله، ولم يأت بواجباته، ولم يحرّم الحرام، ولم يحلّل الحلال، فليس بمؤمن، ولو ادّعى أنّه مطمئن قلبه بالإيمان، هذا مقتضى هذه الآيات .

ثم هذه الشبه التي يستدلّون بها يدلي بها الحنفيّة، ويدّعون بذلك أنّهم ينصرون مذهب أبي حنيفة، بأن الأعمال ليست من مسمّى الإيمان، وبأنّ الإسلام مغاير للإيمان حيث يذهبون إلى أنّ الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، ويخرجون الأعمال من مسمّى الإيمان، والصحيح ـ كما قلنا ـ مذهب الجمهور: أنّ الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، وأنّ هذه الشبهات التي يستدلّون بها، ويدّعون أنها أدلّة لأبي حنيفة لم تكن منقولة عن أبي حنيفة نفسه، فهو ـ رحمه الله ـ من أجلاّء

السلف، ولم يكن يدلي بهذه الشبهات، ولا يشكك بها في هذه العقيدة، فإنّ العقيدة السليمة الصحيحة عقيدة أهل السنّة والجماعة، ولكنّ لما اشتهر هذا القول عن الحنفيّة، وهو أنّهم يخرجون الأعمال من مسمّى الإيمان، أخذوا يجمعون ما يستطيعون من الشبهات، من ما يسمّونه من الأدلّة عرضوها نصرة لمذهبهم، والصحيح أنّها لا دلالة فيها ـ كما ذكرنا ـ بل الأدلّة واضحة في أنّ الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، وثمرةٌ من ثمراته.

الأصل في هذا الدين هو العقيدة، والفروع هي العبادات؛ فإذا تأسّست الأصول انبنت عليها الفروع، وإذا خربت الأصول سقطت الفروع. فإذا كانت العقيدة راسخة في القلب، نبعت عنها الأعمال، انتجت أعمالًا صالحة، وحصل آثار تلك العقيدة الراسخة من امتثال الأوامر وترك الزواجر، والتصديق بالأخبار، والعمل الصالح، والعلم النافع، كلّ ذلك من نتائج هذا الأصل الأصيل، ومن فروع هذه العقيدة.

وبنظرنا في سير سلفنا الصالح من هذه الأمّة، نرى أنّهم لما كانت العقيدة مكتملة في قلوبهم أكثروا من الأعمال الصالحة، وصدّقوا بما أخبر الله واندفعوا في تحقيق تلك الأوامر، وأفنوا في ذلك أموالهم وأنفسهم وبلادهم، وهانت عليهم كلّها في سبيل تحقيق عقيدتهم، وما عليه آباؤهم وأسلافهم، لما عرفوا صحة الرسالة، وعرفوا صحّة التوحيد، وعرفوا حقيقة الإيمان بالبعث، وعرفوا ثواب الله تعالى في الآخرة، وعرفوا صدق ما وعد الله تعالى به لهم؛ عند ذلك هانت عليهم بلادهم فتركوها وهانت عليهم أموالهم، وسهلت عليهم عشائرهم

وأزواجهم وأقاربهم، كلّ ذلك أصبح هيّنًا عليهم في سبيل تمكّنهم من العمل الذي أمروا به، كذلك لمّا رسخت العقيدة في قلوبهم صدّقوا بوعد الله الذي وعدهم أن ينصرهم، وأن يقوّيهم، وأن يمكّن لهم في الأرض، وأن يستخلفهم كما استخلف الذين من قبلهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فلمّا صدّقوا هذا ورسخ وتمكّن في قلوبهم؛ عند ذلك قاتلوا في سبيل الله، وقتلوا، وكذلك هاجروا وهجروا كلّ قريب أو بعيد. كلّ ذلك لأجل تصديقهم بخبر ربّهم، وتصديقهم بوعده ووعيده، وطلبهم ما وعد الله لهم من الثواب الجزيل في الآخرة، وما الذي حملهم على أن يقاتلوا الأعداء مع كثرتهم، ويصبروا حتى نصرهم الله إلاّ تصديقهم بوعد الله، حيث تمكّن ذلك في قلوبهم، فقابلوا أعداد الكفّار وعُددهم، وقابلوا جيوشهم الهائلة المتراكمة، واثقين بأنّ الله لا يُخلف وعده.

وكانوا إذا أُلقيت في قلوبهم شبهة احترقت تلك الشبهة قبل أن تتمكّن، وذلك لقوّة البراهين التي تضعف عندها تلك الشبه، فنحن بحاجة إلى أن نعرف تلك البراهين والأدلّة التي قامت عليها هذه العقيدة، وبحاجة إلى أن ندرسها ونعرف كيفيّة دلالتها، ودلالتها واضحة، ولكن تحتاج إلى قلوب فارغة من إغوائها، فإذن نحن بحاجة إلى أن نفرغ قلوبنا لها حتى تأتي إلينا، وقلوبنا فارغة من الشبهات، فارغة من الشواغل، فارغة من الضلالات والبدع، فإذا كان كذلك، فإن العقيدة ترسخ فيها ولا تتزعزع مهما اعتراها ما يعتريها، أما إذا تلقّت تلك القلوب الفارغة بدعًا وضلالات وشركيّات وخرافات، تلقّتها في حالة فراغها، ولم تصغِ إلا لها، ولم تسمع إلا هي، ثم عرضت عليها بعد ذلك الأدلّة الصحيحة

أو البراهين الساطعة، فإنّ تلك القلوب لا تجد فيها مكانًا فارغًا، وتبقى مقفلة، لا يدخلها الحقّ؛ لأنّها امتلأت بالضلال، فلم يجد الحقّ إليها سبيلًا، وامتلأت القلوب الفاسدة بالبدع، فلم تجد فيها السنّة مكانًا، وامتلأت بالخرافات، وامتلأت بالمحدثات، وامتلأت بالشبهات، فلم يجد الدليل إليها وصولًا، فلا حيلة فيها، إلَّا أن يشاء الله، ونحن نعجب من أهل البدع، وتمكّن البدع في نفوسهم، وتمسّكهم بها، مع أنّها تنكرها الطباع والفِطر، ومع ذلك يتمسّكون بها، وتتمكّن، ويعضّون عليها بالنواجذ، ولو أتيتهم بكلّ آية ما أقلعوا عنها إلا أن يشاء الله.

تأمّلوا مثلًا في الرافضة، الذين نُشِّؤوا على عقيدة زائفة، تأمّلوا كيف يبقون على هذه العقيدة، ويلقّنون عليها أبناءهم منذ الطفولة، ثمّ يحاول المحاولون في أن يقلعوا عنها، ويبيّن لهم السنّة، ويبيّن لهم الدليل، ولكن يدخل الكلام من أذن ويخرج من الأخرى دون أن يصل إلى القلوب، بل قلوبهم ليس فيها مكان للتقبّل، كذلك الكثير من المبتدعة من أشعريّة ومعتزلة وجبرية وكراميّة، لما أنّ قلوبهم منذ الصغر امتلأت بهذه الشبهات، لم يجد الحقّ إليها سبيلًا.

فنحن نحثُّ المسلم على أن يلقّن أولاده في طفولتهم معرفة الله، ومعرفة نبيّه ﷺ، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة الحساب والجزاء والأسماء والصفات، ومعرفة ما أُمر به وما نهى عنه، حتّى يرسخ ذلك في قلوبهم، ويحبّوه ويألفوه، فإذا لقّن أحدهم غيره لم يتقبّل ذلك، وإذا لقّن تلك الخرافات ودُعي إليها لم يتقبّل ذلك، بل نفر منه غاية النفور، بخلاف ما إذا بقي جاهلًا لا يعرف شيئًا، أو لقّن في

صغره عقيدة زائفة؛ فإنّه لا يقبل العقيدة الصحيحة، فهكذا فلنكن، لنتمكّن من عقيدتنا، وهكذا فلتظهر علينا آثارها.

وقد سبق كلام طويل يتعلّق بالإيمان والإسلام، وما يدخل في الإسلام، وما يدخل في الإيمان، والمسألة مسألة قديمة، حدث فيها خلاف بين المرجئة وبين أهل السنّة، فذهب المرجئة إلى أنّ الإيمان هو تصديق القلب، وجعل الأعمال ليست من مسمّى الإيمان، وذهب أهل السنّة إلى أن الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، وأنّ الإيمان له شعب وله فروع وكلّها تسمّى إيمانًا، فتسمّى الصلاة إيمانًا أو شعبة من الإيمان، والشهادتان إيمان أو بعض من الإيمان أو أصل الإيمان، والزكاة من الإيمان، والتصدّق أو الصدقة من الإيمان، والأذكار والأدعية من الإيمان، وهكذا.

وسبق أيضًا الخلاف: هل الإسلام غير الإيمان؟ وهل هما متغايران أو مترادفان؟ فذهب بعضهم إلى أنّهما شيء واحد، وعلى أن الإسلام أوسع من الإيمان، وأنّ الإنسان قد يصير مسلمًا ولا يصل إلى درجة الإيمان، فعلى هذا: الإيمان أخصّ من الإسلام.

من الذين سوّوا بينهما وقالوا: إنّ الإيمان والإسلام شيء واحد، من احتجّ بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، الكلام من الملائكة الذين يخاطبون إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنّهم سوف يخرجون أهل الإيمان؛ فوصفوا أهل ذلك البيت ـ وهم لوط عليه

السلام وأهل بيته - بأنّهم مسلمون، وبأنّهم مؤمنون، فقيل: إنّ الإيمان والإسلام شيء واحد، وهما مترادفان، والصحيح أنّ الآية لا تدلّ على أنّ الإسلام هو الإيمان؛ لأنّ أهل بيت لوط كانوا متّصفين بالإسلام وبالإيمان، فالإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو العقيدة الراسخة، كما تقدّم أنّه ﷺ فسّر في حديث جبريل - عليه السلام - الإسلام بأركانه الخمسة، وفسّر الإيمان بأركانه الستّة، فجعل الإسلام أعمالًا، وهي الشهادة، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، وجعل الإيمان عقيدة وهي: التصديق بالله، وبالملائكة، وبالرسل، وبالكتب، وبالبعث بعد الموت، وبالقضاء والقدر، جعل هذا هو الإيمان، فأفاد أنّ الإيمان أصلًا هو ما يقوم بالقلب من هذا التصديق، وأنّ التصديق إذا كان راسخًا في العقل متمكّنًا في القلب؛ نتجت عنه الأعمال، فأصبحت الأعمال هي الدلالة على أنّ هناك تصديقًا صادقًا، فلذلك دخلت العبادات باسم الإيمان، فهذا أوضح الأدلّة في أنّ الإسلام أوسع من الإيمان.

وقد ذكرنا أنّ من العلماء من جعل الإسلام والإيمان والإحسان درجات:

فالدرجة الأولى درجة أرضيّة واسعة وهي الإسلام، والدرجة الثانية هي الإيمان، كأن المؤمنين خلاصة من المسلمين، انتقوا وخلّصُوا حتى صعدوا إلى المرتبة الثانية، ثم خلصت من المؤمنين خلاصة الخلاصة وصفوة الصفوة، وجُعلوا في المرتبة الثالثة، وسُمّوا بالمحسنين، أو بأهل الإحسان كما في حديث جبريل - عليه السلام - أنّه قسم المراتب ثلاثةً: الإسلام والإيمان والإحسان، فأوسعها أهل الإسلام، ثم بعد ذلك خلاصتهم أهل الإيمان، ثم بعدها خلاصة

الخلاصة أهل الإحسان، وهم أقلّ، فيقال في أولئك الخلاصة: أنتم محسنون ومؤمنون ومسلمون، أسلمتم أولًا، ثم آمنتم بعد ذلك، ثم أحسنتم، فوصلتم إلى الرتبة العالية. ويقال لأهل الإيمان: آمنتم بعدما أسلمتم، ويقال لأهل الإسلام: أسلمتم فقط ولم تصلوا إلى الإيمان، فعلى هذا الإنسان الكامل الذي وصل إلى مرتبة الإحسان أسلم ثم آمن ثم أحسن، وقد تقدّم تفسير الإحسان بأنّ النبيّ ﷺ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإنه يَرَاكَ»[1].

وكذلك يقال في الإيمان الحقيقي: هو الذي تنتج عنه الأعمال، وليس تصديقًا فقط لا تنتج عنه الأعمال، فليس بإيمان نقول: هذه الحجج التي يحتج بها أو يعرضها الشارح على أنها أدلّة في التفريق بين الإسلام والإيمان أدلّة للحنفيّة الذين يفرّقون بينهما، ويجعلون الإيمان مجرّد التصديق، ويجعلون الإسلام وأعمال الإسلام ليست داخلة في الإيمان، فيقول الشارح: إنّ هذه الأدلّة ضعيفة وإنّها لا يمكن أن تصدر عن أبي حنيفة مع جلالته، ومع معرفته ومع قوّة فهمه لكونها منهارة ضعيفة، واستدلّ على أنّ أبا حنيفة متى احتجّ عليه بالحديث توقّف عن ردّه، كما احتجّ عليه حماد بن زيد ـ وهو من علماء الحديث ـ في التفرقة بين المسلمين، والتفاوت بينهم بقوله ﷺ لما سُئل: أي الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قال: «الإِيمَانُ»[2]، فجعل الإيمان زائدًا عن مسمّى الإسلام، ودلّ على أنّ المسلمين

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٤٤٦).

يتفاوتون؛ فإذا كان مسلم ممّن تمكّن الإسلام في قلبه وصل إلى مرتبة الإيمان، وهي قوّة العقيدة، مع الانبعاث على العمل، فأبو حنيفة - رحمه الله - لما احتُجّ عليه بهذا الحديث على تفاضل أهل الإسلام، وأنه ﷺ جعلهم متفاضلين، وجعل أفضل أعمال الإسلام هو الإيمان، أقرّ أبو حنيفة - رحمه الله - بذلك، ولم يردّ الحديث، مع أنّ أصحابه يتشوّفون إلى ردّ ذلك الدليل، ولكنّه سلم لهم، فيُستدلّ بذلك على أنّ هذه الاحتجاجات الضعيفة ليست من أبي حنيفة رحمه الله، وإنّما هي من أصحابه الذين يتعصّبون لمذهبه.

قال الشارح:

وَمِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الِاخْتِلَافِ: مسألة الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ الله.

وَالنَّاسُ فيه على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ، مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرِّمُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُه بِاعْتِبَارٍ وَيَمْنَعُه بِاعْتِبَارٍ، وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ.

أَمَّا مَنْ يُوجِبُه فَلَهُمْ مَأْخَذَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عليه، وَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَالله مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاة، وَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِه أنه يَكُونُ عليه، وَمَا قَبْلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَة به، قَالُوا: وَالْإِيمَانُ الذي يَتَعَقَّبُه الْكُفْرُ، فَيَمُوتُ صَاحِبُه كَافِرًا: لَيْسَ بِإِيمَانٍ، كَالصَّلَاة التي أَفْسَدَهَا صَاحِبُهَا قَبْلَ الْكَمَالِ، وَالصِّيَامِ الذي يُفْطِرُ صَاحِبُه قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَهَذَا مَأْخَذُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُلَّابِيَّة وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الله يُحِبُّ فِي الْأَزَلِ مَنْ كَانَ كَافِرًا إِذَا عَلِمَ منه أنه يَمُوتُ مُؤْمِنًا، فَالصَّحَابَة مَا زَالُوا مَحْبُوبِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ، وَإِبْلِيسُ وَمَنِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِه مَا زَالَ الله يُبْغِضُه وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكْفُرْ بَعْدُ!

وَلَيْسَ هَذَا قَوْلَ السَّلَفِ، وَلَا كَانَ يُعَلِّلُ بِهَذَا مَنْ يَسْتَثْنِي مِنَ السَّلَفِ فِي إِيمَانِه، وَهُوَ فَاسِدٌ، فَإِنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّهُمْ إِنِ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ، فَاتِّبَاعُ الرَّسُولِ شَرْطُ الْمَحَبَّة، وَالْمَشْرُوطُ يَتَأَخَّرُ عَنِ الشَّرْطِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّة.

ثُمَّ صَارَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ طَائِفَة غَلَوْا فيه، حتى صَارَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَسْتَثْنِي في

الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، يَقُولُ: صَلَّيْتُ إِنْ شَاءَ اللهُ! وَنَحْوَ ذَلِكَ، يعني: الْقَبُولَ. ثُمَّ صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَسْتَثْنُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: هَذَا ثَوْبٌ إِنْ شَاءَ اللهُ! هَذَا حَبْلٌ إِنْ شَاءَ اللهُ! فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: هَذَا لَا شَكَّ فيه؟ يَقُولُونَ: نَعَمْ، لَكِنْ إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُغَيِّرَه غيره!!.

الْمَأْخَذُ الثاني: أَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ مَا أَمَرَ اللهُ به عَبْدَه كله، وَتَرْكَ مَا نَهَاه عنه كله، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ: أَنَا مُؤْمِنٌ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ: فَقَدْ شَهِدَ لِنَفْسِه أنه مِنَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ، الْقَائِمِينَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرُوا به، وَتَرْكِ كُلِّ مَا نُهُوا عنه، فَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُقَرَّبِينَ! وَهَذَا مِنْ تَزْكِيَةِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِه، وَلَوْ كَانَتْ هذه الشَّهَادَة صَحِيحَةً؛ لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَشْهَدَ لِنَفْسِه بِالْجَنَّةِ إِنْ مَاتَ على هذه الْحَالِ.

وَهَذَا مَأْخَذُ عَامَّةِ السَّلَفِ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَثْنُونَ، وَإِنْ جَوَّزُوا تَرْكَ الِاسْتِثْنَاءِ، بمعنى آخَرَ، كَمَا سَنَذْكُرُه إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى.

وَيَحْتَجُّونَ أَيْضًا بِجَوَازِ الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَا لَا شَكَّ فيه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، وَقَالَ ﷺ حِينَ وَقَفَ على الْمَقَابِرِ: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»(١). وَقَالَ أَيْضًا: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لله»(٢). وَنَظَائِرُ هَذَا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١١١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الشيخ:

هذه مسألة تكلّم الشارح عليها في هذا الموضع، وهي مسألة الاستثناء، الاستثناء بقوله: أنا مؤمن إن شاء الله، أنا مسلم إن شاء الله. فمن العلماء من يوجبها، ومنهم من يحرّم الاستثناء، ومنهم من يجوّزه ولا يوجبه، أو يوجبه في حال دون حال.

عرفنا أنّ أتباع ابن كرّام من الأشاعرة، أو من يقرب من الأشاعرة يوجبون الاستثناء، ويوجبون أن يقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ثم تجاوزوا ذلك فصاروا يستثنون في الأشياء الظاهرة، فإذا صلّى قال: صلّيت إن شاء الله، وإذا أشار إلى شيء ذكر أيضًا أنّه كذا وكذا، واستثنى في ذلك، حتى يقول هذا ثوب إن شاء الله، هذا قلم أو كتاب إن شاء الله، مع أنّه لا يشكّ فيه. هؤلاء لهم مأخذ، فهم يقولون: السبب أنا لا ندري ما الخاتمة، وما هي العاقبة، فإنّ الإنسان إنّما يكون مؤمنًا إذا مات على الإيمان، ونحن لا ندري ربما يحصل من أمرنا غير ما كنا عليه، فلذلك يستثنون، يقولون: لأنّ الله أعلم بالخواتيم، والله أعلم بما نحن نموت عليه.

صحيح أنّ الله تعالى أعلم بالخاتمة، وأعلم بالعاقبة، وأعلم بما يموت عليه الإنسان، وقد أخبر النبيّ ﷺ بأنّ الإنسان يكون مكتوبًا عند الله من أهل الجنّة، وهو يعمل بعمل أهل النار، في قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إِلَّا ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ

فَيَدْخُلُها، وإِنَّ أَحَدَكُم ليَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها»[1]، طوال حياته وهو يعمل بعمل أهل الجنّة، ومع أهل الجنّة، ثم يرتدّ في آخر حياته، ويختم له بعمل أهل النار، فيدخل النار والعياذ بالله.

كما ذكر كثير من المؤرخين قصة الرجل الذي كان مؤذنًا، وهو من صالح عباد الله، محافظًا على الصلاة، ومحافظًا على الأذان، ومحافظًا على الأعمال الصالحة، صعد مرة إلى المئذنة ليؤذّن فلفت نظره ابنة أحد جيران المسجد، وقد أسفرت فعلق بها، فترك الأذان ونزل، وطرق باب أهلها وقال: أُريدُكِ، فقالت: لماذا؟ فقال: أتزوّجك! قالت: أنا نصرانيّة وأنت مسلم! فعند ذلك قال: سأترك ديني وأدخل في دينِك وأتنصّر، فتنصّر، ولما تنصّر وعقد له عليها، مات قبل أن يدخل بها، فختم له بعمل أهل النار، هذا مثال، والأمثلة كثيرة.

فيقولون: إنّ العاقبة خافية علينا، فالاستثناء إنّما هو بالنظر إلى العاقبة. والجواب: إننا نقول لكم: لا نسألكم عن العاقبة، وإنّما نسألكم عن الحال وما أنت فيه وما قام الآن بقلبك، أما العواقب فأمرها إلى الله تعالى، فعلى هذا إذا سألك إنسان ما دينك، فلا تقل: ديني الإسلام إن شاء الله، إلا على وجه التبرك، بل تجزم وتقول: نعم، أنا مسلم، ومن أهل الإسلام، وفي بلاد الإسلام، وديني الإسلام، وأعتقد ما يعتقده المسلمون دون أن أستثني، ودون أن أتردد، ودون أن

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٣٩).

أتوقف والعاقبة للمتّقين وأمر الخاتمة إلى الله تعالى .

وصحيح أيضًا أن الإنسان يُجازى بما مات عليه، فإن كانت حياته حياة كفر، ثم ختم له بالإسلام، والإيمان، فهو محبوب عند الله، وإن كانت حياته حياة إيمان، ولكن ختم له بكفر، فهو مبغض عند الله طوال حياته، فإذا علم الله أنّ هذا الإنسان يموت كافرًا، فإن الله يبغضه ولو كان يجاهد، ولو كان يصلي، ولو كان يتهجّد، ولو كان يقرأ طيلة حياته، ولو كان يتدبّر آيات الله، ولو كان يعظ وينصح، فهو مبغض وممقوت عند الله منذ خُلق . وإذا علم الله أن إنسانًا يموتُ على الخير، ويموت على الدين ويموت على الإسلام، ولكن أكثر حياته وهو يشرك بالله ويكفر به ويعصي ويزني ويرابي ويقتل المسلمين ويقاتلهم ويشنّ عليهم الغارات، ويشجّع من يقاتلهم، ويحثّ على ردّ الإسلام، ومع ذلك فهو يؤمِّلُ أنّه يهتدي، والله يعلم أنّه يختم له بخاتمة حسنة يكون محبوبًا عند الله، وإن كانت أعمالُه كفريّة أو بدعيّة أو نحو ذلك. وبكلّ حال هذا قول الذين يُوجبون الاستثناء.

أمّا الذين يجوّزونه ولا يوجبونه، أو الذين يجوِّزونه في بعض الحالات، فمثل هؤلاء يقولون إن الله تعالى قد ذكر الاستثناء للتبرّك، وذكر الاستثناء أيضًا في الأمور التي لا يشكّ فيها. وكذلك النبيّ ﷺ روى عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه قال: «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ على مِائَةِ امْرَأَةٍ أو تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ، فقال له صَاحِبُهُ: قل إن شَاءَ اللَّهُ، فلم يَقُلْ: إن شَاءَ اللَّهُ، فلم يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ»، فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ

بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون»[١].

وكذلك ذكروا أنّ قريشًا بعثت تسألهم عن محمد ﷺ، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم بذلك فإنه نبي، فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فجاءت قريش إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبركم غدًا بما سألتم عنه»، ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي؛ حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وَعَدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه. حتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل - عليه السلام - من الله - عز وجل - بسورة أصحاب الكهف، فيها خبر ما سألوه عنه[٢]، وعاتبه الله - جل وعلا - لأنه لم يقل إن شاء الله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف:٢٣، ٢٤]. فدلَّ على أنّ الاستثناء يحصل به

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٩ و ٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه ابن إسحق في السيرة (٤/ ١٨٢)، و الطبري (١٥/ ١٩١، ١٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تحقيق المطلب.

وكذلك عاتب الله ـ عز وجل ـ أصحاب الجنّة الذين ذكروا في سورة القلم فقال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم:١٧، ١٨]؛ جزموا بقولهم والله لنصرمنّها في الصباح، لم يقولوا: إن شاء الله، لم يستثنوا، فكانت العاقبة أن حرموا منها، ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [القلم:١٩]، حريق أو رياح، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ [القلم:٢٠]، جزاءً لهم لَـمَّا لم يقولوا: إن شاء الله، وجزاءً لهم لَـمَّا توعّدوا أن لا يدخلها عليهم مسكين.

وبكلّ حال، فالاستثناء جائز إن لم يكن عن شكّ، يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يقصد بذلك الشكّ والتوقّف، ويقول أنا سوف أصلي إن شاء الله، ولو كان جازمًا، وسوف أصوم إن شاء الله ولو كان جازمًا، ولا يكون بذلك متردّدًا ولا شاكًّا فيما هو جازم عليه.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ يُحَرِّمُه، فَكُلُّ مَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ شَيْئًا وَاحِدًا، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ أَنِّي مُؤْمِنٌ، كَمَا أَعْلَمُ أَنِّي تَكَلَّمْتُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فقولي: أَنَا مُؤْمِنٌ، كَقَوْلِي: أَنَا مُسْلِمٌ، فَمَنِ اسْتَثْنَى فِي إِيمَانِه فَهُوَ شَاكٌّ فيه، وَسَمَّوُا الَّذِينَ يَسْتَثْنُونَ فِي إِيمَانِهِمُ الشَّكَّاكَة.

وَأَجَابُوا عَنْ الِاسْتِثْنَاءِ الذي في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، بِأَنَّه يَعُودُ إِلَى الْأَمْنِ وَالخَوْفِ، فَأَمَّا الدُّخُولُ فَلَا شَكَّ فيه. وَقِيلَ: لَتَدْخُلُنَّ جَمِيعُكُمْ أَوْ بَعْضُكُمْ؛ لأنه عَلِمَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَمُوتُ.

وفي كِلَا الجَوَابَيْنِ نَظَرٌ: فَإِنَّهُمْ وَقَعُوا فِيمَا فَرُّوا منه، فَأَمَّا الْأَمْنُ وَالخَوْفُ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ آمِنِينَ، مَعَ عِلْمِه بِذَلِكَ، فَلَا شَكَّ فِي الدُّخُولِ، وَلَا فِي الْأَمْنِ، وَلَا فِي دُخُولِ الجَمِيعِ أَوِ الْبَعْضِ، فَإِنَّ الله قَدْ عَلِمَ مَنْ يَدْخُلُ، فَلَا شَكَّ فيه أَيْضًا، فَكَانَ قَوْلُ: (إِنْ شَاءَ الله) هُنَا تَحْقِيقًا لِلدُّخُولِ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ فِيمَا عَزَمَ على أَنْ يَفْعَلَه لَا مَحَالَةَ: والله لَأَفْعَلَنَّ كَذَا إِنْ شَاءَ الله، لَا يَقُولُهَا لِشَكٍّ فِي إِرَادَتِه وَعَزْمِه، وَلَكِنْ إِنَّمَا لَا يَحْنَثُ الحَالِفُ فِي مِثْلِ هذه الْيَمِينِ؛ لأنه لَا يَجْزِمُ بِحُصُولِ مُرَادِه.

وَأُجِيبَ بِجَوَابٍ آخَرَ لَا بَأْسَ به، وَهُوَ: أنه قَالَ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لَنَا كَيْفَ نَسْتَثْنِي إِذَا أَخْبَرْنَا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ. وفي كَوْنِ هَذَا المعنى مُرَادًا مِنَ النَّصِّ نَظَرٌ، فإنه مَا سِيقَ الْكَلَامُ له، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُرَادًا مِنْ إِشَارَةِ النَّصِّ.

وَأَجَابَ الزمخشري بِجَوَابَيْنِ آخَرَيْنِ بَاطِلَيْنِ، وَهُمَا: أَنْ يَكُونَ المَلَكُ قَدْ قاله، فَأُثْبِتَ قُرْآنًا! أَوْ أَنَّ الرَّسُولَ قاله!! فَعِنْدَ هَذَا المِسْكِينِ يَكُونُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ غَيْر

كَلَام الله! فَيَدْخُلُ فِي وَعِيدِ مَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥]. نسأل الله العافية.

قال الشيخ:

هؤلاء هم الذين يمنعون الاستثناء أصلًا فيسمون من يقول أنا مؤمن إن شاء الله شاكًّا، ويسمّون المستثنين: شُكّاكًا، فيقولون: أنت تشكّ في نفسك، وتشكّ في إيمانك، كيف تشكّ وأنت على يقين وأنت جازم بأنّك من أهل الإسلام، وبأنّك من أهل الإيمان؟ أنت تعرف أنّك تتشهّد الشهادتين، وقد نطقت بهما، ومعلوم أنّ من نطق بالشهادتين دخل في الإسلام، فإذا دخل في الإسلام فليس شاكًا فيه، كذلك أيضًا إذا دخل في الإيمان لا يكون شاكًّا فيه، فيمنعون الاستثناء، ويحرّمون أن يقول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، بل يقول أحدهم: أنا مؤمن حقًا، كما يقول: أنا مسلم حقًا.

والاستثناء في الإيمان - أنا مؤمن إن شاء الله - يرجع إلى الخاتمة كما تقدّم، ويرجع إلى الكمال.

والقول الثاني: هو الوسط، وهو المختار للإنسان، إذا قال أنا مؤمن إن شاء الله كان قصده بذلك العاقبة، وكان قصده الكمال؛ يعني: إن الله يوفقني لأن أُكمل أعمال الإيمان، لأن آتي بكلّ ما أُمرت به، وبكلّ ما هو من الإيمان، وهذا علمه عند الله؛ إذا شاء الله وفقني إلى ذلك، هذا هو القول الوسط . أمّا الذين حرّموا

الاستثناء، فيجزمون - أو يقولون - إن الإنسان قد آمن يقينًا ولم يكن في شكّ، ولم يكن عنده تردّد، هؤلاء أيضًا يدّعون أنّ الإيمان هو الكلمة، ويقولون: إن مَنْ قال آمنت بالله، فقد كمل إيمانه، فلا حاجة إلى أن يستثني، ومرَّ بنا جوابهم عن الآية، وهي قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، فيقولون: الاستثناء إنّما هو للأمن، يعني أن الدخول محقّق، ولكن الأمن فيه تردّد، وهذا خطأ؛ لأنّ الله تعالى أخبر بالأمن كما أخبر بالدخول، وخبر الله محقّقٌ، فليس فيه تردّد . فإذًا وقعوا فيما أفاضوا فيه.

فأجاب بعضُهم: بأنّ قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، راجع إلى دخولهم كلّهم؛ لأن الله علم أنّ بعضهم يموت قبل الدخول.

والجواب أيضًا: أنّ المراد أنّ الله تعالى أخبر بالدخول، وليس المراد دخولهم كلهم الذين خوطبوا بهذه الآية، بل المراد جنس الدخول، فإنّه قد انضمّ إليهم غيرهم، وإن كان قد مات بعضهم.

وأما جواب الزمخشري أن كلمة (إن شاء الله) ليست من كلام الله، وإنما هي من كلام جبريل عليه السلام، أو من كلام النبي ﷺ، فهذا قول بعيد، يلزم منه أنّ في القرآن ما ليس من كلام الله تعالى، والزمخشري، وإن كان لغويًا ولكنّه معتزلي، دخل في الاعتزال وتمكّن منه، فبنى ذلك على مذهبه الباطل.

ومما يتعلّق بالأمور الاعتقاديّة: مسألة الإيمان بالله تعالى، وما يلحق به، فالإيمان هو السمة والصفة التي تميّز بها أتباع الرسل، ولأجل ذلك يدعو الله تعالى

من اتّبع النبي ﷺ، وصدّقه بهذا الاسم، يناديهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [البقرة:١٠٤]، ولَمْ يُرِدْ: يا أيها الذين أسلموا، ولا يا أيُّها الذين صدقوا، ولا يا أيّها الذين اتّبعوا، تتابعت الآيات التي فيها هذه الأوامر بهذا السياق، و هذا الوصف ميزة لمن اتّبع النبيّ ﷺ، وعمل بسنّته، وصدّقه حقّ تصديقه، ووطّن نفسه لما جاء بالعمل به، ولأجل ذلك يوجّه الله الأوامر لهؤلاء تارة بالأعمال، وتارة بالاعتقادات، فمن الأعمال قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ [البقرة:١٧٨]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وأشباه ذلك.

ومن العقائد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]، هذا أمر بالاعتقاد لأن يصدّقوا بذلك كلّه، ومعلوم أنّ هذا التصديق له آثار، فمن صدّق بالكتب المنزلة، وبالكتاب الذي بين أيدينا ظهرت عليه آثار التصديق بالاتباع والعمل، وأمّا من لم يتبعه ولم يعمل به، فإنّه لا يصدق عليه أنّه مؤمن، فلا بدّ أن يكون للإيمان بذلك آثار وعلامات على من ادّعى تصديقه.

وقد تكلّم العلماء على هذا المسمّى، وجعلوا هذا النوع تحت عنوان أسماء الإيمان والدين، وجعلوا هذه المسمّيات لها حقائق، واعتقدوها مسمّياتٍ شرعيّة، نقلها الشرع من المسمّيات اللغوية إلى مسمّيات شرعيّة، فيقال مثلًا: الإيمان في اللغة: التصديق، والإيمان في الشرع: الاتباع، أو الاتباع والعمل. فالشرع نقل هذه

المسمّيات إلى مسمّيات شرعيّة، فأصبحت بذلك ذات معانٍ مقصودة للشارع، ولأجل ذلك جاء عن النبي ﷺ تفسير الإيمان عامًّا للأعمال، وعامًّا للاعتقادات، وعامًّا للأقوال، تقدّم وتكرّر حديث شعب الإيمان، أنّها بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، ذكر منها النبيّ ﷺ ثلاث شعب: شعبة قولية، وشعبة اعتقاديّة وشعبة عمليّة، فالشعبة القولية: قول لا إله إلا الله، والشعبة الاعتقاديّة: الحياء من الإيمان، والشعبة العمليّة: إماطة الأذى عن الطريق، ومعنى ذلك أنّ الإيمان يستوعب الأعمال كلّها، ويستوعب الأقوال كلّها، ويستوعب الاعتقادات كلّها، فكلّها داخلة في هذا الاسم أنها من الإيمان، ولأجل ذلك يتفاوت الناس؛ فيكون هذا ناقص الإيمان، وهذا متوسّط الإيمان، وهذا ناقص الإيمان، وهذا تشوب إيمانه سيئةٌ، وهذا قد استوفى خصال الإيمان، وما أشبه ذلك.

وينتج من ذلك أنّ الأعمال الصالحة من مسمّى الإيمان، فيقال: الصلاة من الإيمان، والصدقة من الإيمان، والصوم من الإيمان، يعني: أنها أبعاض وأجزاء من هذا الإيمان الذي سمّى الله به عباده، فلا يكون الإنسان كامل الإيمان إلا إذا كمّل هذه الشعب وأتى بها كما ينبغي؛ سواءً كانت أفعالًا أو تروكًا، يعني: أن الأعمال من الإيمان، والتروك أيضًا من الإيمان، إذا تُرِكَتْ خوفًا من الله تعالى، فكان الدافع على تركها قوة اليقين، ولأجل ذلك يعدّ تركها من الخصال العظيمة المشكورة، والحديث الذي فيه أنّ النبيّ ﷺ عدّ خصال الظلال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ»، عدّ منهم: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إني

أَخَافُ اللَّـهَ»[1]. ما هو العمل الذي عمله حتّى يستحقّ أن يكون من أهل الظلال؟ هو هذا الترك، أنّه ترك الشهوة الجنسيّة التي في النفس منها دوافع، ومع ذلك لا يخاف محذورًا، ثم كتب تركه هذا أعظم الأفعال، مع قوّة الدافع، أعظم من كثير من الأعمال.

وللعلماء خلاف: أيّهما أفضل: ترك المحرَّمات، أو فعل الطّاعات؟ فمثلًا: إذا كان هناك إنسان له شهوة قويّة، تدفعه إلى فعل فاحشة الزنى ونحوه، ولكنّه أمسك نفسه وعصمها وحجبها، وقادها بزمامها إلى الطاعات، فترك هذا الحرام مع قوة الدوافع فيه، أليس هذا قد جاهد نفسه؟ لا شكّ أنّ نفسه تدفعه دفعًا قويًا، ولكنّه يقوى على قمعها، ويقوى على ردّها، فهو دائمًا في جهاد مع نفسه، فهذا يُعدُّ من أفضل القربات. كذلك إنسان أمامه مشروبات محرّمة كالخمور والمسكرات وما أشبهها، وهي متيسّرة عنده وهي عنده لذيذة الطعم، ونفسه تشتهيها، ولكنّه عرف أنّها محرّمة، وأنّ فيها عقوبةً، فردّ نفسه واجتهد في قمعها، وأمسك بزمامها، وحمى نفسه من هذه المحرّمات، فهو مع نفسه مجاهد مجتهد في قمع هذه الشهوة؛ إذ تدفعه نفسه، ولكنّه يردّها، ماذا تكون حالته؟ لا شكّ أنّه في جهاد، قد يكون جهاد نفسه وقمعها مساويًا لجهاد الكفار الذي هو بذل النفس وبذل المال في قتال أعداء الله تعالى.

فإذًا عندنا فعل يكون عبادةً كقتال الكفار مثلًا، وكالأمر بالمعروف والنهي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عن المنكر، وكالصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة وما أشبه ذلك، وعندنا ترك يكون عبادة؛ كترك الشهوات، فهو أيضًا عبادة يثاب عليها، فيثاب على ترك الزّنى، مع وجود القوة والدوافع، وعلى ترك الخمور مع وجود الشهوة له، وعلى ترك أكل الحرام مع تيسيره وسهولة تناوله، وعلى ترك المعاملات الربويّة، وعلى ترك الغشّ مع وجود الدوافع له، وعلى ترك القتال بغير حقّ، وعلى ترك السّباب مع وجود من يسبّه... وما أشبه ذلك، فيثاب الإنسان على التروك، كما يُثاب على الطاعات والقربات، وكلّ داخل في مسمّى الإيمان. وبهذا نعرف أنّ الإيمان يستوعب خصال الطاعة كلّها، ويستوعب ترك المحرّمات، كل ذلك داخل في مسمّى الإيمان، فمن استكمله استكمل الإيمان، ومن نقص منه شيئًا نقص حظُّه من الإيمان.

قال الشارح:

وَأَمَّا مَنْ يُجَوِّزُ الِاسْتِثْنَاءَ وَتَرْكَه، فَهُمْ أَسْعَدُ بِالدَّلِيلِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا: فَإِنْ أَرَادَ الْمُسْتَثْنِي الشَّكَّ فِي أَصْلِ إِيمَانِه مُنِعَ مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ، وَهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فيه. وَإِنْ أَرَادَ أنه مُؤْمِنٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فَالِاسْتِثْنَاءُ حِينَئِذٍ جَائِزٌ. وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَثْنَى وَأَرَادَ عَدَمَ عِلْمِه بِالْعَاقِبَة، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَثْنَى تَعْلِيقًا لِلْأَمْرِ بِمَشِيئَةِ الله، لَا شَكًّا فِي إِيمَانِه. وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْقُوَّة كَمَا تَرَى.

قال الشيخ:

من مسائل الإيمان مسألة الاستثناء أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، هل يجوز أو لا يجوز؟ فمنهم من يقول: لا يجوز أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنّ في ذلك توقّفًا. وسمّوا من يستثني شاكًّا، يقولون: أتشكّ في أنّك مصدّق؟ أتشكّ في أنّك من أهل الدين؟ أتشك في أنّك من أهل هذا الإسلام؟ هؤلاء منعوا الاستثناء، وأوجبه آخرون، وقالوا: لا يجوز الجزم، ولا يجوز لأحد أن يقول أنا مؤمن، أو أنا

مؤمن حقًا؛ لأنّه ربّما ينقصه شيء من الإيمان، وربّما يكون من غير أهل الإيمان في العاقبة، فأوجبوا الاستثناء، فصاروا يقولون: أنا مؤمن إن شاء الله، وتقدّم أنّ منهم من يستثني حتّى في الأشياء الحقيقيّة، حتى يقول: هذا رجل إن شاء الله، وهؤلاء فيهم تشدّد.

والصحيح: القول الوسط: أنّه يجوزُ الاستثناء، ويجوز تركه، فإن كان المستثني شاكًا ومتردّدًا، فلا يجوز الاستثناء على وجه الشك، ولا على وجه التردّد، وإن كان الذي يستثني إنّما يستثني لأنّه لم يصل إلى درجة الكمال جاز الاستثناء، ومعلوم أنّنا لم نصل إلى درجة كمال الإيمان، فكمال الإيمان استيفاء بضع وسبعين شعبة، من الذي يستكملها على التّمام؟ إذن فلنا أن نستثني لعدم وثوقنا باستيفاء هذه الشُعب كلها، لا بدّ أن يكون عندي خلل، وعندي نقص في خصلة من الخصال، إمّا لم أكملها، وإمّا لم أعملها، وإما لم آتِ بها على الكمال، أو ما أشبه ذلك، إذًا أنا أستثني؛ لأن إيماني لم يصل درجة الكمال، فأقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو إلا ما شاء.

كذلك معلوم أنّ أعلى صفات المؤمن أن يكون جامعًا لأفضل الخصال، والإنسان لا يثق بأنّه وصل إلى تلك الآية وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢]، قليل منّا من يوجَلُ قلبُه عند ذكر الله إلّا ما شاء الله، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾، يعني: ازدادوا أعمالًا، كلّ يوم نسمع آيات الله، ومع ذلك قليل من يزداد عملًا، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾،

قليل من يتوكّل على الله حقّ التوكّل ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال:٣]، يعني: يُتمُّونها تمامًا، كاملًا، فمثل هؤلاء قليل وجودهم؛ فلأجل ذلك لا بأس أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، يعني: أرجو أن أكون من أهل هذه الصفات.

كذلك الآيات التي مرّت معنا في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥]، هذه أربع خصال قد يتعذّر للكثير استيفاؤها، فلذلك نعرف أنّ الاستيفاء يعود إلى الكمال، يعني أنا مؤمن ولكن لا أجزم بكمال إيماني، بل أرجو أن أكون من أهل هذه الخصال، ولكنّي لم أتحقق وصولي إليها، فيكون الاستثناء نظرًا إلى الكمال، أو يكونُ الاستثناءُ نظرًا إلى عاقبة الإنسان الذي يموت عليها، الله أعلم بها، فهو يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو يقول: أرجو أن أكون مؤمنًا، وأن أستمرّ على هذا الإيمان حتى يأتيني أجلي، فإذا استثنى على هذا الاعتبار جاز الاستثناء، هذا هو القول الوسط، لا أنّه شكّ وتردّد في تصديقه، ولا أنّه جزم ببلوغه الرتبة الغالية، وخير الأمور أوسطها كما عرفنا.

قال الطحاوي:

قوله: وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ كله حَقٌّ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رحمه الله ـ بِذَلِكَ إلى الرَّدِّ على الجَهْمِيَّةِ وَالمُعَطِّلَةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ، الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْأَخْبَارَ قِسْمَانِ: مُتَوَاتِرٌ وَآحَادٌ، فَالمُتَوَاتِرُ ـ وَإِنْ كَانَ قَطْعِي السَّنَدِ ـ لَكِنَّه غَيْرُ قَطْعِي الدِّلَالَة، فَإِنَّ الْأَدِلَّةَ اللَّفْظِيَّة لا تُفِيدُ الْيَقِينَ!! وَبِهَذَا قَدَحُوا في دِلَالَة الْقُرْآنِ على الصِّفَاتِ! قَالُوا: وَالْآحَادُ لا تُفِيدُ الْعِلْمَ، وَلَا يُحْتَجُّ بِهَا مِنْ جِهَةِ طَرِيقِهَا، وَلَا مِنْ جِهَةِ مَتْنِهَا! فَسَدُّوا على الْقُلُوبِ مَعْرِفَةَ الرَّبِّ تعالى وَأَسْمَائِه وَصِفَاتِه وَأَفْعَالِه مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ، وَأَحَالُوا النَّاسَ على قَضَايَا وَهْمِيَّة، وَمُقَدِّمَاتٍ خَيَالِيَّة، سَمَّوْهَا قَوَاطِعَ عَقْلِيَّة، وَبَرَاهِينَ يَقِينِيَّة!! وهي في التَّحْقِيقِ ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠].

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ قَدَّمُوهَا على نُصُوصِ الْوَحْي، وَعَزَلُوا لِأَجْلِهَا النُّصُوصَ، فَأَقْفَرَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الِاهْتِدَاءِ بِالنُّصُوصِ، وَلَمْ يَظْفَرُوا بِالْعُقُولِ الصَّحِيحَة المُؤَيَّدَة بِالْفِطْرَة السَّلِيمَة وَالنُّصُوصِ النَّبَوِيَّة. وَلَوْ حَكَّمُوا نُصُوصَ الْوَحْي لَفَازُوا بِالمَعْقُولِ

الصَّحِيحِ، المُوَافِقِ لِلْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ.

بَلْ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْ أَرْبَابِ الْبِدَعِ يَعْرِضُ النُّصُوصَ على بِدْعَتِه، وَمَا ظَنَّه مَعْقُولًا، فَمَا وَافَقَه قَالَ: إنَّه مُحْكَمٌ، وقبله وَاحْتَجَّ به!! وَمَا خَالَفَه قَالَ: إنَّه مُتَشَابِه، ثُمَّ رَدَّه، وَسَمَّى رَدَّه تَفْوِيضًا!! أَوْ حَرَّفَه، وَسَمَّى تَحْرِيفه تَأْوِيلًا!! فَلِذَلِكَ اشْتَدَّ إِنْكَارُ أَهْلِ السنة عَلَيْهِمْ.

قال الشيخ:

هذا الكلام على أسماء الإيمان والدين، وابتداء في إجمال قول أهل السنّة في الأدلّة، معلوم أنّ الأدلّة عقليّة ونقليّة؛ الأدلة العقليّة هي ما دلّت عليه الفطرة، وما تشهد بسلامته وملاومته العقول المستقيمة، والفطر السليمة، ولا شكّ أن الإسلام هو دين الفطرة، يقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، ودين الإسلام موافق لما دلّت عليه هذه العقول السليمة، وغير مخالف لها.

أمّا النوع الثاني؛ فهو الأدلّة السمعيّة النقليّة، ويراد بها الكتاب والسنّة، فإنّها نقول منقولةٌ كابرًا عن كابر، هي أدلّة سمعية سمعها هذا عن شيخه، والشيخ عن شيخه، إلى أن اتّصلت بالرسول ﷺ وتناقلوها، فأنت مثلًا علّمك أستاذك أو مدرّسك القرآن والسنّة، وشيخُك علمه شيخه، وهكذا شيخ شيخك تعلّم عن شيخه، إلى أن اتصلت بالنبيّ ﷺ، فالنبيّ ﷺ جاءت إليه وحيًا من الله تعالى، من

وحي السماء، ووحي الله على أنبيائه لا يتطرّق إليه شكّ، ولا يكون فيه توقّف في صحّته، فإذًا هي أدلّة سمعيّة، أدلّة يقينيّة، متلقّاة عن الشرع الشريف، فماذا يجب علينا نحوها؟ يجب علينا أن نؤمن بها، وأن نعمل بها، وأن نتقبّلها، ولا نتوقّف بردّ شيء منها، فكما نعمل بها في العقائد نعمل بها في الأحكام، نعتبر بها، ونمتثل ما فيها، نرجو ونخاف، إذا سمعنا آيات الوعيد خفنا، وإذا سمعنا آيات الوعد رجونا، وإذا سمعنا القصص امتثلنا، وإذا رأينا الأمثال اعتبرنا، وإذا جاءتنا الأحكام عملنا، وإذا جاءتنا الأخبار صدقنا، هذه وظيفة المسلم وهذا عمله، وعمل المؤمن المسلم أنّه يتقبّلها؛ لأن الوحي إنما جاءنا من الله، وعقولنا قاصرة لا تصل إلى معرفة ما يحبّه الله ويكرهه، وعقولنا قاصرة لا تتجاوز محيطنا ودنيانا، ولا تحيط بها في الملأ الأعلى، ولا بها في الدار الآخرة، فكلّ ذلك يتوقّف على النقل، وعلى السمع الذي طريقه الاتباع.

فنقول: إن من واجب المسلمين أن يقدّموا قول الله وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد، وأن يعملوا بهذه الأدلّة وبهذه النصوص، ويقدّموها على العقول وعلى أقوال المشايخ، حتّى يكونوا بذلك متّبعين حق الاتّباع، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاتباع في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وفي قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]؛ متى يكون الإنسان متّبعًا للرسول ﷺ؟ إذا عمل بما جاء به، وهل العمل بما جاء به يختصّ بالأفعال، أو يعمّ العقائد، لا شكّ أنّه ينبني على العقائد أنّه يتلقّى العقيدة

بكتاب الله فترسخ في قلبه، وإذا رسخت وتمكّنت في قلبه كان من آثارها أن تنبعث جوارحه، وأن تعمل، وإلاّ فليس بمصدّقٍ، وليس بمتّبع، وليس بمؤمن حقًّا .

وقد ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أنّ المخالفين سدّوا على أنفسهم باب السند، فالأدلّة من القرآن والأدلّة من السنّة، لما كانت مخالفة لعقولهم لم يقبلوها، والأدلّة من القرآن قطعيّة الثبوت، وهم لا يتردّدون في أنّ القرآن هو كلام الله المنزل، ولا يتردّدون في أنّه منقول نقلًا متواترًا نقلته الأمّة في شرق الأرض وغربها، يقرؤه هؤلاء لهؤلاء، ولا يتردّدون في صحته ولا في ثبوته، ولكن فيه نصوص تخالف معتقداتهم، فيه أدلّة قطعيّة الثبوت تخالف ما ذهب إليه هؤلاء المعتزلة والأشعريّة والجهميّة والجبريّة والشيعة، وما أشبههم، هؤلاء لهم عقائد من أين أخذوا عقائدهم هذه؟ من عقولهم فحكّموا عقولهم، وجعلوها هي المرجّح، قرأت لبعضهم أنّه يقول: ما علمنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاء هذا الرسول بشيءٍ يخالف عقولنا رددناه!!

نقول: عجبًا لكم! ما دمتم قد أيقنت عقولكم بصدقهم، فما عليكم إلا أن تتقبّلوا كل ما جاء عنهم، فأمّا أن تشهد عقولكم بصدقهم، ثمّ تقولوا: لنأخذ من أقوالهم ما يوافق عقولنا، ونردّ ما يخالف عقولنا، فما كنتم بمصدّقين ولا صادقين في الاتّباع.

كذلك سمعناهم يقولون: الآيات القرآنيّة ثابتة يقينيّة، قطعيّة الثبوت، ولكن ليست قطعيّة الدلالة، دلالتها غير واضحة، فأخذوا يسلّطون عليها التحريف، وسمّوا هذا التحريف تأويلًا، وبالأخصّ فيما يتعلّق بالصفات والأسماء، سلّطوا

عليها التأويل، وهو في الحقيقة تحريف، فالأشعريّة أوّلوا كثيرًا من آيات الصفات؛ كآيات المحبّة، وآيات الرحمة، وآيات الغضب والرضا، وكذلك الصفات الذاتيّة؛ أوّلوا صفة الوجه وصفة اليدين وأوّلوا الصفات الفعليّة كصفة العلوّ وصفة الاستواء لمّا أنّهم كذّبوها أوّلوها، أوّلوا أدلّتها، ثم أثبتوا بعض الصفات كصفة الكلام وصفة الرؤية... مع أنّ قولهم للكلام أيضًا غير واضح كما تقدّم، وأثبتوا الرؤية للآخرة ولكن لم يثبتوها كما ينبغي، وأثبتوا صفة الإرادة وصفة السمع والبصر، إلى آخره.

ثم جاءت الجهميّة والمعتزلة، وقالوا: نحن نفعل كما فعلتم، أنت تأوّلتم آيات المحبّة والرحمة والغضب والرضا، لماذا خصصتم هذه بالتأويل؟ نحن كذلك أيضًا نتأوّل آيات القدرة، وآيات العلم وآيات السمع والبصر وآيات الكلام وآيات الحياة، وما أشبهها، قدرتكم على التأويل ليست أقلّ من قدرتنا، ولا نحن أضعف منكم!! فدخلوا من هذا الباب: باب التأويل، فسدّوا على أنفسهم أخذ الأدلّة من القرآن، وقالوا: إنّ الآيات قطعيّة الثبوت وليست قطعيّة الدلالة، بل هي محتملة للتأويل، فأوّلوها وحرّفوها، فصاروا لا يستدلّون بآيات القرآن على هذا النوع.

جاءتهم السنّة، وما فيها من الأحاديث النبويّة المنقولة بالأسانيد الصحيحة، فقالوا: نقسمها قسمين: متواتر وآحاد، فأمّا المتواتر، فنجعله كالقرآن قطعي الثبوت ولكنّه ظنيّ الدلالة، دلالته ضعيفة غير واضحة، نسلّط عليه التأويلات التي سلّطناها على الآيات فنستريح منها. أمّا القسم الثاني: الذي هو الأحاديث الأحاديّة ويسمّونها أخبار الآحاد، فهذه يردّونها كلّها، ولا يقبلونها في باب

العقائد، ويقولون: إنّها ظنّيّة الثبوت، مع كونها ظنّيّة الدلالة، وإذا كانت قطعيّة الدلالة فإنّها ظنّيّة الثبوت لا تفيد إلا الظنّ، والظنّ أكذبُ الحديث، فلا نقبلها، الله قد نهانا عن أخذها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وفي قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨]، فما دامت الأحاديث آحادًا، ولو كانت في صحيحي البخاري ومسلم، وفي السنن والمسانيد، ولو رواها من رواها؛ فهي ظنّية، لا تفيد إلاّ الظنّ، فردّوا هذا الباب.

وقد ناقشهم العلماء؛ كابن القيّم رحمه الله، وبيّن أنّ قولهم هذا خطأ، وأنّ الواجب قبولها، وأنّها قطعيّة الثبوت ولو كانت آحادًا، وأنّها تفيد اليقين، والنّاس يحتاجون إلى العمل بها، فكما يعملون بها في الفروع، فكذلك يعتقدونها في الأصول، وكما يعملون بها في الواقع، فكذلك يصدّقونها في الواقع أيضًا، والكلام عليها طويل.

وكان أول من أثار الكلام فيها الإمام الشافعي، في رسالته التي تعرف بـ «الرسالة في أصول الفقه»، كذلك الإمام البخاري في آخر «صحيحه» قال: كتاب أخبار الآحاد، وبيّن أدلّتها والعمل بها في الفروع وفي الأصول، وتكلّم عليها ابن القيم في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة»، وكسر ما يتعلّق به الجهميّة من ردّ هذه الأخبار، وبيّن أنّها تفيد يقينًا، وتفيد العلم القطعي، وأنّها ليست ظنّيّة الثبوت كما يقولون وعلى هذا تصير دلالتها واضحة ولو ردّها من

ردّها منهم، فمثلًا أحاديث الشفاعة متكاثرة متواترة، وإن كانت أفرادها آحادًا، ولكن مجيؤها من طرق، وعن عدد من الصحابة فيها إثبات الشفاعة، يثبتها ويوضّحها، لم تقبل ذلك المعتزلة ولا الخوارج الذين ينكرون شفاعة الشافعين، وإخراج أهل السنّة من النار، فيقال لهم: أحاديث الشفاعة قطعيّة لكثرتها، ولكنّهم يردّونها.

ومثل ذلك يقال في أحاديث رؤية المؤمنين لربّهم في الجنّة، وهي أحاديث مرويّة عن عدد كبير من الصحابة بروايات قويّة ثابتة، ليس فيها توقّف، وليس فيها تردّد؛ فهي متواترة في المعنى، وإن لم تكن متواترة في اللفظ، ومع ذلك يردّونها ويقولون: إنّها أخبار آحاد لم تخرج من الخبر الواحد.

والحاصل أن عقيدة أهل السنّة: أنّ الدلالة السمعيّة هي الأصل، وهي المرجّح، فكما أنّا صدّقنا بالنبيّ ﷺ فلا نكون متّبعين حق الاتّباع إلاّ إذا تقبّلنا كُل ما بلّغه من الشريعة. فمن الذي بلّغه القرآن، فنعمل به في الأصول والفروع، وهو الذي علّمنا وبيّن لنا القرآن بفعله وبقوله، فلا بدّ أن نعتقد ذلك هو الذي أخبرنا عن الأوّلين، وهو الذي أخبرنا عن الآخرين، وهو الذي أخبرنا عن الدنيا، وهو الذي أخبرنا عمّا يكون في الآخرة، وكلّ ذلك في شريعته وسنّته، ولا نكون مصدّقين له إلا إذا صدّقناه في كلّ دقيق وجليل.

قال الشارح:

وَطَرِيقُ أَهْلِ السنة: أَنْ لَا يَعْدِلُوا عَنِ النَّصِّ الصَّحِيحِ، وَلَا يُعَارِضُوه بِمَعْقُولٍ، وَلَا قَوْلِ فُلَانٍ، كَمَا أَشَارَ إليه الشَّيْخُ رحمه الله، وَكَمَا قَالَ البخاري ـ رحمه الله ـ: سَمِعْتُ الْحُمَيْدِي يَقُولُ: كُنَّا عِنْدَ الشَّافِعِي ـ رحمه الله ـ فَأَتَاه رَجُلٌ فَسَأَلَه عَنْ مسألة، فَقَالَ: قَضَى فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رجُلُ لِلشَّافِعِي: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟! فَقَالَ: سُبْحَانَ الله! تَرَانِي فِي كَنِيسَة! تَرَانِي فِي بِيعَة! تَرَى على وَسَطِي زُنَّار؟! أَقُولُ لَكَ: قَضَى رَسُولُ الله ﷺ، وَأَنْتَ تَقُولُ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟!

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ السَّلَفِ كَثِيرٌ.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَقَّته الْأُمَّة بِالْقَبُولِ، عَمَلًا به وَتَصْدِيقًا له، يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينِي عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَّة، وَهُوَ أَحَدُ قِسْمَي الْمُتَوَاتِرِ. وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ سَلَفِ الْأُمَّة فِي ذَلِكَ نِزَاعٌ، كَخَبَرِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1]، وَخَبَرِ ابْنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ: «نَهَى عَنْ بَيْعِ الْوَلَاءِ وَهِبَتِه»[2]، وَخَبَرِ أبي هريرة: «لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَة على عَمَّتِهَا وَلَا على خَالَتِهَا»[3]، وَكَقَوْلِه: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٣٥)، ومسلم (١٥٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٠٨)، ومسلم (١٤٠٨).

النَّسَبِ»[(١)]، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَهُوَ نَظِيرُ خَبَرِ الذي أَتى مَسْجِدَ قُبَاءَ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْقِبْلَةَ تَحَوَّلَتْ إلى الْكَعْبَةِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَيْهَا[(٢)].

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُرْسِلُ رُسُلَه آحَادًا، وَيُرْسِلُ كُتُبَه مَعَ الْآحَادِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ: لَا نَقْبَلُه؛ لأنه خَبَرٌ وَاحِدٌ! وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة:٣٣]، فَلَا بُدَّ أَنْ يَحْفَظَ الله حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه على خَلْقِه، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه.

قال الشيخ:

هذا بيان للأدلّة التي بيّنوا بها ثبوت أخبار الآحاد، يقول الشارح إنّ الله تعالى فرض على الأمّة قبول ما بلّغه الرسول ﷺ، وقبول الشريعة التي جاءت عنه ﷺ، ووصف المؤمنين بأنّهم يقدّمون ذلك على قول كلّ أحد، في مثل هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، يعني: إذا جاءنا قضاء الله وقضاء رسوله، فلا نقدّم عليه أهواءنا، ولا نجعله محلّ تردد، ولا نقول نفرضه على عقولنا، ولا نقول نختار عليه قول مشايخنا فلان وفلان، بل نجعله هو الأصل، وهو المقدّم عندنا على قول

---

(١) أخرجه البخاري بلفظه (٢٦٤٥)، ومسلم بنحوه (١٤٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كلّ أحد صغيرًا كان أو كبيرًا، وذلك هو وصف كلّ مؤمن، وهكذا عمل أئمّة الإسلام، كان يقدّمون قول النبي ﷺ على اجتهاداتهم، وعلى آرائهم.

فهذا أبو حنيفة يقول: «إذا جاء الخبر عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي الحائط، وإذا جاء عن الصحابة فاضربوا بقولي الحائط، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال وهم رجال»(١).

وهذا الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ»(٢)، يعني: رسول الله ﷺ، فالإمام مالك جعل على نفسه أنّ قول الرسول ﷺ لا يُردّ منه شيءٌ، أمّا قول غيره، فهو محلّ للقبول والردّ؛ وذلك لأنّه محلّ اجتهاد، فأقاويل الرجال تدور على قدر الأدلّة في النقل.

كذلك الثابت عن الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في ذلك أكثر وأكثر، كما مرّ في القصّة التي أوردها الشارح، من أنّ رجلًا جاء إلى الشافعي يسأله عن مسألة يحفظ الإمام الشافعيّ فيها حديثًا ثابتًا عن رسول الله ﷺ، فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ قضاء، وذلك السائل كأنه ما قنع، وقال: ما تقول أنت يا شافعي؟! فغضب الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ أشدّ الغضب، وقال هذه المقالة: **سُبْحَانَ اللهِ! تَرَانِي فِي كَنِيسَةٍ!**

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧). وأخرج البيهقي في المدخل إلى السنن (ص١١١) عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ أنه قال: «إذا جاء الخبر عن النبي ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب النبي ﷺ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم».

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

تَرَانِي فِي بِيعَةٍ! تَرَى على وَسَطِي زُنَّار؟! أَقُولُ لَكَ: قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَنْتَ تَقُولُ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟!)، فهل يكون له اختيار، وهل يكون له رأي مع رأي رسول الله ﷺ؟ حاشا للشافعي وحاشا غيره أن يكون لهم اختيار. وقد نقل عنه ابن القيم - رحمه الله - قوله: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد»[1].

كذلك الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ثبت عنه أنه قال: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحّته، ويذهبون إلى رأي سفيان الثوري، والله تعالى يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعلّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»[2]. يحذّر الذين يقدمون رأيَ الإمام سفيان بن سعيد الثوري، وهو عالم من علماء العراق مشهور بالعلم، ومع ذلك له آراء قد تكون مخالفة للدليل، فيقول الإمام أحمد: إنّ هؤلاء الذين يأخذون رأي سفيان، ويتركون الأحاديث مع معرفة صحّتها حاليًا، يُخشى أن تنطبق عليهم الآية: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وبعد ذلك نقول: إن أخبار الآحاد متى ثبتت، فإنّها تفيد اليقين، وتفيد العلم،

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

وقد ضرب الشارح ـ رحمه الله ـ لها أمثلة، وذكر على ذلك أدلّة منها: ما ثبت في «الصحيح» أنّ أهل مسجد قباء كانوا يصلّون إلى جهة بيت المقدس، فجاءهم رجل واحد وهم في الصلاة، وقال لهم: إنّ رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة؛ فاستقبلوها. فصدقوه وهو واحد، وهم على قبلة متحققين منها، فاستداروا من الشمال إلى الجنوب وعملوا بقوله وهو واحد.

وهذا دليل على أنّ خبر الواحد الصادق المثبت يُعمَل به، ويُقدَّم ويصدَّق. فرسولُ الله ﷺ واحد، ومع ذلك صدّقوه وقبلوا ما جاء به، والرسل الذين يرسلهم الله تعالى غالبًا أنّهم أفراد، أرسل نوحًا ـ عليه السلام ـ وحدَه، وأرسل هودًا ـ عليه السلام ـ وحده، وأرسلَ صالحًا ـ عليه السلام ـ وحده، وأرسل شعيبًا ولوطًا وموسى وهارون عليهم السلام، فلا شكَّ أنّ خبر الواحد يقبل ويفيد العلم.

والنبيّ ﷺ كان يرسل الدعاة أفرادًا؛ فأرسل معاذًا ﷺ إلى اليمن داعية إلى الله، وكذلك أرسل أبا موسى، وأرسل عليًّا، وأرسل عمّارًا، وأرسل سلمان، رضي الله عنهم، كلّ منهم إلى جهة، أرسلهم للدعوة، وكذلك أرسل جُباةَ الزكاة، يرسلهم أفرادًا، يأتي الفرد الواحد إلى أهل الغنم والإبل ويقول: أعطوني زكاة أموالكم؛ أنا مرسلٌ من رسول الله ﷺ، فلا يقولون له: أنت واحد، بل يقولون له: خذ زكاة أموالنا، ويقبلون خبره.

الحاصل: أنّ الأدلّة متنوّعة، وإنّما هذه نماذج مما ذكره منها، وبذلك يُعرفُ أن الحقّ قبول خبر الواحد إذا كان ثابتًا ويقينًا، وأنّ الناس يعملون بذلك، فما دام

كذلك، فلا مجال لرد ثُلث السنّة، أو ثلثيها لهذه الشبهة .

ومع ذلك، فالذين ردّوها ما ردّوا إلا قِسمًا خاصًا وهو ما يتعلّق بالعقائد، وأما ما يتعلّق بالأعمال فإنّهم رأوا الناس يعملون به، وقالوا: إنّ الناس يعملون، وهذا يفيد العمل ولا يفيد العلم، وهو في الحقيقة تناقض، ومعلوم أنّ كتب السنّة تلقّتها الناس بالقبول، وعملوا بها، فصحيح البخاري تلقّته الأمّة بالقبول، واعتقدوا ما فيه، وصاروا يعملون به، ويطبقونه، ولم يقولوا إنّه أخبار آحاد، وكذلك «صحيح مسلم»، وكذلك الكتب التي تعتمد الصحّة تلقّتها الأمّة بالقبول دون توقّف، فكانوا بذلك يعملون بما فيها لأنّها ثابتة، وأسانيدها قويّة، ليس فيها كذّاب، وليس فيها من يشكّ في صدقه.

وبذلك يعرف أنّ الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ محلّ القبول، ولا يجوز ردّها حتى لو خالفت العقول، قدّمت على قول كلّ قائل، وعلى عقل كل عاقل، لا سيّما وعقول أولئك الذين ردّوا السنّة أو ردّوا الآيات عقول مضطربة، عقول مختلفة، وشبهاتهم التي يشبّهون بها مضطربة أيّما اضطراب، يحصل فيها التناقض، فيشاهد أنّ الواحد منهم يبقى مثلًا ثلاثين سنة وهو يقول: إنّ هذه الصفة ينكرها العقل، ثم بعد ثلاثين سنة وبعدما يرجع لعقله، يرجع ويقول: بل يقرها!! سبحان الله! ثلاثون سنة من عمرك وأنت تنكرها، ثم بعد ذلك أقررت بها، هل عقلك تغيّر أو تبدّل؟! مما يدلّ على أنّ عقولهم ليست ميزانًا.

وكذلك نجد مجموعة من العلماء في بلد ينكرون هذه الصفات، ويقولون العقول تنكرها، وفي بلد آخر ألوف من العلماء تقرّ هذه الصفات، ويقولون:

العقول تثبتها. فكيف تكون هذه العقول مختلفة، هؤلاء يقولون: نثبت، وهؤلاء يقولون: ننفي، وهؤلاء يقولون: ما نقرّ بها، ولا يقرّ بها العقل، وهؤلاء يقولون بل نثبتها ونوجبها، إذًا العقول التي تضطرب بكذا وكذا، عقول غير متّزنة، وأدلّتهم وشبهاتهم لا عبرة بها، كما قال بعض الشعراء:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَـقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٌ مَكْسُـورُ[1]

شبّههم بالزجاج الذي يضرب بعضه بعضًا فينكسر، إذا ضربت زجاجتين إحداهما بالأخرى بقوة، فهل يبقى منهما شيء؟ كلاهما تتكسّر، هكذا أدلّة هؤلاء مع هؤلاء تضرب هذا بهذا فينكسر الدليلان، أما أدلّة أهل السنّة من الكتاب والسنّة، فإنّها ثابتة، لا يعتريها شيء من التغيير.

وبعد، فقد عرفنا أنّ معتقدَ أهل السنّة والجماعة الاعتماد على كتاب الله عزّ وجلّ، وعلى سنّة رسوله ﷺ . والعقائد هي: الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، والإيمان بما أخبر الله به مما بعد الموت، يرجعون في ذلك إلى هذه الأدلّة؛ لقطعهم بصحتها وثبوتها، ولقطعهم بصراحتها ومعرفة مدلولها، ومعلوم أنّ الله تعالى خاطب العرب بما يفهمون، أنزل عليهم القرآن بلسان عربي مبين، وهم فصحاء يفهمون المراد ويعقلون المعاني، ويسمعون وينظرون . ومعلوم أنّهم تقبّلوا تلك النصوص التي جاءت بها الرسل وأنّهم وثقوا بأنّ معناها مراد، وأنها ليست ألفاظًا جوفاء، بل ألفاظ لها معانٍ، وعرفوا أنّهم مطلوب منهم فهمها، ومطلوب

---

(١) انظر: الانتصار لأصحاب الحديث (ص٧٢)، ودرء التعارض (٧/ ٣١٤).

منهم تعقّل معناها؛ لأنّ الله تعالى يأمر بتعقّل هذا الكتاب، يقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، والتدبُّر: هو التعقّل، ولو كانت لا معاني لها، أو لا يجوز اعتقاد معناها، وإنّما يتعبّد بألفاظها لما أمرنا بالتدبّر، ولما أُمرنا بالتفهّم.

وقد ثبت أنّ النبيّ ﷺ كان يعلّم أمّته ما يخفى عليهم بقوله وفعله، فكان يبيّن لهم المعاني التي اشتملت عليها الآيات من الأمور الغيبيّة ونحوها، وكان يخبرهم بما ورد في القرآن، فيخبرهم بشرح أمور الآخرة، ويشرح أسماء الله وصفاته، ويخبرهم بما يطلب منهم، وبما يعفى عنهم.

ومعلوم أيضًا أنّ الصحابة - رضي الله عنهم - قوم عرب فصحاء، ذوو فهم ومعرفة، ولو كانوا لم يفهموا ما قال لهم النبي ﷺ لما نقلوه بلفظه، ولما شرحوا معانيه، ولما اعتقدوا مدلولاته. وأيضًا لو كانوا قد أُمروا بأن يعرفوا منه غير المتبادر، لبيّنوا لتلامذتهم، ولقالوا لهم: لا تعتقدوا ظواهر النصوص، فإنّها ظواهر ظنّيّة لا تفيد اليقين. ولـمّا لم يقولوا هذا، عُرف أنّهم فهموا أنّه مطلوب منهم تعقّلها، واعتقاد مدلولها. فهذا هو مذهب أهل السنّة، يقرؤون الآيات، ويفهمون معانيها، ويسمعون الأحاديث، ويفهمون معانيها، سواء كانت تتعلّق بالآخرة، أو كانت تتعلّق بعلم الغيب، أو بالإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، أو بالإيمان بالكتاب أو البعث والنشور، أو ما أشبه ذلك، كل ذلك يعرفونه ويعتقدون مدلوله؛ إذا قرؤوا ما يتعلّق بالبعث اعتقدوا حقيقة أنّه سيحصل البعث والنشور

والجزاء والعذاب والثواب، إذا قرؤوا ما يتعلّق بصفات الله، اعتقدوا أنّ هذه النصوص دالّةٌ على علوّ الله فوق خلقه، ودالّة على قربه من خلقه واطّلاعه عليهم، ودالّة على علمه بكلّ شيء، ودالّة على سمعه وبصره وقدرته التّامة، ودالّة على مراقبته لخلقه في كلّ أعمالهم وأحوالهم، وإذا قرؤوا ما يتعلّق بعموم قدرة الله اعتقدوا أنّ الله قادر عليهم، وأنّه خالق كلّ شيء، وأنّه المتصرّف في الخلق، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هذه مدلولات النصوص يعتقدونها كما هي؛ والدليل على ذلك أنّهم نقلوا ذلك وكتبوه في مؤلّفاتهم، ومن جملة من كتبوا هذا الكتاب الذي ألفه الإمام أبوجعفر الطحاوي رحمه الله، وكذلك الأئمّة قبله؛ فكتب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - رسائل تتعلّق بالعقيدة، وكتب ابنُه عبد الله رسالةً في السنّة، وكتب أيضًا ابن أبي شيبة رسائل تتعلّق بالإيمان، وكتبوا رسائل موجودة منّ الله بحفظها حتّى وصلت إلينا، لم تتغيّر.

وأمّا الذين خالفوهم ولم يقبلوا النصوص، لم يعملوا بالآيات، ولم يعملوا بالأحاديث، فقد اعتمدوا فيما تقدّم على عقولهم، فحكّموها، وجعلوها هي الدليل، تقّبلوا ما قد وافق عقولهم، وردّوا ما أنكرته عقولهم، وزعموا أنّ العقل هو الدليل الأساس، وقالوا: ما عرفنا صدق الرسل إلا بالعقول، فإذا جاء عن الرسل ما يخالف العقول، وجب إيضاحه وصرفه عن الظاهر.

وقد عرفنا أنّهم قسّموا الآيات قسمين، فقسم قالوا: إنّه ظاهر الثبوت، ولكنّه ظنّي الدلالة، فلا يقبلونه لاحتماله - في زعمهم - للتأويل، ولأجل ذلك

سلّطوا التأويل على تلك النّصوص، والقسم الثاني جعلوه ظاهرًا، ولكن لا يلزم أيضًا قبوله، ولو كان ظاهر الدلالة، ولكنّه محتمل التأويل، أمّا السنّة فيجعلونها قسمين: متواترًا وآحادًا، فقالوا: إن المتواتر قطعيّ الثبوت، ولكنّه ليس قطعيّ الدلالة لاحتمال أنّه ذو معانٍ كثيرة، فسلّطوا عليه التأويل، أمّا الآحاد فجعلوها ظنّية الثبوت، وما دام أنّها ظنّية الثبوت، فإنها لا تدخل في المعتقد، ويقولون: إنّ العقيدة لا تبنى إلاّ على اليقين، والآحاد ظنّيّة، وفي هذا اطّراح للأحاديث كلّها إلا أفرادًا قليلةً، فهذه المتواترة قليلة، والباقية كلّها آحاد، ويقولون: الآحاد لا تقبل في المعتقد.

وقد عقّب الشارح على ذلك فقال: لا شكّ أنّ أكثر الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري ومسلم وكذلك كتب أهل السنّة إنها في اعتقادهم وفي اصطلاحهم آحاد لا تصل حدّ التواتر، وإذا كان كذلك، فإنّها ظنّيّة الثبوت، فلا تفيد يقينًا.

فقالوا مثلًا: الأحاديث التي في إثبات النظر إلى الله تعالى ورؤيته في الآخرة كلّها ظنّيّة وآحاد فلا نعتقدها، والأحاديث الواردة في علوّ الله تعالى على عرشه وعلوّه فوق سمواته كلّها ظنيّة، فلا نقبلها لكونها آحادًا، والأحاديث التي في نزوله لفصل القضاء، وفي نزوله إلى السماء الدنيا، ونحو ذلك كلّها آحاد، فلا يقبلونها، والأحاديث التي في صفات الفعل لا يقبلونها أيضًا. إذًا ماذا بقي؟ لم يبقَ إلّا أحاديث قليلة كأحاديث الشفاعة وأحاديث الحوض وما أشبهها، جعلوها متواترة، فقبلها بعضهم، والبعض لم يقبلها، وقال: إنّها وإن كانت قطعيّة الثبوت،

ولكنّها محتملة التأويل، وقد ردّ عليهم الشارح بقوله: إن الأمّة لم يزالوا يعملون بالآحاد، وأنّ النبيّ ﷺ كان يرسل رسله آحادًا، فيعمل بقولهم، ويرسل الداعية إلى اليمن مثلًا وهو واحد، ويكلّف الذين أُرسل إليهم أن يقبلوا منه، ويرسل المبلّغين آحادًا، ويرسل كتبه مع آحاد، ويقبل منهم، ويرسل أيضًا الجباة الذين يجمعون الصدقات آحادًا، فيُقبل منهم.

وذلك كلّه دليل على أنّهم عرفوا صدق أولئك الذين جاؤوا بهم، فما دام كذلك فإنّ هذه الأخبار التي رويت في الصحيحين، نقلها عدل عن عدل، وضابط عن ضابط، وثقة عن ثقة؛ حتى دونت في الكتب، أليست قطعيّة الثبوت، فلماذا لا نعمل بها؟ ولماذا لا نطبّقها؟ ولماذا لا ندخلها في الاعتقاد كما أدخلناها في العمل؟ ما الفرق بين العمل والاعتقاد؟ لا فرق واضح بينهما.

فإذًا واجب على الأمّة أن يعملوا بهذا، وهذا في الاعتقاد وفي العمل.

قال الشارح:

وَلِهَذَا فَضَحَ الله مَنْ كَذَبَ على رسوله في حَيَاتِه وَبَعْدَ وَفَاتِه، وَبَيَّنَ حَالَه لِلنَّاسِ. قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة: «مَا سَتَرَ الله أَحَدًا يَكْذِبُ فِي الحَدِيثِ». وَقَالَ عَبْدُالله ابْنُ المُبَارَكِ: «لَوْ هَمَّ رَجُلٌ فِي السَّحَرِ أَنْ يَكْذِبَ فِي الحَدِيثِ، لَأَصْبَحَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: فُلَانٌ كَذَّابٌ»[1].

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ وَإِنْ كَانَ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ، وَلَكِنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَسَقِيمِهَا لَا يَنَالُه أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مُعْظَمَ أَوْقَاتِه مُشْتَغِلًا بِالحَدِيثِ، وَالْبَحْثِ عَنْ سِيرَة الرُّوَاة؛ لِيَقِفَ على أَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَشِدَّة حَذَرِهِمْ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالزَّلَلِ، وَكَانُوا بِحَيْثُ لَوْ قُتِلُوا لَمْ يُسَامِحُوا أَحَدًا فِي كَلِمَة يَتَقَوَّلُها على رَسُولِ الله ﷺ، وَلَا فَعَلُوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ. وَقَدْ نَقَلُوا هَذَا الدِّينَ إِلَيْنَا كَمَا نُقِلَ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ يَزَكُ[2] الْإِسْلَامِ، وَعِصَابَة الْإِيمَانِ، وَهُمْ نُقَّادُ الْأَخْبَارِ، وَصَيَارِفَة الْأَحَادِيثِ. فَإِذَا وَقَفَ المَرْءُ على هَذَا مِنْ شَأْنِهِمْ، وَعَرَفَ حَالَهُمْ، وَخَبَرَ صِدْقَهُمْ وَوَرَعَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ، ظَهَرَ له الْعِلْمُ فِيمَا نَقَلُوه وَرَوَوْه.

وَمَنْ له عَقْلٌ وَمَعْرِفَة يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ نَبِيِّهِمْ وَسِيرَتِه وَأَخْبَارِه، مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ به شُعُورٌ، فَضْلًا أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لَهُمْ أَوْ مَظْنُونًا. كَمَا أَنَّ النُّحَاة عِنْدَهُمْ مِنْ أَخْبَارِ سِيبَوَيْه وَالخَلِيلِ وَأَقْوَالِهِمَا مَا لَيْسَ عِنْدَ

---

(١) أخرج الأثرين ابن الجوزي في مقدمة كتابه «الموضوعات» (١/ ٢٣).

(٢) اليَزَكُ: كلمة فارسية تعني: طلائع الجيش.

غَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ الْأَطِبَّاءِ مِنْ كَلَامِ بُقْرَاطَ وَجَالِينُوسَ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَكُلُّ ذِي صَنْعَةٍ هُوَ أَخْبَرُ بِهَا مِنْ غيره، فَلَوْ سَأَلْتَ الْبَقَّالَ عَنْ أَمْرِ الْعِطْرِ، أَوِ الْعَطَّارَ عَنِ الْبَزِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ!! لَعُدَّ ذَلِكَ جَهْلًا كَثِيرًا.

وَلَكِنَّ النُّفَاةَ قَدْ جَعَلُوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، مُسْتَنَدًا لَهُمْ فِي رَدِّ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، فَكُلَّمَا جَاءَهُمْ حَدِيثٌ يُخَالِفُ قَوَاعِدَهُمْ وَآرَاءَهُمْ، وَمَا وَضَعَتْهُ خَوَاطِرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ، رَدُّوهُ بِـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، تَلْبِيسًا مِنْهُمْ وَتَدْلِيسًا على مَنْ هُوَ أَعْمَى قَلْبًا مِنْهُمْ، وَتَحْرِيفًا لمعنى الْآيِ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

قال الشيخ:

عرفنا أنّ الأحاديث التي رواها ثقات، وكتبت في أمّهات الكتب قد تأكد العلماء من صحّتها، وإذا قيل: إنّ هناك أحاديث موضوعة وأحاديث مكذوبة قد رويت وقد كتبت وقد أُلّفت فيها الكتب التي يوجد فيها الضعيف والمضطرب والمعلول والشاذ، فكيف تعتمد هذه الأحاديث وتجعلونها دليلًا، وتعتمدونها في المعتقد والعقيدة، ولا تعتمد إلا على اليقين.

والجواب ـ كما قال الشارح ـ: أنّ الأحاديث قد يسّر الله لها من يحرّرها وينقحّها، ويبيّن صحيحها من سقيمها، وهؤلاء العلماء الذين هم علماء الحديث، رزقهم الله علمًا ثاقبًا، ورزقهم الله فهمًا وقوة يفرّقون بها بين ما هو حديث، وما

ليس بحديث، ولأجل ذلك شبّههم بالنقّاد، وشبّههم بالصيارفة، والصيرفي هو الذي حرفته أن يصرف الذهب والفضة، ويبيع هذا بهذا، فهو يعرف الدرهم الذي فيه غشّ، والدينار الذي فيه غشّ والجنيه المغشوش الذي فيه زيف، والحلي الصافي والمغشوش، والذهب المخلوط؛ لأنّ هذه حرفته وصنعته. كذلك أهل الحديث هذه حرفتهم وهذه صنعتهم، منذ أن نشؤوا وهم يتتبّعون أحاديث رسول الله ﷺ، فأصبحت لديهم مَلَكة يدركون بها ما هو صحيح وما هو ضعيف، لدرجة أنّ أحدهم لمجرّد سماع أوّل الحديث يقول: هذا ضعيف، هذا مكذوب، وبمجرّد سماع الإسناد يعرف من هو مقبول الحديث، ومن ليس بمقبول. هؤلاء هم الذين يسّرهم الله تعالى لحفظ سنّة نبيّه ﷺ.

نذكر هذه القصّة التي فيها أنّ المهدي قبض على زنديق، وعرف أنّه من المنافقين، وعزم على قتله، فقال الزنديق: هب أنّي قُتلت! كيف تفعل بأربعة آلاف حديث قد كذبتُها وبثثْتُها بين الناس؟ فقال المهدي: تعيش لها نُقّادها جهابذة المحدّثين، الذين يميّزونها ويخرجونها من جملة الأحاديث، إذا سمعوا عشرة أحاديث من شخص واحد وفيها واحد موضوع، قالوا: امحوا هذا، واضربوا عليه، إنّه ليس بصحيح! هذه صنعتهم وهذه حرفتهم، تخصصوا بها وصار معهم مَلَكة ليست عند غيرهم، وعندهم معرفة بأخبار النبيّ ﷺ وبسنّته وبما ثبت عنه وبما يقوله، فإذا جاءهم الحديث مخالفًا للأحاديث الصحيحة عرفوا أنّه مكذوب، فالسنّة الشريفة لا تتضارب. إذا جاءهم الحديث لفظه مستبشع قالوا: هذا مكذوب؛ لأنّهم مع كثرة سماعهم لألفاظ النبيّ ﷺ، عرفوا أن اللفظ الركيك أو

المضطرب المتقطّع المتضارب ليس من كلام النبيّ ﷺ، فالنبيّ ﷺ أفصح الخلق، ولا يمكن أن يتكلّم بمثل هذا، فيحكمون بأنّه مكذوب، وهكذا أيضًا يدركونه إذا كان فيه مبالغة كبيرة، كذكر ثواب كبير على عمل قليل، أو ذكر عقاب كبير على سيئة صغيرة، أو نحو ذلك، يدركون أن هذه المبالغة لا ترد عن النبيّ ﷺ، وأشباه ذلك.

وبكلّ حالٍ، فقد بيّنوا الأحاديث الموضوعة، وبيّنوا كيفيّة وضعها، والأسباب التي حملته عليها، وجعلوا ذلك صنعتهم. رُوي أنّ رجلًا جاء إلى أبي حاتم الرازي، وكان ـ رحمه الله ـ من العلماء بالحديث، فقال له: كيف تدرك الحديث الموضوع والحديث الصحيح بمجردّ ما تسمعه؟ فقال هذه صنعتنا، ولكن إذا كنت شاكًا في ذلك فاسألني، وأقول لك: اعرض عليّ مئة حديث أبيّن لك مثلًا أنّ عشرة منها مكذوبة، ثم اذهب واعرضها على أبي زرعة ويبيّن لك العشرة نفسها، ففعل ذلك فعرض عليه مئة حديث كان فيها عشرة مكذوبة مثلًا، فعرفها وأعلّها؛ هذا الحديث علّته كذا، وهذا علّته كذا، ووافقه أبوزرعة. هؤلاء مثلًا من نقاد الحديث، اتفقوا على سماع هذه المئة، واتفقوا على الحديث الموضوع علّته كذا، وهذا علّته كذا، مع أنّ بعضهم لم يخبر بعضًا، وإنّما ذلك صنعتهم، فهذه حرفة أئمّة أهل الحديث.

ومعلوم أنّ ذلك ديدنهم وعلمهم. ومثّل الشارح على ذلك بأنّ كلّ من اهتم بعلم، فإنّه يبحث عن أصله وأهله، فمثلًا الذين حرفتهم علم النحو يتتبّعون أخبار النحاة، والمشتهرين بالنّحو من المتقدّمين؛ فمن الصدر الأوّل سيبويه،

المشهور بعلم النحو، والخليل بن أحمد المشهور بعلم النحو واللغة، وكذلك الفراء، ونحوهم المشتغلون بعلم الطب مثلًا، يعكفون على كتب من أخبار المتقدّمين كبقراط وجالينوس وسقراط وأفلاطون وهم من الأطباء المشهورين والمتقدمين قبل الإسلام، وبقيت لهم مؤلفات في كتب الطب موجودة يعتمدها الذين جاؤوا بعدهم.

وهكذا كل إنسان وصنعته وحرفته، فالبقال ليس مثل العطار؛ فهذا صنعته أن يبيع هذه البقول ونحوها، والعطّار يبيع الأطياب، وصنعته معرفة الطيب المخلوط والطيب الخالص، وكذا وكذا، كلّ واحد وصنعته.

فهذه صنعة المحدّثين سخّرهم الله لتنقية الأحاديث، حتى تميّز الحديث الذي ليس فيه طعن من الأحاديث المطعونة، كلّما تقرأ من الأحاديث التي في الأمّهات من الكتب تجدهم يقولون هذا الحديث صحّحه فلان، أو هذا الحديث ضعيف الإسناد، أو هذا حديث فيه اضطراب، أو هذا حديث مدرج أو هذا حديث منقطع، أو معضل، أو مضطرب المتن، أو مرسل، أو نحو ذلك؛ لأنّهم أرادوا أن يبيّنوا للأمّة ما دام أنّ هذه الأحاديث كتبت، وستعرض على الأفراد فلا بدّ أن يعرف الفرد الحديث الذي يعمل به، والذي لا يعمل به، فأصبحت السنّة - والحمد لله - محفوظةً.

فإذًا لماذا تردّونها أيها المعتزلة والمتكلّمون؟ لماذا تقولون: إنّ السنّة قد دخلها الكذب؟ نقول: صحيح أنّه دخلها الكذب، ولكن تميّزت الأحاديث المكذوبة من الأحاديث الصحيحة؛ لأجل ذلك فضح الله الكذّابين.

وقد قال الأئمّة: إنّه ما همّ أحد بكذب إلا فضحه الله على رؤوس الأشهاد، وهناك أناس دخلوا في الإسلام، وهم زنادقة، وصاروا يكذبون أحاديث ويفشونها، وهناك البعض يكذبون على النبيّ ﷺ حزبيّة أو انتصارًا لمذهب أو نحو ذلك، ولكنهم افتضحوا، وألفت فيهم المؤلفات، تجدون كتبًا ذكر فيها تراجم الضعفاء والمتروكين والمجروحين وضعفاء الحديث، عندنا كتاب اسمه «الكامل» لابن عدي مطبوع في نحو ثمانية مجلّدات، وكلّه بأسماء الرجال الضعفاء، يذكر بعض أحاديثهم الضعيفة، وهناك كتاب للعقيلي في أربع مجلّدات اسمه «الضعفاء»، وهكذا كتاب في ثلاثة أجزاء لابن حبّان اسمه «المجروحون».

ولا شكّ أنّ اهتمام العلماء بهؤلاء الضعفاء من المحدثين، يبيّن أنّهم من جملة من لا يقبلون في الحديث ولا يغترّ بحديثهم، فعرف بذلك أنّ السنّة - والحمد لله - ثابتة محفوظة، فلماذا تفرّقون بينها وبين غيرها؟ ولماذا تردّون السنّة مع ثبوتها؟

قال الشارح:

فَفَهِمُوا مِنْ أَخْبَارِ الصِّفَاتِ مَا لَمْ يُرِدْهُ الله وَلَا رسوله، وَلَا فَهِمَه أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، أنه يَقْتَضِي إِثْبَاتُهَا التَّمْثِيلَ بِمَا لِلْمَخْلُوقِينَ! ثُمَّ اسْتَدَلُّوا على بُطْلَانِ ذَلِكَ بِـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، تَحْرِيفًا لِلنَّصَّيْنِ!! وَيُصَنِّفُونَ الْكُتُبَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ الذي أَمَرَ الله به وَجَاءَ مِنْ عِنْدِه، وَيَقْرَؤُونَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَيُفَوِّضُونَ معناه إلى الله تعالى، مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ لِمَعْنَاه الذي بَيَّنَه الرَّسُولُ، وَأَخْبَرَ أنه معناه الذي أَرَادَه الله.

وَقَدْ ذَمَّ الله تعالى أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ على هذه الصِّفَاتِ الثَّلَاثِ، وَقَصَّ علينا ذَلِكَ مِنْ خَبَرِهِمْ؛ لِنَعْتَبِرَ وَنَنْزَجِرَ عَنْ مِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ، فَقَالَ تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، إلى أَنْ قَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، وَالْأَمَانِي: التِّلَاوَة الْمُجَرَّدَة، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٤٩]، فَذَمَّهُمْ على نِسْبَة مَا كَتَبُوه إلى الله، وعلى اكْتِسَابِهِمْ بِذَلِكَ، فَكِلَا الْوَصْفَيْنِ ذَمِيمٌ: أَنْ يَنْسِبَ إلى الله مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِه، وَأَنْ يَأْخُذَ بِذَلِكَ عِوَضًا مِنَ الدُّنْيَا مَالًا أَوْ رِيَاسَة.

نَسْأَلُ الله تعالى أَنْ يَعْصِمَنَا مِنَ الزَّلَلِ، فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، بِمَنِّه وَكَرَمِه.

قال الشيخ:

نرى هنا أنّ السنّة محفوظة ومصانة، وأنّ الله قد يسّر لها من يميّزها ويبيّن صحيحها من سقيمها، وأنّ السنّة متى ثبتت فليس لأحد ردّها.

كذلك كتاب الله تعالى، فهو ثابت صريح الدلالة، فبعد ذلك ليس لنا أن نردّه، ولا أن نردّ السنّة اعتمادًا على العقول واعتمادًا على العقيدة الباطلة ونحوها.

وقد ذكرنا أنّ هؤلاء المبتدعة اعتمدوا عقولهم، وجعلوها هي المقياس؛ فما وافقها أثبتوه، وما خالفها نفوه، ثمّ انقسموا ثلاثة أقسام: قسم يحرّفون الكلم عن مواضعه، وقسم يفوّضون لله الآيات والكلمات ويقولون: لا نعرف معناها، وقسم يولّدون شيئًا من داخل أنفسهم، وكلامًا أو عبارات لا أصل لها، ويجعلونها معتمدًا . وكلّ الأقسام قد ذمّها الله تعالى.

فالقسم الأول: الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه، وهم الذين يؤوِّلون النّصوص، ويفسّرون عليها التفسيرات البعيدة، التي لا تمتّ إليها بصلة، وهذا مثل تحريف اليهود؛ إمّا تحريف لفظيٌّ وإمّا تحريف معنويّ؛ فالتحريف اللفظي: قولهم إنّ كلمة « استوى » بمعنى « استولى »، زادوا فيها لامًا، وقد حكى الله أنّ اليهود لمّا قيل لهم ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨]، غيّروا الكلمة، ولم يقولوا «حطّة»، وفي الحديث: «فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِنطَّةٌ»[1]، فزادوا فيها نونًا، فزيادة اليهود مثل زيادة الجهمية (لام استوى).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٢٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ، =

ولذا قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ[1]:

نُـونُ اليَهُـود وَلَامُ جَهمـيٍّ هُمَـا   فِي وَحْـيِ رَبِّ العَـرْشِ زَائِـدَتَان

وأما القسم الثاني: فهو التفويض، هناك قسم منهم يسمّون المفوّضة، إذا سمعوا النصوص قالوا: لا نعرف معناها، ولكنّ نردّ ظاهرها ولا نفسّرها، فيردّون مدلولها، ويقولون: لا نثبت لله السمع، ولا نثبت لله النزول، ولا نثبت لله الاستواء، ولا نثبت له العلوّ، ولا نثبت له القدرة، لماذا؟ لأنّ العقل ينكر ذلك، ولكن لا نفسّر قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠]، ولا نفسّر قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ولا نفسّر قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩]، ولا نفسّر قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولكن نفوّض ذلك، ونسكت عن معناه، هؤلاء يعتمدون على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، كلّما جاءت هذه الآيات التي فيها الصفات، قالوا: إذا أثبتنا السمع، فإن المخلوق يسمع، فقد شبّهنا، والله ليس كمثله شيء، وإذا أثبتنا العلم، فالإنسان يعلم، فنكون قد شبّهنا، وهكذا كل صفة يردّونها، ولكنّ الكثير منهم يثبتون التأويل، ويفوّضون. فهؤلاء هم المفوّضة النفاة، الذين جمعوا بين الأمرين؛ بين تفويض بعضها، وأنّ أحدًا لا يعرف مدلولها، ولا المراد بها!!

=

وأصله عند البخاري برقم (٤٤٧٩).

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٦).

ذكرنا أنّ القرآن الكريم عربي، وأن الآيات نزلت بلسان عربيّ فصيح، يعرفه من سمعه ومن خوطب به، وعرفنا أنّ الله تعالى لا يخاطب الأمّة بكلام أعجميّ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت:٤٤]، فالكتاب عربيّ، والعرب يفهمون معانيه، فكيف ترد فيه معانٍ لا يعرفون مدلولها، أو يصعب عليهم تفسيرها؟! لا شكّ أنّ هذا بعيد عن الصواب.

كذلك القسم الذين جعلوا عمدتهم ما أورثه لهم رؤساؤهم وعلماؤهم، نقول: لا شكّ أنّ أولئك المشايخ الذين اعتمدتموهم ليسوا بمعتزلة، ونقول: على أي شيءٍ استند مشايخكم وعلماؤكم الذين قلّدتموهم؟ اعتمدوا على أدلّة عقليّة، وجعلوا النصوص ظواهر لفظيّة، وإذا جاءتهم الآيات قالوا: آيات القرآن هذه ظواهر لفظيّة لا تفيد معنى، ولا يعتمد على ظاهرها، وإنّما هي مطلوب منّا أن نتلوها للتبرّك، وأن نقرأها للبركة، وأما أن نعتقد معناها فلا. هذا ما يقولونه في الأمور الغيبيّة، وفي الأمور الأخرويّة، ولكن في باب الأحكام يقولون: إنّها تفيد العلم، وأنّه يعمل بها.

فيقال لهم: فرّقتم بين متماثلين، تعملون بآيات الصلاة والصيام، ولا تعملون بآيات الصفات، ولا تعملون بآيات الآخرة التي أخبر الله بها؛ فقد ذكر الله تعالى الوجوه بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وأشباه ذلك، فتقبلون بعضًا وتردّون بعضًا، فقد شابهتم اليهود، الذين قال الله عنهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا

جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة:٨٥]، أنْ يخزيهم في الدنيا، وأن يفضحهم في الآخرة.

وبكلّ حال، فإن عمدة أهل السنّة والجماعة على النّصوص، ومع ذلك يقولون: إذا فكرنا فيها وجدناها موافقة للعقول، لا يمكن أن يكون هناك نصّ صحيح ثابت ومع ذلك يخالف العقل، العقل الصريح الذي سلم من الشّبهة، ولأجل ذلك جمع العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيميّة بين النصوص الصحيحة الثابتة، وبين صراحة العقل؛ فقد ألّف ابن تيميّة كتابًا في ذلك اسمه «العقل والنقل»، أو: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول». صحيح المنقول: الأحاديث الصحيحة المنقولة، وسمّي في الطبعات الأخيرة «درء تعارض العقل والنّقل» يعني: دفع التعارض بين العقل والنقل، العقل السليم والنقل للأحاديث الصحيحة الصريحة، فبيّن أن كل الأحاديث الثابتة أو الآيات الصريحة لا تخالف العقول الصحيحة. لكن أولئك الذين اعتمدوا عقولهم لا شكّ أنّهم ممّن خربت عقولهم، وخربت فطرهم، لماذا؟ لأن الانحراف والشبه والزيغ في جانب الله هو الذي سبّب لهم هذا الانحراف والبعد عن الصواب، فترى حججهم مضطربة.

قد ذكرنا أنّ نهاية ضلال المتكلّمين ونحوهم الحيرة، نقل الشارح عن بعضهم قوله:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذىً وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

ويقول إمام الحرمين الجويني: «قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام، وكل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني».

فإذا كانت هذه غايتهم، فكيف تعتمد عقولهم، وكيف يُركن إلى تلك العقول، وترد بها الآيات والأحاديث . والحمد لله الذي يسّر لهذه الأمة علماء هداة مهديين ساروا على مذهب السلف والصحابة والتابعين والقرون المفضّلة، أحيوا هذا المذهب، واستدرجوا أدلّته فأصبحوا على هذا المعتقد.

يوجد كثير من الناس لم يزالوا على معتقد الأشعريّة، وعلى معتقد المعتزلة ونحوهم، ولا يزالون يحيون تراثهم، ويحقّقون كتبهم، وينشرونها ويفتخرون بأنّهم جدّدوا تلك المذاهب، فيبقون على هذه العقيدة الزائفة مع وضوح الأدلّة في غيرها. نحن نقول لهم: أنتم أخطأتم بتحقيق كل هذه الكتب ككتب القاضي عبدالجبار المعتزلي، وكتب ابن جنّي، وكتب الزمخشري المعتزلي، وأشباههم، والذين يحقّقونها يقدّمون لها مقدّمات، يمدحونها ويثنون على أربابها، وهم يعرفون اضطرابها، ولوْ كانوا في زمن قديم لم تصل إليهم كتب أهل السنّة لكانوا

معذورين، ولكن في هذا الزمان حيث عرفت كتب أهل السنّة وانتشرت وتجدّدت مرة بعد مرّة، وأصبح الحقّ واضحًا في كتب شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله، وكتب تلميذه ابن القيّم، وأتباعهما، وكتب أئمّة الدعوة، وكتب السلف، كتب الإمام الكبير أحمد بن حنبل - رحمه الله - وتلامذته وزملائه وأهل قرنه، حتّى لو لم يكن تلامذته من الحنابلة، ولكن مؤلّفاتهم شجى في حلوق أولئك المعتزلة، كلّما طبع كتاب ساءهم ذلك، وحرصوا على أن يردّوا عليه، ولكن لا ينفعهم إنكارهم ولا ينفعهم ردّهم.

إنّ أهل السنّة والجماعة بنوا عقيدتهم على الشريعة الإسلامية التي أوقفت على كتاب الله تعالى، وعلى سنّة رسوله ﷺ، وعرفوا أنّ ما جاءت به هذه الشريعة فكلّه من الدين، وكلّه مما كلّف به المسلمون، وعرفوا أنّ الشريعة - سواء في العقائد أو في الأعمال - مبنيّة على الحكم والمصالح، فليس فيها أمر إلا وفيه مصلحة، وليس هناك شيء نهي عنه إلا وفي تركه مصلحة، فهي مؤسسة على تحصيل المصالح وتكثيرها، ونفي المفاسد وتقليلها.

وهكذا بُنيت هذه الشريعة، وهم بطريقتهم يؤمنون بالنصوص كما هي دون أن يتوقّفوا في شيء من مدلولاتها، وقد نقل عن الإمام الشافعيّ - رحمه الله - أنّه قال: «آمنتُ باللَّهِ، وبما جاءَ عَن اللَّهِ، على مُرادِ اللَّهِ، وآمنتُ برسولِ اللَّهِ، وبما جاءَ عَن رسولِ اللَّهِ، على مُرادِ رسولِ اللَّهِ»[1]. وهذا هو التقبّل للشريعة بما

---

(١) تقدم (٢/ ١٦٢).

جاءت به دون تردّد، ودون أن ينكر شيئًا منها، ودون أن يُحكّم فيه العقل، بل يقبله كما هو، وإذا لم يدركه عقله، فوّض كيفيته إلى عالمه سبحانه وتعالى .

ولا شكّ أنّ في ذلك أمور أهمّها: أمر الإيمان بالغيب؛ لأنّ الشريعة مبنيّة على الإيمان بالغيب، وهو أنّ يؤمن بالغيب وبكلّ الأمور التي لم يرها، ويعتقد صحّتها وثبوتها وبما جاء من صفاتها، ويفوّض كيفيّتها إلى خالقها، وإلى الذي أخبر بها تعالى . ولأجل ذلك يصلح أن يُقال: إنّ أهل السنّة هم الذين حقّقوا الإيمان بالغيب، وتركوا التدخّل بالعقول في الأمور الغيبيّة. ويردّ ذلك أهل البدع الذين عرضوا أمور الشريعة - لا سيّما الأمور الغيبيّة - على عقولهم، فرأوا أنّ ما أدركته عقولهم فهو المناسب والمقبول، وما أنكرته عقولهم الزائغة، فإنّه مردود، ولو اتّفق عليه الكتاب والسنّة، ولو سار عليه سلف الأمّة، فقد ردّوا النصوص وردّوا على الأئمّة، وأنكروا على السلف، وابتدعوا بدعًا، عمدتهم فيها عقولهم الزائغة، فلا التفات إلى مثل هؤلاء.

وقد ذكرنا أنّهم يتمسّكون ببعض النصوص، ويتركون بعضًا فيؤمنون بالمتشابه والمجمل، ويجعلون مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، مرجعًا لهم، ولا يعتبرون بآخر هذه الآية، فتمام الآية ردّ عليهم، فهذه بعض آية فيها ردّ على طائفتين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ردٌّ على الممثّلة والمشبّهة الذين يجعلون لله مِثْلًا، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ردٌّ على المعطّلة، الذين أنكروا صفات الله، ومنها السمع والبصر، فردَّ الله سبحانه على

الطائفتين ببعض آية، ولأجل ذلك كان هؤلاء المبتدعة يسوؤهم ما يقرؤون من النصوص في إثبات الصفات، حتّى مرّ بنا أنّ أحدهم - وهو ابن أبي دؤاد - وهو الذي تمكّن من المأمون وأضلّه، طلب منه أن يكتب على كسوة الكعبة: (ليس كمثلِهِ شيء وهو العزيز الحكيم)، أراد أن يغيّر الآية؛ لأنّ فيها إثبات السمع والبصر، وهو لا يؤمن بإثبات ذلك، مما يدلّ على أنّهم يأخذون ما يناسبهم، ويتركون ما لا يناسبهم، بل يسلّطون على ذلك أنواع التأويلات، ويظنّون أنّ العقل هو الذي عرفت به الشرائع، وأُدركت به صحة النبوّات. فإذا جاءت الشرائع والنبوّات بما يخالف ذلك العقل لن يقبل. هكذا علّلوا.

وقد ذكرنا أنّ عقولهم - التي جعلوها ميزانًا - مضطربة؛ فإنّ بعضهم ينكر صفة، ويبقى على إنكارها عشرين سنة، ثم يرجع ويقرّ بها، فيقال: هل نبت لك عقل جديد، حيث أقررت بها بعد الإنكار، وادّعيت أنّ العقل هو الميزان في الأول والآخر، وكذلك بالعكس؛ يقرّ بعضهم صفة من الصفات، ثم في النهاية ينكرها، وهو شخص واحدٌ، وكذلك التفاوف بينهم، فقد يكونان أخوين، أو تلميذين لشيخ واحد؛ أحدهما يقول: إنّ العقل يثبت الرؤية مثلًا، والآخر يقول: إنّ العقل ينكرها، وهذا يقول: إنّ العقل يثبت العلوّ، والآخر يقول: إنّ العقل ينكر العلوّ. فالعقول إذًا ليست هي الميزان للشريعة، وإنّما الميزان هو الكتاب والسنّة، وقد عرفنا أنّهم يقولون إنّ النصوص من القرآن صحيحة، ولكن ليست صريحة، بل محتملة للتأويل، ولأجل ذلك يسلّطون عليها أنواع التأويل. يحزنهم إذا رأوها مسرودة، فإذا رأوا آيات العلوّ مجموعة في موضع، وكذلك إذا رأوا آيات الاستواء

مجموعة في موضع، وكذلك إذا رأوا آيات إثبات السمع أو البصر أو الرؤية، أو نحو ذلك، يشقّ عليهم ذلك، ولكنّهم إذا فسّروا، فإنّهم يفسّرونها متفرّقة، ويتأوّلونها ويحملونها على المعاني البعيدة.

وكذلك الأحاديث؛ يقولون: الأحاديث إما صحيحة وليست صريحة، فيسلّطون عليها التأويل، أو صحيحةٌ ولكنّها لا تفيد إلا الظنّ، وهي التي يسمُّونها أخبار الآحاد، فلا يجعلونها حجّة إلا في الأعمال، أما في العقائد فلا. فينكرون بذلك شرع الله.

أما أهل السنّة، فهم يقبلونها كما هي، ويصفون الله تعالى بموجبها، ويتوقّفون عن كنه الصفة وكيفيّتها، وذلك هو العلم الذي استأثر الله تعالى بكيفيّته.

قال الشارح:

وَيُشِيرُ الشَّيْخُ ـ رحمه الله ـ بقوله: (مِنَ الشَّرْعِ وَالْبَيَانِ) إلى أَنَّ مَا صَحَّ عَنِ النبي ﷺ نَوْعَانِ: شَرْعٌ ابْتِدَائِي، وَبَيَانٌ لِمَا شَرَعَه الله في كِتَابِه الْعَزِيزِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ حَقٌّ وَاجِبُ الِاتِّبَاعِ.

وقوله: (وَأَهْلُه في أَصْلِه سَوَاءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالحَقِيقَةِ وَمُخَالَفَةِ الهَوَى، وَمُلَازِمَةِ الأولى). وفي بَعْضِ النُّسَخِ: (بِالخَشْيَةِ وَالتُّقَى)، بَدَلَ قوله: (بِالحَقِيقَةِ). ففي الْعِبَارَةِ الأولى يُشِيرُ إلى أَنَّ الْكُلَّ مُشْتَرِكُونَ في أَصْلِ التَّصْدِيقِ، وَلَكِنَّ التَّصْدِيقَ يَكُونُ بَعْضُه أَقْوَى مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ، كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرُه بِقُوَّةِ الْبَصَرِ وَضَعْفِه. وفي الْعِبَارَةِ الأخرى يُشِيرُ إلى أَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَأَمَّا التَّصْدِيقُ فَلَا تَفَاوُتَ فيه. والمعنى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ قُوَّة، والله أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قال الشيخ:

قد ذكرنا أنّ الإيمان الذي في القلب يتفاوت بقوته وبضعفه، وكذلك يتفاوت التصديق بقوة الأدلّة وكثرتها، أو بضعفها وقلّتها، وإذا تفاوت الذي في القلب تفاوتت الآثار؛ وذلك لأنّ ما في القلب يؤثّر على البدن، فإذا كان الإنسان قوي الاعتقاد، قويّ التصديق، قلبه مطمئنّ بالإيمان، مصدّق لما سمعه من الآثار، وتصديق القلب يظهر أثره فترى لسانه دائمًا يلهج بذلك الشيء الذي اعترف به وقلبه مطمئنًا بذلك، وترى بدنه مشتغلًا بذلك، وإذا كان التصديق ضعيفًا لم تر له أثرًا على اللسان، ولا على البدن إلا قليلًا، وإذا كان هناك تكذيب لشيء من

الشريعة رأيت آثار ذلك التكذيب . فالحاصل أنّ آثار التصديق القوي هي الطاعات، وآثار التكذيب هي المعاصي، وآثار التوقّف هي قلّة الأعمال، وآثار ضعف التصديق هو في النتيجة.

فنتيجة التصديق القوي كثرة الأعمال الصالحة، والاستعداد للموت، ولما بعد الموت، وكذلك الإكثار من الحسنات، وعمل المبرّات، والبعد عن السيئات، وأنواع الخطايا، وذلك كلّه أثر من آثار قوة الإيمان في القلب . ومع ذلك، فإنّ الأعمال التي على البدن هي من الإيمان كما تقدّم، ولأجل ذلك المؤمن هو الذي يصدّق ويعمل، والذي لا يصدّق ولا يعمل؛ هو كافر، والذي يصدّق ولا يعمل فهو مؤمن ضعيف الإيمان، فلا بدّ من أن يجمع الإيمان الذي في القلب بين ثباته وقوّته وبين ظهور آثاره.

قال الطحاوي:

والمُؤْمِنونَ كلُّهُم أَوْلِياءُ الرَّحْمَنِ.

قال الشارح:

قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الآية [يونس:٦٢، ٦٣]، الْوَلِي: مِنَ الْوِلَايَة بِفَتْحِ الْوَاوِ، التي هي ضِدُّ الْعَدَاوَة. وَقَدْ قَرَأَ حَمْزَة: {مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنفال:٧٢]، بِكَسْرِ الْوَاوِ، وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا[1]. فَقِيلَ: هُمَا لُغَتَانِ. وَقِيلَ: بِالْفَتْحِ النُّصْرَة، وَبِالْكَسْرِ: الْإِمَارَة. قَالَ الزَّجَّاجُ: وَجَازَ الْكَسْرُ؛ لِأَنَّ فِي تَوَلِّي بَعْضِ الْقَوْمِ بَعْضًا جِنْسًا مِنَ الصِّنَاعَة وَالْعَمَلِ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ مَكْسُورٌ، مِثْلُ: الْخِيَاطَة وَنَحْوِهَا.

فَالْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ الله، والله تعالى وَلِيُّهُمْ، قَالَ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الآية [البقرة:٢٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١]. وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، قَالَ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ الآية [التوبة:٧١]، وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) انظر: السبعة في القراءات (ص٣٠٩)، وحجة القراءات (٣١٤).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٢] إلى آخِرِ السورة، وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥، ٥٦].

فهذه النُّصُوصُ كُلُّهَا ثَبَتَ فِيهَا مُوَالَاة المُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَأَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ الله، وَأَنَّ الله وَلِيُّهُمْ وَمَوْلَاهُمْ. فالله يَتَوَلَّى عِبَادَه المُؤْمِنِينَ، فَيُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه، وَيَرْضَى عَنْهُمْ وَيَرْضَوْنَ عنه، وَمَنْ عَادَى له وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَه بِالمُحَارَبَة. وهذه الْوِلَايَة مِنْ رَحْمَتِه وَإِحْسَانِه، لَيْسَتْ كَوِلَايَة المَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ لِحَاجَتِه إليه. قَالَ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء:١١١]. فالله تعالى لَيْسَ له وَلِي مِنَ الذُّلِّ، بَلْ لله الْعِزَّة جَمِيعًا، خِلَافَ المُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَتَوَلَّاه لِذُلِّه وَحَاجَتِه إلى وَلِي يَنْصُرُه.

قال الشيخ:

يتكلّم هنا عن الولي الذي يكثر ذكره في اصطلاحات الصوفيّة وعند القبوريين؛ الذين يغلون في بعض الأشخاص ويسمّونهم أولياء، يدّعون أنّ محبّتهم تستدعي تعظيمهم، مما يصل بهم إلى إعطائهم شيئًا من حق الله تعالى.

كلمة الوليّ مشتقّة من الولاية التي هي النّصرة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، بعضهم ينصر بعضاً وبعضهم يؤيد

بعضاً، كلّ منهم وليّ للآخر. الولي: الناصر الذي ينصره ويتولاّه ويؤيّده ويقوّيه. فإذا قيل: المؤمنون أولياء الله؛ فالمعنى: أنّ الله تعالى يؤيّدهم وينصرهم ويقويهم، وهم أيضاً ينصرون الله، أي: ينصرون دين الله، ويجاهدون في سبيله، ويبلّغون شريعته، ويذبون عن الشريعة وعن الإسلام، ويردّون عنه شبهات المشبّهين، فكانوا بذلك أولياء الله تعالى، والله تعالى وليّهم.

إذًا: وليّ الله كلّ تقيّ مؤمن، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس:٦٢، ٦٣]، هذا وصفهم، فكلّ مؤمن تقيّ فهو من أولياء الله، فما بين الإنسان وبين أن يصبح وليًّا لله إلّا أن يحقّق الإيمان، ويحقّق التقوى.

أمّا الصوفيّة ونحوهم فادّعوا أنّ هناك أولياء، وأنّ هذه الولاية رتبة يرتفع بها على رتبة الأنبياء والرسل، فالأولياء أصبحوا مقرّبين عند الله، وأصبحوا يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك ما يوحيه إلى الأنبياء، ويقول قائلهم:

مَقَامُ النُّبُوَّةِ فِي بَرْزَخٍ   فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الوَلِي

فهذا غلوّ منهم؛ لأنهم جعلوا الوليّ أرفع من النبيّ أو الرّسول، ولا شكّ أنّ الولي هو الذي يتولّى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦]، فمن كان الله وليّه، ومن تولّى الله تعالى نصره الله، فهو من حزب الله، وهم الغالبون. ومن كان مؤمنًا فهو من أولياء الله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيميّة رسالة مطبوعة منتشرة اسمها: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، فرّق فيها بين من يدّعي الولاية وليس من أهلها، وبين من يكون من أولياء الشيطان، ويدّعي بأنّه من أولياء الرحمن؛ لأنّ كثيرًا من أولئك الذين يظنّ الصوفيّة بهم الولاية هم في الحقيقة شياطين أو أولياء للشياطين؛ لأنّهم يتظاهرون للعوامّ بأمورٍ الله بريء منها، فيفعلون المنكرات والفواحش، ويأكلون الحرام، ويدّعون أنّهم قد أبيح لهم ذلك، وأنّهم سقطت عنهم التكاليف، ورفعت عنهم الأوامر والنواهي، وأُبيح لهم أن يفعلوا ما يشاؤون، فلا ينكر عليهم في زعم الذين يقدّسونهم ويعظّمونهم!

يُحكى عن بعض من يدَّعي الولاية أنّهم يأتيهم الإنسان الذي أصيبت امرأته بالخبال أو الجنون، ونحو ذلك، فيتركها تبيت عند هذا الوليّ! ويقول: إنّه ولي، وإنّه ليس بمخوف عليها منه، ولكن ينقلون عن كثير من النساء أن هذا الوليّ يخلو بها، وأنّه يفعل الفاحشة معها، وهو ولي كما يقولون!! لماذا؟ لأنّهم يقولون للعوام بأنّهم قد رُفعت عنهم التكاليف، وأبيح لهم أن يفعلوا ما يريدون، لهذا لا ينكر عليهم إن زنى أحدهم، أو أخذ المال بغير حقّه، أو انتهب، أو قتل، أو ترك الصلاة، أو فعل الفواحش والمنكرات، أو ما أشبه ذلك، يدّعون أنّهم وصلوا إلى حظيرة القدس، وأنّهم وصلوا إلى الدرجة العالية، وأنّهم سقطت عنهم التكاليف والأوامر. هذه صفات الوليّ عندهم.

ذكر بعض المشايخ أنّ هذا البدوي الذي يعبدُ ويعظّم قبره في مصر، وهو من أشهر القبور، عرف عنه أنّه دخل المسجد مرّة والناس في صلاة الجمعة وبال فيه قائمًا، والناس ينظرون، ثم خرج ولم يصلِّ، فتبعوه وقالوا: هذا مسلوب، هذا قلبه عند ربّه، وبعد ذلك صار يُظهر لهم مثل هذه الأمور، فغلوا فيه، واعتقدوا فيه الشيء العظيم، الذي لو قرأ أحدنا السيرة التي كتبت عنه لرأى فضائح تحزن كلّ ذي قلب سليم[1].

وكم من أمثال هؤلاء الذين إذا وصلوا إلى هذه الرتبة، زعموا أنّهم مباح لأحدهم أن يفعل ما يشاء، حتّى ولو مشى عُريانًا، ولو سلب وقتل، ونحو ذلك.

وقد قال الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدته البائية:

كَقَوْمٍ عُرَاةٌ فِي فَلَا مِصْرَ مَا تُرَى ... عَلَى عَوْرَةٍ مِنْهُمْ هُنَاكَ ثِيَابُ
يَدُورُونَ فِيهَا كَاشِفِينَ لِعَوْرَةٍ ... تَوَاتَرَ هَذَا لَا يُقَالُ كِذَابُ

(١) قال السخاوي في الضوء اللامع (٩/ ١٥٠): «حدَّث المقريزي في عقوده عن شيخه أبي حيان، قال: ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن الباب المسير معه لزيارة أحمد البدوي بناحية طنطا، فوافيناه يوم الجمعة، وإذا هو رجل طوال عليه ثوب جوخ عال، وعمامة صوف رفيع، والناس يأتونه أفواجًا، فمنهم من يقول: يا سيدي خاطرك مع غنمي، وآخر يقول: مع بقري، وآخر: مع زرعي، إلى أن حان وقت الصلاة، فنزلنا معه إلى الجامع، وجلسنا لانتظار إقامة الجمعة، فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة، وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائمًا، وكشف عن عورته بحضرة الناس، وبال على ثيابه وحصر المسجد، واستمر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس إلى أن انقضت الصلاة ولم يصل».

يَعُدُّونَهُمْ فِي مِصْرِهِمْ فُضَلَائِهِمْ   دُعَاؤُهُمْ فِيمَا يَرَوْنَ مُجَابُ[١]

قوم يمشون عراةً في مصر، وأهل ذلك المكان يقدّسونهم، ويتمسّحون بهم ويعدّونهم من خيارهم، ويدّعون أنّ دعوتهم مجابة؛ لأنّهم قد وصلوا إلى الله، وفي زعمهم أنّهم يأخذون من اللوح المحفوظ، وليسوا بحاجة إلى أن يرجعوا إلى القرآن ولا إلى السنّة!

عجبًا لهؤلاء، كيف اعتقدوا هذه العقيدة؟ هل هناك رتبة أفضل من رتبة الرسل؟ رسل الله وأنبياؤه الذين بلّغوا شرعه، والذين أنزل عليهم الوحي هم صفوة الله تعالى من خلقه، هل سقطت عنهم التكاليف؟ نبيّنا ﷺ هو خاتم الرسل، وهو أفضل الخلق، ألم يكن يقوم الليل حتى تتورّم قدماه؟ لِمَ لَمْ تسقط عنه التكاليف كما سقطت عن هؤلاء الأولياء؟ أليس كان يتورّع حتّى عن أكل تمرة وجدها في الطريق مخافة أن تكون من الصدقة؟ لماذا هؤلاء يأكلون أموال الناس؟ بل يستحلّون دماء الناس وأموالهم بغير حق، ويزعمون أنّهم قد رُفع عنهم الحرجُ، وأبيح لهم مالم يبح لغيرهم؟ لا شكّ أن هذا من تلاعب الشيطان بهم، ثم تلاعبه بأتباعهم.

وبكل حال نقول: إنّ الولاية التي يلهج بها هؤلاء ليست خاصةً بهذا دون هذا، بل كلُّ أحد يستطيع أن يكون من أولياء الله، إن حقّق الإيمان وحقّق التقوى.

فإن قال البعض: إنّكم معشر الوهّابيين لا تعرفون للأولياء قدرًا، ولا تقيمون لهم

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (١/ ٢٢٨).

وزنًا، والأولياء عندكم لا تقدّسونهم، ولا تعرفون قدرهم؟ قيل له: ومَن هم الأولياء؟ فإن قال: قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، قلنا: اقرأ بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، ألا تكون منهم؟ ألا تحقّق التقوى بعد أن حقّقت الإيمان؟ ألا تكون وليًّا؟ ما بينك وبين أن تكون وليًّا إلّا أن تحقّق الإيمان الصحيح وتحقّق التقوى، فلماذا تحرم نفسك، وتتعلّق بهم وتقدّسهم وتقدّرهم وتعتقد فيهم، وتغلو في قبورهم، وتفعل عندها ما لا يُفعَلُ إلا في بيوت الله تعالى، وفي المساجد، وما لا يصلح إلا لله تعالى؟ ولماذا تعتقد فيهم أنّهم يعلمون الغيب، وأنّهم يطّلعون على الكون، وأنّهم يدّبرون الأمور، وأنّهم يديرون الأفلاك، وأنّهم أقطاب الأرض، وأنّهم عمادها وأسسها، وأنّ الأرض ثبتت بثباتهم، وأنّ الأرض لولاهم لماجَتْ واضطربت بأهلها، ولكنّهم ثوابتها كما يزعم أولئك المتصوّفة؟!!

فنقول: هذا من تلاعب الشيطان بهم، وإلا فإنّ ولاية الله ـ عزّ وجلّ ـ تصلح لكلّ مؤمن، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فعلى المؤمن أن يحرص على تحقيق الإيمان وتحقيق التقوى؛ ليكون من أولياء الله تعالى، وعليه أيضًا أن يتولّى الله، ويتولّى رسوله، ويتولّى إخوته المؤمنين بمعنى أن يحبّهم وينصرهم، فلذلك ذكر الله تعالى أنّ المؤمنين يتولّى بعضهم بعضًا: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ [التوبة:٧١]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال:٧٣]، عقد الله سبحانه الولاية بين المؤمنين كما عقد بين المهاجرين والأنصار، وفي الآية قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال:٧٢]؛ الذين هاجروا (المهاجرون)، والذين آووا ونصروا (الأنصار) بعضهم أولياء بعض، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾، يعني: بعضهم ينصر بعضًا ويؤيّده، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، بمعنى: أنّهم يتناصرون فيما بينهم، والجميع أولياء الله، كل من كان مؤمنًا فهو من أولياء الله، والله تعالى يتولّاه.

ثم قد يُفهم من إطلاقات الصوفيّة ونحوهم أنّ الوليّ وليّ الله، وأنّ الله تعالى بحاجة إلى هؤلاء الأولياء، وهذا اعتقاد خاطىء، فالله تعالى غنيّ عن الأولياء جميعًا، وغنيّ عن الخلق كلّهم، وليس بحاجة إلى عبادتهم، ولا إلى ولايتهم، وإنّما كان المؤمنون أولياء الله بمعنى أنّهم لّما أحبّوا الله ولّما أطاعوه وعبدوه تولّاهم الله، بمعنى: نصرهم وأيّدهم وقوّاهم، فأصبحوا هم أولياء الله، ووصف الله نفسه بأنّه وليهم، فهكذا يكون المؤمن من أولياء الله، والله تعالى وليّ الذين آمنوا.

قال الشارح:

وَالْوِلَايَة أَيْضًا نَظِيرُ الْإِيمَانِ، فَيَكُونُ مُرَادُ الشَّيْخِ: أَنَّ أَهْلَهَا فِي أَصْلِهَا سَوَاءٌ، وَتَكُونُ كَامِلَة وَنَاقِصَة، فَالْكَامِلَة تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢ -٦٤]، فَـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ مَنْصُوبٌ على أنه صِفَة ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾، أَوْ بَدَلٌ منه، أَوْ بِإِضْمَارِ (أَمْدَحُ)، أَوْ مَرْفُوعٌ بِإِضْمَارِ (هُمْ)، أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ (إِنَّ)، وَأُجِيزَ فيه الجَرُّ، بَدَلًا مِنْ ضَمِيرِ (عَلَيْهِمْ).

وعلى هذه الْوُجُوه كُلِّهَا فَالْوِلَايَة لِمَنْ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، وَهُمْ أَهْلُ الْوَعْدِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ، وهي عِبَارَة عَنْ مُوَافَقَة الْوَلِي الْحَمِيدِ فِي مَحَابِّه وَمَسَاخِطِه، لَيْسَتْ بِكَثْرَة صَوْمٍ وَلَا صلاة، وَلَا تَمَلُّقٍ وَلَا رِيَاضَة. وَقِيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالْخَبَرُ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، وَهُوَ بَعِيدٌ؛ لِقَطْعِ الْجُمْلَة عَمَّا قَبْلَهَا، وَانْتِثَارِ نَظْمِ الآية.

وَتَجْتَمِعُ فِي الْمُؤْمِنِ وِلَايَة مِنْ وَجْه، وَعَدَاوَة مِنْ وَجْه، كَمَا قَدْ يَكُونُ فيه كُفْرٌ وَإِيمَانٌ، وَشِرْكٌ وَتَوْحِيدٌ، وَتَقْوَى وَفُجُورٌ، وَنِفَاقٌ وَإِيمَانٌ. وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا الْأَصْلِ نِزَاعٌ لَفْظِي بَيْنَ أَهْلِ السنة، وَنِزَاعٌ مَعْنَوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبِدَعِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْإِيمَانِ. وَلَكِنَّ مُوَافَقَة الشَّارِعِ فِي اللَّفْظِ والمعنى أولى مِنْ مُوَافَقَتِه في المعنى وَحْدَه، قَالَ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، وَقَالَ تعالى:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، الآية. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على هذه الآية، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ على أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ. وَقَالَ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خصلة مِنْهُنَّ كَانَتْ فيه خصلة مِنَ النِّفَاقِ حتى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، وفي رِوَايَةٍ: «وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»، بَدَلَ: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ». أَخْرَجَاه في «الصَّحِيحَيْنِ»[١]. وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمَانِ تَقَدَّمَ[٢]. وقوله ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»[٣].

فَعُلِمَ أَنَّ مَنْ كَانَ معه مِنَ الْإِيمَانِ أَقَلُّ الْقَلِيلِ لَمْ يُخَلَّدْ في النَّارِ، وَإِنْ كَانَ معه كَثِيرٌ مِنَ النِّفَاقِ، فَهُوَ يُعَذَّبُ في النَّارِ على قَدْرِ مَا معه مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ.

فَالطَّاعَاتُ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَالمَعَاصِي مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ، وَإِنْ كَانَ رَأْسُ شُعَبِ الْكُفْرِ الْجُحودَ، وَرَأْسُ شُعَبِ الْإِيمَانِ التَّصْدِيقَ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ أنه قَالَ: «مَا مِنْ جَمَاعَةٍ اجْتَمَعَتْ إِلَّا وَفِيهِمْ وَلِيٌّ لله، لَا هُمْ يَدْرُونَ به، وَلَا هُوَ يَدْرِي بِنَفْسِهِ»[٤]، فَلَا أَصْلَ له، وَهُوَ كَلَامٌ بَاطِلٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤) بنحو هذا اللفظ من حديث أنس ﷺ، وأخرجه الترمذي بلفظه (٢٥٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٠): «وأما الحديث المروى (ما من جماعة يجتمعون إلّا وفيهم ولى لله)، فمن الأكاذيب، ليس في شيء من دواوين الاسلام،
=

فَإِنَّ الجَمَاعَةَ قَدْ يَكُونُونَ كُفَّارًا، وَقَدْ يَكُونُونَ فُسَّاقًا يَمُوتُونَ على الْفِسْقِ.

قال الشيخ:

يتكلّم الشارح هنا على الولاية والعداوة، وأنّها من الإيمان، وقد تقدّم أنّ أهل الإيمان يتفاوتون في إيمانهم، فكذلك الأولياء أيضًا يتفاوتون في صفة الولاية، فأولياء الله تعالى يتفاوتون في هذه الأوصاف، كما أنّ المؤمنين من عباد الله يتفاوتون في آثار الإيمان، إذا عرفنا أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنّ الحسنات والطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي والمخالفات من شعب الكفر، أي: أنّ للإيمان شعبًا، وللكفر شعبًا، وأنّ الإنسان قد يجتمع فيه خصال كثيرة من خصال الإيمان، ويفقد بعضها فيكون مؤمنًا ناقص الإيمان، وقد يكون فيه خصلة من خصال الكفر، ولا يحكم بكفره، ويكون بذلك جامعًا بين كونِه وليًّا لله من جهة، وعدوًّا له من جهة، يحبّه الله تعالى على ما فيه من الإيمان والأعمال الصالحة، ويبغضه لما فيه من المعاصي ونحوها، والحكم للصفات التي تغلب. ويكون أيضًا مثابًا ومعاقبًا.

ولأجل ذلك يدخل الله تعالى كثيرًا من العصاة النار، ثم يخرجهم من النار بعد أن يمحّصوا ويزال عنهم آثار تلك المعاصي، فأولئك محبوبون من جهة؛ لأنّهم

=

وكيف والجماعة قد يكونون كفارًا أو فساقًا يموتون على ذلك».

من المؤمنين المصدّقين الذين أتوا بالشهادتين ومبغوضون من جهة؛ لأنّهم أصرّوا على كثير من المعاصي، واقترفوا كثيرًا من الذنوب، وعملوا أنواعًا من السيّئات، فأصبحوا بذلك قد جمعوا بين اقتراف السيئات وعمل الحسنات، لكن الحكم لما هو الأصل، فلو كان الإنسان في الأصل مِمّن شهد الشهادتين، وآمن بالله عزّ وجلّ، وآمن برسله، ولكن كان إيمانه الذي في قلبه ضعيفًا لم يحمله على كلّ العبادات والإتيان بها، ولم يزجره عن كلّ المعاصي والمخالفات، فإنّه يقال: هو مؤمن، ولكن يعاقبه الله بهذه المعاصي التي اقترفها، أو يعفو الله عنها.

كذلك الكافر؛ قد يعمل حسنات، وقد يفعل قُرباتٍ، ولكن العبرة بما عليه قلبه، فإذا كان كافرًا مشركًا بالله، يعتقد أنّ لله شركاء في العبادة، ويفعل أنواعًا من العبادة لغير الله تعالى، ولكنّه مع ذلك قد يصلّي، ويتصدّق، ويقرأ القرآن، ويحبّ الخير، ويجاهد المشركين؛ ولكنّه مع ذلك يعبد غير الله، فنقول: هذا مشرك، ولا ينفعه عمله الذي عمِلَه؛ لأنّه أحبط بذلك الشرك، حبطت أعماله وحسناته وقرباته، وبطل ثوابه، فلا يستحقّ عليها شيئًا.

وبكلّ حالٍ نقول: على المؤمن أن يحرص على تكميل إيمانه، فيكون بذلك من أولياء الله عزّ وجلّ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٣]. الله تعالى جمع في وصفهم بين الإيمان والتّقى، آمنوا يعني: إيمانًا تظهر آثاره، وهي الصالحات، وتصديقًا قويًا، وتقوى يتركون بها الآثام والجرائم وأنواع المحرّمات وكبائر الإثم وصغائره، فإذا كمل الإيمان، ولو حصل منه شيء من السيئات

ونحوها، واتّقى الله ـ عزّ وجلّ ـ أصبح من أولياء الله، ثوابه الذي يحصل له ثواب عاجل.

فالثواب الذي في الدنيا هو أنّ الله تعالى يحبّ أولياءه ويتولاّهم ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]، فإذا أحبّهم الله تعالى، وفّقهم إلى الطاعات، وحماهم من المعاصي والآثام، أمّا الثواب في الآخرة، فهو الثواب الأعظم، فقد ذكر الله بعض الثواب أو نوعًا منه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، فجعلهم من أهل الأمن، والأمن: أن يكونوا آمنين في الآخرة، لا يخافون ولا يحزنون، ولأجل ذلك قال في الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]؛ فلهم الأمن، وهم على طريق سويٍّ، نعرف بذلك أنّ لله أولياء، وأنّهم ليسوا كما يزعم المتصوّفة والغلاة ونحوهم، خواصّ من النّاس يظنّون أنّهم قطعوا المسافات، وأنّهم سقطت عنهم التكاليف، بل كلّ من آمن إيمانًا صحيحًا واتّقى الله تعالى حصل على ولاية الله، وأمّا من قصّر بذلك فهو معه نوع من الولاية، ولكنّها ولاية ناقصة، فهناك ولاية كاملة وولاية ناقصة، والمسلم يحرص على أن يكون من أولياء الله، ولا يقول: أولياء الله هم فقط أهل الدرجات الرفيعة، وأهل المنازل العالية، والذين عرفوا الله المعرفة التّامة، ونحو ذلك، وكذلك الذين يسمّونهم أقطابًا وأوتادًا وعُمّارًا أو عاملين أو واصلين، أو نحو ذلك، لا يجوز أن يعتقد فيهم هذا الاعتقاد، بل كلّ من آمن بالله إيمانًا صحيحًا واتّقى الله، فهو من أولياء الله.

والأسباب التي تقوى بها هذه الأسس والأصول موجودة بحمد الله، فالإيمان بالله هو أصل هذه الأصول وهذه الأركان وأساسها، وهو مبنيّ على السمع، وهو ما بلّغته الرسل ودعت إليه، ومبنيّ على العقل، فإذا سمع العاقل تلك الأدلّة، ورأى دلالتها، أيقن بأنّها حقّ، وأنّها دالّة على قدرة قادر، وكذلك إذا فكّر فيما ترمي إليه، فإنّ تلك الأدلّة فيها الالتفات أو الاستدلال بالآثار وبالآيات وبالبراهين. ولأجل ذلك يقيم الله الحجة بهذه الأدلّة على المشركين والجاحدين ونحوهم، فيذكر لهم الآيات الكونيّة، ويتلو عليهم الآيات القرآنية، وكلّها تكون سببًا لترسيخ تلك العقيدة التي هي الإيمان بالله؛ فإنّ العاقل إذا نظر فيما بين يديه، وإذا نظر في هذه الأفلاك، وفي هذه المخلوقات العلويّة والسفليّة، علم أنّها لم تخلق عبثًا، وأنّ الذي خلقها لا يتركها هملًا، وإذا نظر في نفسه وفي حالته وفي مبدئه ومنتهاه، علم أيضًا أنّه لم يخلق عبثًا، وأنّه لا بدّ أن يؤمر وينهى، ولا بدّ أن يكون له ربّ مالك متصرّف، وأنّ الذي خلقه استعبده، فرض عليه أن يعبده وأن يحمده، وأن يذكره وأن يشكره، وأنّه لا بدّ وأن يثيبه على العبادة، ويعاقبه على المعصية.

هكذا تدلّ المؤمن العاقل فطرته على هذه الأمور فكيف وقد أرشدته الأدلّة، وقد قامت عليه البراهين، وقد أرسلت الرسل وأنزلت الكتب تبيّن للناس هذه الأشياء التي هي أساس العقيدة، فلأجل ذلك لما آمن بذلك من آمن، وعرفوها حقّ المعرفة، ورسخت في قلوبهم، وثبت الإيمان في أفئدتهم وأشربته قلوبهم ونبتت عليه لحومهم، وصار مندمجًا في دمهم ولحمهم، أصبح هذا الإيمان غذاءهم، وأصبحت العقيدة هي التي نمّتهم، فكانت النتيجة أن صبروا على

العذاب، وصبروا على الأذى، ولم يرتدّوا، ولم يرجعوا صبروا على الأذى، كما فُعل بالصحابة رضي الله عنهم، وكما فُعل بالأئمّة؛ لأنّهم ذاقوا حلاوة الإيمان، وذاقوا طعم الأعمال الصالحة، فكان ذلك سببًا في أنّهم ثبتوا غاية الثبات، ولم يتزعزعوا.

أمّا من كان إيمانه على طرف، وكانت عبادته على شفا جُرُفٍ، فإنّه إذا امتُحن بأدنى شيء ارتدّ ورجع القهقرى، ولم يثبت كما ثبت أولئك الذين ثبتت العقيدة في قلوبهم، والنّاس يتفاوتون في مثل ذلك، فنحن نحثّ كل عاقل على أن يتتبّع الأدلّة التي تثبت الإيمان في قلبه.

وقد مرّت بنا أدلّة كثيرة، إذا تعقّلها العاقل عرف دلالتها، وهي موجودة في القرآن، والقرآن من أوّله إلى آخره مشتمل على هذه الأدلّة والبراهين، لو لم يكن إلا قوله تعالى في أول أمر أمره لعباده: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]؛ ستّة براهين في هذه الآية، إذا تعقّلها وقرأ قول أهل العلم عنها عرف أنّ فيها ستّة براهين، هي حجةٌ ساطعة بوجوب عبادة الخالق بعد الإيمان به، وبعد وصفه بما هو أهله. وكذلك إذا استمرّ في قراءة كتاب الله يجد هذه الأدلّة واضحة كما في سورة النحل وسورة الزّمر وسورة الروم ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ

وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم:٢٣]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ [الروم:٢٤]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ [الروم:٤٦]، ونحو ذلك، وكلها براهين نصبها لتدلّ على عظمته، وعلى كمال قدرته.

والأدلّة على بقيّة أركان الإيمان تؤخذ أيضًا من كلام الله سبحانه وتعالى، وبها يعتقد صدق رب العالمين، وصدق قدره، فيكون من آثار حدوث هذه الأدلّة في قلبه وصدقها الأعمال الصالحة التي هي ثمرة ذلك الإيمان ونتيجته، ويكون نتيجتها بإذن الله النصر والتمكين في الأرض، كما نصر الله تعالى المؤمنين حقًا، وكما ثبّتهم على الصراط المستقيم حتّى لقوا ربّهم، ولهم منه الجزاء الأوفى إن شاء الله، ونحن نرجو أن نحشر في زمرتهم إذا اعتقدنا مثل عقيدتهم، وعملنا مثل أعمالهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَوْلِيَاءُ الله الْكَامِلُونَ فَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

والتَّقْوَى: هِيَ الْمَذْكُورَة فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وَهُمْ قِسْمَانِ: مُقْتَصِدُونَ، وَمُقَرَّبُونَ. فَالْمُقْتَصِدُونَ: الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالْفَرَائِضِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ. وَالسَّابِقُونَ: الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ. كَمَا فِي «صَحِيحِ البخاري»[1] عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَقُولُ الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عليه، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ، حتى أُحِبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَه التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَه التي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّه، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّه، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَه الْمَوْتَ وَأَكْرَه مَسَاءَتَه».

---

(١) برقم (٦٥٠٢).

وَالْوَلِي: خِلَافُ الْعَدُوِّ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَلَاءِ، وَهُوَ الدُّنُوُّ وَالتَّقَرُّبُ، فَوَلِي الله: هُوَ مَنْ وَالَى الله بِمُوَافَقَتِه مَحْبُوبَاتِه، وَالتَّقَرُّبِ إليه بِمَرْضَاتِه، وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ الله تعالى فِيهِمْ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣]. قَالَ أَبو ذَرٍّ ﷺ: لَمَّا نَزَلَتِ الآية، قَالَ النبي ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ عَمِلَ النَّاسُ بِهَذِه الآية لَكَفَتْهُمْ»[1]. فَالْمُتَّقُونَ يَجْعَلُ الله لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا ضَاقَ على النَّاسِ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَيَدْفَعُ الله عَنْهُمُ الْمَضَارَّ، وَيَجْلِبُ لَهُمُ الْمَنَافِعَ، وَيُعْطِيهِمُ الله أَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا، مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ.

قال الشيخ:

ولاية الله تعالى تحصل لأهل الإيمان: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٢ ـ ٦٤]، وعرفنا أنّ أصل الإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه، كما ورد في الحديث، والإيمان بهذه الأشياء ينبني على قوّة الأدلّة التي نصبها الله تعالى لعباده ليستدلّوا بها، فإذا آمن بها العبد إيمانًا راسخًا ثابتًا، فلا بدّ أن تحصل منه الأعمال، ولأجل

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨)، والنسائي في الكبرى (١١٥٣٩)، وابن ماجه (٤٢٢٠)، والدارمي (٢/ ٣٠٣)، وابن حبان (١٥/ ٥٣)، والحاكم (٢/ ٤٩٣) وصححه، ووافقه الذهبي. وفي سنده انقطاع بين أبي السليل وأبي ذر ﷺ.

ذلك عطف الله على الإيمان التقوى، والإيمان تحصل به الأعمالُ الصالحةُ، والتقوى يتوقّى بها العبد المحرّمات، وإذا توقّى المحرّمات وعمل الصالحات رُجي أن يكون وليًا من أولياء الله.

ذكر الله تعالى الإيمان في هذه الآيات، وذكر فيها البرّ والتقوى، وتكرّرت الآيات التي فيها ذكر خصال الإيمان كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥]، هذه ذكر فيها خصالًا من خصال الإيمان، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال: ٢ ـ ٤]، وذَكَرَ اللَّـهُ أيضًا التقوى في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، هذه هي العقيدة. ثمّ ذكر الخصال المتعددة، إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، ختم الآية بالتقوى، فجعل هؤلاء هم أهل التقوى، فمن عمل بهذه الآيات أصبح من المؤمنين، وأصبح من المتقين، فحينئذ يصبح من أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعرفنا أنّ أولياء الله ينقسمون قسمين: السابق بالخيرات والمقتصد، وذكر الله تعالى أقسام هذه الأمة الذين ورثوا الكتاب، وجعلهم ثلاثة أقسام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر:٣٢]. واختُلِف في الظالم لنفسه؛ هل هو من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة؟ ولكنّ ظاهر الآية أنّه من الذين ورثوا الكتاب، لكنّه من أهل النقص والتقصير، إيمانه ضعيف، ولأجل ذلك قصّر في الأعمال، ولأجل ذلك وصف بالظلم، ولأجل ذلك نقصت درجاته.

أمّا المقتصد فهو المتوسط، والسابقون بالخيرات: الذين يأتون بالواجبات، ويأتون بجميع المستحبّات، ويتركون المحرّمات، ويتركون جميع المكروهات، ويتخلّون عن بعض المباحات، ويقتصرون على ما هو ضروري منها في هذه الحياة. هؤلاء هم السابقون بالخيرات؛ لأنّ الأفعال في هذه الدنيا تنحصر في هذه الخمس: المحرّمات لا يكمل الإيمان إلا باجتنابها، والمكروهات: تنقّص الإيمان وتقلل أجره، والمستحبّات والواجبات كلّها من الخيرات، وكلّها من الحسنات، فهي تزيد في الأعمال الصالحة، والمباحات؛ الاستكثار منها ينقّص الحسنات فينبني على ذلك أنّه لا يكون سابقًا بالخيرات، إلا إذا ترك المحرّمات كلّها، وترك المكروهات كلّها، وفعل الواجبات كلّها وفعل المستحبّات كلّها، وترك جزءًا لا حاجة له به من المباحات.

وأما أهل الاقتصاد ـ المقتصدون ـ فهم الذين يتركون المحرّمات وبعض المكروهات، ويفعلون المباحات، ويأتون بالواجبات، ويتركون بعض المستحبّات،وهم المتوسّطون.

وأمّا الظالمون لأنفسهم؛ فهم الذين يفعلون المكروهات، ويتركون

المستحبّات، وقد يتركون بعض الواجبات، وقد يفعلون بعض المحرّمات، فلأجل ذلك وصفوا بالظلم، والكلّ منهم تحت مشيئة الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى وعدهم بالجنّة، وأخبر بدعائهم بقوله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]. هكذا ذكر عنهم أنّهم يدعون بهذا والحزن هو الخوف، وذلك في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

وعلى كل حال صفات أهل الإيمان موجودة في الآيات، والذي يحب أن يكون منهم، ويُحشر معهم، فعليه أن يطبّق هذه الآيات، ويعمل مثل أعمالهم.

قال الطحاوي:

وَأَكْرَمُهُم عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُم وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ.

قال الشارح:

أي: أَكْرَمُ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْأَطْوَعُ لله، وَالْأَتْبَعُ لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ الْأَتْقَى، وَالْأَتْقَى هُوَ الْأَكْرَمُ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وفي السُّنَنِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِي على عَجَمِي، وَلَا لِعَجَمِي على عَرَبِي، وَلَا لِأَبْيَض على أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ على أَبْيَضَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»[1].

وَبِهَذَا الدَّلِيلِ يَظْهَرُ ضَعْفُ تَنَازُعِهِمْ في مسألة الْفَقِيرِ الصَّابِرِ وَالْغَنِي الشَّاكِرِ، وَتَرْجِيحِ أَحَدِهِمَا على الْآخَرِ، وَأَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ التَّفْضِيلَ لَا يَرْجِعُ إلى ذَاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إلى الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالْحَقَائِقِ، فَالْمَسْأَلَة فَاسِدَة في نَفْسِهَا. فَإِنَّ التَّفْضِيلَ عِنْدَ الله بِالتَّقْوَى وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، لَا بِفَقْرٍ وَلَا غِنًى، وَلِهَذَا - واللَّهُ أَعْلَمُ - قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِيَّتَانِ، لَا أُبَالِي أَيَّهُمَا رَكِبْتُ»[2]. وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) من حديث أبي نضرة المنذر بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. ولم يرد في شيء من السنن، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦)، وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ١٢٣).

مِنَ الله تعالى لِعَبْدِه، كَمَا قَالَ تعـالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر:١٥] الآية، فَإِنِ اسْتَوَيا - الْفَقِيرُ الصَّابِرُ وَالْغَنِي الشَّاكِرُ - في التَّقْوَى، اسْتَوَيَا في الدَّرَجَة، وَإِنْ فَضَلَ أَحَدُهُمَا فِيهَا، فَهُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ الله، فَإِنَّ الْفَقْرَ وَالْغِنَى لَا يُوزَنَانِ، وَإِنَّمَا يُوزَنُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَحَالَ المسألة مِنْ وَجْه آخَرَ: وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا لَا بُدَّ له مِنْ صَبْرٍ وَشُكْرٍ. وَإِنَّمَا أَخَذَ النَّاسُ فَرْعًا مِنَ الصَّبْرِ، وَفَرْعًا مِنَ الشُّكْرِ، وَأَخَذُوا في التَّرْجِيحِ، فَجَرَّدُوا غَنِيًّا مُنْفِقًا مُتَصَدِّقًا بَاذِلًا مَالَه في وُجُوبِ الْقُرْبِ شَاكِرًا لله عليه، وَفَقِيرًا مُتَفَرِّغًا لِطَاعَة الله، وَلِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ، صَابِرًا على فَقْرِه. وَحِينَئِذٍ يُقَالُ: إِنَّ أَكْمَلَهُمَا أَطْوَعُهُمَا وَأَتْبَعُهُمَا، فَإِنْ تَسَاوَيَا، تَسَاوَتْ دَرَجَتُهُمَا، والله أَعْلَمُ. ولَوْ صَحَّ التَّجْرِيدُ، لَصَحَّ أَنْ يُقَالَ: أَيُّمَا أَفْضَلُ، مُعَافًى شَاكِرٌ أَوْ مَرِيضٌ صَابِرٌ، وَمُطَاعٌ شَاكِرٌ أَوْ مُهَانٌ صَابِرٌ، وآمِنٌ شَاكِرٌ أَوْ خَائِفٌ صَابِرٌ؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

قال الشيخ:

يتفاضل الناس عند الله سبحانه بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣]، لا بحسب ولا بنسب، ولا بأصل الآباء والأجداد، ولا بالرّتب، ولا بالأموال والمناصب، إنّما تفاضلهم عند الله تعالى بالأعمال الصالحة، فالله تعالى يقول في هذه الآية: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، بعدما ذكر القبائل والشعوب

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]. خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، ليعرفوا فقط أنّ فلانًا من قبيلة فلان، وهكذا، لا ليتفاخروا، وبعد أن ذكر الحكمة التي هي التعارف، ذكر أن هذا الفخر لا يجوز، وإنّما الفخر بالتقوى، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وقد وردت أدلّة كثيرة في النهي عن الافتخار بالأنساب والأسلاف، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ـ عز وجل ـ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ من تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إنما هُمْ فَحْمٌ من فَحْمِ جَهَنَّمَ، أو لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على اللَّهِ من الجِعْلَانِ التي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»[1]، فجعل الفخر بالتقوى، وجعل الإنسان إنّما يكرم ويرتفع منصبه عند الله تعالى إذا حقّق التقوى، وفي ذلك يقول بعضهم[2]:

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ العِزُّ وَالكَرَمُ ... وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تُقَيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ

الفخر إنّما هو بطاعة الله والتقرّب إليه، وتمايز الناس وتفاوتهم إنما يكون بحسب الإيمان وبحسب آثار الإيمان، فأفضلهم أكملهم إيمانًا، وأكملهم أعمالًا،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ذكر البيتين الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٩) ونسبهما بسنده إلى أبي العتاهية.

وأحسنهم أقوالًا وأفعالًا، وأبعدهم عن الآثام، وأبعدهم عن أنواع الإجرام، هذا هو أكملهم عند الله وأرقاهم منزلةً، فأما منصب وجاه ومال ومسكن ونسب، فكلّ ذلك لا يغني عن صاحبه، كما ذكر الله قول الكافر: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩]. هلك عني سلطاني، وحسبي ونسبي، وقبيلتي وأسرتي، وأنصاري وأعواني وإخواني، كلّهم تخلو عنّي.

فما على الإنسان إلا أن يحقق الإيمان ويحقق التقوى؛ ليصبح بذلك أفخر الناس وأشرفهم، فالفخر والشرف عند الله، ولا يهمه إن كان ضعيفًا مهينًا لا يؤبه له ولا ينظر إليه، يُدفع بالأبواب، ولا يُقدّم في المجالس، ولا يحترم ولا يكرّم، لا يضرّه ذلك إن كان عند الله عزيزًا وشريفًا وكريمًا.

وقد ذكر الشارح أيضًا مسألة اشتهرت في الكتب؛ وهي مسألة التفضيل بين الصابر والشاكر، والصبر يكون مع الفقر، والشكر يكون مع الغنى، وقد تكلّم فيهما العلماء، فتكلّم فيها ابن القيّم رحمه الله، وأطال في ذلك في كتابه الذي أسماه: «عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، وهو كتاب عظيم نوصي باقتنائه وقراءته، تكلّم فيه على الصبر وأنواعه، وعلى الشكر وفوائده، وأطال في ذلك، وأطال أيضًا على مسألة التفاضل بين الغني الشاكر، والفقير الصابر؛ الفقير هو الذي زويت عنه الدنيا، ولم يؤت منها إلا قوتًا قدر ما يسدّ رمقه، والغني هو الذي فتحت عليه الدنيا، وأوتي من أنواع زهرتها، فالفقير صبر واحتسب، وقنع بما آتاه ربّه. والغني شكر فأعطى حقّ هذا المال، وصرفه في وجوه البرّ، وأنفقه في الخيرات وفي

المسرّات، وأعطى المستضعفين، وصرفه على الجهاد في سبيل الله، ونفع به المحتاجين ونحوهم، فأيهم أفضل؟ ذلك الفقير الذي اقتصر على نفسه وصبر واحتسب، أو ذلك الغني الذي أنفق في وجوه الخير؟ اختلف العلماء في ذلك:

فإذا نظرنا في الأدلّة التي يستدلّ بها من حيث النقل من الآيات والأحاديث. وجدناها كلّها تفضّل الفقير، وتحثّ على التقلّل من طلب الدنيا، وتحثّ على الزهد فيها، وتضرب لها الأمثال، وقد أورد في ذلك ابن القيّم جملة كبيرة من الأمثال، مع أنّه ذكر أنه اقتصر على البعض ولم يستوفها. وإلا لو استوفاها لزادت عمّا ذكر أضعافًا كثيرة.

وأمّا الأدلّة العقليّة، فإنّها تفضّل الشاكر الذي رزقه الله مالًا، ومعلوم أنّ المال لا يحصل إلاّ بتسبّب وتعب وكدح وطلب، وأنّ هذا الطلب يحتاج إلى وقت وزمان، فلأجل ذلك الفقير متفرّغ للعبادة، منقطع لها، وأمّا الغني فلا بدّ أن يكون له أوقات يقضيها في طلب المال وفي تنميته، وفي تصريفه، وفي حساباته، ونحو ذلك، فيكون جلّ وقته، أو أكثره فيما يتعلّق بحياته الدنيا، ويكون وقته الذي يقضيه في العبادة أقلّ بأضعاف من الوقت الذي يقضيه الفقراء في العبادات ونحوها، فلأجل ذلك مال بعضهم إلى تفضيل الفقير.

وقد مرّ معنا القول الذي يختاره الشارح وهو: أفضلها أكثرهما تقوى، أكثرهما عبادة، أكثرهما أعمالًا صالحة، فإذا وفّق الله الأغنياء وأكثروا من الصالحات، وصار لا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله؛ فإنّهم يفضلون

غيرهم، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧]، فإذًا لا بدّ أن يكون لهم تجارة، ويكون لهم بيع، ويكون لهم تنمية أموال، ولكن إذا جاء وقت العبادة تخلّوا عن الدنيا وعن متاعها كلّه، وتفرّغوا للعبادة، إذا جاءت أوقات المنافسات في الخيرات سارعوا إليها.

فإذًا هؤلاء قد جمعوا بين الأمرين، جمعوا بين أنّهم كانوا أهل تقوى وأهل إيمان وأهل أعمال صالحة وخيرات كثيرة، وبين أنّ لهم أعمالًا متعدّية؛ بحيث إنّهم وصلوا الأرحام، وأنفقوا في سبيل الله، وجهّزوا الغزاة مثلًا، وأقاموا المشروعات الخيريّة، ونشروا العلم، وبنوا بيوت الله، وأقاموا الأماكن التي يُتعلَّمُ فيها ويُقرأ، فكانوا بذلك نافعين لأنفسهم ونافعين لغيرهم، فكانوا بذلك أفضل.

وممّا يدلّ على ذلك ما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة ﷺ أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العلى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فقال: «وما ذَاكَ؟»، قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ ولا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ ولا نُعْتِقُ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ بِهِ من سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ من بَعْدَكُمْ، ولا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إلا من صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُمْ؟**»، قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «**تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كل صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً**»، فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إلى رسول اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سمع إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مثله، فقال

رسول اللّـهِ ﷺ: «ذلك فَضْلُ اللَّـهِ يؤتيه من يَشَاءُ»[١]، فَغُبِطَ الأغنياء الذين ما شغلهم مالُهم عن عبادتهم، ولا عن أذكارهم، ولا عن أعمالهم الصالحة.

وبكل حال؛ فالشكر والصبر كلاهما من الأعمال القلبيّة، ترى آثارها على الأعمال البدنيّة، والأعمال الصالحة زيادة على ذلك، فالتقوى والإيمان والصلاة، وكثرة الخيرات وكثرة الحسنات ناتجة عمّا في القلب. أمّا الشكر والصبر فهما من الصفات الظاهرة التي يمكن أن يحكم بتساويهما، وذكر الشارح أيضًا أن ما يقال في الشاكر والصابر يقال في أمثالهما؛ مثل: المبتلى والمعافى، فإن الإنسان المبتلى إذا صبر واحتسب، والآخر إذا عوفي فشكر؛ فهما سواء.

وقد ذكر الله تعالى أنّه أعطى من قبلنا من الأنبياء من الدنيا، ومع ذلك لم ينقصهم ذلك من مرتبتهم عنده، كما أعطى سليمان ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٦ ـ ٣٩]. لكن رتبة نبيّنا ﷺ وصبره على ما أُوتي وتقلّله ودعاؤه بقوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»[٢]، أفضل من رتبة سليمان عليه السلام، مع أنّ سليمان ـ عليه السلام ـ كان شاكرًا لربّه، كما حكى الله عنه لـمّا أُتي بعرش بلقيس: ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة ﷺ.

عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

والإيمانُ: هُوَ الإيمانُ باللَّـهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ، وحُلْوِهِ ومُرِّهِ مِنَ اللَّهِ تَعالى.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ أَنَّ هذه الخِصَالَ هي أُصُولُ الدِّينِ، وَبِهَا أَجَابَ النبي ﷺ في حَدِيثِ جِبْرِيلَ المَشْهُورِ المُتَفَقِ على صِحَّتِه، حِينَ جَاءَ إلى النبي ﷺ على صُورَة رَجُلٍ أَعْرَابِي، وَسَأَلَه عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصلاة، وَتُؤْتِي الزَّكَاة، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إليه سَبِيلًا»، وَسَأَلَه عَنِ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بالله، وَمَلَائِكَتِه، وَكُتُبِه، وَرُسُلِه، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِه وَشَرِّه»، وَسَأَلَه عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فَقَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاه، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه فإنه يَرَاكَ»[1]. وَقَدْ ثَبَتَ كَذَلِكَ في «الصَّحِيحِ»[2] عنه ﷺ: أنه كَانَ يَقْرَأُ في رَكْعَتَي الْفَجْرِ تَارَة بِسُورَتَي الْإِخْلَاصِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]. وَتَارَة بِآيَتَي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ: التي في سورة الْبَقَرَة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، الآية [البقرة:١٣٦]، والتي في آلِ عِمْرَانَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

(٢) انظر: صحيح مسلم (٧٢٦، ٧٢٧).

﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، الآية [آل عمران: ٦٤].

وَفَسَّرَ ﷺ الْإِيمَانَ فِي حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ، الْمُتَّفَقِ على صِحَّتِهِ، حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: «آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله وَحْدَه؟ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ لَه، وَإِقَامُ الصلاة، وَإِيتَاءُ الزَّكَاة، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ»[1].

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يُرِدْ أَنَّ هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُونِ إِيمَانِ الْقَلْبِ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أنه لَا بُدَّ مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ، فَعُلِمَ أَنَّ هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ هُوَ الْإِيمَانُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ على هَذَا.

قال الشيخ:

ذكر الإمام الطحاوي ـ رحمه الله ـ خصال الإيمان أو أركان الإيمان، وقد تقدّم بعضها، وتقدّم أيضًا اختياره أنّ الأعمال ليست من مسمّى الإيمان، وأنّ الإيمان هو القول باللّسان والاعتقاد بالجنان، أو هو التصديق الجازم دون تردّد، وتقدّم أنّ القول الصحيح: كون الأعمال من مسمّى الإيمان؛ فالصلاة من الإيمان، والصدقات من الإيمان، والصوم والحجّ من الإيمان، و الجهاد ونحوه من الإيمان، وكذلك البرّ والصلة، ونحوها من خصال الإيمان، وكذلك ترك المحرّمات خوفًا من الله تعالى من الإيمان، أو من آثار الإيمان، ولكن أصول الإيمان هذه التي هي

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٣).

أركان الإيمان الستّة تُعدّ هي العقيدة والأسس والأصول، فإذا ثبتت ورسخت في العقل والقلب، فإنّ ثمرتها الأعمال الصالحة، كما ذكرنا في أوّل الكلام.

فثمرة الإيمان بالله سبحانه وتعالى في قلب العبد؛ أن يعبده وأن يخافه ويرجوه، وأن يعتمد عليه، ويقبل إليه بقلبه وقالبه، ويتوب وينيب إليه، وأن يصدّق بقدره، وأن يستعدّ للقائه. والأدلّة على الإيمان بالله تعالى سمعيّة وعقليّة، ومن حقّق الإيمان بالله تعالى واعتقد بأنّه هو الإله الحقّ وهو الرَّب، فإنّه بعد ذلك يصدّق بوجوب عبادته، ويصدّق بالإيمان بما أخبر به، ويصدّق بالبعث بعد الموت، وبالجزاء في الآخرة، ويصدّق بالرسل الذين بلّغوا رسالات ربّهم، ويصدّق بالكتب التي أنزلها الله وضمّنها شرائعه، ويصدّق بالقضاء والقدر، وأنّه من تمام قدرة الله على العباد وعلى كلّ شيء، ويصدّق بالأمور الغيبيّة التي أخبر الله تعالى بها، ولو لم يرها؛ لأنّه أخبر بها الصادق المصدوق، أخبر بها الله تعالى، وأخبرت بها رسله. ومن صدّق تصديقًا جازمًا بهذه الغيبيّات فسيعمل، وستظهر آثار هذا التصديق على جوارحه؛ على لسانه وعلى سمعه وعلى بصره، وعلى يديه وعلى رجليه، وعلى حاله ومآله، وعلى بدنه. يظهر أثر ذلك جليًا لا خفاء فيه.

النبيّ ﷺ فسّر الإيمان لجبريل ـ عليه السلام ـ بالأعمال الباطنة، والإسلام بالأعمال الظاهرة، وقد تقدّم لنا الكلام على الإسلام والإيمان والإحسان، وتبيّن أنّها مراتب، وأنّ أعلاها مرتبة الإحسان، ثم بعدها مرتبة الإيمان، ثم أوسعها مرتبة الإسلام، وتقدّم أمثلة على ذلك.

نحن نعلم أنّ كلّ من دخل الإسلام وعمل بالأعمال الظاهرة عومل معاملة

المسلمين، ولكن قد يكون إيمانه ضعيفًا لا يرتقي به إلى المرتبة الثانية، وكلّ من وصل إلى الإيمان وآمن بالأمور الغيبيّة، وعمل بموجبها، فقد يكون تصديقه متوسطًا لا يصل به إلى مرتبة الإحسان.

وقد عرفنا أنّ النبيّ ﷺ فسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة بحديث جبريل عليه السلام، وجعل الأعمال الظاهرة أيضًا هي الإيمان في حديث وفد عبد القيس، فقال لهم: «أَتَدْرُونَ ما الْإِيمَانُ بِالله وَحْدَهُ؟»، قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ»[1]، فجعل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من الإيمان، وكذلك أداء الخمس من الغنائم ألحقه بالزكاة، فجعل ذلك من الإيمان. وبوّب البخاري على هذه الخمس وجعلها من الإيمان، فيقول مثلًا: باب أداء الزكاة من الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، يعني: من الأفعال التي فعلها يكون متمّمًا للإيمان.

وقد ذكر الشارح الحديث الذي فيه شعب الإيمان: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ»[2]، فجعل هذه الشعب كلّها من خصال الإيمان، أي: من أجزائه أو من ثمراته، ولا شكّ أنّ المؤمنين يتفاوتون؛ ففي بعض

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٣٩).

الأحاديث: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[١]، فجعل حسن الخلق ـ مع أنّه جبلة وطبيعة ـ من الإيمان، ويثاب العبد عليه، وجعله سببًا لكمال الإيمان وقوّته وتمكّنه.

وبكلّ حال؛ ما على المسلم إلاَّ أن يحرص على تحقيق الإسلام والإيمان والعمل به، ثم بعد ذلك يتفقّد أعماله: هل عمل بالأعمال التي يتصف بها المسلمون والمؤمنون؟ فإذا وجد في نفسه نقصًا حرص على تتميم ذلك النقص ليحوز المرتبة العالية.

وأمّا قراءة النبيّ في سنّة الفجر، فذكر الحكمة من قراءته لسورتي الإخلاص: وذلك أنّ سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فيها توحيد الذات والصفات، وأنّ سورة الكافرون فيها توحيد العبادة، توحيد الله تعالى بأفعاله متضمّنة في سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وتوحيد الله تعالى بأفعالنا، بأن تكون أفعالنا لله وحده؛ طاعتنا وتوكّلنا وخوفنا ورجاؤنا متضمّنة في سورة الكافرون. إذًا كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين في سنّة الفجر التي يستقبل بها النهار؛ كأنّه يعاهد ربّه: إنّي في أول نهاري هذا أعبدك يا ربّ، وأخصّك بالعبادة، وأعتقد بوحدانيّتك، وأنزّهك عن صفات النقص.

وأمّا قراءته للآيتين في سورة البقرة وآل عمران فتلك الآيتان تشتملان على

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٨٤).

خصال الإيمان وخصال الإسلام. الإيمان ذكر في آية البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ فجمعت هذه الآية خصال الإيمان، يعني آمنا بالرسل، وآمنا بما أنزل إليهم، ولكنّ الإيمان يستدعي العمل، ولذلك ختمها بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾. وأمّا آية آل عمران ففي التوحيد العملي: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ فختمها بالإسلام، وأكّد فيها التوحيد، فكانّ الإنسان إذا قرأهما في أوّل النهار يعاهد ربّه على أنّه مؤمن وأنّه موحّد.

وقد تكرر معنا أنّ عقيدة المسلم تنبني على أركان الإيمان أو أصول الإيمان التي بيّنها النبيّ ﷺ في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ المشهور في قوله لمّا سئل عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بالله، وَمَلَائِكَتِه، وَكُتُبِه، وَرُسُلِه، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِه وَشَرِّه**»[1]، وما يتفرّع عن هذه الأركان الستّة هي معتقد المسلمين، اعتقادهم بالأمور كلّها التي هي الأمور الغيبيّة، ودليلهم فيها هو الرسالات التي بلّغتها إليهم رسل الله، فلمّا عرفوا صدق الرسل وعرفوا ما جاؤوا به، وصحّته، وعرفوا

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

أدلّة رسالتهم والمعجزات التي أيّدهم الله بها، آمنوا برسل الله، ولما آمنوا برسل الله أوّلهم وآخرهم آمنوا برسالاتهم التي حملوها، والتي بلّغوها إلى أممهم، وكان من جملة تلك الرسالات الإيمان بالغيب، حيث إنّ الرسل صادقون، ويلزم تصديقهم فيما بلّغوه، وكان من جملة ما بلّغوه أن أخبروا الناس بأنّهم عبيد الله، وأنّ الله هو ربّهم، وأخبروا الناس بأنّهم متعبّدون؛ يعني: مأمورون ومنهيّون، وأخبروا بأنّ الخلق مثابون أو معاقبون، وأنّ هناك دارًا أخرى غير هذه الدار، يلاقون فيها جزاء أعمالهم، يلاقون فيها الثواب أو العقاب على ما قدّموه في هذه الحياة الدنيا، صدّق المؤمنون بذلك كلّه، ولّما صدّقوا به ظهرت عليهم آثاره، فعند ذلك استعدّوا لذلك اليوم وللقاء الله عزّ وجلّ، وعملوا الأعمال الصالحة التي يعرفون أنّها سبيل النجاة في الآخرة، ويحذرون الأعمال التي توبقهم، والتي تكون سببًا في العذاب، فكان هؤلاء هم أهل العقل عن الله، فالمؤمنون هم أهل العقول، هم أهل الذكاء والفطنة، هم الذين لم تكثر أغراضهم عند الحياة الدنيا، ولا عند شهواتها وملذّاتها، ولم يقصروا أفكارهم على شهوات البطون والفروج، ولا على ما تميل إليه النفوس، بل سمت هممهم، وعلت عزائمهم، وتنافسوا في الأعمال الخيريّة، واستعدّوا للدار الآخرة، وجعلوا الدار الدنيا دار ممرّ، ليست دارَ مقرّ، وعبروها ولم يعمروها، وقدّموا عمارتهم ومنافساتهم لدارهم التي هي دار البقاء. هذا إيمانهم باليوم الآخر.

وكان من جملة ما أخبرتهم به الرسل: الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه، حلوه ومرّه كلّه من الله، وقد تكرّر معنا الإيمان بالقدر، وأنه يدخل فيه الإيمان

بعلم الله، بحيث يعتقد المسلم أنّ الله تعالى عالم بالأشياء قبل أن تقع، وعالم بما يكون في الوجود، وبما كان وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا الإيمان به دليلهم فيه: أنّ الربّ سبحانه وتعالى هو الذي يحدث ما يحدث في هذا الكون، فلا يحدثه إلا وقد علمه؛ قد علم وقته وزمانه الذي يحصل فيه، وعلم كيفيّة حصوله؛ فعلم عدد الرمل والتراب، وأبصر فلم يستر بصره حجاب، وسمع جهر القول وخفي الخطاب، وعلم ما سوف يحدث، علم أعمال الخلق وعلم عددهم، وعلم من يولد ومن لا يولد له، وعلم عمل كل مولود، وما يختم له قبل أن يولد، كل ذلك عالم به سبحانه وتعالى.

الفائدة من هذا هو اعتقادك بأنّ الله بكلّ شيء عليم، فهو يعلم السرّ والنّجوى، وما يدور في الصدور، ويعلم ما تكنّه الأنفس، ويعلم ما توسوس به الصدور، فإذا كان عالمًا بذلك فإنه يحاسب عليه إذا شاء، يقول الله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٤]، فيحمل الإنسان على أن لا يحدّث نفسه إلا بالخير، وأن لا يهمّ إلا بالطاعة، ولا يتكلّم إلاّ بما فيه مصلحة، وأن يبتعد عن العقائد الباطلة وعن الوساوس والأوهام، وعن الهمم السيّئة؛ فبذلك تكون المعرفة بعلم الله تعالى.

كذلك يذكر الإيمان بالقدر، وأنّ الله سبحانه قادر، لا يُعجزه شيء، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولا يخرج مخلوق عن قدرته، ولا يعجزه أي مخلوق، وهو يعاقب من يشاء من دون أن يردّه أحد، وينتقم ممّن يشاء من دون أن يحتجز عنه

محتجز، وينتصر ممّن عصى وينتقم منه، وهو عزيز ذو انتقام، ويُحلُّ بمن يشاء المثلات، وينزل بهم العقوبات، ويرسل عليهم النقمات إذا شاء، وذلك إذا خرجوا عن طاعته، ويوسّع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، فإذا اعتقد المسلم ذلك، اعتقد بأنّ التصرّف الكونيّ له وحده.

كذلك يؤمن بما أصابه وما وقع له، ويعلم أنّ ما وقع له لم يكن ليخطئه؛ فإذا أصابك شيء، فاعلم أنّه لا مفرّ منه ولا محيد عنه، ولا تقل: يا ليتني تقدّمت أو تأخرت حتى أسلم من هذه المصيبة، بل اعلم أنّه لا مفرّ منها، وإن كان الربّ سبحانه قد أمرك بأخذ الحذر، فإذا علمت أن القدر من قدرة الله عزّ وجل، فعليك أن تعلم بأنّ قدرة الله هي التي لا يخرج عنها شيء.

يدخل فيها الطاعات والمعاصي، فهو سبحانه الذي قدّر الطاعة وقدر المعاصي، كما يشاء، فلو شاء لهدى الناس أجمعين، ولكنّه سبحانه أمر ونهى. فالذين علم الله فيهم الخير امتثلوا ما أمرهم الله به، والذين علم فيهم السوء تركوا ما أُمِرُوا به، فهؤلاء الممتثلون لهم الثواب، وإن كان الله هو الذي وفقهم برحمته وفضله، وهؤلاء المخذولون لهم العقاب، وإن كان هو الذي خذلهم بحكمته وعدله.

كذلك ينبغي أيضًا أن نعرف أنّ الخير كلّه من الله، ولا يمكن أن ينسب إليه الشرّ بوجه من الوجوه. نقول في تلبية الحج: لبيك وسعديك، والخير كلّه بيديك، والشرّ ليس إليك، نحن عبادك وافدون إليك، راغبون فيما بين يديك.

إذًا: الشرّ ليس إلى الله. معلوم أنّ الله تعالى هو الذي قدّر الخير والشرّ، لكنّ

صدوره من الله تعالى ليس شرًا، بل هو خير محض، ولكن إنّما يكون شرًا بنسبته إلى العبد، فإذا قدّر الله على هذا الكفر، وعلى هذا القتل، وعلى هذا الزنى، وعلى هذا السُّكْر، وعلى هذا السرقة، ونحو ذلك، فهي شرّ بالنسبة إلى العبد، وخير بالنسبة إلى تقدير الله تعالى، فإنّه هو الذي قدّرها، ولكنّه قدّرها لحكمة، حتى يُعلَم بأن الله على كلّ شيء قدير، وأنّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وتفصيل هذا قد مضى.

قال الشارح:

وَالْكِتَابُ والسُّنَّة مَمْلُوءَانِ بِمَا يَدُلُّ على أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَثْبُتُ له حُكْمُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ مَعَ التَّصْدِيقِ، وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ معنى الصَّلاة وَالزَّكَاة، فَإِنَّ تِلْكَ إِنَّمَا فَسَّرَتْهَا السُّنَّة، وَالْإِيمَانُ بَيَّنَ معناه الْكِتَابُ والسُّنَّة. فَمِنَ الْكِتَابِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، الآية [الأنفال:٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾، الآية [الحجرات:١٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فنَفْي الْإِيمَانِ حتى تُوجَدَ هذه الْغَايَة: دَلَّ على أَنَّ هذه الْغَايَة فَرْضٌ على النَّاسِ، فَمَنْ تَرَكَهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ، لَمْ يَكُنْ قَدْ أَتَى بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، الذي وُعِدَ أَهْلُه بِدُخُولِ الْجَنَّة بِلَا عَذَابٍ.

وَلَا يُقَالُ إِنَّ بَيْنَ تَفْسِيرِ النبي ﷺ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ جبْرائيلَ وَتَفْسِيرِه إِيَّاه في حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُعَارَضَة؛ لأنه فَسَّرَ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ جبْرائيلَ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ المعنى أنه الْإِيمَانُ بالله وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ الْأَعْمَالِ التي ذَكَرَهَا في تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ، كَمَا أَنَّ الْإِحْسَانَ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِيمَانِ الذي قَدَّمَ تَفْسِيرَه قَبْلَ ذكره. بِخِلَافِ حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ؛ لأنه فَسَّرَه ابْتِدَاءً، لَمْ يَتَقَدَّمْ قبله تَفْسِيرُ الْإِسْلَامِ. وَلَكِنَّ هَذَا الْجَوَابَ لَا يَتَأَتَّى على مَا ذكره الشَّيْخُ - رحمه الله - مِنْ تَفْسِيرِ الْإِيمَانِ، فَحَدِيثُ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُشْكِلٌ عليه.

وَمِمَّا يُسْأَلُ عنه: أنه إِذَا كَانَ مَا أَوْجَبَه الله مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَة أَكْثَرَ مِنَ الْخِصَالِ

الخَمْسِ التي أَجَابَ بِهَا النبي ﷺ في حَدِيثِ جبْرائيلَ المَذْكُورِ، فَلِمَ قَالَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ هذه الخِصَالُ الخَمْسُ؟ وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُ النَّاسِ بِأَنَّ هذه أَظْهَرُ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَأَعْظَمُهَا، وَبِقِيَامِه بِهَا يَتِمُّ اسْتِسْلَامُه، وَتَرْكُه لَهَا يُشْعِرُ بِانْحِلَالِ قَيْدِ انْقِيَادِه.

قال الشيخ:

نعلم أنّ الإسلام فسّر بالأعمال الظاهرة والأركان الخمسة، والإيمان فسّر بالأركان الستّة التي هي العقائد. وعلى هذا فإذا اجتمع الإيمان والإسلام فسّر الإيمان بالأعمال العقديّة الغيبيّة، وفسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة التي هي أعمال بارزة وسبب التسمية أن الإسلام يستدعي الإذعان والاستسلام، فالذي يقيم الصلاة مذعن ظاهرًا، والذي يؤدي الحج مذعن ظاهرًا، والذي يزكّي ويصوم ويتشهّد مذعن مطاوع. وأما الأمور العقديّة القلبيّة فهذه خفيّة تستدعي أدلّة قويّة، ثمّ بعد ذلك ترتكز في النفس، وتكون آثارها الأعمال الصالحة.

وقد مرّ بنا أيضًا أنّ النبيّ ﷺ لـمّا جاء وفد عبد القيس قال لهم: «آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِالله وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ ما الْإِيمَانُ بِالله وَحْدَهُ؟»، قالوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا من المَغْنَمِ الخُمُسَ»[1]، فأمرهم بأركان الإسلام، وفسّر بها الإيمان؛ وذلك لأنه لم يفسّر لهم الإسلام، فجعل الإيمان هو الأعمال الظاهرة.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٤١٣).

فعلى هذا: إذا اقتصر على الإيمان، فإنه يدخل فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمع الإيمان والإسلام فسّر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالباطنة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان، وأدخل فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، فقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فجعل تحكيم الشريعة وتحكيم النبيّ ﷺ هي العلامة الواضحة للإيمان، فمن لم يُحكّم الرسول لم يسمَّ مؤمنًا عملًا بهذه الآية، فهذا دليل على أنّ الأعمال تدخل في مسمّى الإيمان، إذا اقتصر على الإيمان دخلت فيه الأعمال الظاهرة والباطنة؛ لأنّها نتيجته وثمرته، أما الإسلام فيفسَّر بالأعمال الظاهرة؛ لأنّها علاماته. ومعلوم أنّ الأعمال الظاهرة ليست هي الخمسة فقط، ولكنّ هذه الخمسة هي دعائمه وأسسه وأصوله، وإذا حافظ عليها حافظ على غيرها، ولكن هناك خصال أخرى تُعدّ مكمّلاتٍ، فإذا أتى بهذه الأركان احتاج إلى المكمّلات.

وقد ذكرنا أنّهم ضربوا مثل الإسلام بالبناء؛ لقوله ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**»[1]، فمثّله بالبناء، ومن المعلوم أنّ البناء لابدّ أن يكون له زوايا، فجعل الأركان هي هذه الزوايا التي يتكوّن منها، وهي الحيطان الأربعة المتقابلة، فهذه تعد أركانه، لا يتمّ إلا بها، بالإضافة إلى ذلك يحتاج إلى تكملة، بقية خصاله التي هي إما أفعال أو تروك، وهي من جملة المكمّلات، فكما أنّ البناء إذا قامت حيطانه

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يكون بحاجة إلى مكمّلات هي الأبواب والنوافذ والسُرج، وإلى تهوية وإلى فرش ومرافق ومتكّئات، وما أشبه ذلك، فالإسلام بحاجة إلى الجهاد، وإلى الأعمال الصالحة، وإلى ترك المنكرات كلّها من قتل وزنى وسرقة وفساد، وكذلك ترك الشرك، ويحتاج إلى بر الوالدين، وإحسان الجوار، وردّ السلام، وصلة الأرحام، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، واتّباع الجنائز، وما أشبه ذلك، ولا شكّ أنّ هذه من خصال الإيمان، فالذي يأتي بأركان الإسلام الخمسة يطلب منه تكميل ذلك بما تستدعي هذه الخمسة وغيرها، ويقال له: ائت بالبقيّة حتّى تكون بذلك قد كمّلت الإسلام.

قال الشارح:

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ النبي ﷺ ذَكَرَ الدِّينَ الذي هُوَ اسْتِسْلَامُ الْعَبْدِ لِرَبِّه مُطْلَقًا، الذي يَجِبُ لله عِبَادَة مَحْضَة على الْأَعْيَانِ، فَيَجِبُ على كُلِّ مَنْ كَانَ قَادِرًا عليه، لِيَعْبُدَ الله بِهَا مُخْلِصًا له الدِّينَ، وهذه هي الخَمْسُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِبُ بِأَسْبَابٍ وَمَصَالِحَ، فَلَا يَعُمُّ وُجُوبُهَا جَمِيعُ النَّاسِ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فَرْضًا على الْكِفَايَةِ، كَالْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ إِمَارَة، وَحُكْمٍ، وَفُتْيَا، وَإِقْرَاءٍ، وَتَحْدِيثٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَإِمَّا أَنْ يَجِبَ بِسَبَبِ حَقِّ الْآدَمِيِّينَ، فَيَخْتَصُّ به مَنْ وَجَبَ له وعليه، وَقَدْ يَسْقُطُ بِإِسْقَاطِه، مِنْ قَضَاءِ الدُّيُونِ، وَرَدِّ الْأَمَانَاتِ وَالْغُصُوبِ، وَالْإِنْصَافِ مِنَ الْمَظَالِمِ، مِنَ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ، وَحُقُوقِ الزَّوْجَة وَالْأَوْلَادِ، وَصِلَة الْأَرْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ مِنْ ذَلِكَ على زَيْدٍ غَيْرُ الْوَاجِبِ على عَمْرٍو. بِخِلَافِ صَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَالزَّكَاة، فَإِنَّ الزَّكَاة وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا مَالِيًّا فَإِنَّهَا وَاجِبَة لله، وَالْأَصْنَافُ الثَّمَانِيَة مَصَارِفُهَا، وَلِهَذَا وَجَبَتْ فِيهَا النِّيَّة، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَفْعَلَهَا الْغَيْرُ عنه بِلَا إِذْنِه، وَلَمْ تُطْلَبْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَحُقُوقُ الْعِبَادِ لَا يُشْتَرَطُ لَهَا النِّيَّة، وَلَوْ أَدَّاهَا غيره عنه بِغَيْرِ إِذْنِه بَرِئَتْ ذِمَّتُه، وَيُطَالَبُ بِهَا الْكُفَّارُ. وَمَا يَجِبُ حَقًّا لله تعالى، كَالْكَفَّارَاتِ، هُوَ بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ، وَفِيهَا معنى الْعُقُوبَة، وَلِهَذَا كَانَ التَّكْلِيفُ شَرْطًا فِي الزَّكَاة، فَلَا تَجِبُ على الصَّغِيرِ وَالْمَجْنُونِ عِنْدَ أَبِي حنيفة وَأَصْحَابِه رَحِمَهُمُ الله تعالى، لما عُرِفَ في مَوْضِعِه.

قالَ الشيخ:

لماذا اقتصر في الإسلام على الأركان الخمسة، ولم يذكر بقيّة الخصال، لم يقل الإسلام أن تجاهد في سبيل الله، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن تصل رحمك، وأن تبرّ والديك، وأن تحسن إلى جيرانك، وأن تتبّع الجنائز، ونحو ذلك.

لماذا لم يذكر هذه الخصال في الإسلام؟ ولماذا لم يذكر المتروكات؟ فلم يقل: إن من الإسلام أن تترك الزنى وأن تترك الشرك، وأن تترك السرقة، وأن تترك القتل، وأن تترك الغيبة والنميمة، وأن تترك السباب والفحشاء... وما أشبه ذلك، لم يذكر هذه الأشياء في الإسلام؟

نقول: هذه من خصال الإسلام، سواء أكانت من الأفعال أم كانت من التروك، ولكن يجاب عنها بما أجاب به الشارح، فيقال: إنّ الأركان الخمسة تستدعي غيرها. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا حافظ العبد عليها، فإنّها تحبب إليه الأعمال الخيريّة، فتراه يحبّ النفقة في سبيل الله والجهاد، ويحب الخير ويحب أهل الخير، ويتعلّم العلم ويعلمه وتراه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبرّ أبويه، ويسلّم على الناس، وتراه يصل الرحم، ويحسن الجوار، وتراه أيضًا يبتعد عن المنكرات؛ لأنّ صلاته تنهاه عن ذلك، فتراه يحفظ لسانه، ويحفظ عينيه عن النظر الحرام، ويحفظ أذنيه عن سماع الملاهي والغناء وما أشبه، ويحفظ يديه عن البطش بالآخرين، ويحفظ قدميه عن المشي بهما إلى ما حرّم الله، لماذا؟ لأنّ صلاته أمرته بالخير، وأبعدته عن الشرّ، فهذه خصلة أو سبب من الأسباب التي جعلته يحب الخير ويكثر منه.

وكذلك جواب ثانٍ: أنّ هذه الخصال قد لا تجب على كل فرد بخلاف الصلاة، فهي واجبة على كلّ فرد، والزّكاة واجبة على كلّ من عنده مال، والصوم على كلّ فرد، والحجُّ على كل قادرٍ عليه، أما الجهاد فإنّه يجب على القادر، وهو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقي، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، فمثلًا إفشاء السلام فرض كفاية؛ إذا سلّم واحد من العشرة كفى، وإن ردّ واحد من العشرة كفى، وكذلك الخصال الخيريّة لا تجب على كلّ أحد، فقد لا يجب على كلّ أحد أن يبرّ أو يصل، وليس كلّ أحد لديه أقارب يحتاج إلى صلتهم، فوجوبها إنما هو على الشخص الذي اتّصف بتلك الصفات.

وهناك جواب ثالث: مثلًا الكفّارات التي قد تصبح واجبةً، لا تجب على كلّ أحد بإيجاب الشرع، وإنّما بإيجاب نفسه؛ كالنذور التي يلزمها نفسه، هو الذي أوجبها، فإذا أوجب على نفسه أضحية، أو إذا أوجب على نفسه صدقة، فيُعدّ هذا ممّا أوجبه على نفسه، ولم يوجبه عليه الشرع، إنّما الشرع سنّ له الأضحية مثلًا، وسنّ له الصدقة، وسنّ له أنواع البرّ المتعدّية، أمّا كفارات النذور والأيمان؛ فهذه أيضًا لا تجب على كلّ فرد، بل تجب على من أوجبها على نفسه، أو أتى بالسبب الذي يوجبها، فالناذر هو الذي أوجب على نفسه كفارة إذا لم يفِ بنذره، والحالف هو الذي أوجب على نفسه كفارة عن الحلف، وهكذا كفارة القتل، وكفّارة الوطء في نهار رمضان. فالإنسان هو الذي أوجبها على نفسه.

وعلى كلّ حال، فإن الأشياء التي يكلّف بها الإنسان وتكون من الخصال

الخيريّة التي ليست واجبة، ولكنّها مشروعة، وفيها أجر؛ كالأذكار والأدعية، وقراءة القرآن والاعتكاف في المساجد، والإتيان بالنوافل قبل الصلاة وبعدها، وأنواع التطوّعات، وكذلك أنواع الصدقات الزائدة على الواجب؛ فهذه خصال خيريّة يحبّها الشرع، وإذا أحبّها العبد أكثر منها، وحبُّه لها يظهر عن كونها طاعة، فإذا علم أنّها طاعة وأنّ الله يحبّها أكثر منها.

وأما التروك والمحرمات، فإنّ الذي يتركها هو الذي يعرف عاقبتها، ويعرف الآثام التي تترتّب عليها، فإذا علم العبد أنّ الله تعالى يعاقبه على الشرك، وعلى الزنى والمخدّرات والخمر، وعلى القذف والسّباب والشتم، وعلى الغيبة والنميمة وأكل الحرام والرّبا والرشاوي، وعلى سماع الغناء واللهو وما أشبه؛ إذا عرف أنّه يعاقبه على هذه الأفعال تركها، وهذه أيضًا ليست من الضروريات، فليس كلّ واحد مضطرًا أن يتعامل بالمعاملات المحرّمة، وليس كلّ واحد محتاجًا إلى أن يغتاب، وأن يسبّ ويشتم، وليس كلّ واحد مضطرًا إلى أن يرى الحرام ويسمعه؛ فإذًا لما كان فيها مفاسد، ولم يكن فيها مصالح، كان الإسلام مشتملًا على النهي وعلى الزجر والعقوبة عليها، فإذا أسلم العبد، وعرف أنّ هذه الخصال التي هي أركان الإسلام، والسبب في أنّه مسلم، عرف أنّ الإسلام لا يجتمع هو وضدّه، وأن الإسلام ينهى عن الآثام، اجتنب الآثام كليًّا، واستكثر من الطاعات، وبذلك يتمّ إسلامه وإيمانه.

قال الطحاوي:

وَالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه، وَحُلْوِه وَمُرِّه، مِنَ الله تعالى.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ قوله ﷺ في حَدِيثِ جبْرائيلَ - عليه السلام -: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه»(١)، وَقَالَ تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١]، وَقَالَ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الآية [النساء:٧٨، ٧٩].

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ وجه الجَمْعُ بَيْنَ قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَبَيْنَ قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾؟، قِيلَ: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: الخِصْبُ وَالجَدْبُ، وَالنَّصْرُ وَالهَزِيمَة، كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ الله، وقوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾: أي: مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَة مِنَ الله فَبِذَنْبِ نَفْسِكَ عُقُوبَة لَكَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. يَدُلُّ على ذَلِكَ مَا رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أنه قَرَأَ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾: وَأَنَا

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٥٧).

كَتَبْتُهَا عَلَيْكَ[(١)].

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ هُنَا النِّعْمَةُ، وَبِالسَّيِّئَةِ الْبَلِيَّةُ، فِي أَصَحِّ الْأَقْوَالِ. وَقَدْ قِيلَ: الْحَسَنَةُ الطَّاعَةُ، وَالسَّيِّئَةُ الْمَعْصِيَةُ. وَقِيلَ: الْحَسَنَةُ مَا أَصَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالسَّيِّئَةُ مَا أَصَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ شَامِلٌ لمعنى الْقَوْلِ الثَّالِثِ. والمعنى الثاني لَيْسَ مُرَادًا دُونَ الْأَوَّلِ قَطْعًا، وَلَكِنْ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ سَيِّئَةُ الْعَمَلِ وَسَيِّئَةُ الْجَزَاءِ مِنْ نَفْسِهِ، مَعَ أَنَّ الْجَمِيعَ مُقَدَّرٌ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ الثَّانِيَةَ قَدْ تَكُونُ عُقُوبَةَ الأولى، فَتَكُونُ مِنْ سَيِّئَاتِ الْجَزَاءِ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ سَيِّئَاتِ الْعَمَلِ، وَالْحَسَنَةُ الثَّانِيَةُ قَدْ تَكُونُ مِنْ ثَوَابِ الأولى، كَمَا دَلَّ على ذَلِكَ الْكِتَابُ والسُّنَّةُ.

قال الشيخ:

الحسنات والسيّئات مقدَّرة من الله تعالى، فالله تعالى يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]، أي: الحسنة والسيئة كلّها مكتوبة ومقدّرة من الله، لو شاء الله ما حصلت هذه العقوبات ونحوها، ولا حصلت هذه الآفات وما أشبهها، فهي من الله خلقًا وتقديرًا وإرادةً وقدرًا.

المراد بالحسنة والسيئة هنا: الحسنة يدخل فيها الأعمال الصالحة، فالله هو الذي أقدرك عليها، ويدخل في الخيرات الحسيّة ما أصابك من نعمة؛ ولد أو فرح أو بشر وسرور، أو ما يسرّك ويبهجك، ما أصابك من هذا كلّه فهو من الله، وقد

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٢/ ٩٠٨)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٢٠٥).

جعل الله تعالى ذلك ثوابًا على الأعمال والحسنات التي يعملها العبد، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [النحل:٤١]، أي: لنعطيهم في الدنيا حسنة؛ وذلك لأنّهم أتوا بالأسباب، فإذا أتى العبد بالأسباب التي هي الإيمان والأعمال الصالحة؛ فإنّ الحسنة التي تصيبه إمّا أن تكون الحسنة التي هي خيرات دنيويّة أو الحسنة التي هي خيرات أخرويّة، وهي من الله، وهي أيضًا جزاء له على عمله.

فأنت أيها المؤمن التقيّ، المؤمن العامل الصالح! إذا أصلحت عملك جازاك الله بحسنة في الدنيا، وحسنة في الآخرة، ولهذا كان من دعاء النبيّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»[1]، والحسنة في الدنيا: هي الصحة والأمن والرفاهية والنصر والتمكين، والخيرات المحبوبة في النفس، والحسنة في الآخرة: هي الجنّة. ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾، الذي تفضّل بها عليك، ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، فمثلًا: ما أصابك من همّ، أو غمّ، أو جوع، أو عريّ، أو مرض، أو حزن، أو خوف، أو قلق، أو اضطراب، أو فقر، أو فاقة، أو موت، أو فراق حبيب، فاعلم أنّ ذلك عقوبة على سيئة اقترفتها، أو محنة لك واختبارًا، إذا كان في إيمانك شيء من الضعف، حتى يثبت إيمانك أو يتزعزع، فهي من نفسك، يعني: سبب هذه السيئة التي أُصبت بها صادر عن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٢)، ومسلم (٢٦٩٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

نفسك؛ ولهذا قال الله تعالى للصحابة: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٦٦]، يعني: يوم غزوة أحد. وقال: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران:١٦٥]، أي: بسبب فعلتموه سلّط الله عليكم عدوكم، فهو من عند أنفسكم، أو عملتم عملًا حصل به هذا التسليط.

نقول: الإنسان إذا ابتلي بالحسنة عليه أن يشكر، وإذا ابتلي بالسيّئة أن يصبر، فإذا أصابته النعمة، مثل الصحّة والمال والولد والأمن والرفاهيّة والخيرات التي تسرّه، فلا يعتقد أنّ ذلك لمحبته، بل يعتقد أنّ هذا ابتلاء من الله له، إمّا أنّه جزاء على أعمال عملها، وإمّا أنّه ثواب على حسنات عملها، فيكون قد عجّلت له حسناته، وهذا مخيف، فإنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون إذا وسّعت عليهم الدنيا، يقولون: نخشى أن تكون طيّباتنا عجّلت لنا، فلا يبقى لهم في الآخرة ثواب، وقد تكون هذه الحسنات والنعم جزاء على أعمالهم الصالحة، مع ادخار الأجر لهم، فالله تعالى يثيب الصالحين والمؤمنين بثواب في الدنيا وثواب في الآخرة.

كذلك يمكن أن تكون هذه الخيرات وهذه النعم التي أصابها الناس في هذه الأزمنة، وهذه السّعة والرفاهية ابتلاء من الله، فإنّ الله تعالى يبتلي بالخير كما يبتلي بالشرّ، فيبتلي بالحسنات ويبتلي بالسيئات؛ فعند الابتلاء بالحسنات هل يشكر العبد أ يكفر، كما حكى الله تعالى عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿ هَٰذَا مِن

فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠].

فإذًا نقول: هذه النعم التي فتحت علينا من فضل الله ليبتلينا أنشكر أم نكفر، فإذا عرفنا أنها من الله شكرنا، وإذا عرفنا أنّنا بحاجة إلى تقييدها استعملناها بما يحبّ الله تعالى، فبذلك تثبت وبذلك نكون من الشاكرين لها، هذا هو الابتلاء بالخيرات، وأمّا الذين انخدعوا، واعتقدوا أنّ ذلك دليل على كرامتهم؛ فإنّهم هم المحرومون، وهم الذين تعجّلوا ثواب أعمالهم في الدنيا، واعتقدوا أنّ ما فتح عليهم وما أمدّهم الله به دليل على كرامتهم، وعلى فضلهم، وعلى شرفهم، وعلى رفعة منزلتهم ونحو ذلك، وقد وقع هذا للأولين، فقد حكى الله تعالى عن قارون أنّه قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨] أي أوتيته لشرفي وعلوّ منزلتي، أو أوتيته لأنّي محبوب عند الله، ولهذا ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩]. هؤلاء هم الذين نظرتهم دنيويّة، ولم يعتبروا، وفي الحديث: «**إنَّ الله - عز وجل - يعطي الدُّنْيَا من يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يعطي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ الله الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**»[1].

فإذا عرف الإنسان أنّ هذا الابتلاء بالخيرات ليس دليلًا على الكرامة، بل إمّا أنّه لحسنات عملها، فجوزي عليها في الدنيا، ولم يبق له ثواب في الآخرة، وإمّا أنّه

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٢٤).

لأجل أن يختبر: هل يشكر أو يكفر؟ وإمّا أنه تعجيل وتوسعة عليه في الدنيا، دون أن ينقص من ثوابه في الآخرة، إذا شكر الله تعالى علم كيف يثاب بالحسنات الدنيويّة.

أما السيّئة الدنيويّة إذا أصابت الإنسان مصيبة أو بلاء أو مرض أو فقر أو موت أو حزن أو خوف أو تشريد وتفريق أو نهب وسلب، فما سبب ذلك؟

لا شكّ أنّه يدخل في هذه أسباب:

السبب الأول: إمّا أن يكون تكفيرًا للسيئات؛ فالمؤمن مبتلى، فإذا صار عنده سيئاتٌ، سلّط الله عليه المرض، وسلّط عليه الخوف، ونحو ذلك، كما في الحديث: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ**»[1]، وفي الحديث: «**أَشَدُّ الناس بَلاءً الأَنبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فَالأَمْثَلُ**»[2].

السبب الثاني: أنّ هذه المصائب وهذه الآفات التي تصيب الإنسان قد تكون تمحيصًا، وقد تكون تكفيرًا للسيئات التي اقترفها؛ وذلك لأنّه قد لا يأتي بحسنات تمحوها فيسلّط الله عليه الأمراض.

السبب الثالث: أنّه ابتلاء وامتحان؛ ليعلم الله من يصبر ومن يجزع، قال

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢)، وابن حبان (٧/ ١٦٠)، والحاكم (١/ ٤٠)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

فإذًا هذه المساوئ بسبب الإنسان؛ سيّئات اقترفوها، أو أعمال قصّروا فيها، فالسبب أصلًا منهم، والله تعالى قد يبتليهم بهذه الأشياء حتى يختبر قوّة إيمانهم وصبرهم، وحتّى يرفع درجات الصابرين، وحتّى يكفّر عنهم بعض سيّئاتهم، أو يكون الابتلاء اختبارًا ليعلم من يصبر ومن يجزع. فهذا ما ورد في معنى قوله: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩].

قال الشارح:

وَليْسَ لِلقَدَرِيَّة أَنْ يَحْتَجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ فَعَلَ العَبْدُ ـ حَسَنَة كَانَ أَوْ سَيِّئَة ـ فَهُوَ منه لا مِنَ الله! وَالقُرْآنُ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَهُمْ لا يُفَرِّقُونَ؛ ولأنه قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فَجَعَلَ الحَسَنَاتِ مِنْ عِنْدِ الله، كَمَا جَعَلَ السَّيئاتِ مِنْ عِنْدِ الله، وَهُمْ لا يَقُولُونَ بِذَلِكَ فِي الأَعْمَالِ، بَل فِي الجَزَاءِ.

وقوله بَعْدَ هَـذَا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾، و﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾، مِثْلُ قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾، و﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء:٧٨].

وَفَرَّقَ ـ سبحانه وتعالى ـ بَيْنَ الحَسَنَاتِ التي هي النِّعَمُ، وَبَيْنَ السَّيِّئَاتِ التي هي المَصَائِبُ، فَجَعَلَ هذه مِنَ الله، وهذه مِنْ نَفْسِ الإِنْسَانِ؛ لأَنَّ الحَسَنَةَ مُضَافَة إلى الله، إِذْ هُوَ أَحْسَنَ بِهَا مِنْ كُلِّ وَجْه، فَمَا مِنْ وَجْه مِنْ أَوْجُهِهَا إِلا وَهُوَ يَقْتَضِي الإِضَافَةَ إليه، وَأَمَّا السَّيِّئَة، فَهُوَ إِنَّمَا يَخْلُقُهَا لِحِكْمَة، وهي بِاعْتِبَارِ تِلكَ الحِكْمَة مِنْ إِحْسَانِه، فَإِنَّ الرَّبَّ لا يَفْعَلُ سَيِّئَة قَطُّ، بَل فِعْلُه كله حَسَنٌ وَخَيْرٌ.

قال الشيخ:

القدرية يدعون أن أفعال العباد خيرها وشرها من أنفسهم، وأن الله تعالى لا يقدر عليها؛ بل العبد هو الذي يخلق أفعاله. فاحتجوا بقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، على أنها من نفسه، وأنه هو الذي خلقها، وليس لله قدرة على أفعال العباد، وهذا لا دلالة فيه، فإن القدرية يقولون: أفعال العباد كلها

الحسنات والسيئات من العبد لا من الله، فهو الذي يخلق الحسنات، وهو الذي يخلق السيئات، والله لا يقدر على أن يهديه، ولا أن يوفقه إلى الحسنة، وليس لله قدرة عندهم على العباد، والله في القرآن فرق بين الحسنات والسيئات، وأضافهما كلتيهما إلى قدرته: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأنكر على الذين يفرقون: في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾، فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨]، أي: كلها من عند الله وبقضائه وقدره، فالحسنة من عند الله تعالى؛ لأنه هو الذي أعان العبد عليها ووفقه، وإن كانت تُنسب إليه؛ لأنه هو الذي زاولها والذي فعلها ويُثاب عليها، والسيئات من الله هو الذي قدرها، وهو الذي مكن العبد من أن يفعلها، ولكنها تُنسب إلى العبد؛ لأنه هو الذي زاولها، والذي فعلها، فجعل السيئات من الله.

وهم لا يقولون بذلك في الأعمال بل في الجزاء، فيقولون: الجزاء من الله، وأما الأعمال خيرها وشرها، حسناتها وسيئاتها فيسندونها إلى العبد، ويقولون: إن الله لا يخلق السيئات فيُعاقب عليها فإن ذلك ظلم منه، بل العبد هو الذي يخلق أفعاله، حسنها وسيئها، الله تعالى قال بعد هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨]، فالله تعالى فرَّق بين الحسنات التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب،

فتُحمل الحسنات على أنها النعم والخيرات والفتح والنصر من الله تعالى، وهي نصر من الله وتوفيق منه، فإنه ينصر عباده، وتُحمل السيئات في هذه الآيات على أنها المصائب، وما يحصل من الأعداء، وتسلطهم على المسلمين، فإنها من العبد؛ لأنه هو الذي تسبب في أعمال سيئة قدرها الله تعالى، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران:١٦٥]، أي: لما أصابتكم هذه المصيبة فهي من عند أنفسكم، بشؤم وبأعمال خالفتم فيها أوامر الله تعالى، وأوامر رسوله ﷺ، حيث إن الرماة لما خالفوا أمر النبي ﷺ حصل بذلك أن أصيبوا بهذه المصيبة، جعل الله تعالى هذه من عند الله التي هي الحسنات، وهذه من نفس الإنسان؛ لأن الحسنة مضافة إلى الله تعالى هو الذي وفَّق العبد إليها، وهو الذي أحسن بها من كل وجه، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، ويُحمد عليه؛ لأنه الذي أعان العبد عليها، ويسرها له، ووفقه لعملها.

وأما السيئات كالمصائب ونحوها، فإنما خلقها الله تعالى لحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن، وكله خير، فيُقدر على المؤمنين المصائب؛ ليعلموا أنهم قد يُبتلون، وأنهم لا ينتصرون دائمًا، وأن ما يصيبهم فبذنوب اقترفوها، وبسيئات عملوها، فليراجعوا أنفسهم ويحسنوا أعمالهم، ويصلحوا في جميع أحوالهم.

فمن اعترض على الله تعالى في تصرفه فقد أخطأ؛ لأنه ينتقد فعل الله تعالى.

قال الشارح:

وَلِهَذَا كَانَ النبي ﷺ يَقُولُ فِي الاسْتِفْتَاحِ: «وَالخَيْرُ كله بِيَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». أي: فَإِنَّكَ لا تَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا، بَل كُلُّ مَا تَخْلُقُه ففيه حِكْمَة، هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ، وَلكِنْ قَدْ يَكُونُ فيه شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ، فَهَذَا شَرٌّ جُزْئِي إِضَافِي، فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّي، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ،فَالرَّبُّ ـ سبحانه وتعالى ـ مُنَزَّه عنه، وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الذي لَيْسَ إليه.

قال الشيخ:

هذا الاستفتاح أخرجه مسلم[1]، وغيره[2] من حديث علي رضي الله عنه في الاستفتاح الطويل، وقد يُستعمل هذا أيضًا في التلبية أن الحاج يقول: لبيك اللهم لبيك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك،أي: فإنك لا تخلق الشر المحض، بل كل ما يخلقه الله تعالى من المصائب فإنه خير بالنسبة إلى الله تعالى، فكل ما تخلقه يا ربنا فإن فيه حكمة، وهو باعتبارها خير، حيث إنه دال على الخير، ودال على أن الرب ـ سبحانه وتعالى ـ يسلط هذه العقوبات حتى يعتبروا ويراجعوا أنفسهم، ويتوبوا مما فعلوه، ويعتبروا بذلك، ويعلموا أنهم محل الخطأ، ومحل السيئات، وأن الله تعالى قد يُكفر هذه السيئات بهذه المصائب،

---

(١) برقم (٧٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد (١/ ١٠٢).

ولكن قد يكون هناك شر لبعض الناس، أعني: مصائب ونكبات وعقوبات فيسمى هذا شرًّا جزئيًا إضافيًا، أي: أنه شر بالنسبة إلى الإنسان.

وبالنسبة إلى الكافر أو الفاجر أو العاصي فهو شر إذا أضيف إليه، أما أن يكون هناك شر كلي من الله تعالى، أو شر مطلق، يعني ليس بخير أبدًا، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عنه؛ لأنه لا يفعل إلا ما هو خير، ولا يقدر إلا ما هو خير، وهذا هو الشر الذي يُقال: الشر ليس إليك، فيجب أن يعتقد العباد أن المصائب التي تصيبهم أنها خير من الله تعالى، ينبههم على أعمال قد فعلوها حتى يتوبوا منها، وحتى يصلحوا أعمالهم، وحتى يبدلوا سيئاتهم حسنات، ويتوبوا إلى الله تعالى من نقص أو تقصير فيما ارتكبوا، فينسبوا ذلك إلى أنفسهم، وإذا أصاب أحدهم فإنه يقول: إذا أصبت فالإصابة من الله وبتوفيقه، وإذا أخطأت فذلك الخطأ مني ومن الشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه من هذه الأخطاء، فيضيف الخطأ إلى نفسه؛ لأنه محل الخطأ ومحل النسيان، وفي الحديث: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[1].

فيعلم أن المصائب التي تصيبه كلها عقوبات وأن فيها خير، ويعلم أن الإنسان قد يسهو ويغفل، وقد يقع منه كثيرًا بعض المعاصي، ولكنه إذا أناب إلى الله وطلب مغفرته فإنه يتوب عليه، ويطلب منه سبحانه أن يمحو عنه هذه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (٣/ ١٩٨)، والحاكم (٤/ ٢٤٤) من حديث أنس ﷺ.

الزلات وهذه الخطايا، فالرب تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويعفو عن السيئات، وهو أرحم الراحمين، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، فعليهم أن يكثروا من الاستغفار، ويكثروا من التوبة، ويخافوا من ربهم أن يعاملهم بعدله فيعاقبهم.

قال الشارح:

وَلِهَذَا لا يُضَافُ الشَّرُّ إليه مُفْرَدًا قَطُّ، بَل إِمَّا أَنْ يَدْخُل في عُمُومِ المَخْلُوقَاتِ، كَقَوْلِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦]، ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النِّسَاءِ:٧٨]، وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إلى السَّبَبِ، كَقَوْلِه: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفَلَقِ:٢]، وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُه، كَقَوْلِ الجِنِّ: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجِنِّ:١٠].

قال الشيخ:

الله تعالى لا يُضاف إليه الشر ـ لما تقدم ـ من قوله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فالشر ـ الذي هو محض ضرر ـ لا يُضاف إلى الله تعالى مفردًا، بأن يُقال: الشر إلى الله، أو هذا شر من الله أو نحو.

ثم ذكر أنه إما أن يدخل في عموم المخلوقات؛ كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، فيدخل في ذلك المصائب والعقوبات والنعم الكرامات؛ وكقوله تعالى في الحسنة والسيئة: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، يعني: الحسنة والسيئة كلها من عند الله؛ لأنه الذي قدرها.

وإما أن يُضاف إلى السبب؛ كقوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، فإنه

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ٤٤٩).

سبحانه هو الذي خلق الجميع فيدخل الشر في ذلك.

وكما ذكر الله تعالى عن مؤمني الجن حيث جاء الشر محذوفًا فاعله في قولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ، هكذا حذف الذي يُريد بالشر، (أُرِيدَ) لم يقل: أراد بهم، أو لم يقل: لا ندري أشر أراده الله، ولما جاء الخير صُرح بأنه من الله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ، وهذا يقع في القرآن كثيرًا، أن الشر لا يُضاف إلى الله إذا كان شرًا محضًا، وما ذاك إلا أنه سبحانه لا يصدر منه إلا ما هو خير، وما يحدث من الشرور ومن الأضرار فإنه لابد أن يكون فيه حكمة، ومصلحة؛ لأنه يترتب على ذلك مصالح كثيرة يكون من آثارها العبرة والموعظة والتخويف من فعل شيء من المحرمات، مخافة أن الله قد يعاقبه، كما عاقب الأمم السابقة، وكما أغرق قوم نوح لما دعا عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، وكذلك أهلك عادًا حيث أرسل عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]، وأهلك ثمود بالصيحة وغيرهم، فإن هؤلاء لما أُهلكوا كان هلاكهم شرًا لهم، ولكنه خير؛ لأن فيه عبرة وموعظة وتخويف من فعلهم.

قال الشارح ـ رحمه الله ـ:

وَلَيْسَ إِذَا خَلقَ مَا يَتَأَذَّى به بَعْضُ الحَيَوَانِ لا يَكُونُ فيه حِكْمَة، بَل لله مِنَ الرَّحْمَة وَالحِكْمَة مَا لا يُقَدِّرُ قَدْرَه إلا الله تعالى، وَلَيْسَ إِذَا وَقَعَ في المَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ شَرٌّ جُزْئِي بِالإِضَافَة يَكُونُ شَرًّا كُلِّيًّا عَامًّا، بَلِ الأُمُورُ العَامَّة الكُلِّيَّة لا تَكُونُ إلا خَيْرًا أَوْ مَصْلحَة لِلعِبَادِ، كَالمَطَرِ العَامِّ، وَكَإِرْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ. وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أنه لا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عليه بِالمُعْجِزَاتِ التي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ، فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ، يُضِلُّهُمْ، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ.

قال الشيخ:

الله تعالى قد يخلق بعض ما يتأذى به الإنسان، أو يتأذى به الحيوان فإنه خلق الأمراض التي تصيب العباد، ومع ذلك خلق لها علاجًا، وقال النبي ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَل لهُ دَوَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»[1]. فهذه الأمراض لله تعالى فيها حكم عظيمة، والعلماء يقولون: إنها تكفير للخطايا أو للسيئات، وتكفير للذنوب، ولهذا جاء في الحديث: «لا يَزَالُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حتى يَمْشِيَ على ظَهرِ الأَرْضِ لَيْسَ عليه خَطِيئَةٌ»[2]، يعني: يُكَفِّر الله عنه بذلك البلاء

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤١٣)، وأبو يعلى (٩/ ١١٣)، والطبراني في الكبير (١٠٣٣١)، والحاكم (٤/ ١٩٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد =

وذلك المرض خطاياه كلها.

وكذلك أيضًا قال ﷺ : « إنّ عِظَمُ الجَزاءِ مع عِظَمِ البَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ فَمَنْ رضي فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[1].

وقال ﷺ: «إذا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّل له العُقُوبَةَ في الدُّنْيَا، وإذا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عنه بِذَنْبِهِ حتى يُوَافِيَ بِهِ يوم القِيَامَةِ»[2].

وقال ﷺ: «أَشَدُّ الناس بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلى الرَّجُلُ عَلى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلى حَسَبِ دِينِهِ»[3]. وجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني أحبك. فقال: «إن كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْبَلاءِ تِجْفَافًا»، أي: استعد للبلاء فإنه يأتيك، «فَإِنَّ البَلاءَ أَسْرَعُ إلى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إلى مُنْتَهَاه»[4]. وقد أخبر النبي ﷺ أن هذه المصائب يُكفر الله بها الخطايا في قوله: «ما يُصِيبُ المُسْلِمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ

= (١/ ١٧٢) واللفظ له، من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٦).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٥٥٩).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ١١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه بلفظ «فأعد للفقر تجفافًا» الترمذي (٢٣٥٠)، والحاكم (٤٣٣١).

ولا حُزْنٍ ولا أَذًى ولا غَمٍّ حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ الله بها من خَطَايَاهُ»[١].

هذا فضل من الله تعالى.

فعُرف بذلك أن الله تعالى حكيم، فالحيوانات ليس لها ذنوب، فإن البهائم قد يصيبها جوع، وقد يصيبها قحط، وإن كان ذلك عقوبة لبني آدم، وليس للحيوانات ذنوب؛ ولهذا رُوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل:٦١]، أنه ينزل البلاء حتى تجف الأرض، ثم إن البهائم تلعن عصاة بني آدم وتقول: «مُنعنا القطر بذنوبهم»[٢].

فالله تعالى حكيم رحيم، له في كل شيء يحدث حكم لا يقدر قدرها إلا الله؛ لأنه حكيم في فعله، يضع الأشياء مواضعها، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة يكون شرًا كليًا فإنه قد يقع العذاب أو المرض في بعض البلاد دون بعض، فهذا شر جزئي، يعني: هذا البلاء أو هذا المرض أو كذلك هذا القحط، فلا يكون شرًا كليًا عامًا لجميع البلاد.

قوله: (**الأُمُورُ العَامَّة الكُلِّيَّة لا تَكُونُ إلا خَيْرًا أَوْ مَصْلَحَة لِلعِبَادِ**)، فالمطر العام مصلحة للعباد ولو كان فيه ضرر على بعض الناس بغرق، أو هدم، أو نحو ذلك؛ ولهذا في دعاء الاستسقاء: (اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق).

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣١٢).

(٢) أخرجه الطبري (٢/ ٥٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٩٨) من قول مجاهد رحمه الله.

قوله: (وَكَإِرْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ)، أي: وكذلك إرسال رسول عام فإنه يكون خيرًا للذين اتبعوه وأطاعوه، وقد يكون سبب عقوبة على الذين عصوه وخالفوا أمره، كما هي سنة الله تعالى فيما جاءت به الرسل.

قوله: (وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أنه لا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيِّدَ كَذَّابًا عليه بِالْمُعْجِزَاتِ التي أَيَّدَ بِهَا الصَّادِقِينَ)، ولم يقع ذلك، بل الكذاب الذي يدعي أنه نبي لا تجري على يديه المعجزات التي أكد بها الصادقين؛ كالآيات التي أيد بها موسى عليه السلام، أو أيد بها عيسى عليه السلام، أو أيد بها نبينا ﷺ، تلك المعجزات لم تحصل للمتنبئين الذين يدعون أنهم أنبياء، فإن الله تعالى فضحهم وأظهر خزيهم، وتبين للناس كذبهم.

قوله: (فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ)، أي: فتأييد الكذاب بالمعجزات شر عام للناس؛ لأنهم (يُضِلُّهُمْ فَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ)، فمن حكمة الله أنه يظهر كذب هؤلاء، ويُبين ضلالهم ويتبين بعد ذلك فشلهم، ويظهر للناس علنًا هذا، وهكذا كل دعاة يدعون إلى ضلال لابد أن يكون شرهم ظاهرًا لمن تأمله، فإن الدعاة - مثلاً - إلى البدع، يظهر لمن تأمل ضلالهم، الدعاة إلى سب الصحابة وتكفيرهم - كما تفعله الرافضة - يعلم فساد قولهم كل عاقل، وكذلك الدعاة إلى العقائد الشركية؛ كالدعاة إلى عبادة القبور، ونحوها، أو الدعاية إلى الانحلال من الدين، أو الدعاية إلى تعطيل الرب - سبحانه وتعالى - عن صفات الكمال، كل هؤلاء لابد أن الله تعالى ينشر خزيهم ويفضح كذبهم.

قال الشارح:

وَلَيْسَ هَذَا كَالمَلِكِ الظَّالِمِ وَالعَدُوِّ، فَإِنَّ المَلِكَ الظَّالِمَ لابُدَّ أَنْ يَدْفَعَ الله به مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِنْ ظُلمِه، وَقَدْ قِيل: سِتُّونَ سنة بِإِمَامٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلَة وَاحِدَة بِلا إِمَامٍ. وَإِذَا قُدِّرَ كَثْرَة ظُلمِه، فَذَاكَ خَيْرٌ فِي الدِّينِ؛ كَالمَصَائِبِ، تَكُونُ كَفَّارَة لِذُنُوبِهِمْ، وَيُثَابُونَ على الصَّبْرِ عليه، وَيَرْجِعُونَ فيه إلى الله، وَيَسْتَغْفِرُونَه وَيَتُوبُونَ إليه؛ وَكَذَلِكَ مَا يُسَلطُ عَلَيْهِمْ مِنَ العَدُو؛ وَلِهَذَا قَدْ يُمَكِّنُ الله كَثِيرًا مِنَ المُلُوكِ الظَّالِمِينَ مُدَّة، وَأَمَّا المُتَنَبِّئُونَ الكَذَّابُونَ فَلا يُطِيلُ تَمْكِينَهُمْ، بَل لابُدَّ أَنْ يُهْلِكَهُمْ؛ لأَنَّ فَسَادَهُمْ عَامٌّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَة، قَال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

قال الشيخ:

هذا يؤيد ما ذكرنا من أن الله تعالى لا يؤيد الظالمين؛ كالمتنبئين، أما إذا تولى على الأمة ملك ظالم، أو عدو ظالم، فإن ذلك فيه مصلحة؛ لأن الملوك يدفع الله بهم الشر الكثير، فالذي يدفعه كحمايته من كيد الأعداء، وتمكينهم من عبادة الله تعالى، وتمكينهم من إظهار الإسلام ونشره في بلادهم؛ وكذلك أيضًا أمن البلاد إذا كان فيها ملك، ولو كان ذلك الملك ظالمًا على الناس، يعني: قاسيًا على الناس، فيه شيء من القسوة، وفيه شيء من العسف والظلم بحبس كثير، أو بقتل، أو بعقوبات أو بتنكيل، كما فعل بعض الملوك أو الأمراء؛ كالحجاج

ابن يوسف ونحوه، فإنه وإن كان ظالمًا فقد دفع الله تعالى به شرًا كثيرًا من حيث إن الذين عصوا وتمردوا عند ذلك قتلهم، أو حاول تفريقهم والقضاء على شرهم، كلما أراد ظالم أن يخرج، فإن الله تعالى نصر به الإسلام، وكذلك أيضًا فتح الله على يديه بلادًا كثيرة؛ كالهند والسند على يدي ابن أخيه ابن القاسم، وعلى يدي قتيبة بن مسلم وغيرهما.

ولهذا يُقال: (سِتُّونَ سنة بِإِمَامٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ ليْلة وَاحِدَة بِلا إِمَامٍ)، وهذا ظاهر فإنه إذا كان ظالمًا حجز الناس بعضهم عن بعض، ولم يتجرأ أحد على أحد، وإذا لم يكن هناك إمام يمنع الظالم من ظلمه، تعدى بعضهم على بعض، كما حصل في هذه البلاد في أول القرن الرابع عشر من السلب والنهب والقتل والاعتداء، حتى إن أحد المسافرين لا يأمن على نفسه، ويأتيه قطاع طريق ويأخذون متاعه،وربما أخذوا حتى ثيابه، وتركوه عريانًا، وإذا قاوم فإنهم قد يقتلونه حتى منَّ الله تعالى على هذه المملكة بولاية الملك الراحل الذي هو عبدالعزيز رحمه الله، فبعد أن استولى على البلاد، استتب الأمن - والحمد لله - وأمن الناس في أسفارهم، وفي بيوتهم، وعلى نفوسهم، وإذا قُدر كثرة ظلم ذلك الملك فإن ذلك خير في الدين، ويكون كالمصائب التي يسلطها الله تعالى على عباده فيكون كفارة لذنوبهم، فإن العقوبات كفارة، إذا حصل بذلك عقوبة على الإنسان يتذكر أنها نزلت أو حصلت عليه بسبب ذنب، فيصبر ويحتسب ويجعل مشتكاه إلى الله؛ كما قال بعض الشعراء:

وَإِذَا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا ... صَبْرَ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَرْحَمُ

وَإِذَا شَـكَوْتَ إِلَى ابْـنِ آدَمَ إِنَّـمَا ... تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ[(١)]

فالـذين تـصيبهم تلـك المـصيبة يعلمـون أن ذلـك بـذنوب اقترفوهـا، فيصبرون ويثيبهم الله على الصبر، فيرجعون إلى الله، ويكثرون من الاستغفار والتوبة إلى الله، ويكثرون من الأعمال الصالحة حتى يرفع الله تلك المصائب: أمراض، أو عاهات، أو جدب، أو قحط، أو كذلك تسليط أعداء أو نحو ذلك، فما يسلط الله عليهم من العدو فإنه بسبب ذنوب اقترفوها، جاء في بعض الأحاديث القدسية أن الله تعالى يقول: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»[(٢)]؛ (وَلِهَذَا قَدْ يُمَكِّنُ الله كَثِيرًا مِنَ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ مُدَّة)، كما مكن للحجاج ونحوه، (وَأَمَّا الْمُتَنَبِّئُونَ الكَذَّابُونَ فَلا يُطِيلُ تَمْكِينَهُمْ)، كما حصل لمسيلمة والأسود العنسي والمختار بن أبي عبيد، فإن الله تعالى انتقم منهم وسلط عليهم، وأهلكهم؛ وذلك (لأَنَّ فَسَادَهُمْ عَامٌّ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَة)؛ فلأجل ذلك لا يمكن الله لهم، وهم يقولون عليه بغير علم؛ ولهذا قال الله تعالى في محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، أي: لو أنه كذب علينا ولو بشيء مما أُنزل عليه فزاد فيه أو نقص فيه أو غير، أو قال على الله ما لم يقل لعاقبه الله عقوبة شديدة؛ كالأخذ باليمين، وسلط عليه حتى ينقطع منه الوتين، أي: حتى يموت.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص١١١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩١) عن الفضيل بن عياض رحمه الله.

قال الشارح:

وفي قولـه: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ مِـنَ الفَوَائِـدِ: أَنَّ العَبْـدَ لا يَطْمَـئِنُّ إلى نَفْـسِهِ، وَلا يَسْكُنُ إِلَيْهَا، فَإِنَّ الشَّرَّ كَامِنٌ فِيهَا، لا يَجِيءُ إلا مِنْهَا، وَلا يَشْتَغِلُ بِمَلامِ النَّاسِ وَلا ذَمِّهِمْ إِذَا أَسَاءُوا إليه، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ التي أَصَابَتْه، وهي إِنَّما أَصَابَتْه بِذُنُوبِهِ، فَيَرْجِعُ إلى الذُّنُوبِ، وَيَسْتَعِيذُ بالله مِنْ شَرِّ نَفْسِه وَسَيِّئَاتِ عَمَلِه، وَيَسْأَلُ الله أَنْ يُعِينَه على طَاعَتِه، فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ له كُلُّ خَيْرٍ، وَيَنْدَفِعُ عنه كُلُّ شَرٍّ.

قال الشيخ:

قـول الله تعـالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فيه هذه الفوائد: أن المسلم لا يطمئن إلى نفسه بل يتهمها، فإذا أصيب بمصيبة يتهم نفسه، ويعلم أنه ما أُتي إلا بسبب ذنب اقترفه، فلا يسكن إلى نفسه، ولا يزكي نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، ولا يقول: إنني لا أستحق هذه العقوبة فكيف عاقبني فليس ذلك بغير حق!!.

يقول:(فَإِنَّ الشَّرَّ كَامِنٌ فِيهَا، لا يَجِيءُ إلا مِنْهَا)، على ما في هذه الآية: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

قال: (وَلا يَشْتَغِلُ بِمَلامِ النَّاسِ وَلا ذَمِّهِمْ إِذَا أَسَاءُوا إليه)، ولا يقول: إنهم تعدوا عليَّ، وأنهم أساؤوا إليَّ وظلموني وأنهم تسلطوا عليَّ بكذا وكذا، هذا

لاشك أنه شكاية لله تعالى؛ لأن الله هو الذي سلطهم، وما سلطهم إلا لأنه عمل ذنوبًا يمكن أن يكونوا سُلِّطوا عليه بسببها، فهذه العقوبة (**مِنَ السَّيِّئَاتِ التي أَصَابَتْه**)، يعني: إذا آذاه الناس نقول: إن هذه ما أصابتك إلا بذنوب قد اقترفتها، فارجع إلى ربك وراجع نفسك، وتفقد نفسك، وتب إلى الله من الذنوب، وقل: أعوذ بالله من شر نفسي، وسيئات عملي، كما في الحديث أنه كان يقول: «**اللَّهم فَاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لا إِلَهَ إلا أنت رَبَّ كل شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ من شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ على نَفْسِي سُوءًا أو أَجُرَّهُ إلى مُسْلِمٍ**»[1]. فيستعيذ بالله من شر نفسه ويتهمها، ويسأل الله أن يعينه على طاعته، فيقول: رب أعني على طاعتك، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فبذلك يحصل له كل خير، ويندفع عنه كل شر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) بنحوه، والترمذي (٣٥٢٩) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٧٦٤٤)، وأحمد (١/ ١٤) من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

قال الشارح:

وَلِهَذَا كَانَ أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُه وَأَحْكَمُه دُعَاءَ الفَاتِحَة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فإنه إِذَا هَدَاه هَذَا الصِّرَاطَ أَعَانَه على طَاعَتِه وَتَرْكِ مَعْصِيَتِه، فَلَمْ يُصِبْه شَرٌّ، لا في الدُّنْيَا وَلا في الآخِرَة.

قال الشيخ:

دعاء الفاتحة دعاء عام، ودعاء مفيد فهو أنفع الأدعية التي يدعو بها الإنسان وأعظمها أثرًا وأحكمها؛ ولأجل ذلك شُرعت قراءة الفاتحة في الصلاة في كل ركعة؛ لقوله ﷺ: «لا صَلاةَ لِمَنْ لم يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1]، وفي أول الفاتحة توسلات، توسل بالحمد لله تعالى الذي هو رب العالمين، ووصفه بأنه هو الرحمن الرحيم،وأنه مالك يوم الدين، والتزم بعد ذلك أن لا يعبد إلا الله، وأن لا يستعين إلا بالله، وبعد ذلك سأل فقال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، أي: دلنا وأرشدنا وثبتنا على هذا الصراط المستقيم، الذي هو طريق سوي ليس فيه اعوجاج، نسير عليه بأعمالنا لا بأقدامنا، إذا كانت عليه فإننا على هذا الصراط السوي، ووصف الله هذا الصراط بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

أي: الذين تفضل عليهم وأنعم عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩]، ثم سأل ربه أن يجنبه طريق المغضوب عليهم، وهم اليهود الذين معهم علم ولم يعملوا به، وطريق الضالين الذين يتعبدون على جهل وضلال، والله تعالى إذا هداه هذا الصراط المستقيم أعانه على جميع طاعته، وعلى ترك معصيته، فحماه أن يصيبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشارح:

لكِنَّ الذُّنُوبَ هي لوَازِمُ نَفْسِ الإِنْسَانِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى الهُدَى كُل لحْظَة، وَهُوَ إلى الهُدَى أَحْوَجُ منه إلى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، ليْسَ كَمَا يَقُولُه بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: إنَّه قَدْ هَدَاه! فَلِمَاذَا يَسْأَلُ الهُدَى؟! وَأنَّ المُرَادَ التَّثْبِيتُ، أَوْ مَزِيدُ الهِدَايَة! بَلِ العَبْدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يُعَلِّمَه الله مَا يَفْعَلُه مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِه، وإلى مَا يَتْرُكُه مِنْ تَفَاصِيلِ الأُمُورِ، فِي كُلِّ يَوْمٍ، وإلى أَنْ يُلهِمَه أَنْ يَعْمَلِ ذَلِكَ، فإنه لا يَكْفِي مُجَرَّدُ عِلمِه إنْ لمْ يَجْعَله مُرِيدًا لِلعَمَلِ بِمَا يَعْلمُه، وَإلا كَانَ العِلمُ حُجَّة عليه، وَلمْ يَكُنْ مُهْتَدِيًا، وَالعَبْدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يَجْعَله الله قَادِرًا على العَمَلِ بِتِلكَ الإِرَادَة الصَّالِحَة، فَإنَّ المَجْهُول لنَا مِنَ الحَقِّ أَضْعَافُ المَعْلُوم،وَمَا لا نُرِيدُ فِعْله تَهَاوُنًا وَكَسَلاً مِثْلُ مَا نُرِيدُه أَوْ أَكْثَرُ منه أَوْ دُونَه، وَمَا لا نَقْدِرُ عليه مِمَّا نُرِيدُه كَذَلِكَ، وَمَا نَعْرِفُ جُمْلتَه وَلا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِه فَأَمْرٌ يَفُوتُ الحَصْرَ. وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إلى الهِدَايَة التَّامَّة، فَمَنْ كَمُلتْ له هذه الأُمُورُ كَانَ سُؤَالُه سُؤَال تَثْبِيتٍ، وهي آخِرُ الرُّتَب.

قال الشيخ:

الذنوب من لوازم نفس الإنسان، ليس أحد معصومًا إلا رسل الله، ولابد أن يقع من الإنسان ذنوب وأخطاء وتقصير؛ فلذلك هو محتاج إلى الهدى في كل لحظة، وإلى التوفيق للهدى، فهو أحوج إلى الهداية منه إلى الطعام والشراب؛ وذلك لأن بها يحميه الله تعالى، وقد ذكر بعض المفسرين عن بعض الناس اعتراضهم على هذه الهداية، فيقول: كيف يسأل الهداية وهو عليها؛ لأن

الله قد هداه، فلماذا يقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾، أليس هذا من تحصيل الحاصل؟ فيقولون: إن المراد التثبيت أو مزيد هداية. وهذا خطأ بل العبد محتاج أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، ويهديه إلى ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم، فهو مضطر إلى أن الله تعالى يرشده ويعلمه ما يحتاج إليه، وما يفعله من الأحوال المفصلة؛ وذلك داخل في الهداية، وكذلك محتاج إلى ما يتركه من المحرمات والأمور التي نهى الله تعالى عنها، فهو في كل يوم محتاج إلى ذلك، فيحتاج إلى أن يسأل الله، أن يلهمه أن يقول: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي. فإذا ألهمه الله تعالى عمل بعلمه الذي علمه الله تعالى، وسلم من القول بلا عمل.

قوله: (فإنه لا يَكْفِي مُجَرَّدُ عِلمِه)، أي: كونه يعلم الحكم (إِنْ لَمْ يَجْعَله مُرِيدًا لِلعَمَلِ بِمَا يَعْلمُه)، فكونك تعلم الأشياء، وتعلم الصراط وتعلم الحق فإن ذلك لا يكفي، بل تسأل الله تعالى أن يجعلك مهتديًا، ويجعلك مريدًا للعمل بما تعلمه حتى يوفقك الله إلى ذلك، وإلا فإن العلم يكون حجة عليك؛ لأنك لم تعمل به، ولا تكون مهتديًا حينئذٍ.

قوله: (وَالعَبْدُ مُحْتَاجٌ إِلى أَنْ يَجْعَله الله قَادِرًا على العَمَلِ بِتِلكَ الإِرَادَة الصَّالِحَة)، أي: محتاج إلى أن يجعله الله تعالى عاملاً ويعينه على العمل، ويجعله مريدًا إرادة موافقة للمطلوب.

قوله: (فَإِنَّ المَجْهُول لنَا مِنَ الحَقِّ أَضْعَافُ المَعْلُومِ)، أي: الذي نجهله أكثر

من الذي نعلمه، (وَمَا لا نُرِيدُ فِعْله تَهَاوُنًا وَكَسَلاً مِثْلُ مَا نُرِيدُه أَوْ أَكْثَرُ منه أَوْ دُونَه)، أي: فكثير من الطاعات ومن القربات والعبادات قد نعجز عنها، أو نتركها تهاونًا أو كسلاً، وهي أكثر مما نفعله أو نريده أو مثلها أو قريب منها.

قوله: (وَمَا لا نَقْدِرُ عليه مِمَّا نُرِيدُه كَذَلِكَ)، أي: ما لا نقدر عليه من الشيء الذي نريده كذلك فنحتاج إلى تقوية من الله تعالى.

قوله: (وَمَا نَعْرِفُ جُمْلتَه وَلا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِه فَأَمْرٌ يَفُوتُ الحَصْرَ)، أي: وكذلك الأشياء التي نعرف جملتها ولا نهتدي إلى تفاصيلها كثيرة أمر يفوت الحصر، فنسأل الله تعالى هدايته لتفاصيل تلك الأمور، التي نعرف جملتها، ونحتاج إلى أن يعرفنا الله تعالى تفاصيلها، وأن يهدينا لذلك.

قوله: (وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إلى الهِدَايَة التَّامَّة)، أي: ونحن محتاجون إلى هداية الله التامة في كل لحظة، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا،(فَمَنْ كَمُلتْ له هذه الأُمُورُ كَانَ سُؤَالُه سُؤَال تَثْبِيتٍ، وهي آخِرُ الرُّتَبِ)، مع أن كمالها يقل إلا في أولياء الله وأصفيائه من خلقه.

قال الشارح:

وَبَعْدَ ذَلِكَ كله هِدَايَة أخرى، وهي: الهِدَايَة إلى طَرِيقِ الجَنَّة في الآخِرَة؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ مَأْمُورِينَ بِهَذَا الدُّعَاءِ في كُلِّ صلاة؛ لِفَرْطِ حَاجَتِهِمْ إليه، فَلَيْسُوا إلى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلى هَذَا الدُّعَاءِ، فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله بِفَضْلِ رَحْمَتِه جَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ المُقْتَضِيَة لِلخَيْرِ، المَانِعَة مِنَ الشَّرِّ، فَقَدْ بَيَّنَ القُرْآنُ أَنَّ السَّيِّئَاتِ مِنَ النَّفْسِ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَدَرِ الله، وَأَنَّ الحَسَنَاتِ كُلهَا مِنَ الله تعالى.

قال الشيخ:

هناك هداية أخرى بعد هداية التثبيت، بعد هداية الدلالة، هذه الهداية الأخرى وهي الهداية إلى طريق الجنة في الآخرة، فإن العبد إذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾، فكأنه يقول: صراط الدنيا الذي تثبتنا عليه ونحن عليه، وترشدنا إليه، وصراط الهداية إلى الآخرة، الذي هو الصراط الذي يسلكه الناس، ويسيرون عليه بأعمالهم كما ورد ذلك في الأحاديث، ففي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «تُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ»، قال: قلت بِأَبِي أنت وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قال: «أَلَمْ تَرَوْا إلى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ على الصِّرَاطِ يقول: رَبِّ

سَلِّمْ سَلِّمْ، حتى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حتى يَجِيءَ الرَّجُلُ فلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلا زَحْفًا ...»[1] إلى آخر الحديث، ذلك الصراط هو الطريق إلى الجنة في الآخرة؛ لهذا فالناس مأمورون بهذا الدعاء في صلاتهم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾؛ وذلك لشدة حاجتهم إليه فهم أحوج إليه.

قوله: (**فَلَيْسُوا إلى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلى هَذَا الدُّعَاءِ**)، حتى يثبتهم الله في الدنيا على صراط الحق، وحتى يهديهم الله في الآخرة إلى طريق الجنة.

قوله: (**فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله بِفَضْلِ رَحْمَتِه جَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَة لِلخَيْرِ، المَانِعَة مِنَ الشَّرِّ**)، حقيقة أن الله سبحانه جعل هذا الدعاء ـ الذي في سورة الفاتحة ـ من أعظم الأسباب التي يحصل بها العبد على الخير، ويحميه الله تعالى من الشر، فقد بين الله تعالى في القرآن في كثير من الآيات أن الشر من نفسك، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، وفي قوله ـ عز وجل ـ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران:١٦٥]، فهي بسبب ذنوب اقترفها، ولو كانت بقدر الله، أي: أنه قدرها وعلمها قبل أن توجد، ويعتقد أن الحسنات كلها من الله، يعني: النصر والتثبيت والهداية والرزق والخير والإعانة كلها من الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥).

قال الشارح:

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُشْكَرَ سبحانه، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَه العَبْدُ مِنْ ذُنُوبِه، وَأَن لا يَتَوَكَّل إلا عليه وَحْدَه، فَلا يأتي بِالحَسَنَاتِ إلا هُوَ، فَأَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْحِيدَه، وَالتَّوَكُّل عليه وَحْدَه، وَالشُّكْرَ له وَحْدَه، وَالاسْتِغْفَارَ مِنَ الذُّنُوبِ.

وهذه الأُمُورُ كَانَ النبي ﷺ يَجْمَعُهَا في الصلاة؛ كَما ثَبَتَ عنه في الصَّحِيحِ: أنه كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَه مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه»[1]، «مِلءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْل الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَال العَبْدُ، وَكُلُّنَا لكَ عَبْدٌ». فَهَذَا حَمْدٌ، وَهُوَ شُكْرٌ لله تعالى، وَبَيَانُ أَنَّ حَمْدَه أَحَقُّ مَا قاله العَبْدُ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: «لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[2].

قال الشيخ:

إذا كان الأمر كذلك وأن الإنسان بحاجة إلى سؤال الهداية من الله، وجب على العبد أن يشكر ربه سبحانه الذي أعانه ووفقه وهداه، ووجب عليه أيضًا أن يستغفر من ذنوبه، أي: أن يستغفر الله تعالى عن تقصيره، وعن خلله حتى أنه قد يستغفر من الغفلة، فقد كان النبي ﷺ يقول: «إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي وَإِنِّي

(١) سيأتي تخريجه في تعليق سماحة الشيخ حفظه الله.

(٢) سيأتي تخريجه في تعليق سماحة الشيخ حفظه الله.

لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1]. معنى ذلك أنه قد يغفل وعدَّ هذه الغفلة ذنبًا فبادر بعدها إلى الاستغفار، يجب عليه أن يتوكل على الله وحده، لا يتوكل على مخلوق، فإن الله تعالى هو الذي يأتي بالحسنات كما في بعض الأدعية: «**اللهم لا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إلا أنت، ولا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلا أنت، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِكَ**»[2]. فأنت الذي تأتي بالحسنات سواءً الحسنات الدينية وهي: الأعمال الصالحة، أو الحسنات الدنيوية وهي: ما يحصل عليه العبد من الأرباح ومن المال الحلال ونحو ذلك فإنه من الله، فيوجب ذلك على العبد توحيد الله وإخلاص الدين له، ويجب عليه أن يتوكل عليه وحده، ولا يتوكل على غيره، ويثق به، والتوكل -كما فسره بعض العلماء- هو: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيبًا ووكيلاً، ويجب عليه أن يشكر الله تعالى وحده، فيكون الشكر له وحده، والتوكل عليه وحده، فيجب على العبد أن يكثر من الاستغفار من الذنوب، ويتهم نفسه بأنه كثير الذنوب.

قوله: (**وهذه الأُمُورُ**)، وهي: الاستغفار والشكر والتوكل والتوبة ونحوها.

قوله: (**كَانَ النبي ﷺ يَجْمَعُهَا فِي الصلاة**)، يعني: في أدعية الصلاة، أو في الثناء على الله، (**كَمَا ثَبَتَ عنه فِي الصَّحِيحِ،أنه كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ: رَبَّنَا ولكَ الحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه**)، وهذه جملة ليست في

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٣٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٠) من حديث عروة بن عامر ﷺ.

حديث أبي سعيد الذي بعده، وإنما هي عند البخاري[1] وغيره[2]، من حديث رفاعة بن رافع الزرقي ﷺ أنه قال: «**كنا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ رسول الله ﷺ، فلما رَفَعَ رَأْسَهُ من الرَّكْعَةِ، قال: سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ قال رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فيه. فلما انْصَرَفَ رسول الله ﷺ قال: من الْمُتَكَلِّمُ آنِفًا؟ فقال الرَّجُلُ: أنا يا رَسُولَ الله. قال رسول الله ﷺ لقد رأيت بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ**». فنُسبت إلى النبي ﷺ؛ لأنه أقرها، ولم يُحفظ أنه قالها، ولعله كان يقولها بعد ذلك سرًا، فإنه إذا أقر دعاءً يحتاج إلى أن يقول به، كما في حديث ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَرَأَيْتُ كَأَنِّي قَرَأْتُ سَجْدَةً، فَرَأَيْتُ الشَّجَرَةَ كَأَنَّهَا تَسْجُدُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ سَاجِدَةٌ وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي عِنْدَكَ بِهَا أَجْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاقْبَلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما -: فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ السَّجْدَةَ، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَ الرَّجُلُ عَنْ كَلامِ الشَّجَرَةِ»[3].

وفي حديث رفاعة ﷺ: لَـمَّا سمعها الرسول ﷺ من ذلك الرجل أقرها بقوله:

---

(١) برقم (٧٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٧٠)، والترمذي (٤٠٤)، والنسائي (١٠٦٣)، وأحمد (٤/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي(٥٧٩)، وابن ماجه(١٠٥٣)، وابن حبان(٢٧٦٨)، والحاكم(١/ ٢١٩).

«لقد رأيت بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا»، عُلم أنه أقرها.

وأما قوله: «مِلءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ، وَكُلُّنَا لكَ عَبْدٌ». فإن هذا كله حمد لله تعالى، أي: حمدًا لو كان أجسامًا لملأ السموات والأرض، وملأ ما بينهما، وملأ كل ما شاءه الله، فأنت يا رب أهل الثناء وأهل المجد، فنحمدك بأحق ما قاله العباد، ونعترف لك بأننا كلنا عبيد لك. ففي هذا أنه حمد الله وأنه شكر الله تعالى، وفيه بيان أن حمده سبحانه هو أحق ما يقوله العباد، وأفضل ما يتقربون به حتى يكتب الله تعالى لهم بذلك أجرًا.

ثم يقول بعد ذلك: «لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ». اعتراف بأن الله تعالى هو الذي يعطي، وإذا أعطى فلو حاول الناس أن يمنعوا عطاءه لم يقدروا، ولا معطي لما منعه، فمن منعه الله لم يقدر أحد على أن يعطيه.

قوله: «وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، أي: صاحب الحظ لا ينفعه حظه، وهذا الحديث أخرجه بهذا اللفظ مسلم[1] وغيره[2]، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللهم رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ مِلءَ السَّمَوَاتِ، وَمِلءَ الأَرْضِ، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ...» إلى آخره.

---

(١) برقم (٤٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٤٧)، والنسائي (١٠٦٨)، وأحمد (٣/ ٨٧)، وابن حبان (٥/ ٢٣١).

قال الشارح:

وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِوَحْدَانِيَّتِه: لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة، خَلقًا وَقَدَرًا، وَبِدَايَة وَهِدَايَة، هُوَ المُعْطِي المَانِعُ، لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وَلِتَوْحِيدِ الإِلهِيَّة، شَرْعًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا، وَهو أَنَّ العِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ جَدًّا: مُلكًا وَعَظَمَة وَبَخْتًا وَرِيَاسَة، فِي الظَّاهِرِ، أَوْ فِي البَاطِنِ؛ كَأَصْحَابِ المُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الخَارِقَة، فَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ، أي: لا يُنْجِيه وَلا يُخَلِّصُه، وَلِهَذَا قَالَ: «لا يَنْفَعُه مِنْكَ»، وَلَمْ يَقُل: «وَلا يَنْفَعُه عِنْدَكَ»؛ لأنه لَوْ قِيلَ ذَلِكَ أَوْهَمَ أنه لا يَتَقَرَّبُ به إِلَيْكَ، لكِنْ قَدْ لا يَضُرُّه.

قال الشيخ:

قوله: «لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ...» إلى آخره، تحقيق لتوحيد الله تعالى بنوعي التوحيد: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، فإنه يعترف بتوحيد الربوبية أنه سبحانه هو الذي يخلق ويقدر، وأنه هو الذي يهدي، وأنه هو الذي يعطي الممنوع، ولا مانع لما أعطاه، ولا معطي لما منعه، كما في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلوِ اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»[1]، مع أن ذلك لا ينافي

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

فعل الأسباب، فالإنسان يبذل ما يقدر عليه من الأسباب إذا كان له حاجة عند أحد يعلم أنه سوف يقضيها، فإنه يطلبها ولا يكون ذلك سؤالاً من الناس، وإنما هذا سؤال من الله أن ييسر له هذا الشيء على يد هذا الإنسان.

وكذلك ذكر أنه تحقيق لتوحيد الإلهية شرعًا وأمرًا ونهيًا، فالله تعالى هو الذي شرع هذه الشرائع، هو الذي أمر العباد بطاعته وعبادته، والتوكل عليه ودعائه، والخوف منه ورجائه، وكذلك نهيًا هو الذي نهاهم عن المحرمات، وعن الفواحش، وعن الشرك، وعن القول عليه بغير علم.

وكذلك فيه (**أَنَّ العِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ جَدًّا**)، أي: حظًا، ويعطيهم (**مُلكًا وَعَظَمَة وَبَخْتًا وَرِيَاسَة، فِي الظَّاهِرِ، أَوْ فِي البَاطِنِ**)، فإن ذلك لا ينفع ذا الجد منك الجد، فالذين يعطيهم الله في الدنيا ملكًا وعظمة ورئاسة، ويعطيهم حظًا، ويعطيهم مالًا، ويفتح عليهم، ويعطيهم قوة، لاشك أن هذا لا يعطيه إلا الله تعالى، ولا ينفعهم حظهم وإنما تنفعهم الأعمال الصالحة.

وكذلك الذين يعطيهم الله تعالى حظًا في الباطن (**كَأَصْحَابِ المُكَاشَفَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ الخَارِقَة**)، مثل بعض الأولياء الذين يجري الله تعالى على أيديهم شيئًا من خوارق العادات، وتسمى كرامات الأولياء.

وكذلك ما يجري على أيدي السحرة والكهنة ونحو ذلك من الشعوذة، ومن الأشياء التي هي مخالفة للعادة، فإن ذلك من تسويل الشيطان، فلا ينفعهم ذلك عند الله تعالى، أي: لا ينجيه حظه أي: نصيبه، ولا يخلصه من عذاب الله؛ ولهذا قال: (**لا يَنْفَعُه مِنْكَ، وَلَمْ يَقُل وَلا يَنْفَعُه عِنْدَكَ؛ لأنه لَوْ قِيل**

ذَلِكَ أَوْهَمَ أنه لا يَتَقَرَّبُ به إِلَيْكَ، لكِنْ قَدْ لا يَضُرُّه). فعُرف بذلك أنه سبحانه هو الذي قدر هذه المقادير، وقدر هذه الأسباب، فإذا توكل عليه العباد فإنه سبحانه يعطيهم ويوفقهم.

قال الشارح:

فَتَضَمَّنَ هَذَا الكَلامُ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ، وتَحْقِيقَ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإنه لوْ قُدِّرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الأَسْبَابِ يَكُونُ مُسْتَقِلًا بِالمَطْلُوبِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَةِ الله وَتَيْسِيرِهِ، لكَانَ الوَاجِبُ أَنْ لا يُرْجَى إِلا الله، وَلا يُتَوَكَّلُ إِلا عليه، وَلا يُسْأَلُ إِلا هُوَ، وَلا يُسْتَغَاثُ إِلا به، وَلا يُسْتَعَانُ إِلا هُوَ، فله الحَمْدُ، وإليه المُشْتكَى، وَهُوَ المُسْتَعَانُ، وبه المُسْتَغَاثُ، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلا بالله، فَكَيْفَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الأَسْبَابِ مُسْتَقِلاً بِمَطْلُوبٍ، بَل لابُدَّ مِنَ انْضِمَامِ أَسْبَابٍ أُخَرَ إليه، وَلا بُدَّ أَيْضًا مِنْ صَرْفِ المَوَانِعِ وَالمُعَارِضَاتِ عنه، حتى يَحْصُل المَقْصُودُ، فَكُلُّ سَبَبٍ فله شَرِيكٌ، وله ضِدٌّ، فَإِنْ لمْ يُعَاوِنْه شَرِيكُه، وَلَمْ يَنْصَرِفْ عنه ضِدُّه، لمْ تَحْصُل مَشِيئَة.

قال الشيخ:

الكلام السابق متضمن لتحقيق التوحيد الذي تتضمنه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فإن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تحقيق العبادة الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، توحيد الربوبية.

قوله: (فإنه لوْ قُدِّرَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الأَسْبَابِ يَكُونُ مُسْتَقِلاً بِالمَطْلُوبِ)، أي: مستقلاً بتحصيل المطلوب، (وَإِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَةِ الله وَتَيْسِيرِه)، يعني: أنه سبب يكون مؤثرًا مع أنه لا يكون إلا بمشيئة الله وتيسيره.

قوله:(لكَانَ الوَاجِبُ أَنْ لا يُرْجَى إِلا الله)، مع هذا السبب الذي قد يفعله الإنسان كتجارة أو حرفة أو تعلم أو نحو ذلك، لو قُدر أن هذه الأسباب تكون مستقلة بالمطلوب مع أنها بمشيئة الله وتيسيره، ومع ذلك فالواجب أن لا ترجو إلا الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قوله: (وَلا يُتوَكَّلُ إِلا عليه)، أي: وكذلك لا تتوكل إلا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧]، فالتوكل: التفويض والاعتماد، أي: تفويض الأمور إلى الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيبًا ووكيلاً.

قوله: (وَلا يُسْأَلُ إِلا هُوَ)، أي: ويجب أن لا تسأل غيره، بل اسأله حاجتك كلها؛ لقوله ﷺ:«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله»[1].

قوله: (وَلا يُسْتَغَاثُ إِلا به)، وحده؛ لقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال:٩]، والاستغاثة هي: الدعاء في حالة الشدة وفي حالة الحرج ونحو ذلك.

قوله: (فله الحَمْدُ، وإليه المُشْتَكَى)، فلله تعالى الحمد، أي: هو المستحق للحمد، وإليه يشتكي العباد ما يخشونه وما يخافونه، (وَهُوَ المُسْتَعَانُ)، أي: على

(١) تقدم تخريجه (١/ ٥٤٧).

كل الأمور، (وبه المُسْتَغَاثُ)، أي: الذي يُدعى في حالة الشدة، (وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّة إلا بالله)، أي: لا تحول من حال إلى حال، ولا قدرة للعباد إلا به.

قوله: (فَكَيْفَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الأَسْبَابِ مُسْتَقِلا بِمَطْلُوبٍ، بَل لابُدَّ مِنَ انْضِمَامِ أَسْبَابٍ أُخَرَ إليه)، ليست الأسباب ولا شيء منها يكون مستقلاً بمطلوب العبد، بل لابد أن ينضم إلى تلك الأسباب أسباب أُخر.

قوله: (وَلا بُدَّ أَيْضًا مِنْ صَرْفِ المَوَانِعِ وَالمُعَارِضَاتِ عنه حتى يَحْصُل المَقْصُودُ)، أي: ولابد أيضًا من صرف الموانع والمعارضات التي تمنع حصول ذلك: إما من معارضة بعض الناس وحسدهم؛ ولهذا يستعيذ بالله من شر حاسد إذا حسد، وإما ذنوب وعقوبات يقع فيها، فإذا عَرف ذلك فإنه يفعل الأسباب، ويعتقد أن الله تعالى مسبب الأسباب، فلابد أن يكون هناك أسباب أُخر، ولابد أيضًا أن تنضم إلى ذلك - أي: حصول ذلك الشيء - صرف الموانع وصرف المعارضات التي تعرض عليه، فبعد ذلك يحصل المقصود.

قوله: (فَكُلُّ سَبَبٍ فله شَرِيكٌ وله ضِدٌّ)، كل سبب من أسباب حصول المطلوب سواء في العبادات أو العادات فله ضد، وله شريك، وهو معاونة الله تعالى وتوفيقه، (فَإِنْ لمْ يُعَاوِنْه شَرِيكُه)، الذي في هذه الحالة هو الله، (وَلَمْ يَنْصَرِفْ عنه ضِدُّه)، الذي هو حسد الناس - مثلاً - أو كذلك أعماله السيئة، إذا لم يكن ذلك (لمْ تَحْصُل مَشِيئَتة) أي: مشيئتك أيها العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

قال الشارح:

وَالمَطَرُ وَحْدَه لا يُنْبِتُ النَّبَاتَ إلا بِمَا يَنْضَمُّ إليه مِنَ الهَوَاءِ وَالتُّرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ الزَّرْعُ لا يَتِمُّ حتى تُصْرَفَ عنه الآفَاتُ المُفْسِدَة له، وَالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ لا يُغَذِّي إلا بِمَا جُعِلَ فِي البَدَنِ مِنَ الأَعْضَاءِ وَالقُوَى، وَمَجْمُوعُ ذَلِكَ لا يُفِيدُ إِنْ لمْ تُصْرَفْ عنه المُفَسِدَاتُ.

قال الشيخ:

هذا مثال لما تقدم: أن الأسباب لا تؤثر وحدها، فمثَّل بالمطر مع أنه مطر ينزل من السماء، وأنه عذب فرات، يحصل به النبات، ولكن لابد أن يكون هناك أسباب تنضم إلى المطر، فإذا لم يكن التراب قابلًا للنبات كالأرض السبخة لم يحصل النبات، وكذلك إذا كان ينزل على أرض صخرية، لم يحصل النبات، ولابد أيضًا من الهواء، الذي يكون سببًا في جفاف الأرض، وسببًا في نباتها.

كذلك مثَّل بالزرع الذي يزرعه الناس، والغرس الذي يغرسونه، لا يتم الزرع حتى تُصرف عنه الآفات المفسدة له، فقد يوجد في الأرض ما يفسد النبات من أمراض، ومن آفات ونحو ذلك ومن دواب وما أشبهها، فلابد أن تصرف عن الأرض تلك الآفات حتى يتم الزرع، وتحصل الثمرة المعتادة.

كذلك الطعام والشراب لا يغذي، ولا يحصل به غذاء وشبع إلا بما جعله الله تعالى في البدن من الأعضاء والأعصاب والقوى التي جعلها الله تعالى في

البدن، حتى يكون سببًا في انتفاعه بذلك الغذاء.

يقول: (وَمَجْمُوعُ ذَلِكَ لا يُفِيدُ إِنْ لَمْ تُصْرَفْ عنه المُفَسِدَاتُ)؛ ولهذا فإن المريض إذا اشتد مرضه لا يتقبل الطعام، ولا يكون له غذاءً بل لا يفيده حتى يزول عنه ذلك المرض، الذي كدر عليه ونحو ذلك، وعلى هذا فإن هذه كلها أسباب جعلها الله تعالى أسبابًا، مع أنه سبحانه هو مسبب الأسباب وخالق كل شيء، فالعباد عليهم أن يفعلوا الأسباب، وعليهم أن يثقوا بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧]، فالله تعالى هو الذي جعل الأرض قابلة، وهو الذي جعل في جوفها هذا الماء الذي يُستخرج من جوفها، حتى يُسقى به ذلك الزرع الذي على وجه الأرض؛ وكذلك لو شاء لأهلك ذلك الزرع فجعله حطامًا؛ وكذلك بقية الغراس، والغراس والأشجار لو شاء الله ما أثمرت ولا نفعت، فهذا مثال.

وكذلك أيضًا التجار، فالتاجر يفعل الأسباب لطلب الأرباح، ويثق بأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، وأنه إذا لم يوفقه للربح والنجاح فإنه لا يستفيد من التجارة، فقد تكون سببًا للكساد، وسببًا للخسارة الظاهرة.

وهكذا أيضًا الحرف اليدوية التي علمها الله تعالى الإنسان، علمه الصناعة والحدادة والنجارة والخياطة والكتابة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا

لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:٥]، فجعل هذه أسبابًا لحصول منفعة من آثار ذلك، ولو شاء لما أثرت، ولما حصلت من آثارها مسبباتها، فالعباد يتعلمون هذه الحرف ثم بعد ذلك يزاولون تلك الحرف التي جعلها الله أسبابًا، فكذلك أيضًا الأعمال الأخروية، جعلها الله أسبابًا للسعادة في الدنيا.

قال الشارح:

وَالمَخْلُوقُ الذي يُعْطِيكَ أَوْ يَنْصُرُكَ، فَهُوَ - مَعَ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ فيه الإِرَادَةَ وَالقُوَّةَ وَالفِعْلَ - فَلا يَتِمُّ مَا يَفْعَلُه إلا بِأَسْبَابٍ كثيرة، خَارِجَةٍ عَنْ قُدْرَتِه، تُعَاوِنُه على مَطْلُوبِه، وَلوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، وَلا بُدَّ أَنْ يُصْرَفَ عَنِ الأَسْبَابِ المُتَعَاوِنَةِ مَا يُعَارِضُهَا وَيُمَانِعُهَا، فَلا يَتِمُّ المَطْلُوبُ إلا بِوُجُودِ المُقْتَضِي وَعَدَمِ المَانِعِ.

قال الشيخ:

يقول الشارح - رحمه الله - وهو يتكلم عن الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابًا يُستعان بها، يقول: (وَالمَخْلُوقُ الذي يُعْطِيكَ أَوْ يَنْصُرُكَ..)، صحيح أن كل من يريد أن ينصرك أو يعينك أو يساعدك، لا يتم له ما يفعله من مساعدتك أو إعطائك إلا بأسباب كثيرة، خارجة عن قدرته، تعينه وتساعده على مطلوبه، مع أن الله تعالى هو الذي يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل، فلا يقدر على أن يساعدك إلا بوجود تلك الأسباب، ولو كان ملكًا مطاعًا؛ كذلك لابد أن يُصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع، فالمقتضي: هو الذي يكون سببًا في الوجود؛ وكذلك عدم المانع الذي يكون سببًا في عدم وجوده، وفي عدم تيسره.

قال الشارح:

وَكُلُّ سَبَبٍ مُعَيَّنٍ فَإِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْمُقْتَضِي، فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ مُقْتَضٍ تَامٌّ، وَإِنْ سُمِّي مُقْتَضِيًا، وَسُمِّي سَائِرُ مَا يُعِينُه شُرُوطًا - فَهَذَا نِزَاعٌ لَفْظِي. وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ عِلة تَامَّة تَسْتَلزِمُ مَعْلُولها فَهَذَا بَاطِلٌ.

وَمَنْ عَرَفَ هَذَا حَقَّ الْمَعْرِفَة انْفَتَحَ له بَابُ تَوْحِيدِ الله، وَعَلِمَ أنه لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسْأَلَ غيره، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُعْبَدَ غيره، وَلا يُتَوَكَّل على غيره، وَلا يُرْجَى غيره.

قال الشيخ:

كل سبب معين، فإنما هو جزء من المقتضي، أي: جزء من الذي يقتضي حصول ذلك المسبب.

قوله: (فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ مُقْتَضٍ تَامٌّ وَإِنْ سُمِّي مُقْتَضِيًا)، لا يتصور وإن سمي مقتضيًا، فلابد أن يكون معه ما يساعده على ذلك، ولا بد أيضًا أن تمتنع عنه الموانع والحوائل، التي تحول بينه وبين ما يقتضيه من الفعل.

قوله: (وَسُمِّي سَائِرُ مَا يُعِينُه شُرُوطًا - فَهَذَا نِزَاعٌ لَفْظِي)، قد يُسمى مقتضيًا، ويسمى سائر ما يعينه شروطًا، ولكن يقول: هذا نزاع لفظي، (وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ عِلة تَامَّة تَسْتَلزِمُ مَعْلُولها فَهَذَا بَاطِلٌ)، ليس هناك علة، غير عدة أسباب وانتفاء موانع. فلابد أن العبد يعرف مثل هذه الأسباب حق المعرفة، حتى يتبين له التوحيد الصحيح الذي لا يستحقه إلا الله تعالى.

قال الطحاوي:

وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كله، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ على مَا جَاؤُوا به.

قال الشارح:

الإِشَارَة (بِذَلِكَ) إلى مَا تَقَدَّمَ، مِمَّا يَجِبُ الإِيمَانُ به تَفْصِيلاً، وقوله: (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه...) إلى آخِرِ كَلامِه، أي: لا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِبَعْضٍ وَنكْفُرَ بِبَعْضٍ، بَلْ نُؤْمِنُ بِهِمْ وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ، فَإِنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، كَافِرٌ بِالْكُلِّ.

قَالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فَإِنَّ المعنى الذي لأَجْلِه آمَنَ بِمَنْ آمَنَ به مِنْهُمْ، مَوْجُودٌ في الذي لَمْ يُؤْمِنْ به، وَذَلِكَ الرَّسُولُ الذي آمَنَ به قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ بَقِيَّة الْمُرْسَلِينَ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِبَعْضِ الْمُرْسَلِينَ كَانَ كَافِرًا بِمَنْ في زَعْمِه أنه يُؤْمِنُ به؛ لأَنَّ ذَلِكَ الرَّسُولَ قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ الْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، فَكَانَ كَافِرًا حَقًّا، وَهُوَ يَظُنُّ أنه مُؤْمِنٌ، فَكَانَ مِنَ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَيَاة الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

قال الشيخ:

يجب على كل مسلم أن يؤمن بما تقدم مما يجب الإيمان به، ومن ذلك الإيمان بالرسل كلهم دون أن يؤمن بالبعض دون البعض، فلا يُفرق بين أحد من الرسل، كما فعل ذلك النصارى، الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كفروا بيحيى - عليه السلام - وغيره من الرسل، وكفروا بمحمد ﷺ، فالمؤمنون لا يفرقون بين أحد من الرسل، بل يؤمنون بهم كلهم، بخلاف الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل نحن نصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض يعتبر كافرًا بالجميع، دليل ذلك هذه الآية، وهي قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، هذه حالتهم، وهؤلاء هم اليهود الذين يؤمنون بموسى عليه السلام، ويكفرون بعيسى عليه السلام، ويكفرون بمحمد ﷺ، ويتخذون بين من يؤمنون به ومن يكفرون به سبيلاً ومنهجًا وطريقًا يسلكونه، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾، أي: فإن الذي آمنتم به من الرسل فيه ما في الذي كفرتم به، فكلهم مرسل من عند الله تعالى، وما يوجد في الذي آمنتم به من الصفات والمعجزات يوجد في الذي لم تؤمنوا به، بل كفرتم به من الرسل، بل قد يكون ذلك الرسول الذي تؤمنون به وتصدقونه قد جاء بتصديق بقية إخوانه المرسلين، فإن كل نبي يصدق من قبله من الأنبياء، فكل رسول يصدق بجميع المرسلين الذين جاؤوا بالرسالة، وجاؤوا بالشريعة، فالواجب التصديق بهم كلهم، فمن كذَّب واحدًا منهم فقد كذَّب الجميع، قال

الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، مع أنهم ما كذبوا إلا بنوح عليه السلام، ولكن نوحًا ـ عليه السلام ـ يصدق من قبله ومن بعده، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]، مع أنهم ما كذبوا إلا بنبيهم هود عليه السلام، ولكن هودًا ـ عليه السلام ـ مصدق لمن بعده ولمن قبله من المرسلين، وحيث إنهم كذبوا به، فاعتبروا مكذبين بجميع الرسل، فإذا لم يؤمنوا بأحد من المرسلين ولو بواحد، فإنهم يعتبرون قد كفروا بجميع المرسلين، ولو ادعوا أنهم يؤمنون بذلك البعض، كالذين يقولون: نحن نؤمن بموسى ـ عليه السلام ـ ومع ذلك يكفرون بعيسى ـ عليه السلام ـ وبمحمد ﷺ، فإن ذلك الرسول الذي جاء بتصديق المرسلين يجب أن يصدقوه، فإن عيسى ـ عليه السلام ـ صدق بمحمد ﷺ وبشَّر به، فإذا كذبوا محمدًا ﷺ فقد كفروا بجميع المرسلين، ولا ينفعهم إيمانهم بمن آمنوا به؛ لأنهم ردوا رسالة من جاءهم من المرسلين، مع أنهم يقولون: نحن مؤمنون به، فيكونون من الذين قال الله فيهم: إنهم من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، أي: خسروا أعمالهم، وضاع سعيهم، وهم يعتقدون أنهم على صواب وعلى هدى.

عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللهَ عَارِفِينَ، وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ. وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تعالى مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نَكِرَتِهِ، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِهِ. اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثَبِّتْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حتى نَلْقَاكَ بِهِ.

قال الشارح:

فقوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ)، رَدٌّ لِقَوْلِ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، الْقَائِلِينَ بِتَخْلِيدِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ فِي النَّارِ، لَكِنَّ الْخَوَارِجَ تَقُولُ بِتَكْفِيرِهِمْ، وَالْمُعْتَزِلَةَ بِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، لَا بِدُخُولِهِمْ فِي الْكُفْرِ، بَلْ لَهُمْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشَّيْخِ - رحمه الله -: (وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ).

وقوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ)، تَخْصِيصُهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، يُفْهَمُ منه أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ غَيْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ نَسْخِ تِلْكَ الشَّرَائِعِ بِهِ، حُكْمُهُمْ مُخَالِفٌ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ. وفي ذَاكَ نَظَرٌ، فَإِنَّ النبي ﷺ أَخْبَرَ أَنه: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ

فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»[1]. وَلَمْ يَخُصَّ أُمَّتَه بِذَلِكَ، بَلْ ذَكَرَ الْإِيمَانَ مُطْلَقًا، فَتَأَمَّلْه. وَلَيْسَ فِي بَعْضِ النُّسَخِ ذِكْرُ الْأُمَّة.

قال الشيخ:

عرفنا من عقيدة أهل السنّة أنّ المؤمنين لا يخلّدون في النار، وإن دخلوها، فإنّهم يخرجون منها، والمراد الذين ماتوا وهم مصرّون على ذنوبهم الكبيرة التي فيها وعيد؛ لأنّ الخوارج تمسّكوا بأحاديث ونصوص فيها وعيد شديد، لمن عمل ذنبًا أو كبيرة، فأخرجوه من دائرة الإسلام، وأدخلوه في دائرة الكفر، واستحلّوا دماءهم وأموالهم بمجرّد ارتكاب الذنب. والمعتزلة أخرجوهم من الإسلام، ولم يدخلوهم في الكفر، وجعلوهم بمنزلة بين منزلتين، وحكموا بخلودهم في النار، بموجب النصوص التي فيها وعيد، وجاء أهل السنّة فقالوا: إنّهم تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر لهم ذنوبهم، وأدخلهم الجنّة على أوّل وهلة، وإن شاء أدخلهم النار تطهيرًا لهم لما اقترفوه من الذنوب، وبعدما يمحّصون ويهذّبون وينقّون؛ فإنّهم يخرجون من النار ويدخلون الجنّة، فمنهم من يطول بقاؤه في النار ألوفًا من السنين، وبعضهم من لا يبقى فيها إلا قليلًا، على قدر ذنوبهم أو بدعهم، ومآلهم إلى دخول الجنّة ولو بعد مدّة؛ لأنّهم من أهل الإيمان وأهل التوحيد وأهل التصديق، وإن كان فيهم شيءٌ من الذنوب اقترفوها.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٥١٧).

وعلى هذا، كيف تحمل النصوص التي فيها الوعيد بعدم دخول الجنّة لبعض العصاة؛ وذلك لأنه وردت أحاديث كثيرة وآيات ظاهرة الدلالة على أنّ العصاة في النار، سواء يخلدون فيها أو يدخلونها، أو يحرّمون على الجنّة مثل قوله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[1]، أي: نمام، وقوله: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ من كانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ»[2]، وقوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[3]، وكذلك الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ [الأنفال: ١٦]، ومثل قوله في آكل الرّبا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٩٣]؛ من عاد إلى أكل الرّبا فتوعّدهم الله بأنّ لهم النار؛ لأنّ الرّبا من الكبائر، لا من الكفر والشرك، وكذلك الوعيد في قتل النفس قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾ [النساء:٩٦].

هذه النصوص الوعيديّة تمسّك بها القدريّة والخوارج، وجعلوها نصًّا في أنّ العاصي المصرّ على المعصية لا يخرج من النار، بل يدخل فيها ويخلّد، وتمسّكوا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٦).

بالآيات التي فيها عدم الخروج من النار؛ كقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وكقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وكقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وأهل السنّة يقولون: هذه النصوص فيها وعيد شديد، فنجريها على ظاهرها؛ لتكون أبلغ في الزجر عن المعاصي؛ لأنّ التهاون في المعاصي يُعدّ ذنبًا أكبر، فلأجل ذلك لا نتأوّلها، بل نجريها على ظاهرها لتكون زاجرة، ونؤكّدها ونستدلّ بالأخبار الأخرى، وبالأحاديث الكثيرة التي فيها الوعيد الشديد على الذنوب، والتي فيها إهلاك الله تعالى لمن أذنب أيّ ذنب. لو تتبعناها لوجدناها أحاديث كثيرةً تدلّ على ذلك، فمن أراد أن يتوسّع فيها فليقرأ الأحاديث التي ذكرها ابن القيّم في كتابه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»؛ حيث أورد في أوّله أحاديث كثيرة وأدلّة كثيرة تدلّ على أنّ الله تعالى يعاقب على الذنوب، ولو لم تصل إلى الكفر، وأنّه بسبب الذنوب أهلك أقوامًا، واستدلّ أيضًا بما ورد في بعض الآثار: «أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك مائة ألف: أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم، قال: يا رب، تهلك شرارهم، فما بال خيارهم؟ قال: إنهم يدخلون على الأشرار فيواكلونهم، ويشاربونهم، ولا يغضبون بغضبي»[1]. فعاقب الأخيار في الدنيا بالهلاك، ولم يكن لهم ذنب إلا

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٥٣)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣١٠) عن الوضين بن عطاء الشامي.

أنّهم جالسوا الأشرار وآكلوهم، ولم يذكر ذنب الأشرار؛ هل هو يصل إلى الكفر، أو من المعاصي، وإذا كان من المعاصي فالدليل واضح على أن العصاة متوعَّدون بالهلاك في الدنيا وبالعذاب أو الوعيد في الآخرة، ولما روي: «**أوحى الله - عز وجل - إلى جبريل - عليه السلام - أن اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها، فقال: يا رب، إن فيهم عبدك فلان لم يعصك طرفة عين، فقال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط**»[1]. فأمر بإهلاكه مع أنّه لم يذكر له ذنب إلا أنّه لا يغار لله، ولا يتمعّر وجهه في ذات الله، وفي ذلك دليل على أنّ هذا ذنب إقرار العصاة، وعدم الغضب لذات الله، ولو لم يعملوا الذنب، ولكنّه لمَّا لم يغضب لغضب الله؛ استحقّ أن ينزل به من الوعيد والعذاب ما نزل على المعذّبين.

وهذا يدلّ على أنّ أهل المعاصي على خطر في الدنيا والآخرة، وذلك أنّهم لو لم يكن إلاّ غضب الله عليهم في الدنيا، ولو لم يكن إلا أثر ذلك الغضب عليهم في الآخرة، ولو لم يكن للعصاة عقوبة إلاّ أنّهم إذا غضب الله عليهم انتقم منهم في الدنيا أيّ انتقام، ولو لم يصل ذنبهم إلى الكفر. فهذا مخيف. وكذلك من آثار غضب الرّب عليهم أن يدخلهم دار العذاب، ودار العذاب هي النار، ولو لم يدخلوها إلا ساعةً لاحترقوا، فكيف بما رُوي أنّهم يمكثون فيها عشرات السنين، وربّما مئات أو ألوف السنين، يعذّبون فيها على قدر ذنوبهم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

ولا شكّ أنّ هذا عذاب شديد، لو اقتصر عذابهم ساعةً، لكان أولى بهم أن لا يقترفوا ذنبًا، وأن لا يصرّوا على معصية أيًا كانت تلك المعصية، ولما جاءت هذه الأحاديث وهذه الآثار في وعيدهم؛ جاء في عقيدة أهل السنّة أنّنا نخاف على العصاة، فنقول لهم: إنّنا نخاف عليكم، فلا نأمن عليكم نقمة الله، ولا نأمن عذابه، فلا تأمن أيها العاصي أن يأخذك الله على غرة وعلى غفلة، لا تأمن أن يعذّبك أيّ عذاب حتى ولو كان عذابًا هيّنا.

روي عن بعض السلف أنه قال: لو توعّدني الله ـ إذا عصيته ـ أن يحبسني في الحمّام لكان ذلك وعيدًا شديدًا، يستحقّ أن أهرب من المعصية حتّى لا أحبس في الحمّام، فكيف بالحبس في النّار التي تلتهب وتشتدّ على أهلها، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨]، فإذا كان هذا وعيدًا بالعذاب الذي هو عذاب النار، فإنّه يحمل المؤمن المصدّق على الهرب من أسباب العذاب، حتى ولو كان يرجو في النهاية أن يخرج من النار، وأن يدخل الجنّة. فعند أهل السنّة أنّ كل من كان من أهل التوحيد والإيمان كان مآله إلى دخول الجنّة، ولو عذّب في النار ما عذّب، ولكن نخاف عليه ونخوّفه.

كذلك أيضًا لـمّا وردت الأدلة الكثيرة في نجاة أهل التوحيد، آمن أهل السنة

بذلك، فصدقوا بأحاديث الشفاعة، والتي منها قوله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بها، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي في الْآخِرَةِ»[1]، وكذلك في حديث عتبان بن مالك ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى»[2]، وأشباه ذلك. وهناك أحاديث الإخراج من النار؛ وأنّ الله تعالى يقول لنبيه ﷺ في حديث الشفاعة: «انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ من كان في قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ من إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ من النَّارِ»، وفي النهاية أنّ الله تعالى يقول: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ منها من قال: لَا إِلَهَ إلا الله»[3].

فدل ذلك على أن أهل (لا إله إلا الله) يخرجون من النار؛ لأنّهم كانوا موحّدين، ولم يشركوا بالله شيئًا؛ لا بالاعتقاد ولا بالأعمال، وكانوا على إيمانٍ راسخ في قلوبهم، ولكنّهم نزعتهم النفس إلى شيء من الذنوب، فأصرّوا عليها، ولم يستغفروا حتّى أتتهم آجالهم. فإنّ من حكمة الله أنّهم مؤمنون مصدّقون، ولكن توعّدهم بسبب ما اقترفوه من الذنوب، ولكن يخرجهم إذا شاء بفضله ورحمته، فنحن نخاف على العصاة، ولا نأمن عليهم، نقول لهم: إنّكم على خطر عظيم، إذا رأيت العاصي المصرّ على المعصية، وقد تمادى في معصيته، تحتّم عليك أن تحذّره، وتقول له: إنّك على خطرين؛ خطر عقوبة في الدنيا أن يعاجلك الله بها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣٥٣).

(٣) تقدم تخريجه (٢/ ٣٧٤).

وأن ينتقم منك، وخطر عقوبة في الآخرة، بأن يدخلك النار وهي دار عذابه، ولو كان مآلك بتوحيدك واعتقادك أن تخرج منها، ولكن لا تأمن العذاب، إنّك لا تستطيع أن تصبر عليه، إذا كانت النار التي توعّد الله بها كما ورد فيها أنّها شديدة الوقود والالتهاب، وأنّ حرّها شديد، وقعرها بعيد، وطعام أهلها الزقوم، وشرابهم المهل والصديد، ولباسهم القطران والحديد، وعذابهم أبدًا في مزيد، فكيف بالصبر عليها؟!

لَـمّا قال النبيّ ﷺ: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ من سَبْعِينَ جُزْءًا من نَارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إن كانت لَكَافِيَةً، قال: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**»[1]. إذا كانت نار جهنم تضاعف على نارنا بتسعة وستين جزءًا، فمن يصبر على العذاب بها؟ حتّى ذكر الحميم، وذكر الزقوم والمهل والصديد، وأخبر بقوله فيها: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وبقوله في شرابهم: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله فيه أيضًا: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، فهذا يحصل لكلّ من دخل النار، وهذا يخيف المؤمن، والمؤمن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المصدّق لا بدّ أنّه يخاف من هذا العذاب ولو كان لأجل قصير.

فإذًا نحن نخاف على العصاة ولا نأمن عليهم عذاب الله، ونقول لهم: لا تأمنوا مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، ولو تعلّقتم وتشبّثتم بالأدلّة التي فيها الوعد، والتي فيها إخراج العُصاة من النار، والتي فيها تحريم أهل التوحيد على النار، ولكن لا تأمنوا من النار ولو جزءًا يسيرًا فتوبوا إلى ربّكم، وأصلحوا أعمالكم، هذا هو الجمع بين هذه الأحاديث؛ يعني أنّ أهل السنّة تمسّكوا بأحاديث الشفاعة، والتي فيها إخراج أهل التوحيد من النار، وقالوا: ربّما يمكثون فيها عشرات السنين أو مئاتها أو ألوفها. وأهل الوعيد تمسّكوا وتشدّدوا بالأدلّة التي فيها دخول النار، والوعيد بالنار على بعض المعاصي.

والجمع بينهما أنّه إذا لم يغفر الله فلا بدّ من أن يدخلوا النار، ثم بعد ذلك يخرجون منها برحمة الله أرحم الراحمين، وشفاعة الشافعين، ولا مانع أن يطلق الخلود على الدوام الطويل، ولا مانع أن يطلق حرمان الجنّة أو حرمان دخولها على حرمان الدخول أوّل وهلة، أو نحو ذلك، والله هو الحكيم في أمره، وكلام الله وكلام رسوله لا يمكن أن ينقض بعضه بعضًا، بل كلّه حقّ، فمتى أمكن الجمع بينهما اعتقدنا صحته.

قال الشارح:

وقوله: (فِي النَّارِ)، مَعْمُولٌ لقوله: (لَا يُخَلَّدُونَ)، وَإِنَّمَا قَدَّمَه لِأَجْلِ السَّجْعَة، لَا أَنْ يَكُونَ (فِي النَّارِ) خَبَرًا لقوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ)، كَمَا ظَنَّه بَعْضُ الشَّارِحِينَ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في الْكَبَائِرِ على أَقْوَالٍ:

فَقِيلَ: سَبْعة.

وَقِيلَ: سَبْعَة عَشَرَ.

وَقِيلَ: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ على تَحْرِيمِه.

وَقِيلَ: مَا يَسُدُّ بَابَ الْمَعْرِفَة بالله.

وَقِيلَ: ذَهَابُ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ (كَبَائِرَ) بِالنِّسْبَة وَالْإِضَافَة إِلى مَا دُونَهَا.

وَقِيلَ: لَا تُعْلَمُ أَصْلًا، أَوْ: أَنَّهَا أُخْفِيَتْ كَلَيْلَة الْقَدْرِ.

وَقِيلَ: إِنَّهَا إِلى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا نَهَى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة.

وَقِيلَ: إِنَّهَا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا حَدٌّ أَوْ تُوُعِّدَ عَلَيْهَا بِالنَّارِ، أَوِ اللَّعْنَة، أَوِ الْغَضَبِ، وَهَذَا أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِي تَعْرِيفِ الصَّغَائِرِ:

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَة مَا دُونَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ الدُّنْيَا وَحَدِّ الْآخِرَة.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ ذَنْبٍ لَمْ يُخْتَمْ بِلَعْنَة أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصَّغِيرَة مَا لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا وَعِيدٌ فِي الْآخِرَة،

وَالْمُرَادُ بِالْوَعِيدِ: الْوَعِيدُ الخَاصُّ بِالنَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبِ، فَإِنَّ الْوَعِيدَ الخَاصَّ فِي الْآخِرَةِ كَالْعُقُوبَةِ الخَاصَّةِ فِي الدُّنْيَا، أَعْنِي المَقْدِرَة، فَالتَّعْزِيرُ فِي الدُّنْيَا نَظِيرُ الْوَعِيدِ بِغَيْرِ النَّارِ أَوِ اللَّعْنَةِ أَوِ الْغَضَبِ.

وَهَذَا الضَّابِطُ يَسْلَمُ مِنَ الْقَوَادِحِ الْوَارِدَةِ على غيره، فإنه يَدْخُلُ فيه كُلُّ مَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ أنه كَبِيرَة، كَالشِّرْكِ، وَالْقَتْلِ، وَالزِّنَا، وَالسِّحْرِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلِ الرِّبَا، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَتَرْجِيحُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ وُجُوه:

أَحَدُهَا: أنه هُوَ المَأْثُورُ عَنِ السَّلَفِ، كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ عُيَيْنَةَ، وَابْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ.

الثَّانِي: أَنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١]. فَلَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْوَعْدَ الْكَرِيمَ مَنْ أُوعِدَ بِغَضَبِ الله وَلَعْنَتِه وَنَارِه، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُقَامَ عليه الحَدُّ لَمْ تَكُنْ سَيِّئَاتُه مُكَفَّرَةً عنه بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ مَرْجِعُه إلى مَا ذكره الله ورَسُولُه مِنَ الذُّنُوبِ، فَهُوَ حَدٌّ مُتَلَقًّى مِنْ خِطَابِ الشَّارِعِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ هَذَا الضَّابِطَ يُمْكِنُ الْفَرْقُ به بَيْنَ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، بِخِلَافِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: سَبْعٌ، أَوْ سَبْعَ عَشْرَ، أَوْ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ، مُجَرَّدُ دَعْوَى.

وَمَنْ قَالَ: مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ على تَحْرِيمِه دُونَ مَا اخْتَلَفَتْ فيه، يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الخَمْرِ، وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ، وَالتَّزَوُّجَ بِبَعْضِ المَحَارِمِ، وَالْمُحَرَّمَ بِالرَّضَاعَةِ وَالصِّهْرِيَّة، وَنَحْوَ ذَلِكَ، لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَأَنَّ الحَبَّةَ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالسَّرِقَة لَهَا، وَالْكِذْبَة الْوَاحِدَة الخَفِيفَة، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَهَذَا فَاسِدٌ.

وَمَنْ قَالَ: مَا سَدَّ بَابَ المَعْرِفَة بالله، أَوْ ذَهَابَ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ، يَقْتَضِي أَنَّ شُرْبَ الخَمْرِ، وَأَكْلَ الخِنْزِيرِ وَالمَيْتَة وَالدَّمِ، وَقَذْفَ المُحْصَنَاتِ، لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ! وَهَذَا فَاسِدٌ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا سُمِّيَتْ كَبَائِرَ بِالنِّسْبَةِ إِلى مَا دُونَهَا، أَوْ كُلُّ مَا نَهَى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة، يَقْتَضِي أَنَّ الذُّنُوبَ في نَفْسِهَا لَا تَنْقَسِمُ إِلى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ! وَهَذَا فَاسِدٌ؛ لأنه خِلَافُ النُّصُوصِ الدَّالَّة على تَقْسِيمِ الذُّنُوبِ إِلى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَا تُعْلَمُ أَصْلًا، أَوْ إِنَّهَا مُبْهَمَة، فَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِه أنه لَا يَعْلَمُهَا، فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَهَا غيره. والله أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

قال صاحب المتن: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ)، يعني: نعتقد أنّ أهل الكبائر لا يخلّدون في النار إذا دخلوها، ولكن يمكثون فيها بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون، ولـمّا ذكر أنّ هذا قولنا في أهل الكبائر احتيج إلى معرفة الكبيرة ما هي؟ وذلكَ لأنّ الله تعالى قسّم الذنوب إلى قسمين: كبائر وسيّئات.

فقال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء:٣١]. فجعل هناك كبائر وهناك سيّئات، ولا شكّ أنّ الكبائر سيئات، ولكنها كبيرة، والسيّئات التي دونها تسمّى صغائر. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم:٣٢]، فقسّمها قسمين: كبائر ولَمَم، واللّمم: هو مقدمات الذنوب.

وقد ثبت عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: ما رأيت شيئًا أَشْبَهَ باللَّمَمِ مِمَّا قال أبو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قال: **«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ على ابن آدَمَ حَظَّهُ من الزِّنَى أَدْرَكَ ذلك لَا مَحَالَةَ، فَزِنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك أو يُكَذِّبُهُ»**[1]. فجعل التصديق أو التكذيب بالفعل الذي هو الزنى بالفرج، وجعل هذه مقدّمات، فجعلها هي اللّمم، وكان تحريمها من باب سدّ الذرائع؛ لأنّها من باب الوسائل، فالأصل هو الزنى، الذي حرّمت هذه الأشياء لأجله، وهذه الأشياء من الكبائر، توعّد الله عليه بقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقرنه بالشرك والقتل، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان:٦٨]؛ فجعل الزنى من الكبائر التي توعّد عليها بالآثام والعذاب.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

فبذلك نعرف أنّ الذنوب قسمان: كبائر وصغائر، وعلى هذا إذا قلت: ما حدّ الكبيرة حتّى نتجنّبها فتغفر لنا الصغيرة؟ نقول: الكبائر هي الذنوب الفاحشة التي سمّيت فاحشة، والتي تُوُعّد عليها إمّا بحدٍّ في الدنيا، أو بعذاب في الآخرة، كالشرك والقتل والزنى والرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، هذه توعد عليها بعذاب في الآخرة.

والسرقة والقذف والسكر، هذه قد جعل فيها حدّ في الدنيا، وهو جلد أو تفسيق، أو نحو ذلك.

فإذا سمعنا ـ مثلًا ـ قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[1]، وقوله: «النَّائِحَةُ إذا لم تَتُبْ قبل مَوْتِهَا تُقَامُ يوم الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ من جَرَبٍ»[2]، نعدّ هذا من الكبائر مثل.

وكذلك إذا أطلق على الذنب أنّه كفر، كقوله ﷺ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي من أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ في الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ في الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»[3]، أو «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[4]، وأشباه ذلك، نقول: هذه كلّها من الكبائر.

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٦).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٢).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٢٧٢).

(٤) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

وقد ثبتت بعض الأحاديث التي فيها عدّ الكبائر، كقوله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»[١]، وكقوله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»، قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّـهِ، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَجَلَسَ وكان مُتَّكِئًا فقال: «ألا وَقَوْلُ الزُّورِ، ألا وَشهادة الزُّورِ»[٢]، فهذه جعلها من أكبر الكبائر، وكذلك عدّ ﷺ اليمين الغموس من الكبائر[٣]، وسميت بذلك؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

وقد ألف العلماء كتبًا في الكبائر، فقد ألّف فيها الإمام الذهبي كتابه المشهور «كتاب الكبائر»، وأوصلها إلى سبعين كبيرةً، جمع فيها ما وقف عليه وإن كان قد أدخل بعضها في بعض، وجاء بعده ابن حجر الهيتمي، وألّف كتابه الكبير الذي سمّاه «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، وأوصلها إلى أربعمائة بتفصيل في بعضها، وذلك دليل على أنّه لا نهاية لها، وأنّ الذنوب كثيرة، وأيضًا هناك ذنوب في هذا الزمن لم تكن معروفة من قبل، فتضاف إلى هذا العدد، وبذلك يعرف بأنّ الذنوب كثيرة، وأنّه لا تحصر في سبع ولا في سبعين، كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السّبع»[٤]. وقد تصل إلى سبعمائة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، الذي أخرجه البخاري (٦٦٧٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٥)، والطبري (٥/ ٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧٣).

وقد يقال أيضًا: الكبيرة ما أصرّ عليه صاحبه، ولو كان صغيرة، ولذلك قالوا: «لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار»، ولعلّ ذلك تفسير لما ورد في الحديث في ذلك الرجل الذي أَذْنَبَ ذَنْبًا فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لي، فقال رَبُّهُ: «**أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي**»، ثُمَّ مَكَثَ ما شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فقال: «**أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي**»، ثُمَّ مَكَثَ ما شَاءَ الله، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فقال: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لي، فقال: «**أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ ما شَاءَ**»[١]، فجعل هذه المعرفة سببًا للمغفرة، يعني: الاستغفار بعد الذنب سبب لمحوه.

نقول: إنّ الإصرار على الذنب ولو كان صغيرًا يصيّره كبيرًا؛ لأنّه يدلّ على التهاون في ذلك الذنب، وبما ورد من الوعيد، ويدلّ على أنّه لم يهتمّ بما ورد فيه من الوعيد، وتهاون بغضب الله عليه، وتهاون بما جاء في تحريمه فأصرّ عليه، واستمرّ عليه، فإذا استمرّ على شيء يسير، كأن يكون أكلًا يسيرًا للحرام، ولكنّه أصرّ عليه فإنه يصبح كبيرًا، وإذا أصرّ على الكذب ولو يسيرًا، كذبة أو كذبتين في الشّهر، فإنّ هذا يصبح ذنبًا كبيرًا، وإذا أصرّ على النظر إلى النساء المتبرّجات، أو على النظر إلى صورهن، عُدّ إصراره كبيرة من الكبائر، وإذا أصرّ على السرقة ولو يسيرة، وإذا أصرّ على القذف والسباب والشتائم واللّعن، وإذا أصرّ على السماع المحرّم للغناء

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ونحوه، وإذا أصرّ على النظر في الصور الفاتنة، واستمرّ على ذلك، يصير هذا الإصرار ذنبًا يوافق ما ورد فيه من الوعيد، وعُدّ كبيرةً من الكبائر.

وأمّا التعريفات التي مرّت، فكلّها تقريبيّة، كلٌّ يقرّب الكبيرة كما يظهر له، والكبائر هي الذنوب التي تسدّ باب المعرفة إلى الله تعالى، ولو كان هذا التعريف ليس بواضح، وكذلك التعريفات الأخرى التي فيها أنّ الكبائر: ما توعّد عليه بوعيد أو بعذاب، أو بنفي إيمان، أو حدّ في الدنيا، أو عقوبة في الآخرة.

أما الذين قالوا: إنّ الكبائر لا تعلم ولا يعرف معناها، وإنّها أخفيت كما أخفيت ليلة القدر، ونحو ذلك. نقول: إنّ الله تعالى ما أمر باجتنابها إلا وهي معروفة، وقد ورد في باب المناهي ما يعلم أنّها من الكبائر، وكما ذكرنا السبع الموبقات، وأكبر الكبائر، وإذا عرف العبد أنّ هذه من الكبائر، وأن الإصرار عليها سبب للوعيد الذي رتّب عليها، فإنّه يجتنبها حتى يسلم على دينه، ويستحقّ الوعد من الله تعالى الذي وعد بتكفير الخطايا.

كما أنّ اجتناب الكبائر سبب لمحو الصغائر، ومعلوم أنّ الصغائر قد تكثر على الإنسان؛ فإن كان مصرًّا عليها ومكثرًا منها لم يأمن من تكاثرها أن تجتمع عليه من كلّ جهة فتهلكه، وإن كانت متفرّقة ويسيرة من غير إصرار، فإنّ الله تعالى يغفرها بالأعمال الصالحة.

والحديث الذي ورد في التحذير من الصغائر، يفهم منه أن صاحبها يكون مصرًّا عليها؛ لقوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى انْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ

بها صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[1]. يعني: أنّ الذنوب الصغيرة: كلمة، ونظرة، وسبَّة، وبطشة، وأكلة، ونحو ذلك، إذا كانت كثيرة اجتمعت على الإنسان وأحدقت به فأهلكته؛ كما أنّ القوم إذا اجتمعوا وهم كثير، فجاء هذا بعود وهذا ببعرة، مع أنّ الأرض صحراء ليس فيها حطب، فبكثرتهم جمعوا ما يوقدون به، حتّى يُنضجوا طعامهم، فهذا يدلّ على أنّ الإنسان لا يأمن من الإصرار على الصغائر والذنوب الحقيرة، حتى لا تهلكه وتوقعه في العذاب، أو تؤهّله لكي يكون من أهل الوعيد، ومن أهل العذاب الشديد ـ والعياذ بالله ـ.

والتهاون بها والإكثار منها يدلّ على عدم الاهتمام بتحريم الله وبنهيه، أمّا الذي يحذرها ويتركها خوفًا من الله، ولأنّ الله نهى عنها وحرّمها، فهو الذي يستحضر عظمة الله، ويستحضر دائمًا تحريمه لما حرَّمه ولما نهى عنه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، والطبراني في الكبير (٥٨٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ. وحسَّن إسناده ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٢٩).

قال الشارح:

وقوله: (وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ)؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ لَا خِلَافَ أَنَّهَا تَمْحُو الذُّنُوبَ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي غَيْرِ التَّائِبِ.

وقوله: (بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله تعالى عَارِفِينَ)، لَوْ قَالَ: (مُؤْمِنِينَ)، بَدَلَ قوله: (عَارِفِينَ)، كَانَ أولى؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ الله وَلَمْ يُؤْمِنْ به فَهُوَ كَافِرٌ. وَإِنَّمَا اكْتَفَى بِالْمَعْرِفَةِ وَحْدَهَا الْجَهْمُ، وقوله مَرْدُودٌ بَاطِلٌ، كَمَا تَقَدَّمَ. فَإِنّ إِبْلِيسَ عَارِفٌ بِرَبِّه، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص٨٢، ٨٣]. وَكَذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَأَكْثَرُ الْكَافِرِينَ، قَالَ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون:٨٤، ٨٥]. إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّة على هَذَا المعنى.

وَكَأَنَّ الشَّيْخَ ـ رحمه الله ـ أَرَادَ الْمَعْرِفَةَ الْكَامِلَةَ الْمُسْتَلْزِمَةَ لِلاهْتِدَاءِ، التي يُشِيرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الطَّرِيقَة، وَحَاشَا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ، بَلْ هُمْ سَادَة النَّاسِ وَخَاصَّتُهُمْ.

قال الشيخ:

لا خلاف أنّ التوبة النصوح تمحو الذنب، ولو كان من الكبائر، ولو كان الذنب من الشرك، فالكلام ليس في التائبين. أما أهل التوبة، فلا وعيد عليهم، بل

الله تعالى يقبل توبتهم، ويغفر ذنوبهم، ويدخلهم دار كرامته، ويكفّر عنهم بسبب توبتهم ما وقعوا فيه من كفر ومن كبائر ومن صغائر،ومن ترك أوامر، وذلك كلّه بسبب التوبة.

وهنا نقول: إنّ التوبة لا بدّ أن تكون نصوحًا، قال تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]؛ وذلك لأنه هناك من يتوب توبة لا تزجره عن المعاصي، وتسمّى توبة الكاذبين، فلا تكون مفيدة له، ولا ماحية لما وقع منه، ولا لما فعله من الخطايا، ولا لما تركه من الطاعات، فلا بدّ أن تكون التوبة نصوحًا، ومعلوم أنّ للتوبة شروطًا لا بدّ منها؛ ذكر العلماء منها: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب، وإذا تعلقت الحقوق بالعباد فلابد من إرجاعها إليهم، أو طلب العفو منهم.

أمّا الذي يتوب بلسانه ويقول: أنا تائب، أو: تبت إلى الله، ومع ذلك هو مصرّ على الذنب، حتى لو كان صغيرًا ومتهاونًا به، فهذا لا توبة له؛ لأنّه يتوب بلسانه، ويعمل الذنب بلسانه أيضًا، يقول بلسانه تبت إلى الله، ثم يستعمل لسانه في الشتم، أو في اللعن، أو في القذف، أو في الغيبة، ويستعمل بصره في المحرّم، وينظر إلى الحرام، أو يقول بلسانه: تبت ويأكل الحرام، ويبقى مستمرًا على ذلك، فلا توبة له.

وكذلك الذي يفخر بمعاصيه، مع أنّه قد تركها، فيفخر بأنّه قد زنى بكذا وكذا، ويفخر بأنّه قد قتل قبلُ فلانًا وفلانًا، ويرى ذلك مضحكًا، ويفخر بأنّه قد

خدع فلانًا وأخذ ماله، أو سرق كذا وكذا، ويفخر بأنّه شرب خمرًا، وما أشبه ذلك. فكلّ ذلك لا تقبل معه التوبة.

وهكذا الذي يتوب ولكن توبة مؤقتة، بأن يعزم أنّه بعد حين سيعاود الذنب إذا قدر عليه، ومثل الذين يسافرون من أجل الزنى في بلاد فيها الإباحيّة، فإذا جاؤوا قالوا: تبنا. ولكنّهم عازمون على أن يرجعوا إلى تلك البلاد مرّة أخرى ليعودوا إلى ما فعلوه.

وكذلك من ترك الذنب في وقت من الأوقات؛ كالذي يترك الخمرة في رمضان، والدخان ونحو ذلك، ثمّ يعزمون على أنّهم يرجعون إليه بعد انتهاء رمضان، لا شكّ أنّ هؤلاء لا تُقبل توبتهم.

والحاصل: أنّ التوبة النصوح تمحو الشرك والكبائر والسيّئات، وأكبر الشرك التثليث الذي ذكر الله عن النّصارى، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [التوبة:٧٣، ٧٤]، دعاهم إلى التوبة مع أنهم يقولون: إنّ الله ثالث ثلاثة، وكذلك دعا الذين يشركون إلى التوبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]؛ استثنى من تاب من هذه الثلاثة، فإنّه تقبل توبته، بل ذكر الله

أنّه يبدّل سيّئاته حسنات.

التوبة الصادقة تكون سببًا لمحو الذنوب كلِّها، كبائرها وصغائرها؛ فأمّا ما يتعلّق بكبائر الذين لم يتوبوا، فهم قد دخلوا تحت مشيئة الله، إذا شاء الله عاقبهم وعذّبهم بقدر ذنوبهم، وإذا شاء غفر لهم، ومحا عنهم ما وقعوا فيه من السيئات، ونحن لا نأمن أن ينتقم الله منهم في الدنيا، ويغضب عليهم في الآخرة، ويعذّبهم على الذنوب التي اقترفوها.

ومعلوم أيضًا أنّ عذاب الله شديد، والعذاب في النار لا يصبر عليه أحد لقوله في عذاب النار: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦]. ومن يطيق الصبر على ذلك العذاب الشديد. فإذًا إذا عرف المؤمن أنه إذا اقترف هذه السيّئات متوعَّد بهذا الوعيد الشديد زجره ذلك، وحمله على أن يتوب إلى الله تعالى ويقلع عن السيئات.

عرفنا أنّ عقيدة أهل السنّة والجماعة تخالف عقائد المبتدعة، وأنّ مبنى هذه العقيدة على سنة النبيّ ﷺ، وعلى الجماعة التي هي اجتماع كلمتهم على الحقّ، واجتماعهم على إمامهم وعلى متبوعهم، وبذلك سمّوا أهل السنّة وأهل الجماعة. الجماعة في الأصل هم الذين كانوا مجتمعين على الحق في الزمن الماضي ويراد بهم السلف الصالح، وغيرهم يعتبرون متفرّقين، ولأجل ذلك ذكرت الآية في قول الشارح: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ قالوا: تبيضّ وجوه أهل السنّة، وتسودّ وجوه أهل الفرقة والاختلاف، فدلّ على أنّ أهل السنّة

مجتمعون ومتآلفون، وأنّ أهل البدع مفترقون ومتخالفون، ومخالفون أيضًا للحقّ والصواب.

من عقيدة أهل السنّة أنّهم لا يُكفّرون بالذنوب ولا يخرجون المذنب من الإسلام، وخالفهم في ذلك كثير من المبتدعة، فكفّروا بمجرّد اقتراف الذنوب وأخرجوا أهل الكبائر من الإسلام، وفي ذلك اعتداء على حرمات المسلمين؛ لأنّهم كفّروا المسلمين، واستحلّوا دماءهم وأموالهم.

والمراد بالذنوب هنا التي هي دون الكفر، وتسمّى كبائر الذنوب، فإنّها لا يبلغ أصحابها أن يحكم بكفرهم، فلا نكفّر من قاتل المسلمين إذا كانا متأوّلًا، ولا نكفّر البغاة الذين يثورون على الأمّة، ولا نكفر قطاع الطريق، ولا نكفّر أيضًا من فعل جريمة الزّنى أو السرقة أو شرب الخمر أو القذف.

ولكنّ الذي يُكفَّر هو الذي يستحلّ الحرام، ويردُّ النصوص الصحيحة، ويعتمد هواه، وهذا يُعدّ كافرًا؛ لأنّ من استحلّ الحرام الصريح الذي دليله كالشمس يُعدّ قد ردّ على الله تعالى شريعته، وردّ على الرسول ﷺ سنّته.

وأيضًا من الذنوب التي يكفّر بها ـ وإن كان فيها خلاف ـ ترك الصلاة والإصرار على تركها، والتهاون بها، وذلك لورود الأدلّة على كفر من ترك الصلاة، ولا شكّ أن الكفر الذي ورد فيه أنّه هو الكفر الذي سمّي به الكفار، ولذلك لا فرق في ذلك، وإن كان بعضهم قد تأوّل ذلك. وعلى كل حال فهذه طريقة أهل السنّة والجماعة.

كذلك أيضًا من طريقة أهل السنة والجماعة أنّهم إذا مات أحد من العصاة

ونحوهم لا يتركون الصلاة عليه، وإن كان قد تترك الصلاة على بعضهم للزجر، أو يتركها الإمام ونحوه، كالصلاة على من قتل نفسه، لا يصلي عليه الإمام، والصلاة على من غلَّ لا يصلي عليه الإمام، ويصلي عليه بقيّة جماعة المسلمين، وقد ثبت عنه ﷺ لما رجمت المرأة التي اعترفت بالزّنى صلى عليها، وأخبر أنّ فعلها يُعدّ توبة، وهكذا كثير من العصاة، أباح الصلاة عليهم.

في زماننا هذا المتمسّكون بالسنّة حقًا ثلّة من الناس قليلة، ويصدق على هذا الزمان أنّه زمان الغربة الذي قال فيه النبي ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[1]. وذُكر في تفسيرهم عدة روايات، منها: أنّهم الذين يفرّون بدينهم من الفتن؛ فإذا وقعت الفتن والاختلافات والبدع في بلاد هربوا ونجوا بدينهم، وفسَّرهم النبي ﷺ بأنّهم: «**النُّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ**»[2]؛ فيكون من الأسرة واحد أو اثنان، ومن القبيلة خمسة أو عشرة، والبقيّة مخالفون لهم أو ضدّهم. فهؤلاء هم الغرباء، فطوبى لهم.

ولكن لا يضرّ الحقّ قلّة أهله، فالعبرة بالمتمسّكين بالحق، والعبرة بالأدلّة، وليست العبرة بكثرة الهالكين، وذلك لكثرة الأسباب التي تحرف الناس وتصرفهم عن الحقّ، ولكثرة الفتن والمغريات، ولكثرة الدعايات المضلّة.

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٨)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، والدارمي (٢/ ٤٠٢)، وأبو يعلى (٨/ ٣٨٨) من حديث ابن مسعود ﷺ.

إذًا لا عجب مع كثرة الدعايات المضلّة من كثرة الهالكين، وقد قال بعض السلف: «ليس العجب مِمّن هلك كيف هلك، إنّما العجب مِمّن نجا كيف نجا»؛ يعني: مع كثرة الفتن وكثرة الدعايات والمضلات يتمسك الإنسان بالشريعة، ويعضّ عليها بالنواجذ، مع كثرة من يخذّله ويقنّطه ويوبّخه، ويرميه بالرجعيّة وبالتقهقر والتزمّت والتشدّد والغلوّ، وما أشبه ذلك.

ولكن إذا رزقه الله إخلاصًا، وإذا تمسّك بالحقّ وصدق عليه، فلا يضرّه ذلك، وسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا؛ فيقال: هكذا أهل السنّة في كلّ زمان، يرميهم البعض بالشذوذ والتغفيل، ويقولون لهم مثلًا إنّهم مشبّهةٌ ومجسّمة وحشويّة ونوابت وغثاءٌ، ونحو ذلك من الأسماء التي ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تنطبق عليهم، وإنّما تنطبق على أعدائهم.

فلا عبرة بمن خالفهم، ولكن العبرة بمن وافق الحقّ وتمسّك به، فالحقّ حقّ ولو قلّ المتمسّكون به، والباطل باطل ولو كثر المعتنقون له، إنما العبرة بالدليل. وحجّة الله قويّة، ومن احتجّ بالدليل الواضح فإنه غالب، ولو صمد أمامه الناس، وقد مضى لنا أدلّة عقليّة وأدلّة نقليّة تبيّن صحّة ما عليه أهل الحقّ.

قال الشارح:

وقوله: (وَهُمْ فِي مَشِيئَةِ اللهِ وَحُكْمِهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ)، إِلى آخِرِ كَلامِهِ، فَصَّلَ الله تعالى بَيْنَ الشِّرْكِ وغيره؛ لأَنَّ الشِّرْكَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، كَمَا قَالَ ﷺ[1]، وَأَخْبَرَ الله تعالى أَنَّ الشِّرْكَ غَيْرُ مَغْفُورٍ، وَعَلَّقَ غُفْرَانَ مَا دُونَهُ بِالْمَشِيئَةِ، وَالْجَائِزُ يُعَلَّقُ بِالْمَشِيئَةِ دُونَ الْمُمْتَنِعِ، وَلَوْ كَانَ الْكُلُّ سَوَاءً لَمَا كَانَ لِلتَّفْصِيلِ معنى؛ ولأنه عَلَّقَ هَذَا الْغُفْرَانَ بِالْمَشِيئَةِ، وَغُفْرَانُ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ بَعْدَ التَّوْبَةِ مَقْطُوعٌ به، غَيْرُ مُعَلَّقٍ بِالْمَشِيئَةِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغُفْرَانُ الْمُعَلَّقُ بِالْمَشِيئَةِ هُوَ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ سِوَى الشِّرْكِ بالله قَبْلَ التَّوْبَة.

قال الشيخ:

يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: إن أهل القبلة الذين عندهم ذنوب، وعندهم تقصير وفعلوا شيئًا من السيئات، التي دون الشرك، تحت مشيئة الله تعالى وحكمه، فإن شاء غفر لهم فضلاً منه وجودًا وإحسانًا، وعفا عنهم بفضله، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، ثم إذا لم يكونوا من المشركين فإنهم يخرجون ويكونون من أهل الجنة بعد أن يمحصوا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) من حديث أبي بكرة ﷺ.

أخبر أن الله تعالى قد فرّق بين الشرك وغيره وفصل بينهما، أخبر تعالى أن الشرك لا يُغفر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، فالشرك أكبر الكبائر؛لذلك لا يغفره الله تعالى إلا بالتوبة، أخبر تعالى أنه غير مغفور، أما الذنوب التي دون الشرك فإنها تحت المشيئة إن شاء عفا عن أهلها وغفرها، وإن شاء عذبهم بقدرها، فالجائز يُعلق بالمشيئة دون الممتنع، فدل على أن غفران ما دون الشرك من الذنوب جائز، حيث علقه بالمشيئة بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وأما الشرك فإنه ذكر أنه لا يغفر، فعُلم بأنه ممتنع غفرانه إلا بالتوبة.

ولو كان الشرك والذنوب والبدع كلها سواء في أنها لا تُغفر، وأنها يُعذب بها؛ كما يقوله الخوارج وكذلك المعتزلة، لو كان الكل سواء في عدم المغفرة لما كان للتفصيل معنى، فقد فصّل الله تعالى بينهما ـ أي: بين الشرك وغيره ـ وكذلك لو كان الشرك أيضًا يُغفر ـ كما يقوله المرجئة ـ بدون توبة لما خصه بأنه لا يُغفر، فالله تعالى علق الغفران بالمشيئة في قوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، أي: ما دون الشرك.

والتوبة النصوح تمحو الذنوب كلها، يغفر الله تعالى الكبائر والصغائر بعد التوبة، هذا مقطوع به، فلا يُعلق غفرانها بالمشيئة، بل يغفرها الله تعالى بالتوبة [illegible] النصوح التي تتم شروطها؛ بأن يقلع عن هذا الذنب، ويتركه خوفًا من الله، ويندم على ما مضى من السيئات التي اقترفها، فيُعاهد ربه على أنه

لا يعود إليها بقية حياته، فهذا يكون قد تاب توبة صادقة.

أما قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فالإسراف هاهنا محمول على ما دون الشرك، أخبر بأنه تعالى قد يغفر الذنوب جميعًا، ونهاهم عن القنوط: الذي هو قطع الرجاء، أي: لا تقطعوا رجاءكم، وتقولوا: إن الله لا يغفر لنا، فقد أمَّلنا وأَمِنَّا إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا، لكن الشرك لابد فيه من التوبة، فما دون الشرك على العبد أن يتوب منه، وإذا مات وعليه ذنوب دون الشرك، فالله تعالى وعد أنه يغفرها لمن يشاء، وأخبر تعالى بأنه هو الغفور الرحيم، فوجب أن يكون الغفران معلقًا بالمشيئة، أي: غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة، ففي هذه الآية ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، المراد غير الشرك، وأما الشرك فلابد فيه من التوبة الصادقة.

قال الشارح:

وقوله: (ذَلِكَ أَنَّ الله مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِه)، فيه مُؤَاخَذَة لَطِيفَة، كَمَا تَقَدَّمَ.

وقوله: (اللَّهُمَّ يَا وَلِيَ الإِسْلامِ وَأَهْلِه مَسِّكْنَا بِالإِسْلامِ - وفي نُسْخَة: ثَبِّتْنَا على الإِسْلامِ - حتَّى نَلْقَاكَ به)، روى شَيْخُ الإِسْلامِ أَبُو إِسْمَاعِيلَ الأَنْصَارِي في كِتَابِه (الْفَارُوقِ) بِسَنَدِه عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُ: «يَا وَلِيَ الإِسْلامِ وَأَهْلِه، مَسِّكْنِي بِالإِسْلامِ حتَّى أَلْقَاكَ عَلَيْهِ». وَمُنَاسِبَة خَتْمِ الْكَلامِ المُتَقَدِّمِ بِهَذَا الدُّعَاءِ ظَاهِرَة. وَبِمِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ دَعَا يُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ الله عليه؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وبه دَعَا السَّحَرَة الَّذِينَ كَانُوا أَوَّلَ مؤمن بِمُوسَى صَلَوَاتُ الله على نَبِيِّنَا وعليه؛ حَيْثُ قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦]، وَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ على جَوَازِ تَمَنِّي المَوْتِ فَلا دَلِيلَ له فيه، فَإِنَّ الدُّعَاءَ إِنَّمَا هُوَ بِالمَوْتِ على الإِسْلامِ، لا بِمُطْلَقِ المَوْتِ، وَلا بِالمَوْتِ الآنَ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ.

قال الشيخ:

قوله: (قوله: ذَلِكَ أَنَّ الله مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِه، فيه مُؤَاخَذَة لَطِيفَة)، يعني: أن الله تعالى مولى المؤمنين، وليس خاصًا بأهل المعرفة الذين يدعون أنهم على

السلوك، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد:١١].

المؤلف الماتن ـ رحمه الله ـ دعا بهذا الدعاء المناسب: (**اللَّهُمَّ يَا وَلِي الإِسْلامِ وَأَهْلِه مَسِّكْنَا بِالإِسْلامِ ـ أو ثَبِّتْنَا على الإِسْلامِ ـ حتى نَلْقَاكَ به**)، بعدما ذكر هذه الفِرَق المخالفة، الذين يغلبون جانب الرجاء ويبيحون المعاصي، أو الذين يخلدون أصحاب الكبائر في النار، ويدعون أنهم لا تُقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك، فهؤلاء مخالفون للإسلام الحقيقي، فالمسلم عليه أن يدعو الله بالتثبيت فيقول: ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به، وكذلك وردت أدعية فيها الدعاء بالثبات على الإسلام؛ لأن الله تعالى هو الذي يثبت؛ كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

أبو إسماعيل الأنصاري هو الهروي، وله كتاب في السنة اسمه (الفاروق)، روى فيه بإسناده عن أنس ﷺ، ذكر أن من دعاء النبي ﷺ: «**يَا وَلِي الإِسْلامِ وَأَهْلِه، مَسِّكْنِي بِالإِسْلامِ حتى أَلْقَاكَ عليه**». وهذا الحديث ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد)[1] بلفظ: «**يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك**». وقال: «رواه الطبراني في الأوسط[2] ورجاله ثقات». ففيه أن الله تعالى ولي الإسلام وأهله، وفيه الدعاء بالثبات على الإسلام إلى الموت.

---

(١) (١٠/ ١٧٦).

(٢) (١/ ٢٠٦)، وأخرجه البيهقي في الدعوات الكبير (١/ ١٦٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه (١١/ ١٦٠).

المؤلف الماتن ختم الكلام المتقدم بعد ذكره لتلك البدع ونحوها بذلك الدعاء، ومناسبته ظاهرة، وقد ذكر الشارح ـ رحمه الله ـ أن يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ قد دعا الله في آخر قصته بمثل هذا الدعاء، بعدما جمع الله له أبويه وإخوته دعا الله بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، هكذا لما آتاه الله الملك، ولما علمه تأويل الأحلام توسل إلى الله تعالى بالربوبية، وتوسل إليه بأنه فاطر السَّمَٰوات والأرض أي مبدعهما، وتوسل إلى الله بأنه وليه في الدنيا والآخرة، ورغب إليه أن يتوفاه مسلمًا، وأن يلحقه بعباده الصالحين قبله.

وهكذا أيضًا قد دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى عليه الصلاة والسلام؛ حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ذكر الشارح أن بعض الناس يجعل هاتين الآيتين دليلاً على جواز تمني الموت، ولا دلالة فيهما، الدعاء ها هنا بقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، دعاء بالموت على الإسلام، لا بمطلق الموت، ولا بالموت في هذا الوقت، والفرق في ذلك ظاهر.

عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

قال الطحاوي:

وَنَرَى الصَّلاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ.

قال الشارح:

قَالَ ﷺ: «صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ». رواه مَكْحُولٌ عَنْ أبي هريرة ﷺ، وَأَخْرَجَه الدَّارَقُطْنِي، قَالَ: مَكْحُولٌ لَمْ يَلْقَ أَبَا هريرة. وفي إِسْنَادِهِ مُعَاوِيَة بْنُ صَالِحٍ، مُتكَلَّمٌ فيه، وَقَدِ احْتَجَّ به مُسْلِمٌ في صَحِيحِه.

وَخَرَّجَ له الدَّارَقُطْنِي أَيْضًا وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الصلاة وَاجِبَة عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ، بَرًّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ، بَرًّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ».

قال الشيخ:

المراد بالصلاة هي الإمامة، يعني: لو كان الإمام فاجرًا، ولكنه من أهل القبلة الذين يدينون بالإسلام، ويعملون به ولو كانوا على فسوق، بأن كانوا مثلًا يشربون الخمر، أو يستمعون الأغاني، أو يتجرؤون على المظالم - أي: مظالم الناس في أموالهم، أو في أبدانهم - ولكنهم من أهل القبلة، فنصلي خلف ذلك الإمام إذا كان له ولاية وله سلطان؛ كما صلى بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين خلف الحجاج، وإن لم يكن متهمًا في دينه، وكذلك لم يكن

أيضًا يعمل الفواحش، ولكن في سيفه رهق، وكان يقتل بالتهمة، ويسجن، ويؤذي ويُعذب المتهم، ولأجل ذلك خرج عليه الكثير من أهل العراق في واقعة ابن الأشعث، والنبي ﷺ قد رُوي عنه أنه قال: «**صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ**». أخرجه الدارقطني[(١)]، ومن طريقه البيهقي في «السنن»[(٢)]، من رواية ابن وهب عن معاوية بن صالح عن العلاء بن الحارث عن مكحول عن أبي هريرة ﷺ، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة ﷺ، ومن دونه ثقات، والإمام الدارقطني هو الذي نبه على أن مكحولاً ما أدرك أبا هريرة ﷺ، وأما معاوية بن صالح فإنه قد احتج به مسلم في «صحيحه»، وإن كان مُتكلمًا فيه، ولعل الكلام فيه لا يقدح، ولعل مكحولًا سمعه من أبي هريرة ﷺ بواسطة فجزم براويته.

يقول: (**وَخَرَّجَ له الدَّارَقُطْنِي أَيْضًا وَأَبو دَاوُدَ عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الصلاة وَاجِبَة عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ، بَرّا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِرِ، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ، بَرًا كان أَوْ فَاجِرًا، وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ**). هذه الرواية عند أبي داود[(٣)]، ومن طريقه

---

(١) (٢/ ٥٧).

(٢) (٤/ ١٩).

(٣) برقم (٥٩٤).

البيهقي[1]، والدارقطني[2]، وسنده منقطع، أي: مكحول لم يلق أبا هريرة ﷺ، ولعله قد رواه بواسطة ثقة؛ ولذلك جزم به.

وقد روى أيضًا أبو داود[3] من حديث أنس ﷺ قال: «**ثلاثة من أَصْلِ الإِيمَانِ: الْكَفُّ عَمَّنْ قال لا إِلَهَ إلا الله، ولا تكفره بِذَنْبٍ ولا تخرجه من الإِسْلامِ بِعَمَلٍ وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُنْذُ بَعَثَنِي الله إلى أَنْ يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ، لا يُبْطِلُهُ جَوْرُ جَائِرٍ ولا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ**». وفي إسناده يزيد بن أبي نشبه راويه عن أنس، مجهول، وباقي رجاله ثقات.

أخبر ﷺ بأن الصلاة واجبة على المسلمين، ولو كان الإمام أميرًا قاهرًا بسيفه، ولو كان فاجرًا، ولو عمل الكبائر والذنوب؛ كذلك أخبر بأن الجهاد واجب مع الأمراء، ولو كان ذلك الأمير فاجرًا أو عاصيًا أو نحو ذلك.

---

(١) (٣/ ١٢١).

(٢) (٢/ ٥٦).

(٣) برقم (٢٥٣٢).

قال الشارح:

وفي «صَحِيحِ البخاري»(١): أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ - رضي الله عنهما - كَانَ يُصَلِّي خَلْفَ الحَجَّاجِ ابْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِي، وَكَذَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَكَانَ الحَجَّاجُ فَاسِقًا ظَالِمًا.

وفي «صَحِيحِه»(٢) أَيْضًا: أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ».

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لا إِلَه إِلا الله، وَصَلُّوا على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لا إِلَه إِلا الله». أَخْرَجَه الدَّارَقُطْنِي(٣) مِنْ طُرُقٍ، وَضَعَّفَهَا.

---

(١) كما في التلخيص الحبير (٢/ ٤٣)، ولم أقف عليه في الصحيح بلفظ صريح، اللهم إلا إن كان المقصود مفهوم الأثر الذي أخرجه البخاري (١٦٦٢) عن سالم بن عبد الله أَنَّ الْحَجَّاجَ بن يُوسُفَ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ تَصْنَعُ فِي الْمَوْقِفِ يوم عَرَفَةَ؟ فقال سَالِمٌ: إن كُنْتَ تُرِيدُ السُّنَّةَ فَهَجِّرْ بِالصَّلاةِ يوم عَرَفَةَ، فقال عبد اللَّهِ بن عُمَرَ - رضي الله عنهما -: صَدَقَ». فقد ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٥١٢) أن من فوائد هذا الأثر: «صحة الصلاة خلف الفاسق»؛ لأن الحَجَّاجَ خطب المسلمين يوم عرفة، وصلى بهم إمامًا.

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٥٧) عن رجل من أهل اليمامة: «أنه رأى ابن عمر - رضي الله عنهما - صلّى خلف ابن الزبير بمنى ركعتين، قال: ورأيته صلّى خلف الحجاج أربعًا».

(٢) برقم (٦٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) (٢/ ٥٦).

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ وَإِيَّانَا - أنه يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ منه بِدْعَة وَلَا فِسْقًا، بِاتِّفَاقِ الأَئِمَّة، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الائْتِمَامِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُومُ اعْتِقَادَ إِمَامِه، وَلا أَنْ يَمْتَحِنَه، فَيَقُولُ: مَاذَا تَعْتَقِدُ؟! بَلْ يُصَلِّي خَلْفَ المَسْتُورِ الحَالِ.

قال الشيخ:

الحجاج بن يوسف من الولاة الذين تولوا على العراق، ورأى أن أهل العراق فيهم كثرة خروج وعصيان، فلم يجد بدًا من أن يأخذهم بالقسوة والشدة، وكان يقتل بالتهمة، فمن اتُهم في دينه، أو اتُهم في موالاته، فإنه يُعاقبه بحبس أو جلد أو قتل، وتشدد على الذين يظهر منهم شيء من المخالفة لولاة الأمور، ومع ذلك فإنه كان له فضل، فقد تسبب في فتح كثير من البلاد من الهند والسند والأفغان وما حولها، فأرسل الجنود والجيوش حتى تمكنوا من فتح تلك البلاد، وكان يحثهم، وقد ولاه عبدالملك قدر نصف مملكته: وهو العراق وخراسان والهند وما فُتح منها، كلها كانت تحت ولايته، فكان ولابد أن يجد من هو مخالف وعاص، ولم يُذكر أنه كان يتعاطى شرب الخمر، ولا أنه كان يسمع الأغاني، وإنما عابوه بكثرة الشدة التي فيه، ومع ذلك لم يقولوا إنه متهم في عقيدته أو نحو ذلك، ولما اشتهر عنه أنه فاسق أو ظالم بسبب قسوته أكثر العلماء في الأخير من الطعن فيه، ومنهم أكثر المؤرخين، ولعل سبب ذلك أنه مبالغة لأجل إخبار بني العباس بأن ولاة بني أمية فيهم فسوق ونحو ذلك، وقتله سعيد بن جبير؛ لأنه كان مع الذين خرجوا مع ابن الأشعث عليه ونقض

بيعته؛ كما ذكر ذلك ابن كثير[١].

فلا عبرة بما يُذكر في ترجمته من المساوئ الكثيرة التي يُتهم فيها في دينه، فليس يُتهم بترك الصلاة، ولا بالبخل، ونحو ذلك؛ ولذلك كان أنس بن مالك وابن عمر - رضي الله عنهم - يصلون خلفه، وقد كتب إليه عبدالملك أن يقتدي بابن عمر - رضي الله عنهما - لما أقام الحج[٢].

ثم ذكر أن البخاري أيضًا روى أنه ﷺ قال: «**يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**». أي: يصلون بكم كأئمة، وليس المراد أن صلاتهم طاعة لكم، بل يصلون كأئمة لكم، «**فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ**»، أي: لكم أجر صلاتكم ولهم أجر صلاتهم، «**وَإِنْ أَخْطَؤوا**»، أي: في صلاتهم، «**فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**»، أي: عبادتكم كاملة والإثم عليهم.

كذلك حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «**صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لا إِلَه إِلا الله، وَصَلُّوا على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لا إِلَه إِلا الله**»، قد ضعفه العلماء، ولكن معناه صحيح أن من قال: (لا إله إلا الله) من أهل الإسلام والتوحيد، ولم يظهر عليه شيء من البدع المكفرة فإنه إذا كان إمامًا يُصلى خلفه؛ وهكذا من مات من أهل لا إله إلا الله الموحدين يُصلى عليه؛ وذلك لأنهم أهل الإيمان ظاهرًا ولو كان باطنه خفيًا، فإذا صلينا عليه وشفعنا له وكان مسرفًا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٣).

رُجي بذلك مغفرة الله له، وإذا كانت عقيدته النفاق أو البدعة المكفرة فإنه لا تنفعه شفاعة الشافعين.

فأخبر الشارح - رحمه الله - أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة مكفرة، ولا فسقًا ومعصية، وهذا قد اتفق عليه الأئمة الأربعة، وأنه ليس من شرط كونك مأمومًا أن تعلم عقيدة الإمام الذي تصلي خلفه، وليس لك أن تمتحنه، فلا تقل: أخبرني بعقيدتك، ماذا تعتقد. بل تصلي خلفه إذا كان مستور الحال، ليس معلنًا بشيء من البدع.

قال الشارح:

وَلَوْ صلى خَلْفَ مُبْتَدِعٍ يَدْعُو إِلَى بِدْعَتِهِ، أَوْ فَاسِقٍ ظَاهِرِ الْفِسْقِ، وَهُوَ الإِمَامُ الرَّاتِبُ الَّذِي لَا يُمْكِنُهُ الصَّلَاةُ إِلَّا خَلْفَه، كَإِمَامِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ، وَالْإِمَامِ فِي صَلَاةِ الْحَجِّ بِعَرَفَة، وَنَحْوِ ذَلِكَ: فَإِنَّ الْمَأْمُومَ يُصَلِّي خَلْفَه، عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَمَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ خَلْفَ الْإِمَامِ الْفَاجِرِ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ. وَالصَّحِيحُ أنه يُصَلِّيهَا وَلَا يُعِيدُهَا، فَإِنَّ الصَّحَابَة - رضي الله عَنْهُمْ - كَانُوا يُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ خَلْفَ الْأَئِمَّةِ الْفُجَّارِ وَلَا يُعِيدُونَ، كَمَا كَانَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي خَلْفَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ، وَكَذَلِكَ أَنَسٌ ﷺ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وغيره يُصَلُّونَ خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، حتى إنه صلى بِهِمُ الصُّبْحَ مَرَّةً أَرْبَعًا، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ ؟! فَقَالَ له ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا مَعَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ فِي زِيَادَة[1]!!

وفي «الصَّحِيحِ»: أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ لَمَّا حُصِرَ صلى بِالنَّاسِ شَخْصٌ، فَسَأَلَ سَائِلٌ عُثْمَانَ: إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّة، وَهَذَا الذي صلى بِالنَّاسِ إِمَامُ فِتْنَة ؟ فَقَالَ: (يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ الصلاة مِنْ أَحْسَنِ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنُوا فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ)[2].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٧) دون قول ابن مسعود ﷺ، وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٥٥٤) بتمامه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥).

وَالْفَاسِقُ وَالْمُبْتَدِعُ صَلَاتُه في نَفْسِهَا صَحِيحَة، فَإِذَا صلى الْمَأْمُومُ خَلْفَه لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُه، لَكِنْ إِنَّمَا كَرِه مَنْ كَرِه الصلاة خَلْفَه؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَة وَفُجُورًا لَا يُرَتَّبُ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ، فإنه يَسْتَحِقُّ التَّعْزِيرَ حتى يَتُوبَ، فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُه حتى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا، وَإِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه وصَلَّى خَلْفَ غيره أَثَّرَ ذَلِكَ في إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ حتى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يَنْتَهِي النَّاسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِه، فَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَة شَرْعِيَّة، وَلَمْ تَفُتِ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَلَا الجَمَاعَة.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ تَرْكُ الصلاة خَلْفَه يُفَوِّتُ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَالجَمَاعَة، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصلاة خَلْفَه إِلَّا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصَّحَابَة رضي الله عَنْهُمْ.

وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْإِمَامُ قَدْ رَتَّبَه وُلَاةُ الْأُمُورِ، لَيْسَ فِي تَرْكِ الصلاة خَلْفَه مَصْلَحَة شَرْعِيَّة، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصلاة خَلْفَه، بَلِ الصلاة خَلْفَ الأفضل أَفْضَلُ، فَإِذَا أَمْكَنَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَا يُقَدِّمَ مظهرًا لِلْمُنْكَرِ في الْإِمَامَة، وَجَبَ عليه ذَلِكَ، لَكِنْ إِذَا وَلَّاه غيره، وَلَمْ يُمْكِنْه صَرْفُه عَنِ الْإِمَامَة، أَوْ كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَرْفِه عَنِ الْإِمَامَة إِلَّا بِشَرٍّ أَعْظَمَ ضَرَرًا مِنْ ضَرَرِ مَا أَظْهَرَ مِنَ الْمُنْكَرِ، فَلَا يَجُوزُ دَفْعُ الْفَسَادِ الْقَلِيلِ بِالْفَسَادِ الْكَثِيرِ، وَلَا دَفْعُ أَخَفِّ الضَّرَرَيْنِ بِحُصُولِ أَعْظَمِهِمَا، فَإِنَّ الشَّرَائِعَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ المَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ المَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. فَتَفْوِيتُ الجُمَعِ وَالجَمَاعَاتِ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنْ الِاقْتِدَاءِ فِيهِمَا بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ التَّخَلُّفُ عَنْهَا لَا يَدْفَعُ فُجُورًا، فَيَبْقَى تَعْطِيلُ المَصْلَحَة الشَّرْعِيَّة بِدُونِ

دَفْعِ تِلْكَ المَفْسَدَة.

وَأَمَّا إِذَا أَمْكَنَ فِعْلُ الجُمُعَة وَالجَمَاعَة خَلْفَ الْبَرِّ، فَهَذَا أولى مِنْ فِعْلِهَا خَلْفَ الْفَاجِرِ. وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا صلى خَلْفَ الْفَاجِرِ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، فَهُوَ مَوْضِعُ اجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ، مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُعِيدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُعِيدُ. وَمَوْضِعُ بَسْطِ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

وَأَمَّا الْإِمَامُ إِذَا نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ، وَلَمْ يَعْلَمِ المَأْمُومُ بِحَالِه، فَلَا إِعَادَة على المَأْمُومِ، لِلْحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ. وَقَدْ صلى عُمَرُ ﷺ وغيره وَهُوَ جُنُبٌ نَاسِيًا لِلْجَنَابَة. فَأَعَادَ الصلاة، وَلَمْ يَأْمُرِ المَأْمُومِينَ بِالْإِعَادَة. وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ إِمَامَه بَعْدَ فَرَاغِه كَانَ على غَيْرِ طَهَارَة، أَعَادَ عِنْدَ أبي حنيفة، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِي وَأَحْمَدَ فِي المَشْهُورِ عنه. وَكَذَلِكَ لَوْ فَعَلَ الْإِمَامُ مَا لَا يَسُوغُ عِنْدَ المَأْمُومِ. وفيه تَفَاصِيلُ مَوْضِعُهَا كُتُبُ الْفُرُوعِ. وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ إِمَامَه يُصَلِّي على غَيْرِ وُضُوءٍ!! فَلَيْسَ له أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَه؛ لأنه لَاعِبٌ، وَلَيْسَ بِمُصَلٍّ.

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بالصلاة خلف الولاة وخلف الأئمّة، ولا شكّ أنّ إمام المسلمين الذي يصلّي بهم، والذي يحكم فيهم، والذي يؤمّهم في الصلوات؛ الجمع والأعياد ونحوها، يجب أن يُختار من هو أهلٌ ومن هو كفء، وقد ثبت قول النبي ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كانت قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً

فَلْيَؤُمَّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا»(١).

وقد ذكر العلماء ترتيب الأئمّة على هذا الحديث، فقالوا: إنّ الأقرأ إذا كان علمًا بفقه الصلاة، فإنّه يقدّم على غيره، بشرط معرفته لأحكام الصلاة، فإذا استوى اثنان أو أكثر، قدِّم من هو أوسع علمًا بالسنّة، يعني: بالأحاديث النبويّة وصحيحها وما يتّصل بها، فإذا استوى في ذلك مع غيره، يقدّم من هو أقدم علمًا وأقدم هجرة، ثم بعد ذلك يقدّم أكبرهم سنًّا، ثم بعد ذلك يقدّم أتقاهم وأخشاهم وأورعهم.

ومعلوم أنّ ولاة الأمور سابقًا كانوا هم الذين يخطبون بالناس، وهم الذين يصلون بهم الجماعة أو الجمع والأعياد. فكان الخليفة أو الأمير هو الذي يتولّى الإمامة، وقد يكون فيهم بعض من النّقص، وبعض من الخلل، ولكنّهم لما تولّوا بالقوة، ولما كان لهم سيطرة وقوة وولاية، كانت طاعتهم واجبةً، لما في مخالفتهم ومعصيتهم من المفاسد الكبيرة؛ فإن معصية ولاة الأمور ومخالفتهم، وترك الصلاة خلفهم وتضليلهم، وترك طاعتهم يسبّب الشقاق والفتن والظلم والضرب والحبس والقتل، وتفريق الكلمة، وإساءة الظنّ وما أشبه ذلك؛ فجاءت الشريعة بالسمع والطاعة لولاة الأمور، حتّى قال النبي ﷺ لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»(٢). وما ذاك إلا لأن في الطواعية والانقياد لهم جمع لكلمة المسلمين،

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٧).

وعدم التفريق لهم.

فإذا كان الوالي هو الذي يتولّى الإمامة، ويتولى الخطبة والصلاة وقيادة الجهاد ويتولى إمارة الحجّ، فإنّهم يصلّون خلفه، ولا يتركون ذلك، وهذا فيما إذا لم يُوجد غيره، وكان المسلمون لا يصلّون إلا في مسجد واحد، وإمام هذا المسجد هو الأمير، وإذا كان فيه شيء من النقص أو الخلل في دينه أو عنده ذنب أو إصرار على معصية، أو نقص شيء من الطاعات؛ فالصلاة خلفه خير من الانفراد وأفضل من أن تصلّي وحدك، وأن تترك الجمعة والجماعة، أو تترك العيد أو ما أشبه ذلك، هذا هو الواجب على المسلم.

وقد ذكر الشارح أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يصلّون خلف أولئك الولاة، فالحجّاج الذي عرفنا أنّ ابن عمر وأنسًا ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يصلّون خلفه، كان مشهورًا بإراقة الدماء، ولذلك عدُّوه فاسقًا، وإن لم يكن فاسقًا في الاعتقاد، وإن لم يكن مخلًا بالعبادات، ولم يُذكر عنه شيء من اقتراف المحرّمات، بل كان شديدًا على العصاة، فكان يقيم الحدود، وكان يجلد الزناة وشاربي الخمر، وينهى عن سماع الغناء وما أشبه ذلك، ولم ينقل عنه إلا أنه كان في سيفه رهق. فقتل كثيرًا من المسلمين وإن كان قتلهم متأوّلًا، وبكلّ حال فقد جعلوه من العصاة بذلك، ومع ذلك كان يؤمّ الناس في عرفة، ويصلّي خلفه أنس بن مالك ﷺ.

وكذلك في عهد عبد الله بن مسعود ﷺ، كان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أميرًا لعثمان ﷺ على الكوفة ، وكان متهاونًا بشيء من المحرّمات، فكان يشرب

الخمر؛ فصلّى بهم مرة وهو سكران، حتّى صلّى بهم الصبح أربعًا، والتفت إليهم، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود ﷺ: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة!.

ومع ذلك ما تركوا الصلاة؛ لأنّهم إذا تركوها صلّوا فرادى، ولا شكّ أنّ في هذا شيئًا من ترك السنّة وترك الجماعة؛ فالصلاة مع الجماعة ولو كان ذلك الإمام الذي فرض نفسه والتزم بذلك فيه شيء من الخلل والنقص، لا ينقص من صلاة المصلّي خلفه شيء.

وكما علمنا فإن الصلاة من أحسن الأعمال؛ فإذا أحسنوها وأحسنوا ركوعها وسجودها وخشوعها وقراءتها وجميع ما يشترط فيها، فهي عملٌ صالح مبرور، فليس لنا أن نترك الصلاة خلفهم لأجل فسقهم ما دام أنّهم يقيمون الصلاة كما ينبغي، وبالصلاة وبإظهارها يحكم بأنّهم مسلمون، فإنّ من صلّى حكم بأنّه مسلم، ويعامل معاملة المسلمين، ولذلك قال ﷺ في أمراء السوء: «**سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ من رضي وَتَابَعَ**»، قالوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قال: «**لَا ما صَلَّوْا**»[1]، أي: ما داموا يصلّون ويقيمون الصلاة، والصلاة من أحسن الأعمال، فلا تخرجوا عليهم، ولا تقاتلوهم، ولا تقتلوهم، فهذا في ولاة الأمور.

فإذا لم يكن هناك أئمة وولاة، وكان الإمام ـ كما في هذه الأزمنة ـ هو الذي يوكل من قبل ولاة الأمور، فإنّه يختار للإمامة الأكفاء والورِعون، ويعزل عنها

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

المبتدع والعاصي الذي يعرف بمعصيته؛ فإذا عُرف أنّ هذا الشخص يتظاهر بمعصية، أو يفعل ذنبًا من الذنوب فلا يجوز أن يعيّن إمامًا مرتّبًا، بل إذا علم منه الناس هذا الذنب، فإن على الناس أن يؤخّروه ويسعوا في خلعه وإبعاده، أما لو لم يقدروا، فالصلاة خلفه أيضًا صحيحة إذا أتمّها، ولكن إذا وجد من هو أحسن منه، فليصلِّ خلف الحسن. فإذا رأيت إمام المسجد يستحلّ سماع الغناء أو يسكر أو يدخّن أو يحلق لحيته أو يسبل ثوبه أو يؤوي الفسقة والأشرار، أو يؤيّدهم، أو يتأخّر عن بعض الصلوات، أو يتركها، وأنت تعلم ذلك منه، وتجد إمامًا في مسجد آخر ـ ولو كان بعيدًا ـ تقيًا ورعًا محافظًا على العبادة، تاركًا للذنوب والآثام، فلا شكّ أنّ صلاتك خلف هذا الإمام أولى من صلاتك خلف العاصي.

أما لو كان ترك الصلاة خلف ذلك الوالي بسبب ابتداعه؛ فلو مثلًا هناك من أُلزمنا بالصلاة خلفه، وهو إمّا شيعيّ أو قبوريّ أو صوفيّ، ومع ذلك بيّنّا له، فأصرّ على معتقده، وصار إمامًا يصلي بهذا المسجد، فكوننا نصلّي خلفه فيه إقرار لهذه البدعة وتقوية لها، فعلينا أن نسعى في إزالته ونسعى في إبعاده، فإن لم نستطع، وكان في ترك الصلاة خلفه تنبيه للنّاس على بدعته، تركنا الصلاة خلفه، وذهبنا إلى المساجد الأخرى، لاسيّما إذا كان ترك الجماعة من الذين لهم كلمة مسموعة يسبب توبته ورجوعه عن بدعته ومعتقده؛ فيقول: قد ترك هؤلاء الصلاة خلفي؛ لأنّهم عرفوا أنّ ما أفعله خطأ. فيرجع إلى نفسه ويتوب، سواء كان الذي فيه بدعة أو معصية، فيرجع عن بدعته التي هي تعظيم القبور أو سبّ الصحابة، كما يفعل الرافضة، أو اعتقاد تفضيل بعض الصحابة على الخلفاء الأربعة أو نحو ذلك، أو

مـذهب المتـصوّفة الـذين يـدّعون أنّ الـولي أفـضل مـن النبـيّ، أو أنّ أوليـاءهم يستطيعون أن يأخذوا من الملأ الأعلى أو ما أشبه ذلك من عقائد المتصوّفة الباطلة، أو يعمل معصية ظاهرة، كأن يحلق لحيته أو يشرب الدخان؛ فإذا ترك الناس الصلاة خلفه ارتدع وعلم أنّه مخطئٌ، وأنّ الناس ما تركوا الصلاة خلفه إلا أنّهم أنكروه، وأنّ الصواب الذي معهم أقرب من الصواب الذي معه، وأنّهم هم مجموعةٌ كبيرةٌ، فلا يمكن أن يكون هو المصيب وهم المخطئون مع كثرتهم.

فإذًا نقول: تترك الصلاة خلف الإمام إن كان في ذلك فائدة، هذا إن وجد غيره، أما إن لم يوجد غيره فإن الصلاة خلفه مجزئة، وأفضل من الصلاة على الانفراد كما ذكرنا. وبكلّ حال فالصلاة خلف الولاة إذا لم يوجد غيرهم لازمة وواجبة، ولا يجوز الانفراد عنهم، ولو كانوا عصاة.

فنحن كثيرًا ما ندخل المساجد ونجد جماعة من الناس يصلّون، وقد قدّموا واحدًا أنت تعرف أنّه يدخّن، أو تراه مسبلًا، أو تراه حليقًا تعرف منه ما لا يعرف هؤلاء الذين يصلّون خلفه؛ فماذا تفعل؟ نقول: صلِّ خلفه ولا تصلّ وحدك، وذلك لأنّه في هذه الحالة صلاته عارضة ليست مستمرّة، أما إذا رُتِّب إمامًا في مسجد وقد عرف بالفسق والفجور وسماع الأغاني، وبالنظر إلى الصور المحرّمة، وبمغازلة النساء وبالتساهل مع نسائه، أو إباحة السفور في أهله، فإذا عُرف منه ذلك؛ فلا يجوز إقراره على إمامة المسلمين؛ لأنّ في ذلك إظهارًا لمنكره وتمكينًا له، فإنّ كونه يتولّى الإمامة فيه شيء من تشجيعه وتقديمه ورفع مكانته ومستواه، وذلك رفع للباطل على الحقّ. فعلى جماعة المسجد أن يجتمعوا جميعًا ويسعوا في

عزله عن الإمامة أو عن الخطابة، وأن يسعوا لاستبداله بمن هو كفءٌ، وعلى المسؤولين - بعد أن يتأكّدوا من صحّة تهمته وممّا رمي به - أن لا يقرّوه على الإمامة، فإقراره فيه تقوية للمنكر، وإظهار لأهل المنكر، وعزلُه فيه إذلال وإهانة للعصاة، وردع لهم عن التظاهر بالمعاصي.

وعلى كلّ حال، فمعلومٌ أنّ صلاة الجماعة من واجبات الإسلام، وأنّ المسلمين مأمورون أن يجتمعوا في مساجدهم، وأن يقدّموا واحدًا منهم يصلون خلفه، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، يتابعونه في الرفع والخفض والحركات، كما هو معلوم في كتب الفروع، ولكن لا بدّ أن يكونوا جميعًا يقتدون بالإمام، ولا بدّ أن يكون الإمام قدوةً؛ حسنة وذلك لأنّه سمِّيَ إمامًا، والإمامُ هو القدوة الذي يؤتمّ به، كما في قوله ﷺ: «**إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ**»[1].

يبقى عندنا ما أشار إليه الشارح من مسائل فروعيّة، وذكر أن الكلام عليها واسع في محلّه في كتب الفروع وهو صحيح.

مثلًا من صلّى محدثًا حدثًا أكبر أو أصغر، وصلّى الناس خلفه وهم لا يعرفون حدثه فما الحكم؟ هذه مسألة فروعيّة، وقد فرّق فيها العلماء بين ما إذا علم بالحدث وهو في نفس الصلاة، فاستمرّ فيها؛ فإنّهم يعيدون، وما إذا لم يتذكّر إلا بعدما انصرف، فإنّهم لا يعيدون، واستدلّ على ذلك بقصّة عمر ﷺ: أنّه صلى مرةً الصبح بالجماعة، فلمّا أصبح رأى على ثوبه أثر احتلام، فاغتسل وأعاد الصلاة، ولم

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨)، ومسلم (٤١١) من حديث أنس ﷺ.

يأمرهم بالإعادة. هذا هو القول المشهور.

وقد رُويَ عن عليّ ﷺ أنّه صلّى مرة بجماعة محدثًا بالكوفة، ولما كان بعد عدّة أيام تذكّر أنّه صلى بهم ذلك الوقت وهو محدث، فأمر مناديًا ينادي: من صلّى مع أمير المؤمنين في اليوم الفلاني الصلاة الفلانيّة فليعد الصلاة. ولعلّ هذا من باب الاجتهاد عند عليّ ﷺ.

ومن المسائل الفروعية التي ذكرها الشارح: إذا ترك الإمام شيئًا من الصلاة يعتقد المأموم أنّه واجب، والإمام يعتقد بأنّه ليس بواجب، ففي هذه الحال الصلاة صحيحة صلاة الإمام وصلاة المأموم، وقد كانت هناك مخالفات بين الشافعي ومالك - ومالك شيخ الشافعي -، فالشافعي يرى وجوب الجهر بالبسملة، ومالك لا يرى البسملة من الفاتحة، فقيل للشافعي: هل نصلّي خلف من يتبع الإمام مالكًا؟ فقال: ألست أصلّي خلف مالك؟ ومع ذلك كان يصلّي خلفه وهو لا يقرأ البسملة، والشافعي يراها واجبة.

وكذلك رفع اليدين عند الركوع وعند الرفع من الركوع لا يراه الحنفيّة، والشافعيّة ونحوهم يرونه من السنّن المؤكّدة؛ فإذا تركه الإمام الحنفي وصلى خلفه الشافعيُّ أو الحنبليُّ، فصلاتهم صحيحة، ولا خلاف في ذلك؛ لأنّه صلّى خلف إمام مجتهد رأى أنّ ذلك من جملة صلاته، وهكذا مثلًا التأمين في الصلاة: بعض الأئمّة يرونه مبتدعًا، حتى إن الحنفيّة يبطلون الصلاة خلفه، فالحنفي إذا صلّى خلف شافعي وأمّن لا تبطل صلاته؛ لأنّه مجتهد، ولكلّ مجتهد نصيب، وتفريعُ المسائل والخلاف مذكور في كتب الأحكام.

قال الشارح:

وَقَدْ دَلَّتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ والسنة وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ أَنَّ وَلِي الْأَمْرِ، وَإِمَامَ الصلاة، وَالْحَاكِمَ، وَأَمِيرَ الْحَرْبِ، وَعَامِلَ الصَّدَقَةِ، يُطَاعُ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ، وَلَيْسَ عليه أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَه فِي مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ، بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُه فِي ذَلِكَ، وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِه، فَإِنَّ مَصْلَحَةَ الْجَمَاعَةِ وَالِائْتِلَافِ، وَمَفْسَدَةَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، أَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ الْمَسَائِلِ الْجُزْئِيَّةِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ لِلْحُكَّامِ أَنْ يَنْقُضَ بَعْضُهُمْ حُكْمَ بَعْضٍ. وَالصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ به صِحَّةُ صلاة بَعْضِ هَؤُلَاءِ خَلْفَ بَعْضٍ.

ويُرْوَى عَنْ أَبِي يُوسُفَ: أنه لَـمَّا حَجَّ مَعَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَاحْتَجَمَ الْخَلِيفَةُ، وَأَفْتَاه مَالِكٌ بِأَنَّه لَا يَتَوَضَّأُ، وصلى بِالنَّاسِ، فَقِيلَ لأَبِي يُوسُفَ: أَصَلَّيْتَ خَلْفَه؟ قَالَ: سُبْحَانَ الله! أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ تَرْكَ الصلاة خَلْفَ وُلَاةِ الْأُمُورِ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ.

وَحَدِيثُ أَبِي هريرة، الذي رواه البخاري[1]، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»، نَصٌّ صَحِيحٌ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا أَخْطَأَ فَخَطَؤُه عليه، لَا على الْمَأْمُومِ، وَالْمُجْتَهِدُ غَايَتُه أنه أَخْطَأَ بِتَرْكِ وَاجِبٍ اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ وَاجِبًا، أَوْ فَعَلَ مَحْظُورًا اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ مَحْظُورًا. وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُخَالِفَ هَذَا الْحَدِيثَ الصَّرِيحَ الصَّحِيحَ بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَه، وَهُوَ حُجَّةٌ على مَنْ يُطْلِقُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا تَرَكَ مَا يَعْتَقِدُ

---

(١) برقم (٦٩٤).

المَأْمُومُ وَجُوبَه لَمْ يَصِحَّ اقْتِدَاؤُه به!! فَإِنَّ الاجْتِمَاعَ وَالائْتِلَافَ مِمَّا يَجِبُ رِعَايَتُه، وَتَرْكُ الخِلَافِ المُفْضِي إلى الفَسَادِ.

قال الشيخ:

وردت أدلّة في طاعة ولاة الأمور مذكورة في كتب الأحكام والعقائد، وكلّ يطاع بحسب ولايته، وكلٌّ له ولاية تخصّه، فهناك الخليفة الذي تحت ولايته جميع المسلمين، في شرق الأرض وغربها، كما كان الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أميّة وخلفاء بني العباس؛ كانت خلافتهم عامّة لجميع البلاد الإسلاميّة، فطاعتهم فيما أمروا به إذا لم يكن فيها معصية فهي طاعة لله، ثبت عنه ﷺ: «**من أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»(١)؛ هذه ولاية عامّة، وهناك ولاية أخصّ منها مثل: ولاية أمير الحجاج، وولاية أمير المجاهدين، والناس المسافرون مأمورون أن يؤمّروا أميرًا عليهم ولو كان سفرًا قصيرًا، إذا كانوا جماعة، كما في بعض الأحاديث عن النبيّ ﷺ قال: «**إذا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ**»(٢)، وهذا الأمير الذي أمّروه لا يحلّ لهم أن يعصوه ما لم يأمرهم بمعصية؛ فلا سمع ولا طاعة إلا في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، والطبراني في الأوسط (٨/ ١٠٠)، والبيهقي (٥/ ٢٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

طاعة الله ورسوله.

وفي حديث عَلِيٍّ ﷺ قال: بَعَثَ النبي ﷺ سَرِيَّةً، فَاسْتَعْمَلَ عليها رَجُلًا من الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ فقال: أَلَيْسَ أَمَرَكُمْ النبي ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قالوا: بَلَى، قال: فَاجْمَعُوا لي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فقال: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا، فقال: ادْخُلُوهَا، فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إلى النبي ﷺ من النَّارِ، فما زَالُوا حتى خَمَدَتْ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النبي ﷺ، فقال: **«لو دَخَلُوهَا ما خَرَجُوا منها إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ في المَعْرُوفِ»**(١). أمرهم بطاعته، ولكن بيّن في هذا الحديث أنّ الطاعة إنّما تكون فيما كان معروفًا، وأما مثل هذا فلا يكون. وقد ثبت عن النبيّ ﷺ قوله: **«لَا طَاعَةَ لِـمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»**(٢). فإذا أمر الوالي بمعصية فلا سمع ولا طاعة، وإذا أمر بطاعة أو أمر بما فيه مصلحة، فإنّ أتباعه يطيعونه، ولا يخرجون عن طاعته. هذه وظيفة أتباعه.

فإن كانت إمارة في بلد ما، أو كان هناك أمير على جيش أو سريّة أو غزو، أو أمير على حجاج، أو عامل القوم الذي يجمع الزكاة، فإن كلّ هؤلاء لهم إمارة كلّ بحسبه، وكذلك لو جعل رئيسًا لمؤسسة من المؤسسات أو مديرًا لدائرة من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٦٦)، والطبراني في الكبير (٣٨١) من حديث عمران بن حصين ﷺ، وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (٢٦٢٦)، وفيه: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ على المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ما لم يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فإذا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ ولا طَاعَةَ».

الدوائر، وجعل تحته من يخدمه، أو يعمل فيها فإنّهم تحت ولايته، وعليهم أن يفعلوا ما يأمرهم به بشرط أن لا يكون هناك معصية تخالف نصًا صريحًا، فهذه وظيفة هؤلاء الناس، ينفّذون ما أمرهم أميرهم في الطاعة.

ولكن بكلّ حال؛ الطاعة بقدر المصلحة التي يأمرون فيها، ومعلوم أنّ ولايتهم إنّما هي خاصّة، فإذا كان الإنسان خارجًا عن ولايتهم؛ كأن يكون انتهى عمله معهم، أو كان في بيته؛ فليس لهم ولاية عليه. معلوم أنّ أمير الجيش أو أمير البلد أو أمير الدائرة أو نحوها أنّه بشر، وليس بمعصوم، وليست أقواله كلّها صحيحة أو واقعيّة، بل كثيرًا ما يفعل الشيء ويكون عن اجتهاده، فعلى أتباعه وزملائه ووزرائه أن يشيروا عليه بما فيه المصلحة، وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه، ويقبل إشارتهم، ويقبل اقتراحاتهم:

ومن ذلك أن الرسول ﷺ لما نزل عند أدنى ماء من بدر، قال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**»، فقال: يا رسول الله، فأن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم تغور ما وراءه من القلب، ثم نبنبي عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**»، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبني حوضًا على

القلب الذي نزل، فمُلِئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية[1].

ولَـمَّا جاء الأحزاب وأحدقوا بالمدينة، وكانوا من قريش وغطفان، أرسل النبي ﷺ إلى أمير غطفان وقال له: نريد أن ترجع بقومك ونعطيك ثلث ثمار المدينة، واستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فقالا: يا رسول الله، إن كنت أُمِرْت بشيء فافعله، وإن كان غير ذلك فوالله ما نعطيهم إلا السيف، فقال رسول الله ﷺ: **«لم أؤمر بشيء، وإنما هو رَأيٌ أعرضه عليكما»**، قالا: يا رسول الله ما طمِعوا بذلك منا قط في الجاهلية، فكيف اليوم وقد هدانا الله بك؟ فسُرَّ النبي بقولهما[2]. فدل ذلك على أن أتباع الوالي يشيرون عليه، ويهيؤون له النظرة المناسبة.

نقول: لا شكّ أنّ الولاة ليسوا بمعصومين، وأنّ أتباعهم مأمورون بأن ينصحوهم، وأن يدلّوهم على ما فيه المصلحة لهم وللمجتمع، ولكن إذا اختير للولاية الكفء أو الحاكم الذي تجتمع فيه الصفات التي تؤهّله لهذا المنصب فليس لأحد الاعتراض عليه، إلا على وجه النظر، أو على وجه الإشارة.

إنّ مبنى عقيدة الإسلام على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وعلى طاعة الله، وطاعة رسوله، وقد وردت الأدلّة في تأكيد الأمر بالطاعة، والنهي عن العصيان في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٢٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٩٤)، وذكره ابن هشام في السيرة (٤/ ١٨٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٣٠).

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح:١٧]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]، ومثل قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٩٢]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. وأخبر بأنّ طاعة الرسول من طاعة الله، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وأخبر النبيّ ﷺ بأنّ طاعة الله تعالى سبب لدخول الجنّة، وكذلك معصيته سبب لدخول النار، وأن طاعة الرسول ﷺ هي السبب أو العلامة لطاعة الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلا من أَبى»، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبى؟ قال: «من أَطَاعَنِي دخل الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبى»[1].

ومن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ طاعة أولي الأمر، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال النبيّ ﷺ: «من أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»[2]. وكان ﷺ يأمر بطاعة أولي الأمر كما في قوله: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[3]، وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٣٥).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[١].

وقد ذكر العلماء من عقيدة أهل السنّة طاعة ولاة الأمور الذين لهم الولاية، والسيطرة على البلاد والعباد، وطاعتهم تُعد جمعًا لكلمة المسلمين وقمعًا للمفسدين وردعًا للظالمين؛ لأنهم بولايتهم يثبت الحق ويظهر، وإذا لم يكن هناك ولاة صار الضعيف نهبًا للقويّ، ولم تثبت الكلمة، ولم يثبت الأمن، وحصلت الزعازع والفتن، وشرط في طاعتهم ألا تكون في معصية الله، ولا تخالف شيئًا من شرع الله. فلذلك ورد في الحديث أنّه ﷺ قال: «**لَا طَاعَةَ لِـمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[٢]، وقال: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ**»[٣].

وإذا كان اجتماع المسلمين على أميرهم أو على واليهم، فاجتماعهم فيه مصلحة، فإن من تمام مصلحتهم وتمام طمأنينتهم وحياتهم وسعادتهم ألاّ ينزعوا يدًا من طاعة، وألا يخالفوا جماعة المسلمين، وألا ينبذوا إليهم أمرهم، وألا ينقضوا بيعتهم، وبذلك تثبت البلاد وتطمئن، ويأمن العباد على أنفسهم وعلى أموالهم، وبذلك يؤخذ الحق للمظلوم من الظالم، ويقهر على الحقّ، ويلزم عليه، ويضرب على يد الظالم بيد من حديد، فتأمن البلاد كلّها، ويذهب عنها الخوف والفتن والزعازع، لأجل هذا أمرنا بطاعة ولاة أمورنا.

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٦٤٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٣).

(٣) تقدم تخريجه (٣/ ٦٥٣).

إنّ علينا جميعًا مسؤولية، وهي: أن ننصح مَنْ ولّاه الله علينا، فإن هذا من تمام العقيدة. وكان النبيّ ﷺ من جملة ما يأخذه على أصحابه في البيعة قوله: «أَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلاهُ اللَّهُ أَمَرَكُمْ»(١)، وهذه المناصحة تتمثّل في النصح لهم، وهو: أنّ نكون ناصحين لهم، والناصح هو المخلص، والنصح مشتقّ من قولهم: نصح العسل إذا خلَّصه وصفّاه. والمعنى ألاّ يكون في قلبه غلّ ولا حقد على مسلم، وأن يهدي لكلّ مسلم صغيرًا كان أو كبيرًا النصيحة، ويدلّه على الخير الذي يحبّه لنفسه، وبالأخصّ ولاة الأمور، وليست النصيحة مقتصرة على أن تحبّهم، وأن تخلص لهم المودّة، وأن تصفي لهم قلبك، ولا يكون في قلبك حقد ولا غلّ.

ولكنّ النصيحة تتمثل أيضًا بالتحذير من الشرور والدلالة على الخيرات، والإرشاد عند الهفوات، والتحذير من الزلّات، ونحوها، وولاة الأمور وكذلك من لهم ولاية؛ لأنّهم بشر، والبشر عُرضة للخطأ، والإنسان إذا أخطأ ينتظر البيان من إخوته وممّن تحته وممّن فوقه، وممّن أكبر منه، وممّن أصغر منه، ينتظر منهم جميعًا أن يرشدوه ويدلّوه ويهدوه إلى الحقّ ويبصّروه به، فإذا بيّنوا له، وبصّروه بالصواب، رجع إليه، وفرح أن يكون من رعيّته من يدلّه ومن يعينه، فيكون ذلك ردًّا له إلى الحق، وخيرًا للأمّة، وللولاة.

أما إذا تُرِكَ الولاة على ما هم عليه من الخطأ، إن كانوا معتقدين أنّ ما هم فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)، وابن حبان (٨/ ١٨٢)، والبيهقي (٨/ ١٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الصواب، ولم يرشدهم من هو حولهم من وزير أو أمير أو أخ أو صديق أو عالم، ولم يبيّنوا لهم ما يعلمونه، فإنّها تعظم بذلك المصيبة، وكل عاقل من ولاة الأمور، وكل ناصح وكلّ محبّ تقيّ مؤمن؛ يفرح ويسرّ إذا أبديت له النصيحة، وإذا أظهرت له الزلّة التي زلّها، والكلمة التي أخطأ فيها، فيرجع إلى الصواب، ويعود إلى طريق الحق، وهذه الصفة التي يلزم أن يكون عليها كلّ أحد من صغير وكبير وأمير ومأمور، فإذا كانت الأمّة كذلك؛ يحبّون لولاتهم ما يحبّونه لأنفسهم، وينصحون لهم ويطيعونهم، وكذلك يرشدونهم وينبّهونهم إلى الصواب، فعند ذلك تجتمع كلمة الأمّة، وبذلك يظهر الحقّ ويقوى أهله، هذا هو الواجب في حقّ ولاة الأمور.

أمّا العامّة فواجب علينا أن ننصح لهم؛ لأنّهم من جملة إخواننا، وقد جعل الله النصيحة لهم بعد النصيحة للولاة؛ فأمر بأن ننصح العامة والنصيحة للعامة تتمثّل بإرشادهم إلى الخير، وتحذيرهم من الشر، ودلالتهم عليه، وإرشاد ضالّهم، وتعليم جاهلهم، وتنبيه غافلهم، وأمرهم بالخير ودوام حثّهم عليه، ونهيهم عن الشرّ وتحذيرهم منه، وما أشبه ذلك، وهم إذا كانوا عقلاء أتقياء، فرحوا بالنصيحة وقبلوها، وسرّوا بمن نصحهم وشجّعوه والتزموا بأن يؤدّوا النصيحة إلى أبنائهم وإخوانهم وأحفادهم، فعند ذلك تنتشر الشريعة والعمل بها، وتظهر كلمة الله التي وعد بإظهارها، ويظهر دين الله على الدين كلّه.

وكذلك من عقيدة المسلمين أنّهم يدينون بالطاعة لولاة أمورهم، وأنّهم يصلّون على أهل التوحيد الذين يقولون: لا إله إلا الله، وأنّهم لا ينزعون يدًا من

طاعة؛ فإذا التزموا بذلك كلّه سكنت أمورهم، واستقرّوا في حياتهم، وعملوا بشريعتهم، فإذا عرفوا ذلك، عرفوا أنّ عقيدة الإسلام جاءت بكلّ ما فيه الأمن والاستقرار.

قال الشارح:

وقوله: (وعلى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ)، أي: وَنَرَى الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَإِنْ كَانَ يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ الْبُغَاة وَقُطَّاعُ الطَّرِيقِ، وَكَذَا قَاتِلُ نَفْسِه، خِلَافًا لأَبِي يُوسُفَ، لَا الشَّهِيدُ، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِي رَحِمَهُمَا الله، على مَا عُرِفَ فِي مَوْضِعِه. لَكِنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا سَاقَ هَذَا لِبَيَانِ أَنَّا لَا نَتْرُكُ الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ، لَا لِلْعُمُومِ الْكُلِّي.

وَلَكِنِ الْمُظْهِرُونَ لِلْإِسْلَامِ قِسْمَانِ: إِمَّا مُؤْمِنٌ، وَإِمَّا مُنَافِقٌ، فَمِنْ عُلِمَ نِفَاقُه لَمْ تَجُزِ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ وَالِاسْتِغْفَارُ له، وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ ذَلِكَ منه صُلِّي عليه. فَإِذَا عَلِمَ شَخْصٌ نِفَاقَ شَخْصٍ لَمْ يُصَلِّ هُوَ عليه، وَصَلَّى عَلَيْهِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ نِفَاقَه، وَكَانَ عُمَرُ ﷺ لَا يُصَلِّي على مَنْ لَمْ يُصَلِّ عليه حُذَيْفَة؛ لأنه كَانَ فِي غَزْوَة تَبُوكَ قَدْ عَرَفَ الْمُنَافِقِينَ، وَقَدْ نَهَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، وَأَخْبَرَ أنه لَا يَغْفِرُ لَهُمْ بِاسْتِغْفَارِه، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ بالله ورسوله، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بالله ورسوله لَمْ يُنْه عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ له مِنَ الذُّنُوبِ الِاعْتِقَادِيَّة الْبِدْعِيَّة أَوِ الْعَمَلِيَّة الْفُجُورِيَّة مَا له، بَلْ قَدْ أَمَرَه الله تعالى بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد:١٩]، فَأَمَرَه سبحانه بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ لِنَفْسِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، فَالتَّوْحِيدُ أَصْلُ الدِّينِ، وَالِاسْتِغْفَارُ له وَلِلْمُؤْمِنِينَ كَمَالُه. فَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَة وَالرَّحْمَة وَسَائِرِ الْخَيْرَاتِ، إِمَّا وَاجِبٌ وَإِمَّا مُسْتَحَبٌّ، وَهُوَ على نَوْعَيْنِ: عَامٍّ وَخَاصٍّ، أَمَّا الْعَامُّ

فَظَاهِرٌ، كَمَا في هذه الآية، وَأَمَّا الدُّعَاءُ الخَاصُّ، فَالصَّلَاة على المَيِّتِ، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إِلَّا وَقَدْ أُمِرَ المُؤْمِنُونَ أَنْ يُصَلُّوا عليه صلاة الجَنَازَة، وَهُمْ مَأْمُورُونَ في صَلَاتِهِمْ عليه أَنْ يَدْعُوا له، كَمَا روى أَبُو دَاوُدَ[1] وَابْنُ مَاجَه[2] عَنْ أبي هريرة ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ على المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا له الدُّعَاءَ».

قال الشيخ:

نحن مأمورون بأن نحسن الظنّ بالمسلمين، وألا نحكم على مسلم يتظاهر بالإسلام بأنّه مرتدّ أو كافر؛ وذلك أن ظاهره من أهل الإسلام، ولو كان باطنه خفيًّا، فإنّنا نصلّي عليه بعد موته، ويدخل في ذلك كل من قال: لا إله إلا الله.

وأهل (لا إله إلا الله) هم أهل التوحيد، وهم أهل الإسلام، وهم أهل العلم والعمل، فيعملون بما توجبه (لا إله إلا الله)، ويتركون ما تحرّمه هذه الكلمة من المحرّمات، فإذا كانوا متمسّكين بذلك في الظاهر فإننا لا نكفّرهم، ونصلّي عليهم، ولو فعلوا هفوات، ولو صدر منهم زلاّت، ولو كانوا مذنبين، ولو رأينا منهم بعض الذنوب الظاهرة، لم نحكم بكفرهم، ولم نحكم بخروجهم من الإسلام؛ لأنّ من عقيدة أهل السنّة أنّهم لا يُكفّرون بالذنوب، ولو كانت ما كانت، ما لَمْ تصل إلى الشرك، إلا ما ورد التكفير به كترك الصلاة، أي الإصرار على تركها،

---

(١) برقم (٣١٩٩).

(٢) برقم (١٤٩٧).

وقد ورد الأمر في أنه يشبه الكفر أو تسميته كفرًا.

وأمّا بقيّة الأعمال؛ فإذا أطلق على بعضها كفر، فإنّه يراد بها الكفر العملي. كقوله ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّيَاحةُ عَلى المَيِّتِ»(١). كون الإنسان يطعن في غيره ويقول له: لست من قبيلة فلان، ولست من بني فلان، ونحو ذلك. هذا أطلق عليه كفر، ولكنّه كفر عمليّ، والنياحة: هي الصياح على الميت، أطلق عليه أنه كفر، وهو كفر عمليّ، وكل هذه لا توجب أن نتبرأ من هذا الإنسان، ولا نترك الصلاة عليه، بل هو أولى بأن يصلّى عليه، فالمسلم الذي وقعت منه ذنوب يصلّى عليه، ولا تترك الصلاة عليه، ولو كان قد زنى، أو سرق، أو أكل مال اليتيم، أو تولى عن الزحف وما أشبه ذلك، ما عدا الذنوب التي توقعه في الكفر؛ من المكفّرات المشهورة التي إذا فعلها وقع في الكفر كالذي يسب الله، أو يسبّ الرسول ﷺ، أو يتنقّص دين الإسلام، أو نحو ذلك، فإنّ هذه تعدّ ردّة وخروجًا من الإسلام، وبكلّ حال فالمعاصي التي دون الشرك ودون الكفر يصلَّى على أهلها.

هناك المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون للناس أنّهم مؤمنون. هؤلاء لا يعلم النّاس بواطنهم، فيُصلّى عليهم عملًا بالظاهر؛ لأنهم يصلّون معنا، ويجاهدون معنا، ويصومون ويفطرون مع المسلمين، فلا يصل بهم الأمر إلى الكفر، إلا إذا كانوا يبطنون الكفر في أنفسهم، فأمرهم بينهم وبين الله، ولكن إذا

---

(١) تقدم تخريجه (٣/ ٢٣٣).

عُلم من إنسان نفاق حقيقي وظهر منه ما يدلّ على نفاقه، وإضماره الكفر، وأنّه ما أسلم ولا عمل هذه الأعمال إلا تسترًا؛ فإنّه والحالة هذه يحكم بكفره ولا يصلّى عليه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]. نهاه الله أن يصلّي على المنافقين الذين يعلم نفاقهم، والذين أطلعه الله على بعضهم، وبعضهم لم يعلم به، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة:١٠١]. فالنبيّ ﷺ قد لا يعلم بعضهم، ولكن الله تعالى هو الذي يعلم أعيانهم، فأطلعه على بعضهم، والذين أطلعه عليهم نهاه أن يصلّي عليهم، وأطلع النبيُّ ﷺ حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه على بعض أشخاص من المنافقين الذين همّوا بما لم ينالوا، فسمّاهم وأسرّهم إلي حذيفة رضي الله عنه، فكان حذيفة رضي الله عنه يُسمّى صاحب سرّ رسول الله ﷺ. ولهذا إذا قدّمت جنازة مشكوك فيها لم يصلّ عليها عمر رضي الله عنه حتى يجد حذيفة رضي الله عنه يصلّي عليها، فيعلم أنّ صاحبها ليس من المنافقين.

فإذا عُرِف من حال إنسان أنه منافق يؤذي الله ورسوله، ويؤذي المسلمين، ويؤذي الإسلام، ومع ذلك يتظاهر بأنه من المسلمين، فلا يصلّى عليه والحال هذه، بل إذا اطّلع على إلحاده وزندقته فإنّه يقتل؛ لأنّ ذلك ردّة وتبديلٌ للدين، عملًا بقول الرسول ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكذلك لا يصلّى على أهل البدع الذين يظهرون بِدَعَهم؛ مثل الرافضة الذين يظهرون للناس أنّهم يحبّون الإسلام، وأنّهم يحبّون القرآن، وما أشبه ذلك، ولكنّهم يُبطنون بغض الله وبغض رسوله، ويضمرون بغض الصحابة الذين حملوا كتاب الله، ويعتقدون أنّهم حرّفوا كتاب الله، وكذّبوا على رسول الله، ويبغضون أهل السنّة، فمثل هؤلاء أعداء لله، ويعدّون منافقين؛ لأنّهم في الحقيقة يضمرون الكفر، أو يضمرون البغض ويعملون بما يسمّى التقيّة، التي هي نوع من النفاق، وأشباههم من الملاحدة الذين يشكّ في عقيدتهم، فنترك الصلاة عليهم زجرًا عن أفعالهم، وزجرًا عن معتقداتهم.

أما بعض الأشخاص الذين تُركت الصلاة عليهم، فلا بدّ أنّ هناك سبب؛ فنقول مثلًا: من قتل نفسه، لم يصلِّ عليه الإمام الكبير أو العالم الكبير زجرًا عن هذا الفعل، ولكن هذا لا يمنع أن يصلّي عليه عامّة الناس؛ لأنّ ذنبه كبير.

وكذلك تُركت الصلاة على الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، لم يصلّ النبي ﷺ على شهداء المعركة؛ إما لعدم حاجتهم لذلك، أو لأنّهم والحال هذه يعتبرون من أتقى الأتقياء، ومن أهل الخير، وإما تخفيفًا لكربتهم؛ لأنّهم قد يكونون أعدادًا كبيرة.

فالأصل أنّنا نصلّي على أهل (لا إله إلا الله)، وأنّ الصلاة عليهم تنفعهم؛ لأنّ الميت قد انقطع عمله، فهو بحاجة إلى أن يدعو له إخوتُه المسلمون بالرحمة وبالمغفرة، ونحو ذلك.

ففي حديث عوف بن مالك ﷺ قال: صلى رسول اللّـهِ ﷺ على جَنَازَةٍ

فَحَفِظْتُ من دُعَائِهِ وهو يقول: «اللهم اغْفِرْ له وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عنه، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ من الخَطَايَا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ من الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا من دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا من أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا من زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ من عَذَابِ الْقَبْرِ، أو من عَذَابِ النَّارِ»، قال: حتى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أنا ذلك المَيِّتَ[1].

ولعلّ هذا لأجل أن يحفَظَهم هذه الأدعية ويعلّمهم إياها، ولم يحدد للصحابة دعاء، بل أمرهم أن يدعوا بما تيسّر، ولهذا ورد في الحديث قوله ﷺ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ على المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا له الدُّعَاءَ»[2]. ادعوا له بما تيسّر، وبما تحفظون من الدعاء، أي: من هذا ومن هذا، وادعوا له بخيرَيِ الدنيا والآخرة؛ خير الدنيا يعني: نعيم البرزخ، وخير الآخرة يعني: ما بعد البعث الجنّة وزهرتها، وكذلك ما قبلها، ادعوا له بذلك، وادعوا له بالمغفرة، وأمر الله نبيّه ﷺ بالاستغفار للمؤمنين بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

وحكى الله عن بعض أنبيائه هذا الاستغفار، فحكى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنّه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١]؛ لم يقتصر على والديه وعلى ذرّيته بل دعا للمؤمنين، وحكى عن نوح ـ عليه السلام ـ

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٣).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٦٦٢).

أنّـه قـال: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نـوح:٢٨]، فـدعا للمـؤمنين والمؤمنـات عمومًـا، يـدخل في ذلـك الأوّلـون والآخرون.

فإذًا نحن مأمورون بالدعاء للمؤمنين، والصلاةُ عليهم؛ رجاء أن تنفعهم، والصلاة عليهم بعد موتهم فيها دعاء لهم واستغفار لهم، وزيادة في أعمالهم، فيحرص على أن يصلّى على الميّت ويحرص أيضًا على كثرة عدد المصلّين؛ لأنّهم ربّما يكون فيهم مجاب الدعوة، وربّما يكون في الكثير من هو أتقى وأنقى، وهو أفضل معتقدًا، فيجيب الله دعوتهم، ويمكن أنّه مع كثرتهم يقبل الله تعالى دعوتهم، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مَيِّتٍ تُصَلِّي عليه أُمَّةٌ من المُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كلهم يَشْفَعُونَ له، إلا شُفِّعُوا فيه**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٩٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.